وردة

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء فى ماضى الحقب الى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة فيحس اذ يتلوها كأنه يحيى بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثانى وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في الملوء والفنون والآداب ويعجب لعظمتهم الحربية وانظمتهم الاجتماعية والسياسية والادارية ويستطلع مكنون اسرارهم الكهنوتية ويلم بالاسباب التى علت بهم فوق شعوب الارض طرا فى زمنهم

ابرزها من الآثار القديمة واوراق البردى الدكتور جورج ايبرس الالمانى

ونقلها الى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجزء الاول

طبع

بالقاهرة فى سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ — ١٩٢٧ ميلادية)

تطلب هذه الرواية من مترجمها برياسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣
وبالمنزل تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكتبات الشهيرة. والثمن ٣٠ قرشا صحيحاً

BOBST LIBRARY
3 1142 01199 6066

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE

* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL *

Elmer Holmes Bobst Library New York University

108385

Ebers, Georg Moritz
(Wardah)

وردة

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارئ في ماضي الحقب الى ثلاثة الاف سنة وخمسمائة فيحس اذ يتلوها كأنه يحيي بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثاني يصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والآداب ويعجب بعظمتهم الحربية وانظمتهم الاجتماعية والسياسية والادارية ويستطلع مكنون اسرارهم الكهنوتية ويلم بالاسباب التي علت بهم فوق شعوب الارض طرا في زمنهم

ابرزها من الآثار القديمه واوراق البردى الدكتور ايبرس الالماني
ونقلها الى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجزء الاول

طبع
بالقاهرة في سنة ١٣٤٥ هجريه (١٩٢٦ — ١٩٢٧ ميلاديه)

تطلب هذه الرواية من مترجمها برياسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣ ب
وبالمنزل تلفون رقم ٣٣٧٩ م ومن المكتبات الشهيرة. والثمن ٣٠ قرشا صحيحا

PT
1852
.E5
U212
1928
vol. I
c. I

PT
1851
.E5
U212
1928
v.1
OCT - 8 1986
UCLA

01199
6066

لمترجم ورده

معارج الفلاح

كتاب عصرى هو للطالب المقبل على الحياة العملية مرشده الى ميادينها وسلاحه الكفيل له بالفوز فيها ولرب الأسرة قائده الى تنظيم شؤون الأسرة وللتاجر رائده الى ترويج تجارته وللصانع هاديه الى اتقان صناعته وللقارىء بوجه عام الناصح الأمين والجليس الذي لا يمل. ثمنه ١٠٠ مليم

وسائل النجاح

كتاب عصرى يبحث فى طائفة من الفضائل التى اذا راض المرء نفسه عليها وأخذ بما احتوته من المبادىء القويمة والارشادات النافعة كفلت له الفوز فى الحياة وبلغت به الى السعادة المتمناة. وثمنه ٨٠ مليما ومجلداً ١٠٠ مليم

المرأة فى أدوارها الثلاثة

كتاب عصرى فى آداب المرأة وواجباتها وحقوقها فى جميع أدوار حياتها نحو أعضاء أسرتها ونحو غيرهم ممن تخالطهم بهم روابط المعاملات فى الحياة. ثمنه ٦٠ مليما ومجلداً ٨٠ مليما

الاقتصاد السياسى لجيفونس

هو خير مصنف فى هذا العلم باجماع الآراء لأنه يزجى قواعده وأصوله الى ذهن القارىء بدون أن يلقى عناء فى تفهمها قررته وزارة المعارف لبعض مدارسها. ثمنه ١٠٠ مليم ومجلداً ١٢٠ مليما

(تطلب هذه الكتب من صاحبها ومن المكاتب الشهيرة بالقطر المصري)

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصلياً

أما بعد فهذه هى «وردة» قد تفتقت عنها أكمامها، لامعة الزهرة رائقة النضرة متلألئة الغرة فتانة الحسن للناظرين، أهديها الى شبيبة مصر النابهة التائقة منذ سنوات الى استنشاق رياها الأرج النازعة الى الانتشاء بشميم عرفها الطيب، فقد تواردت علىّ رسائلها فى إعادة نشرها، مبالغة فى هـذا الطلب بما لم أجد معه مناصاً من الأجابة، فسلخت نحو العام فى تعهدها، تهذيباً وتشذيباً، حتى غدت بجزالة لفظها أشرف جوهراً وبحسن ديباجتهـا أجلى مظهراً وبجمال رونقها أكثر طلاوة منهـا فى نشرتيها السابقتين. ولست بكاشف اللثام عن فوائد «وردة» وما يزخر به بحر حوادثهـا القصصية من الحقائق التاريخية، فان ذلك ليس بالسر المـكتوم، وقد سطع شذاها بالنقل والترجمة فى لغات الامم المتحضرة جميعاً التى يحج أسرياؤها وعلماؤها من أقاصى العالم الى موطن حوادث «وردة» فى طيبة الأموات وطيبة الأحياء. ولـكنا اذ نتعرض لشىء من أمرها نجتزىء ببيان الظروف التى حدت بمؤلفها الفاضل الى تأليفها.

كان الدكتور جورج إيبرس مؤلف وردة من أكابر علماء اللغة المصرية القديمة ، وهو عند الالمان فى منزلة ماريت وماسبرو عند الفرنسيين . ولقد هبط مصر فى أخريات سنة ١٨٧٢ للبحث فى آثارها ، وقضى الشتاء منقبا بين مقابر الفراعنة بأطلال طيبة فوفق للعثور على بعض الأساطير المدونة فى أوراق البردى . ولما أكب على درسها لاستكناه أسرارها تراءت له بعض حقائق تاريخية لم تكن برزت بعد الى عالم البحث ، فوجدها صالحة لأن تكون اساساً وطيداً لقصة غرامية رائقة المعنى ، فوق ماتمتاز به من صفة الفائدة التاريخية الجزلة . وكان مما سهل عليه تحقيق أمنيته أنه من أفذاذ الشعراء الالمان الذين يشار اليهم بالبنان فى براعة النظم وجلال المعانى المستمدة من لطف المشاعر وصفاء العواطف ، فأعانته هذه الصفات على وضع خطة شاملة لقصته حدد فيها أقسامها وضبط حوادثها ، حتى اذا تم له الأخذ بأطرافها وارتسم فى مخيلته هيكلها عول على سبكها فى قالب التدوين والتحرير .

وكان ذلك عقيب عودته الى موطنه ، فحدث أن حال بينه ومراده ان وصوله اليها كان مقترناً بأعراض اعتلال البدن وضعف القوة ، فأشار الأطباء عليه بالراحة والامساك عن كد الفكر وإجهاد العقل ريثما يبرأ من مرضه . ولقد لبث ثلاث سنوات وصالا لايتراءى له ، وهو طريح الفراش ، سوى طيف وردة وما استشفه خلاله من قد رشيق وحسن أنيق ، واستوضحه من خصال شريفة وشيم كريمة .

وما زال هذا دأبه تلك السنوات الطوال حتى أذن الله له بالابلال من مرضه (عام ١٨٧٦). وكانت وردة قد تفتحت أكمامها فى ذهنه وارتسمت صورتها طبق ما أراد لها فى مخيلته، ومابقى الا أن يصوغها فى القالب الذى همّ بأن يفرغها فيه عند ما ثاب الى وطنه فصده المرض طول ذلك الزمن عن تحقيق أمنيته.

وكان ايبرس، فوق عبقريته فى الشعر ونبوغه فى التأليف والتصنيف، صاحب ارادة قوية وعزيمة ماضية وهمة عالية. فأنه ماترك فراش الألم والسقم إلا للقرطاس والمداد والقلم. وكانت الى جواره جنة ذات اشجار باسقة ومياه دافقة وأزهار مونقة، فانتحى من هذه الروضة مكاناً قصياً ليزجى بنفسه فى تيار الافكار والتأملات.

ومن ثمّ دبج يراعه هذه الرواية متراجعاً بالقارىء فيما انقرض من أحقاب الدهر الى تلك الاعصر التى خلدت ذكراها مدنية بان شأوها على سائر المدنيات الكبرى المعروفة وتشرف به من ثمة التاريخ فيحس، إذ يتلوها، أنه يحيا بحياة مصر لعهد رعمسيس الثانى ويرى بعينيه ويدرك بعقله معجزات تلك الحضارة فى العلوم والفنون والآداب، ويعجب بعظمتها الحربية وأنظمتها الاجتماعية والسياسية والادارية، ويستطلع مكنون أسرارها الكهنوتية وحكمتها التى ساست بها البلاد فى آسيا وافريقيا، بين حدود فارس وخط الاستواء، ويلم على الجملة بمجمل الاسباب التى علت بها فوق شعوب الارض طراً فى عصره والبواعث التى هوت بها فيما بعد الى الدرك الاسفل من الحضيض.

على أنه للوقوف على قيمة هـذه الرواية من جهة البحث العلمى الخصيب الذى ساق مؤلفها الى تدبيجها ، لا أري خيراً من أن أعرض على القارىء ماخطه بقلمه فى هذا الصدد ، قال :

« فى شتاء سنة ١٨٧٣ قضيت بضعة أسابيع فى احدى مقابر طيبة ، للبحث فى أطلال هذه المدينة العظيمة ، مدينة الأموات . وفى خلال رحلاتى الطويلة بالصحراء نبتت فى ذهنى الفكرة التى عليها بنيت هذه القصة . وقيض الله لى ، خلال مرضى الطويل ، فراغا كافياً وذهناً صافياً وقفتهما على تدبيجها وتنسيق حوادثها .

« وكنت انتويت فى مستهل الامر أن أذيل القصة بمذكرات مفصلة ، كما فعلت فى قصة الأميرة المصرية . ولـكنى عدلت عن هذه الفكرة حينما لاح لى أنها سوف تؤدى الى تكرار كثير مما وعته ، فى روايتى الأولى ، تلك المذكرات التى أردت بها أن تكون شرحا لما استعجم فهمه فى متن الـكتاب ودليلا على العناية التى حاولت أن أصور بها التفاصيل التاريخية والأثرية نقلا عن المراجع الخاصة بها ، راجياً أن يجد القارىء البحاثة فيها مايرشده فى مباحثه عن ذلك العهد ، الى معلومات أبعد غوراً وأجل خطراً .

« أما قصتى هذه ، فلى أن أجهر بأننى لم آت فيها عن مصر وعن عهد رعمسيس الكبير بمعلومات يتعذر ارجاعها إلى مصدر من المصادر . ذلك لأن الآثار المختلفة التي خلفها لنا المصريون منذ ذلك العهد القصى تمكن الباحث من الوقوف على كثير من وجوه الحياة المصرية

ونظمها . وقد أصبح من السهل تتبع تفاصيلها خطوة خطوة بل الوقوف أيضاً على كل مايتعلق بحياة أفراد معينين بالذات . ومن ثم يري القارىء أن هذه القصة ظاهرة المعنى واضحة المحجة فى جميع أجزائها وأن لاحاجة للرجوع الى شرح واقعة من وقائعها .

« واساس القصة هو حديث لهيرودتس انتهت الينا منه بعض اساطير تحملنا على التسليم بأن حكاية الخيانة التى ارتكبها النائب عن الملك والتى رواها لنا ابو التاريخ ترجع الى عصر رعمسيس الثالث ، لا الثانى ، وأنه لا شك فى ان ذلك المؤرخ لم يتصل به الخبر الصحيح . على اننى سأقدم للقارىء صورة من عصر سيزوستريس الذى وقعت فيه حوادث القصة ، مراعيا فى ذلك اظهار الحقيقة قدر الاستطاعة . ومن الحق أن أذكر أننى ، لأجل الوصول الى هذه الغاية ، لم آل جهدا فيما يمكن البحث عنه من الآثار واوراق البردى . ولما كانت هذه الرواية من باب القصص والخيال الشعرى ، قبل ان تكون بحثا تاريخيا ، فقد جعلت لتصوير اشخاصها ووصف عواطفهم ومشاعرهم المختلفة المحل الأول ، ولم تكن للحقائق التاريخية فيها غير أهمية ثانوية .

« ولدى ملحوظة أخرى ، وهى اننا اعتدنا لدى دراستنا الفن المصرى القديم ان نتخيل سكان وادى النيل فى زمن الفراعنة قوما طوال القامة نحيلى الجسم ، وأن ليس بين أفرادهم فروق أو مميزات . وهذا راجع لما كانت تستدعيه أصول الفن المصرى القديم من ضرورة التناسب والتماثل فى جزئيات معينة . ولكن خطأ هذا التخيل ظاهر

من أن المصريين كانوا من أرقى الشعوب القديمة وأنشطها، ومن أن اتصالهم بغيرهم من الشعوب كان ضربة لازم، فمن الخطأ تمثيلهم فى احوالهم المعيشية بما يمليه علينا مرأى تلك الاوضاع المنقوشة على جدران هيا كلهم ومعابدهم. فأن الأوضاع انما تعمد منشئوها إبعادها عن مواطن الحقيقة بقدر ما أرادوه من المحافظة على أصول التناسب والتماثل المقدسة عندهم، وأن على من يريد التزام جانب الصدق فى تصوير قدماء المصريين ان يحل تلك الأوضاع التقليدية من القيود الخاصة بفنهم والتى هى بعيدة كل البعد عن حقيقة حياتهم. وهناك بعض الآثار من عهد الهرم الأول تمثل القوم على حقيقتهم دون التقيد بالقيود الدينية المقدسة. ومن السهل ان نستعيد لذاكرتنا تمثال « قاضى القرى » المعروف بتمثال شيخ البلد والموجود فى المتحف المصرى، وتمثال « الكاتب » الموجود فى متحف باريس وتماثيل أخر مصنوعة من البرونز فى متاحف متفرقة، فأنها جميعا تنطق بعظم الفروق الجثمانية بين أفراد المصريين القدماء وما يتبع ذلك من الفروق الخلقية. وهنا يظهر جليا واجب الكاتب الذى يريد تصويرهم، فأن عليه ان لا يتردد فى الأخذ بما يراه فى حياة أناس العصر الحاضر وأحوالهم بل أن ينتحل من صفات من يعيشون حوله نماذج واضحة لحياة اولئك القوم. ولا خوف عليه من أن يحيد بعيدا عن الحقيقة فى تصويرهم، اذا هو ألبسهم روح العصر الذى عاشوا فيه.

« وقد وضعت هذا الرأى نصب عينى عند ما أبرزت وردة الى

حيز الوجود . وهاءنذا أقدمها للعالم مسدياً أجزل الشكر لأصدقائى الاعزاء الذين جددت بينهم نشاط روحى ووجدانى فى مقامهم الجميل المكسو بالخضرة السندسية والمجمل بطيور الغابات حيث أخط الآن آخر كلمات روايتي »

هذه هى الكلمة التي صدر بها المؤلف روايته عند ما أتم كتابتها فى أواخر سنة ١٨٧٦ ـ ومنها يتبين القارىء ان القصة ليست من قبيل الروايات التى ترمى الى التسلية وترويح النفس فحسب ، بل ان لها غرضا اسمى وأبلغ ، وان لنا نحن المصريين فى نهضتنا الحاضرة ان نتخذ منها عبرة وذكرى اذ نتبين من خلال حوادثها الطلية ما كان لنا منذ فجر التاريخ من شأن عظيم بين الامم وجاه طويل عريض فى أرجاء الأرض فنعمل على أن يكون لنا منه ما ينهض بنا الى أسنى المعالي وشرائف الرتب ان شاء الله .

بيان

لصاحب الامضاء

أحسن القصص صحيحه وموضوعه ما بنى على التاريخ أو على حوادث وأشياء لا يأبى العقل على الكاتب نسبتها الى زمان معلوم ومكان معلوم وأمة معلومة .

ومن القصص الموضوع ما يراد به تعليم التاريخ بالذات فى صورة التفكهة ، بحيث تقرب مطالبه البعيدة الى الأذهان . وأجل ما كتب توخيا لهذا الغرض فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر قصة (وردة) للعالم النحرير ايبرس الألمانى . ضمنها كل ما يروق ذكره ويستغرب أمره من أخبار مصر لعهد رعمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة مدرجاً فى حواشى قصة ملفقة تأخذ بالألباب لحسن سبكها وجلال حكمها وتنقل حوادثها من عجيب الى أعجب فجاءت مرضية للعالم معلمة للجاهل سائغة المشرب للجميع .

على أن كثيرين من القصصيين قد حاولوا أن يتحدوا إيبرس فأخفقوا سعياً وانتثرت أوراق كتبهم لأهمال الناس لها كانتثار أوراق الأشجار التى لا تتعهد سقياً وتربية فتكسو منبتها بساطاً أصفر ذابلا، ولم تسلم فيه الا (وردة) فهى لم تزدد على الأيام الا زهواً ونضارة.

ولا مشاحة فى أن تقدم علم الآثار المصرية منذ نيف على عشرين سنة قد أفضى الى نقض أمور كثيرة مما كان العلماء يعتقدونه لعهد صدور (وردة). غير أن ذلك لم يتناول الا بعض الأعراض أما الجوهر فسليم يصح أن يعول عليه من يريد مطالعة سيرة عصر من أعظم عصور الأمة المصرية، بما اجتمع فيه من الدلالة على ماضيها الفخيم والاشارة الى مستقبلها الوخيم تحت نير الرق وفى ظلام الطاعة المبنية على جهل ما يحق للانسان وما يجب عليه، حاكما كان أو محكوماً، فى دينه ودنياه.

قرأت (وردة) باللغة الفرنسية منقولة عن الألمانية ولم يدر فى خلدى أن أقرأها يوماً بالعربية، فلم يلبث القدر أن أتاح لى رؤية عنوانها فى المؤيد فتتبعتها فصلا فصلا الى نهايتها، فكنت اذا أمعنت فى الموضوع الذى اقرأه محيت الحروف من أمامى وزالت الصحيفة وهبط ستار الماضى، ورأيت طيبة الأحياء شامخة القصور بجانب طيبة الأموات باذخة القبور، هذه تزدحم بالأقدام وتعالى فيها غمغمة الأصوات بما لم تشهد مثله الشمس فى ذلك الزمان ولم تسمع مثله أذن انسان، وتلك ساكنة نائمة يلقى عليها القمر نوره الوسنان فترسل مقابرها الظلال

الضخمة الى أقصى ما يحيط به العيان . هـذه تمثل اجتهاد الأحياء وتنازع الطبقات وتلك تمثل سلام الرفات وتآخى الأموات .

ثم رأيت ما كان من مطامع ملوك ومظالم ولاة ودسائس كهان وتحمل قوم صبر ذلل ، كالنياق التى تركب الى الرزق مرة والى الحرب أخرى ، الى ما يماثل هذه المشاهد التى لا يحيط بها الا قلم كاتب بليغ أو رسام متفنن .

ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية ، بما طبعت عليه من التزام الوصف الحق ومن التباعد عن الخيال الا بقدر ما يستطاع معه تجسيم المعنى الخفى فى شكل مألوف ومن تصوير حركات النفس فى كل حال من أحوالها ، أطوع بكثير من لغتنا لأغراض الكاتب فيها وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار ، بحيث اذا أراد أديب منا أن يحتذى مثالها فى ذلك ، جلّ ما يعانيه وبعدت عليه الشقة فلم يتسن له ادراك أمنيته الا اذا كان مجيداً عارفاً بأسرار اللغة مفلول رأس القلم رياضة ومراسا . فالذى سرنى فى وردة من هذا القبيل اننى قرأتها عربية كأنى أقرأها فرنسية وعجبت لما أوتيه معربها الفاضل من الذكاء والاقتدار وملكة الانشاء الجامعة علما الراسخة متانة اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة فيها .

ولست هنا فى مقام مدح وثناء ، فان صلتى بصديق مسعود تقضى على بالجرى معه على القاعدة التي مقتضاها أن يكون حكم الأخ اعجاباً بأخيه حكم الاسير المقيد بيده ولسانه . فليكن ختام ما

أذكره عن كتابه حث كل مصرى على اقتنائه . فأنى فلما وجدت أحداً من ولاء الاخوان الكرام واقفاً على تاريخ بلاده ، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الاجانب الذين عانوا أتعب المتاعب فى جمعه له واهدائه اليه .

وانه من الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها لا تدرك حاضرها ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها .

هذه وردتنا ، فعلينا أن نتمتع من شميم عرفها ، وإلا فلا عطر بعد وردة ، ولا أمة مع جهل ، وما أجدر طيبة الاموات أن تكون عبرة لطيبة الاحياء !

خليل مطران

﴿الفصل الاول﴾

— ﴿وصف مدينة طيبة فى ليلة صيف من سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد﴾ —

يجرى النيل بالقرب من مدينة طيبة ذات المائة الباب بين جبلين من الرواسى الشامخات ، ينعكس خيال ذراهما العالية وسفوحها المنحدرة على صفحة مياهه اللجينية ويختال فى مشيته وسط الوادى المحصور بينهما اختيال العروس فى ثوبها الخزّ ليلة عرسها ، بين غادتين من صويحباتها .

وتمتد الصحراء فيما يلى الجبل الشرقي إلى حيث تتكسر بسواحلها أمواج البحر الأحمر ، وتترامى الفلوات الجرداء خلف الجبل الغربى إلى أقصى مدى تدركه الابصار . وفيما بين هذين الحاجزين تنساب مياه النيل حاملة فى قطراتها عناصر الخصوبة ومواد الخير الوفير الذى يدور عليه محور حياة ألوف الالوف من النفوس ، وما الابليز إلا الذهب الابريز .

وفيما يلى حافتي النهر يمنة ويسرة تنبسط الارض صعيداً ، مهدتها يد القدرة تمهيداً . وفى مائه العذب الفرات تغدو وتروح ألوف الأحياء المائية ، على اختلاف أشكالها وتباين أنواعها ، ومنها التمساح الهائل الجثة فاغراً فاه على الدوام . وفوق أغصان البردى اتخذت الطيور أوكاراً وملأت جوانب الفضاء بتغريدها اللطيف . وعلى السطوح الممهدة من

الارض تترنح المزروعات بمعاطفها اللينة على قوائمها اللدنة فيخالها الرائى لاتصالها بعضها ببعض ، بساطاً غير متناه من السندس الاخضر . وفى جهات أخرى تدور عجلات النواعير بقرب أشجار الجميز التى يشعر الجسم فى ظلها بطراوة المياه المتدفقة منها ، فترتاح النفس وينشرح الصدر وينكشف الغم .

فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يرى الانسان ، حوالى مدينة طيبة عاصمة ملك الفراعنة ، هذه المناظر البهيجة فيعجب من عنايتهم بتنسيقها وتعهدهم إياها بما يوجب دوام بهجتها . فانهم أقاموا بينها وبين النيل السدود الضخمة لحمايتها من طغيان مياهه فى أوان الفيضان وقسموها إلى أحياء خصص أحدها ، وهو الذى يلى النيل من جهة السدود ، للمعابد والهياكل المشيدة على أجمل هندام والثانى لقصور الملوك والأمراء والثالث لمنازل الاهلين والعامة . وكان ماء النيل يجرى بين هذه الربوع العامرة فى سراديب ومسارب يحار العقل فى وصف تشعبها وانعطافها وحصر عددها . وكانت الطرقات التى تتخلل هذه المبانى الفخمة والقصور الباذخة لا يكف الناس عن الغدو والرواح فيها ، فكانت حركتها الدائمة من دلائل توافر شروط الحياة فى تلك المدينة الجميلة .

وتجاه مدينة طيبة ، على الضفة الغربية من النيل ، كانت تناغى السماء مبان سامقة منجدة متناء بعضها عن البعض الآخر ، تحف بها أكواخ حقيرة كما يحف الاطفال بأمهاتهم . وكان الناظر اليها من

قنة الجبل يخيل له أنها مقاصير الأمراء ودور الاغنياء تحيط بها قرى الفلاحين ، أو من عرض السهل بدت لناظره منها أبواب متصل بعضها ببعض على خطوط مستقيمة متوازية . فكان اسلوب المبانى ونظامها وتشعب الطرقات بينها وحركات السكان فيها غيرها فى مدينة طيبة . فهنا ترتاح النفس لحسن النسق وجمال الهيئة وازدحام الناس فى طلب الرزق ومزاولة الاعمال وسماع جلبة الغادين والرائحين وضحك الضاحكين وغناء المسرورين وتبتهج لوفرة دلائل الحركة والحياة وبواعث الفرح والانشراح ، وهناك تنفر من قبح المنظر وعدم التناسق وقلة السكان ويترا كم لذلك عليها العناء ، فلا غرابة إذا لقبت هذه بطيبة الاموات وتلك بطيبة الاحياء .

على أنه بالرغم من هذا السكون المحزن كانت لا تمر هنيئة إلا ويطرق الآذان فيها صدى الالحان والاناشيد تردده الآفاق من بعيد ، وينحصر فى مجال النظر ومطارح أشعة البصر مشهد المئات من الزوارق يتلو بعضها البعض مزينة بأجمل ما يلفت الابصار من ضروب النقش والزخرف ومتجهة صوب الجبل فى مظهر مؤثر من الخشوع والشجو . ولكن لم تكن تلك الاغانى إلا مراثى وهذه المواكب إلا مراكب تقل جثث الموتى إلى حيث توارى عن العيون ، فانا لله وإنا اليه راجعون . نعم إن منظر طيبة الاموات يشجى النفس ويؤلم القلب لأن السكون نشر عليها أجنحته ، إلا أنها كانت لا تخلو من حركة تجارية فيما تستوجبه حالة الموتى من مقومات العناية بهم . فقد عرف المصرى

فى العصور الخالية باعتبار الموت طوراً من أطوار الحياة وأن الاموات أحياء لا محالة على حد قول بعضهم :

قل لاخوان رأونى ميتاً ... فبكونى إذ رأونى حزناً
أتظنون بأنى ميتكم ... لست ذاك الميت والله أنا
أنا عصفور وهذا قفصى ... كان سجنى وقميصى زمناً
لا ترعكم هجمة فما ... هو الا نقلة من ههنا
لا تظنوا الموت موتاً انه ... لحياة هي غايات المنى

يحتضر المصرى فيطبق آله جفنيه ويرسلون جثته إلى المحنط فيعالجها بمضادات العفونة ، ثم ينقلونها إلى شاطىء النيل فالقبر المعدّ فى الجبل لدفنها، ويقومون بعدئذ نحوه بسائر الفروض الجنازية . ولكنهم يعتقدون أن الروح إذا زايلت الجسم تبقى على قيد الحياة وتوشك أن تحل فى صور شتى أو تجيب دعوة اوزريس إلى مصاحبتها إياه فى سفينة الشمس أو تهبط الأرض لمشاطرة الأرواح نعمة القيام بأجساد الاحياء . ولقد رسخ هذا الاعتقاد فى أذهانهم رسوخاً جعلهم يضاعفون العناية بتحنيط جثث الموتى لصونها من الفساد عملا بالاصول القاضية بتقديم القرابين عنها من اللحوم اللذيذة والروائح الزكية والازهار النضرة والفواكه اليانعة .

وكان لا يحتفل بدفن ميت ولا تقدم بعد وفاته القرابين للتكفير عن سيئاته إلا على أيدى الكهان . ولذلك كانت طيبة الاموات محط رحال العلماء وسدرة طلاب العلوم العالية . وكان لهم فيها بيوت يقيمون

بها حول الهياكل ، كما كان لطائفة المحنطين الذين يتوارثون اسرار صناعتهم عن الآباء والاجداد منازل خاصة تحيط بمعامل التحنيط . وكانت الصناعات بها تنحصر فى عمل التوابيت من الحجر أو الخشب ونسج الأكفان التى تدرج فيها جثث الموتى ورسم صور الأحجبة والطلسمات الواقية من المكاره ، كما كانت التجارة بالحوانيت وعلى أعطاف الطرقات مقتصرة على صنوف الازهار والفواكه والروائح العطرية والفطائر المقدسة .

وكان من العادات الشائعة أن يتعهد زوار المقابر ما يقدمونه من ألوف الحيوانات ، قرباناً باسم الموتى كالبقر والماعز والغزلان والأوز ، بالعلف اللازم ، ثم يأتى الكهنة فيختارون منها ما يقدرون على تطهيره من الدنس ويسمونه بالميسم المقدس ثم يستاقونه إلى المعبد للقربان . وكان العاجز من عامة الناس وغوغائهم عن اقتناء ماشية يقربها باسم موتاه يشترى من القصاب قطعة لحم أو حيوانات مصطنعة من دقيق الحنطة ومبرقشة بالألوان الزاهية لتقوم مقام الحيوانات الحية التى يقربها الاغنياء والكبراء .

وكان اتباع الكهان يبيعون فى حوانيتهم المزخرفة ملفات من ورق البردي المسطر فيه بعض الدعوات المقدسة ، توضع مع الموتى فى قبورهم لتعاونهم فى ظلامها الدامس على الخلاص من حبائل الشياطين ويستفتحوا بها أبواب السموات السفلى حيث يجلس أوزريس على منصة العدل وإلى يمناه ويسراه اثنان وأربعون قاضياً يتألف منهم مجلس العدل

فى باطن الارض .

وكان الاهلون يجهلون ما يقام فى الهياكل من الطقوس الدينية فقد أحيطت بسياجات عالية ذات أبواب لا تفتح إلا للكهان ، كلما خرجوا فى شروق الشمس وغروبها إلى الخلوات أفواجا متتالية ، يترنمون بالاناشيد الدينية تعظيما للالهين هوروس وطوم[1] .

وكانت المقبرة ، عند الفراغ من ترنيم المساء ، تخلو من الغادين والرائحين . لان زوار القبور كانوا ، متى انقطعت أصوات النشيد يسرعون بالفيئة إلى الشاطىء حيث تنتظرهم الزوارق فيستقلونها إلى طيبة الاحياء وكانوا يتسكعون أحيانا فى الطريق فيطاردهم الحراس المنوط بهم حراسة القبور ووقايتها من عيث اللصوص فيهرولون جماعات وشتى إلى ضفة النهر ويتهافتون على استقلال زوارقهم للعودة إلى منازلهم .

وكان التجار يغلقون حوانيتهم والمحنطون يرجعون إلى أكواخهم الحقيرة والكهان يوصدون أبواب الهياكل والاجانب الذين اقبلوا من الانحاء القاصية لزيارة موتاهم ينزلون بالفنادق ودور الضيافة المشيدة على ضفة النيل ، مؤثرين التماس الراحة بجوار الموتى على عبور النهر لقضاء الليلة فى طيبة الاحياء التى لا تلبث جلبه الناس فيها أن تمحو من النفوس ما انطبع فيها من الاثر المحمود خلال ، زيارة القبور .

خفتت أصوات المرتلين وانقطعت ولولة الثكالى وسكتت نوتية

---

(١) يشبه قدماء المصريين حياة الانسان بالشمس فى مسيرها ، فشروقها رمز للطفولة وتسمى فيه « هوروس » وبلوغها الاوج رمز للفتوة وتسمى عنده « رع » وأفولها رمز للشيخوخة والهرم وتسمى فيه « طوم »

الزوارق بعد إذ كانوا يملأون الفضاء بنشيدهم المنضود وغنائهم المعهود وكان النسيم بعد ذلك يحمل إلى السامعين صدى أصوات بعيدة ، ولكن لم تمض هنيئة حتى نشر السكون أجنحته فوق ذلك المقام ، دليلا على أدبار جيش النهار أمام جيش الظلام .

وكانت طيبة الاموات فى هذه اللحظات كقفر لاديار فيه ولا نافخ نار ، يكدر صفاء أديم سمائه خيال الخفاش يلتمس بتحليقه فيها ضفاف النيل ، فاذا ما بلغ اليه وارتوى بمائه العذب الفرات عاد إلى وكره فى حنايا القبور وزوايا الصخور .

وربما شهدت العين أحياناً ظلال أشباح تمر على الثرى مرور الطيف ، فاذا بها ظلال بنات آوى تتسلل إلى النهر بحركتها المعروفة يتبعها أمثالها ، ثم تعود اسرابا شتى للوثبة على الأوز والماعز وما اليهما من الحيوانات التى أودعها أقارب الموتى الحظائر المسورة للتقرب بها إلى الآلهة تكفيراً عن ذنوب موتاهم .

ولم يكن أحد ليجسر على صدّ تلك الضوارى عن هذه الحيوانات الداجنة الأليفة ، لأن الديانة المصرية كانت تحرم مطاردتها بحجة أنها قد فازت بالقربى من الاله أنوبيس حارس القبور وحافظ الموتى من عبث الاشقياء والنباشين والمرشد لارواحهم فى الآخرة ، ولأنها كانت إذا امتلأ بطنها بما تجد بجوار القبور من لحوم القربان لا تمس بأذى أحداً من سكان طيبة على الاطلاق .

وكان اقارب الموتى ، إذا زاروا القبور فلم يجدوا بجانبها لحوم

القرابين ، يطيرون فرحاً ويتهللون بشراً لاعتقادهم أن آكليها إنما هم أرواح موتاهم ، فيبادرون بتقريب غيرها وهكذا . وكان لا يعلم الحقيقة إلا الكهنة الذين توسلوا ببنات آوى لجلب القرابين واتخذوها حارساً أميناً للقبور ، فكانت تناهض النباشين كما يناهض الكلب الامين من يريد الغدر بصاحبه .

* * *

أسلفنا أنه فى تلك الليلة من ليالى صيف سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد كان السكون قد خيم على طيبة الاموات حين أتم الكهنة ترتيل أناشيدهم وعاد الحراس إلى مساكنهم ، بعد أن جاسوا خلال الديار وطافوا بالقبور واطمأنت قلوبهم لغياب الدخيل . ولكن لم تمض بعد ذلك ساعة حتى سمع من شمال المقبرة هرير كلب من كلاب الليل لم يلبث أن انضم اليه ثان وثالث ورابع وتضاعف العواء ، فهب رئيس الحرس من مرقده ونادى برجاله هلموا نستطلع الخبر . وبعد أن عين مصدر النباح أمرهم بالمسارعة اليه ، فساروا . وكانوا كلما دنوا من المكان علا الهرير فما زالوا يقتربون حتى وصلوا إلى ربوة رأوا من أعلاها جهة الضوضاء فانقضوا كالاسود الكاسرة وسارعوا اليها فوجدوا الكلاب النابحة على مقربة من أعمدة هيكل سيتى الاول بن رعمسيس الثانى صاحب البطش والقوة ، القابض فى ذلك الوقت على زمام الاحكام فى مصر .

* * *

وكان القمر قد علا على الافق وأنفذ أشعته اللجينية إلى جميع المطارح

فأنارت قمة ذلك الهيكل المنجد وتراءى للأعين وقتذاك جمع حاشد من العبيد وقوفاً بجوار جدرانه الوثيقة وبأيديهم المشاعل يتصاعد منها الدخان كثيفاً، وخلله وميض النار. وكان رجل قصير القامة بدين الجسم مزركش الثياب مهيب المنظر يدق بمقبض سوطه باب الهيكل، وطائفة من الحشم والخدم حوله، وعلى مقربة منها محفة مرفوعة على الاعناق وفيها امرأة، ثم مركبة يجرها اثنان من الجياد الصافنات تحمل غادة هيفاء القد بارزة النهد، وإلى جانبها رجل تبدو عليه آيات المجد والشرف، وقد التزموا الصمت جميعاً بينما كان ذلك الواقف بباب الهيكل يطرقه بمقبض سوطه فيردد الجو صدى طرقاته الشديدة.

وكان الوقوف متجهين جميعاً صوب باب الهيكل المقدس، لا يستطيع أحد أن يميزهم بعضهم عن بعض لاضطراب الضوء. فلما أطلّ بواب الهيكل من الكوة التي تعلو الباب تمكن بضوء القمر والمشاعل من معرفة أن الطارقين من أصحاب المراتب الشريفة والاقدار العالية، وأنهم ربما كانوا من أعضاء الاسرة المالكة، فسأل الطارق عما يريد. فرفع هذا رأسه رويداً رويداً وقال بصوت جهوريّ فزع الواقفون منه وانتفضت لسماعه المرأة التي فى المحفة: حتى مَ ننتظر بالباب أيها الكلب الكسول.. انزل أولا وافتح الباب ثم تكلم.. وإذا لم يكن ضوء المشاعل كافياً لتستوضح من نحن، فسيكتب لسان هذا السوط اسماءنا على ظهرك فتعلم كيف تستقبل الأمراء.

فهبط الرجل وتبرطم متلعثماً بكلمات لا يفهم معناها والتفتت السيدة

التى فى المركبة إلى رفيقها الطارق على الباب وقالت له بصوت خافت : أنسيت يا (بعاكر) أنك بمصر وأنك لا تخاطب متوحشى الشازوس (١) بل كهنة يجب لهم الاحترام ، لا سيما وأننا جئنا إلى هنا فى طلب معونتهم ونجدتهم ؟ . . لقد تواترت شكايات الناس من غلظ كبدك وخشونة طبعك وكان لزاماً ، إذا كانت الأساءة ديدنك ، أن تعدل عنها هنيئة حتى نقضي الحاجة التى لأجلها طرقنا هذا الباب .

فاهت الأميرة بهذه الكلمات بصوت كان له فى قلب بعاكر أشد الوقع ، فانحنى أمامها اشعاراً بالطاعة والخضوع ، ولكن عقارب الغيظ دبت إلى قلبه فرفع بالسوط يده وألهب به أحد الحبشان الواقفين إلى جانبه ، فتلوّى جسمه تلوّى الثعبان ولم يسمع أحد له أنيناً لعلمه بطباع مولاه وأنه لو أنّ أو شكا لأشبعه ضرباً وأوسعه هماً وكرباً .

وما فتح باب الهيكل حتى برز منه كاهن فى مقتبل العمر تدل هيئته على الرفعة وسمو المكانة واستفسر من القوم عن سبب حضورهم إلى هذا المكان أثناء العبادة . فتحفز بعاكر للكلام ، ولكن ابنة الملك خشيت أن يبتدر الكاهن بغليظ اللفظ فقالت : أنا (بنت أنات) كريمة رعمسيس وهذه الجالسة فى المحفة (نيفرت) قرينة (مينا) الراسخ فى الحسب والنسب وأحد أعيان المقربين من والدى . . وقد كنت سائرة فى هذا الجمع بالوادى الممتد غربىّ المقبرة اتفقد الأعمال ، ففى العودة صدمت مركبتى فتاة رائعة الحسن كانت تحمل وردا نضيراً يشبه

---

(١) قبائل شرق مصر وكانوا معروفين وقتئذ بالسلب وقطع الطرقات

خديها فانكفأت على الأرض وأصيبت بجرح أخشى منه الخطر على حياتها . . ولقد عنيت نيفرت بأمرها فضمدت جراحها ثم نقلناها إلى بيت أبيها (بينم) من عمال المقابر الذين يشقون جثث الموتى ليحنطوها .

سأل الكاهن : وهل دخلت داره الحقيرة أيتها الأميرة؟ فأجابت : لقد كان هذا واجباً تفرضه عليّ مقتضيات الحال . . ولست أجهل أن من يدخل ديار هذه الطائفة يدنس نفسه ولكن . . . فنهضت نيفرت من محفتها وقالت : قد تطهر بنت أنات من الدنس على يدك أو على يد أحد كهان هذا الهيكل . . أما ذاك الرجل فيبقى طول حياته تعساً منحوساً إذ قد لا تشفى ابنته من جرحها الخطير فيقضي بقية أيامه فى لهف عليها وشقاء .

قال الحاجب (بنبيزا) من رجال تشريفات الأميرة وخاصة المقربين منها : تبينت فى طليعة الأمر أن غشيان دار المحنط يلحق الدنس بداخلها ، فلما أبصرت بينت أنات مصره على دخول هذا الوكر اللعين الملوث بالأدناس بذلت فى نصحها كل مجهود ألا تدخل وأشرت عليها بالاقتصار على نقل الفتاة اليه واتحاف أهلها بهدية ملكية سنية تكشف عنهم الغمة ، فأبت إلا أن تنفذ إرادتها . قالت بنت انات بصوت يكاد لا يسمع : الحمد للآلهة على ما قدرته وقضت به . ثم تحولت إلى الكاهن وقالت : أيها الاب الجليل . . لقد علمت قضاء الآلهة وما جبلت عليه من الشغف بمساعدة الفقراء والمتكوبين وها أنذا قد يممت اليك راجية مبتهلة فرفع الكاهن يده اليمنى وقال : أحسنت أيتها الأميرة صنعاً وتقى

بأن هاتور[١] هي التي بثت في قلبك الحنون عواطف الرفق وأودعته آيات الحقيقة . وبعد أن سكت هنيهة قال : لا شك انك جئت إلى هنا في طلب طبيب لعلاج الجريحة . أجابت : نعم . فقال : سألتمس من رئيس الكهنة أن يكلف طبيباً ماهراً بمداواة الجراح ، ولكنني أجهل مكان بيت المحنط فأين هو ؟ قالت : بحرى بيوت حتاسو[٢] وعلى مقربة من . . على أنني سأترك هنا أحد رجال حاشيتي ليرشد الطبيب إلى دار الجريحة . ثم التفتت إلى بعاكر وقالت : أرغب الوقوف على حالة الجريحة قبل شروق الشمس فلا تنس ذلك يا بعاكر .

فتقدم بعاكر نحوها في احترام وخشوع مستفسراً أمرها ، فقالت : أكلفك بمرافقة الطبيب الذي يعين لعلاج الفتاة وإرشاده إلى دار أبيها ومن الهين ، على ما أعتقد ، قيامك بهذه المهمة ، فقد سبق لك أن جست خلال أحياء طيبة الاموات ، ولا تنس أنك شريكي فيما لحق الفتاة من الأذى . قالت هذا ثم تحولت نحو الكاهن قائلة : أما أنت فسأشرح لك أسباب الحادث الذي أحزن فؤادي وأقلق راحتي . . كان بعاكر كثير المفاخرة والمباهاة باصالة جياده الشامية زاعماً أنها أسرع من جيادي المصرية فأنكرت عليه حكمه الذي اليه ذهب وطلبته إلى المسابقة لاقناعه بفساد هذا الحكم ، فلما أجابني إلى طلبي كان ما كان

---

(١) هاتور هي ايزيس في حالة تصويرها تصويراً محسوساً وكان قدماء المصريين يعتقدون انها الهة الانوار السموية والحاملة لقرص الشمس بين قرني أحد الابقار وكانوا يلقبونها بذات الوجه الساطع الذي تنبعث منه أشعة مسرات الحياة وأفراحها

(٢) كانت وصية على ثاني فراعنة مصر وهي من ملوك الاسرة الثامنة عشرة

مما أثار الأحزان والاشجان . قال رئيس التشريفات : الحمد لآمون ان لم يستفحل الخطب ويعم الكرب ، وان وقف المصاب بعد جرح الفتاة عند تحطيم مركبة بعاكر وإصابة جواده الشامي بجرح بالغ . قالت الاميرة : سوف يهتم الطبيب بتضميد جراح الجواد بعد ذهابه إلى بيت بينم . . وهل تدرى يا بنبيزا ، فهرمانى أنا الفتاة الطائشة ، ان هذى أول مرة سرّنى فيها اشتغال الملك أبى بمحاربة الاقطار البعيدة ؟ أجاب رئيس التشريفات : لو أن جلالته كان هنا للقينا منه ما لا نود . وبعد برهة انقضت فى سكون صاحت بنت انات ببعاكر سائلة : أين الاطباء . . أين الاطباء يا بعاكر ؟ لقد عهدت اليك ارشادهم إلى دار الجريحة ومبادرتى بشرح حالها فجر الغد .

وما أشار بعاكر برأسه إشارة الطاعة حتى أمرت بنت انات ركبها بالمسير . وقبل أن يتحرك دنا منها الكاهن وبسط على رأسها يديه ليبارك فيها فما أتم صلواته الطيبات ودعواته المباركات حتى أخذ الركب يسير حثيثاً نحو ضفة النيل وظل بعاكر واقفاً بين عبدين يشيع نيفرت بنظرات الحسرة على فراقها .

وما برح يستشرفها ويمد بصره اليها حتى توارت خلف حجاب الظلام ، فانشأ عندئذ يفكر فى منزل بينم ويناجى نفسه سائلا عن موقعه من طيبة الأموات . وكان رئيس الحراس وأعوانه الذين استدرجهم نباح الكلاب إلى هذا المكان وقوفاً صفوفاً فسألهم عن بيت المحنط ، أجاب الرئيس : وماذا تريد منه ؟ فقال بصوت المستبد المتجبر : وما شأنك

يا هذا حتى تستفهم عنه ؟ فأخذ الرئيس يحد البصر إلى رجاله محملقاً فيهم حملقة الغاضب الساخر وقال : هلموا تحدر من الشمال إلى الجهة التى زايلناها . فتصلف بعاكر متغيظاً مما أبداه الرجل من قلة الاكتراث بأمره واغفاله القيام بمفروض الاحترام له ، وصاح بالحراس : ان قفوا فانى قائد طليعة الملك . فقال رئيس الحرس : إذا كنت تريد بيت بينم فاطلبه من الطريق التى جئت منها . . . إلى الأمام أيها الجنود ! . .

ما كاد رئيس الحرس ينوه بآخر كلمة حتى طرق الاسماع ضحك أغرب فيه الضاحكون على وجه أخجل بعاكر حتى هوى سوطه من يده دون أن يشعر ، فالتقطه العبد الحبشي الذى ضرب به منذ برهة واقتفى أثر مولاه الذى كان قد سبق إلى الهيكل لتبين أسباب الضحك والتنكيل بالضاحكين .

وكان حارس أبواب الهيكل الذى أبدى رئيس الحراس أمامه ضروب الجرأة والتبجح ملما بسر الضحك ، فتقدم رويداً نحو الباب المفضى إلى صدر الهيكل مستتراً بالظلام . وبعد أن طرقه مراراً بعصاه الطويلة صاح : يا أولاد (ست) ياصيد المشنقة وقنص جهنم هلموا ابرحوا هذا المكان من غير توان . فانقطع الضحك فوراً وما هي إلا فترة من الزمن حتى انساب سرب من الاطفال يتبعهم ذلك الشيخ بعكازه ثم دخلوا المكان الاول من احدى النافذات ، فعاد الشيخ الحارس ممسكا بأذن صبي نيفت اعوامه على الثلاثة عشر وقال له ولزملائه : سوف اخبر استاذكم بقبيح فعلكم وذميم خلقكم ، أيها الجراد المنتشر .. أيها الخفافيش القذرة

الضارية أيها الوحوش . . أيها النسل الشقي والذرية الشريرة ! . .

وبيان الحادث أن أطفال المدرسة رأوا باب الحبس الذى حبسوا به مفتوحاً فأفلتوا منه وانطلقوا يضحكون ويلعبون ويسخرون من الشيخ حارس الابواب فقبض على أكبرهم سناً ، وهو ذلك الصبي وأخذ يعرك أذنيه بين إبهاميه وسبابتيه : وما رضي أن يخلي سبيله إلا بعد أن أمسك الغلام بلحيته مستميحاً منه العفو ، واعداً إياه بالنبيذ الذى ترسله اليه والدته كل اسبوع . ولكنه قال له وهو يجرى واضعاً يديه على أذنيه من شدة ما نابهما من الألم : لست أغضى على فعالكم الذميمة وحيلكم الكريهة ، أيها التلاميذ . كلا وأنكم لتجهلون حقيقتى . . لقد انتويت الا اشكوكم إلى الاستاذ بل إلى الآلهة . . أما نبيذك أنت أيها الغلام فخليق بك أن تقربه إلى مقامهم الاسنى ليصفحوا عن زلتك ويتجاوزوا عن خطيئتك .

﴿الفصل الثانى﴾

بنطاؤر الشاعر

كان الهيكل الذى برح الكاهن فناءه لاستدعاء الطبيب وظل بعاكر ينتظره فيه حتى يعود هو بيت سيتى الذى لا يعدله فى انفساح الجوانب وترامي الاركان غير هيكل تحوتمس الثالث الذي أقام امينوفيس الثالث عند مدخله تمثالين عظيمين يسمى أحدهما ممون ، وكان بيت سيتي بناء ممرداً وصرحاً منجداً بلغ من الاحتفال بتنميقه ما لم يجاره فيه هيكل من هياكل طيبة الاموات . وقد بدأ بوضع آساسه رعمسيس الاول لما اغتصب صولجان الملك وجلس على عرشه . وأتم بناءه من بعده سيتى الاول واليه نسب . وكانت تقام فيه الصلاة على أرواح الموتى من الاسرة المالكة والاسر العريقة فى المجد والحسب وتعقد به الحفلات علانية ، اجلالا لآلهة السماء السفلى .

ولقد أجرى الملك عليه الارزاق الوافرة وخصص لمعهده الدينى الكبير والمدارس الصغرى التابعة له المرتبات الجزيلة ، وعني بأنشاء هذا المعهد ومدارسه على مثال معهدي عين شمس ومنفيس ومدارسهما ، ليتوافر الطباق فى منافسته إياهما فى ميادين العلوم والمعارف ، رجاء أن تتفوق طيبة عاصمة مصر العليا وقتئذ على مدائن مصر السفلى التى كانت لذلك العهد مركز دائرة العلوم ومنبعث أنوار العرفان .

وكانت مدارس بيت سيتى تمتاز على نظيراتها[١] بالمعهد الدينى العالى الذى كان يتلقى فيه نجباء الطلاب علوم الدين والطب والحقوق والرياضة والفلك والنحو وغيرها، على علماء برزوا فى هذه الفنون واشتهروا فيها بالبراعة والنبوغ. وكانت تجرى الارزاق لذلك عليهم من فيوض المكارم الملكية إذ كانوا يأكلون ويشربون وينفقون على حساب الملك.

وكان لاولئك الطلبة، إذا احرزوا درجة عالم فقيه أو كاتب مجيد، أن يستعينوا بمعلوماتهم على كسب معاشهم. وقد أنشئت لهم بالمدرسة دار عظيمة للكتب تحتوى آلاف المصنفات النفيسة، يتصل بها معمل لتحضير ورق البردى. وكانت إدارة المدارس الملحقة بذلك المعهد تناط ببعضهم من آن إلى آن.

وكان عدد تلاميذ كل مدرسة من المدارس الابتدائية التابعة لمعهد بيت سيتى لا يتجاوز المائة، يشترط فى قبولهم بها أن يكونوا من ابناء الوطن الاحرار، لا فرق بين غنى وفقير أو عزيز وحقير وكانوا يقيمون بها ليل نهار على أن يدفع أهلوهم أو أولياء أمرهم مالا معيناً فى مقابل ما يتناولونه من الغذاء، وإلا أرسلوا اليهم من بيوتهم فى مواعيد موقوتة مايقوم بأودهم من الطعام والشراب. وكان للتلاميذ الداخلية من ابناء العظماء والاعيان مكان خاص بهم يكونون فيه تحت رقابة الكهنة

---

(١) ان البيان الآتى عن نظام مدارس مصر القديمة مستخرج باكمله من اوراق مؤرخة من عهد رعمسيس وخلفه الملك منفتح

وعنايتهم، ويدفعون في مقابل تعليمهم علوم الدين والدنيا المبالغ الفادحة. وقد ربى رعمسيس الثانى بن سيتي الاول في هذه المدرسة .

وكانت برامج المدارس الابتدائية وانظمتها تتطلب من التلاميذ الالتفات إلى الدرس والمثابرة على تفهمه، فأذا خالفوا هذه الانظمة ولم يراعوا العمل بنصوصها عوقبوا ضربا بالعصى ، وهى العقوبة الشائعة وقتئذ بالمدارس كما يثبته المثل المصرى القديم : « إن آذان التلاميذ فى ظهورهم فهم لا يسمعون إلا إذا ضربوا »

وكان لا ينقل التلميذ من مدرسة ابتدائية إلى مدرسة عليا إلا بعد اختبار دقيق يكرم فيه ويعظم شأنه . وكان للتلميذ الناجح أن يختار من بين أساتذته الاقدمين استاذاً يستمر فى التلقي عليه ، حتى ينبغ فى العلم الذى انصرف إلى تحصيله ويلازمه ملازمة الظل للشبح ويبقي خاضعاً لأمره . وبعد انقضاء سنوات فى الدرس والبحث والتحقيق والتقرير يمتحن فيما حصله من العلوم أمام العموم لينال مرتبة فقيه أو ليرشح لمناصب الحكومة .

وكان هناك فيما عدا هذه المدارس مدارس الفنون والصناعة ، كان الطلاب يلقون فيها العلوم المؤهلة لتخريج مهندسى العمارات والنقاشين والمصورين . وكان نظام التعليم فيها عينه فى الاولى أي أنه كان للتلميذ أن يختار المعلم الذى يأمل بالتلقى عليه الوصول إلى ذروة التقدم والنجاح . وكان عدد الاساتذة فى المدارس كلها ثمانمائة أستاذ ، تخرجوا جميعاً من بيت سيتى . وكانوا ينقسمون إلى خمس درجات ويرجعون فى أمورهم

إلى ثلاثة رؤساء يعرفون بالانبياء، أشرفهم مرتبة وأرقاهم درجة فى العلوم والفنون رئيس كهنة بيت سيتى الذين كان يتجاوز عددهم فى طيبة الاموات ألوفاً كثيرة.

أما بيت سيتى فكان بناء وطيد الجدران شامخ الأركان، يصل الانسان اليه من نهج قويم آخذ من ضفة النيل إلى باب السياج المحيط به. فاذا دخل من هذا الباب وجد نفسه فى فناء فسيح يحيط به من الجهات الأربع صفان متوازيان من الاعمدة الضخمة، يقابل كل عمود من صف نظيره من الآخر. وشهد أمامه تجاه الباب باباً آخر توفر المهندسون على الاحتفال بتنسيقه والمبالغة فى تنميقه، وإلى جانبيه هرمان ناقصان زادا فى حسن النظام وبهجة المنظر. ويؤدى الباب إلى فناء آخر يشبه الاول حجماً وشكلا، إلا أنه ليس فيه سوى صف واحد من الاعمدة بالواجهة المقابلة للمدخل الذى أوردنا وصفه.

وكان بيت سيتى وراء طائفة من منازل كبيرة مكعبة الشكل مشيدة بالآجر النيء المتخذ من طمي النيل ومجصصة بالجير. وقد زينت بالصور والنقوش الهيروغليفية وأعدّت لاقامة الكهنة والمدرسين. وكان نظامها الهندسي من الداخل واحداً إذ كانت تتألف من فناء تحف به ممشاة من الخشب تؤدى إلى حجرات الاساتذة وتتوسطه نافورة ينبط منها الماء على الدوام في حوض تحيط به شجيرات الازهار وتنصرف المياه منه فى مسارب متعددة حتى لاتبقى فيه آسنة. وكان الطلاب يقيمون بالطبقة العليا من تلك المساكن ويتلقون الدرس فى

فناء غير الذى وصفناه ، جلوساً على حصر مبسوطة فوق الثرى .

أما دار كبير الانبياء الثلاثة ورئيس كهنة بيت سيتى ، فكانت على مسافة مائة خطوة من واجهته الخلفية تكنفه من الجانبين أشجار باسقة ظليلة . وكان القصاد يعرفونه من بعيد بما يخفق من الاعلام الكثيرة حول سطوحه . وكان الانبياء لا يقصدون اليه إلا لاداء المفروض عليهم من الواجب نحو النبي الاكبر ثم ينصرفون إلى طيبة الاحياء حيث يسكنون مع اسراتهم فى منازل خصت بهم .

* * *

نعود الآن إلى ذكر ما وقع عقب انصراف الاميرة بنت أنات فى موكبها الحافل إلى ضفة النيل ودخول بعاكر بيت سيتى للبحث عن الضاحكين الذين ظن أنهم يهزأون به .

ألقت الضجة الهائلة التى حدثت بعقب حضور الاميرة وانصرافها في وقت جرت العادة بأن يكون من أوقات السكون ، الذعر فى روع الكهنة والعلماء والطلاب ، فخرجوا من دورهم هائمين استطلاعاً للحقيقة وصاروا فى حالتهم هذه أشبه بالنمل إذا دهمتهم مصيبة فخرجوا من مساكنهم ، ثم أخذوا يجتمعون زرافات حول الهيكل ويتساءلون عن هذا النبأ ويذهبون مذاهب شتى فى تفسيره ، فمن قائل إن رسالة ملكيه وصلت إلى رئيس الكهنة ومن قائل إن المحنطين وفاتحى جثث الموتى انقضوا على بنت أنات وأصابوها بأذى .

وكان بين الطلاب الواقفين غلام ممن هربوا من السجن ، فقال

للقوم : انى ملم بحقيقة الواقعة وهي أن بعاكر رئيس طلائع الملك أدخل فى بيت سيتى رغم أنفه ليحسن الكتابة . أراد التلميذ بهذا الكلام التشهير ببعاكر والسخرية منه ، لأنه كان فى طفولته من طلاب بيت سيتى وكان معروفاً بين أقرانه بكثرة الاغلاط النحوية فى كتابته . وله فى ذلك حوادث مأثورة تضحك الثكلى . وقد بقيت شائعة على ألسنتهم يلقنها طلاب الفرق العليا لمن يأتون بعدهم وهكذا . فلما سمع الحاضرون ذلك أغربوا فى الضحك وصفقوا سروراً واستحساناً .

وعز على القوم الاهتداء الى الحقيقة فلما حضر أحد الكهان قال لهم انه رأى بعاكر بفناء الهيكل غير أنه لم يدرك سبب حضوره فى هذا الوقت ، فاعتقدوا صدق ما رواه الغلام الساخر ، وان لم تكن علاقة هناك بين مركزه السامي فى معية الملك وبين ما يعزونه اليه من الجهل بالقواعد النحوية وتصريف الكلام .

ولما كثر الهرج فى الطريق ، لاختلاط الطلاب وغدوهم ورواحهم وتساؤلهم ومزاحهم ، هب (أمينى) رئيس الكهنة من مكانه ليقف على سر هذا الضجيج .

وكان أمينى هذا ابن (نبكت) من عائلة عريقة فى الحسب . وقد نال منصبه عن كفاءة واستحقاق فامتد نفوذه الدينى إلى مدارس الكهنة فى جميع أنحاء القطر . وكان إذا شجر خلاف أو حدثت شبهة فى أمر يتعلق بالعلم أو الدين وذهب كل فريق مذهباً استعانوا بمعارفه الواسعة على حل عويصات المسائل ورضخوا لحكمه وأخذوا به قضية مسلمة .

وكان الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وانفراج مذاهبهم يعدونه الممثل لروح الكهنوت فكان إذا جهر بفكرة تصدم أفكارهم أو رأي يعارض ، ولو فى الظاهر ، آراءهم فى العلم والدين امتثلوا لحكمه فيها وأقروا له بالطاعة ، لما وقر فى نفوسهم من الاعتقاد بانصراف أقواله وأعماله إلى غايات تخفي على مدار كهم ، لا سيما وأن التجارب العديدة دلتهم على وجوب حسن الظن به .

وكان الملك يبالغ في توقيره وكثيراً ما كان يغدق النعم عليه ويخصه برعايته ويستميله الى تقلد منصب الحافظ الامين لختمه ، فلا يلقى منه إلا إعراضاً مفضلا البقاء فى منصبه الدينى الذى كان يباشر أعماله الدقيقة مطلق اليدين فى كل شيء إلا ما تقيدهما فيه القوانين الرسمية . وكانت نفسه تعاف مظاهر العظمة الباطلة وتجنح إلى التواضع والانجماع عن الناس . وكان لا يرهب مخالفة أوامر البيت الاعظم[1] ما دامت غير متفقة مع أفكارة وآرائه .

وكان أمينى من أحرص الناس على رعاية النظام فى معيشته لا يصرفه عنها صارف مهما جلّ ، فكان يخص من كل عشرة أيام ثمانية بفروض وظيفته ويومين بالاشراف على شؤون أسرته . وكان اخصاؤه وأقرب الناس اليه يجهلون أي يوم من تلك الايام يعبر فيه النيل إلى طيبة الاحياء ليقضي بعض ساعات الفراغ بين عشيرته وذوى قرباه .

---

(١) البيت الاعظم أو الباب العالي هو قصر الملك وكان يسمى باللسان المصرى القديم براياومنه اشتقت لفظة « فرعون » مع تحريف كبير فى اللفظ

وكان لا يستغرق نومه أكثر من أربع ساعات فى اليوم قبيل الظهر أو بعيده فى غرفه مظلمة لا تصل اليها ضوضاء المارة ولا ضجيج الطلاب . وكان لا يغمض الطرف فى أثناء الليل ، لان طراوة الجو والسكون الذى يشمل فيه الكائنات كانا يبثان فى نفسه القدرة على العمل ، من تصنيف ومطالعة وبحث ومراقبة لحركات الاجرام السماوية وكان من أحرص الناس على رعاية الاصول الدينية والطقوس الرسمية من وضوء وطهارة وصوم وجز لشعر الرأس .

وكان فى الخمسين من عمره طويل القامة قوي الاساطين دون بدانة وضخم كغيره من أهل الشرق إذا ناهزوا هذه السن ، واضح الجبين جميل الطلعة تبدو من شفتيه الرقيقتين ابتسامة مستمرة ، واسع العينين تدل عيناه على عصمة النفس من الانفعال بعوامل الشهوات . وكان مطرق الرأس على الدوام ، فاذا أحبّ أن ينظر أو يتكلم رفعه ببطء مقلباً عينيه ببطء كذلك .

وقد تغزل بنطاؤر نابغة بيت سيتى فى النظم فى عينيه فشبههما بجنود أحسن قائدها قيادتها فى ميدان القتال ثم تركها تلتمس الراحة حتى إذا عاودها النشاط ووجدت ما فقدته من قوة هبت إلى القتال بعزم جديد وإقدام يكفل لها الانتصار فى ميدان الفخار

* * *

لما سمع رئيس الكهنة ضجيج الطلاب عند ما أقبلت بنت أنات على الهيكل وعادت منه ، برح حجرته لاستطلاع الخبر . وكانت هذه

الحجرة من أوسع حجرات الهيكل وأحسنها شكلا إذ كان النصف الاسفل من جدرانها إلى ما يوازى ارتفاع القامة مكسواً بالغضائر الخزفية وما بقى منها مزيناً بالصور والنقوش العجيبة . وكان لا يوجد بها من المتاع غير مائدة كبيرة وسرير للاضطجاع يعلوه متكأ من سن الفيل بشكل الهلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراسي عديدة وخزنة تحتوى أواني معدن وقدوراً من صلصال ، وأخرى تحتوى قناني وقوارير زجاج . وهذا فيما عدا العلب المختلفة الاشكال والاقدار وصدف البحر بأنواعه . يضيء هذا كله ثلاثة مصابيح تشبه الطيور فى صورتها ويمد فتيلتها بالضوء ما تحتويه من زيت الخروع .

وكان لباس أميني ثوباً من التيل سابلا إلى كاحل القدم ناصع البياض كثير الثنيات ، عليه وشاح ذو أهداب مرسلة محيط بخاصرته ومعقود من الامام فى نقطة ينسدل منها طرفاه إلى ما يوازى الركبتين متماسك الاجزاء بحمائل مزركشة بالذهب . وكان بعنقه عقد لؤلؤى وأحجار كريمة منضودة على مثال فرعين متعانقين من سعف النخل وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز .

فلما نهض ، وهو بهذا اللباس ، من كرسيه المفرغة قوائمه على مثال مخالب الاسد أشار إلى عبد قاعد القرفصاء بجوار الحائط فأدرك العبد ما أمره به مولاه فقام من فوره وأقبل مسرعاً نحوه ووضع على رأسه جمجمة صناعية ألصقت بها شعور متجعدة ومرسلة من حولها إلى

الكتفين[١] ثم تناول فروة فهد ، رأسه ومخالبه من الذهب الخالص وأفرغها على كتفيه . وتقدم بعد ذلك عبد آخر يحمل مرآة من المعدن الثقيل فتراءى أمينى فيها وسوّى جمته ثم قدم اليه عبد ثالث محجن الرآسة الكهنوتية ، ودخل فى أثناء ذلك كاهن أخبر الرئيس بحضور الشاعر بنطاؤر .

أذن أمينى للشاعر بالدخول فدخل ودنا منه وجثا أمامه على ركبتيه ثم تناول يده ولثمها فقال أمينى : قم يابنيّ فان فى حضورك ما يكفينى مؤونة الخروج فى مثل هذه الساعة للوقوف على سر هياج الطلاب حول الهيكل بما لم يعهد مثله فى سالف الايام فهل وقفت على بعض هذا السر ؟ أجاب بنطاؤر : لم يقع ما يخالف العادة أيها الأب المبجل وكل ما فى الامر أن الاميرة بنت أنات جاءت الهيكل فى طلب أحد الاطباء . قال أمينى وهل بها أذى من مرض أو غيره ؟ أجاب : كلا فأن صحتها على خير ما يرام غير أنها كانت تسابق بعاكر بجيادها الصافنات فى واد ضيق فصدمت مركبتها ابنة المحنط بينم ، ولما كانت نفسها مجبولة على الرحمة فقد نقلت الجريحة إلى بيت والدها . قال أمينى : وهل غشيت الاميرة هذا المكان المدنس ؟ أجاب بنطاؤر : نعم غشيته . قال أمينى : وأظنها جاءت الآن تطلب تطهيرها من شوائب الدنس . أجاب بنطاؤر : نعم لاجل هذا أتت . ولقد رأيت صواباً أن أقابل ملتمسها بالقبول ، لأن عاطفة الرفق

---

(١) كان وجهاء قدماء المصريين يحملون فوق رؤوسهم شعوراً مستعارة ولايزال بعض هذه الشعور محفوظاً فى دور التحف

بينى الانسان هى التى دفعتها فى مأزق المخالفة لطقوسنا الدينية ولانه لا يصح فى اعتقادى اعتبار الشفقة إثماً واصطناع المعروف نقصاً . . وهذا الاله رع الذى يجوب السموات العلى فى زورقه الذهبى ألا يرسل أشعته الشمسية إلى أكواخ الفقراء كما يرسلها إلى قصور الفراعنة ودور الاغنياء ؟ فلماذا تكون بيوت هؤلاء طاهرة واكواخ اولئك مدنسة ؟ وإذا كان قلب الانسان يفيض بالشفقة والحنان أفلا يجدر به أن يشمل الفقراء والبائسين بالعطف والاحسان ؟ . . وأي إحسان أفضل عند الله زلفى من مواساة جريح طريح الفراش لا يملك من وسائل العناية ما يحفظ به حياته ؟

قال أمينى : أنت يا بنطاؤر تتكلم بلسان الشاعر الذى خدعته لطافة العواطف لا بلسان الكاهن الذى سما إلى أشرف درجات العقل والحكمة واستحق بهذا الفوز الساطع أن اسميه أخى وأن اعتبره خدنى وظهيرى ! اعلم أن أعمالنا وتجاريبنا لا توجد معدوماً ولا تحدث فى هذا الكون شيئاً غير الذى كان ، وأن هذه الاعمال والتجاريب ترشد إلى وجوب المحافظة على تقاليد السلف الصالح . ولقد سمعتك منذ اسبوعين تعظم فى صلواتك علم أحوال الغابرين وتسأل الله تأييدك بها وإعانتك على حفظها ، فكيف تغيرت أحوالك وتقلبت أطوارك ؟ ألا تدرى أن من العلم ما يشبه النار ، إذا حصله من يحسن تدبيره والتصرف فيه أفاده المزايا الجليلة أو إذا تناولته يد الطفل ، والشعب يظل طفلا دائما ، شب بسببها حريق هائل يأتى على كل ما أولدته

القرائح فى الازمان الغابرة من جلائل الأعمال ومحامد الخصال ؟ إنا معشر المحيطين بأسرار الدين نستطيع متى أردنا أن نوسع نطاق معارفنا ومعلوماتنا بالتجاريب نقوم بها داخل الهيكل حيث لا غريب ولا رقيب ، وذلك حرصاً على عقائد العامة والسذج الذين يخدعهم حب التقليد أن تتزعزع فيحيدون عن جادة الصواب . ولقد عاهدتنا ياهذا بقسم غليظ أن نحافظ على هذا المبدأ وان لا تخيس بعهدك ، فلم جئت الآن تحنث بيمينك وتهتك حرمة الواجب الذى فرضت على نفسك القيام به ، وهو المحافظة على تقاليد الآباء والاجداد ودعوة الخاصة والكافة إلى السير عليها ؟ اعلم يا بنيّ أن الاحوال الآن ليست مثلها فيما غبر من الزمان . ففى عهد الملوك السالفين كانت جذوة النار التى ذكرتها لك على سبيل المجاز مضطرمة بين جدران نحاس يمر الشعب بها فلا يدرى حقيقتها . ولقد رأيت اليوم ثلمة فى هذه الجدران أخشى أن يحمل العامة حب الاطلاع على النظر منها إلى ما فى الداخل أو أنه إذا سطعت منها أنوار الحقيقة فبهرت أبصارهم وفتنت عقولهم أذاعوا أسرارها ولاكت الألسنة أخبارها وسقطت فى درك البدهيات العادية التى ألفتها الافهام .

وهنا بحّ صوت أمينى كمن ينفعل بتأثير وجدانى شديد ، وشخص بعينيه فى بنطاؤر وظل ثابتاً هكذا مدة من الزمن استأنف بعدها الحديث فقال : انا نستنزل اللعنات على كل كاهن يوسع تلك الثلمة ونحكم عليه بالطرد والنفي ونعاقب بهذه العقوبة كل كاهن يتراجع

عن سد أية ثغرة تحدث فى أركان الدين جهد الامكان .

فما سمع بنطاؤر هذا الكلام حتى علت وجهه حمرة الخجل وصاح بصوت الفازع : أبت ! . . أبت ! . . فدنا منه أمينى ووضع يديه على كتفيه .

وكان الرجلان متماثلين فى اعتدال القوام وتناسب الاعضاء حتى لكأنهما من نبعة واحدة ، غير أنهما مع تشابههما فى الجثمان كان الاختلاف بينهما واضحاً فى الوجدان . . ذلك لأن أمينى كان مستحكم الشكيمة قاسي الطبع قوي الأرادة ثابت العزم قادراً على قمع النفس بعكس بنطاؤر الذى كانت أعماله وأقواله تستمد مما جبلت عليه نفسه من عواطف الحنان وميول الخير والاحسان . وكان مما تهواه نفسه اللقاء بفقير بائس أو حزين يائس فيسرى الهموم باسعاف العانى وفك كربته وتسلية الحزين والتأسى على مصيبته .

وكان بنطاؤر إذا فكر أو تكلم نمت عيناه وشفتاه على دخيلة نفسه وما ينتابها من الريب والشكوك . ولقد لاح من هيئته لما استقرت فى سمعه كلمات التعزير والتقريع التى وجهها اليه رئيس الكهنة أن بعض تلك العواطف كانت تحفزة لمعارضته ومناقشته الحساب فيما أنذره به . غير أنه كان لسمو مركز الرجل وشرف رتبته من الاثر فى نفسه ما لم يجد معه بدّا من الرضوخ لأمره ، فآثر ملازمة الصمت على كلام ربما أدى إلى توسيع هوّة الخلاف فضاعفة التعنيف والاعتساف . وكان جسمه ، لكظمه الغيظ فى نفسه ، كالقدر تغلى فوق النار إذ أخذته هزة

شعر بها أمينى حينما وضع كفيه على كتفيه .

وإذ أحسّ رئيس الكهنة بأثر هذا العامل الوجدانىّ قال له بصوت تخالطه الرحمة والشدة : نعم كان لا مفرّ لى من تعنيفك وعقابك . ثم أخذ بيمين بنطاؤر وتراجع إلى الوراء قائلا : انى لمغتبط بما هيأته الظروف من ضرورة توقيع العقاب عليك ، مع أننى أحبك وأريد لك الخير وأوليك الاحترام الذى أنت له أهل بما جمعت نفسك من صفات عالية وإرادة تذلل بها الصعوبات . . واعلم أن عادة الزراع قد جرت بأغفال الحشائش الرديئة لكي يستطيعوا إذا نمت استئصالها من جذورها . . وأنت والحمد لله لم تكن من فصيلة هذه الحشائش بل أنت شجرة مباركة غرست فى أطيب مغرس ، إلا أن الغارس فاته أن يتعهدها بالري ويسوق اليها ما تحتاجه من مواد النماء لتبقى ملتفة الافنان وارفة الظلال فتلافى مغبة الغفلة باقتضاب الاغصان الزائدة ، ويلوح لى على وجهك أثر التذمر من الشدة التى أعاملك بها ، ولكن ألا تجعل لنفسك من نفسك حكما لترى مقدار ما احتوت الجهالة عليه منك حتى صدتك عن السعادة ، وأن شيطان الغرور زين لك قبيح العمل فأضلك عن سواء السبيل وأن رعونة الشباب قد استحوزت عليك فصرفتك عن الرشد . ؟ لعلك رأيت أن ليس فى الامر من بأس ! ولكن أنسيت أن ذنبك يعد بذنبين وأنك تستحق عليه عقوبتين ؟ إن ابنة الملك التى ينبغي أن تكون لغيرها من رجال الشعب ونسائه قدوة حسنة قد تلوثت بحمأة الخطيئة إذ دخلت بيت بنيم ، فاذا جاريناك على

اعتقادك أن الاتصال بالمدنسين لا يشوب بالدنس أصحاب المراتب السامية والاقدار الشريفة ، فماذا تكون العاقبة ؟ إن القوانين التى سنها السلف الصالح يذهب بسلطانها على النفوس احتقار الاهالى لهـا إذ يعتقدون أن المحنطين أناسي مثلنا وأن الأوامر المأثورة بالفرار منهم كما يفر السليم من الاجرب لغو وباطل . . وياليتهم وقفوا عند هـذا الحد إذ لا مناص لهم من النظر فى المسائل الدينية الاخرى فتتلبد غيوم الريب والشكوك ويذهب كل واحد فى تأويلها إلى ما يطابق مصلحته فتكثر البدع وينثلم ركن الدين ويكون الفشل والتفريق والعياذ بالله . . ولكأنك اليوم تروم بفعلك فتح باب للاعداء يلجون منه إلى باحة ديننا القويم ثم يتسورون اسـواره الضخمة المتينة ليهدموها بمعاول الحقد والضغينة . . .

ألا تعلم يا بنى أن طقوسنا الدينية أصبحت كمركبة على منحدر ينتهى إلى هاوية سحيقة القرار وأنه لا يعوقها عن التدهور فيها إلا ما استندت اليه عجلاتها من الاحجار التى إذا رفع طفل أحدها هوت إلى قاع الهاوية وذهبت حطاماً ؟

لنفرض أن الاميرة هى هذا الطفل وأن المركبة بوقفها فى مكانها رغيف خبز بدلا من حجر وأنها تحمل أباك وأمك وبعض أهلك الاقربين ، أفتود أن تتناول هذا الرغيف لتتحف به جائعاً التصق بطنه بظهره من فرط الطوى ثم تدع أهلك الاعزاء يهوون فى الهاوية التى لا قرار لها ؟ . . أنى لأظنك تحير جواباً على هذا السؤال وليست عندى

خلجة شك فى أن الاميرة ستقصد غداً دار بينم . فعليك أن تنتظرها عنده لتخبرها بالمسارعة الينا حتى نطهرها من أقذاء الدنس أما أنت فقد أعفيتك من كل عقاب سوى ما قضيت به عليك من قبل . . أن الله أجزل لك من هبات العقل والفهم ما تستطيع به الصعود إلى ذرى الحكمة وتصون به إيمانك ، فكيف يفتنك الشيطان بغروره وكيف لا تلزم سبل التقوى والرشاد ليحبك الله والعباد ؟

ولما أنم أمينى نصيحته أمر بنطاؤر باستصحاب الاطباء إلى بيت بينم لعلاج الجريحة ثم سأله : هل فى الهيكل من يعرف هذا البيت ؟ أجاب بنطاؤر : إن ابنة الملك أمرت بعاكر قائد الطليعة بالبقاء هنا ليرشد الاطباء اليه . فقال رئيس الكهنة باسماً : وهل يناط بمثل قائد طليعة الملك الاهتمام بابنة رجل يشق بطون الموتى ويحنطها ؟ . . فرفع بنطاؤر رأسه عندئذ رويداً رويداً وقال متنفساً الصعداء : وهل يناط ببنطاؤر بن البستانى الحقير توبيخ ابنة الملك ؟ . . فقال أمينى : ما دمت يا بنطاؤر خادماً للرب ومنتظماً فى سلك الكهنوت فلا يحق لك أن تنظر فى التفاوت بين درجات الجناة والخاطئين . ان بنت أنات مهما تكن من سموق المجد وكرم المحتد لا محيص من مساواتها بالفقيرة المعدمة متى كان الغرض من تقريعها التحذير من السقوط فى مهاوى الخطيئة . فأحنى بنطاؤر رأسه امتثالا ثم خرج بينا كان أمينى يناجى نفسه بقوله : لقد وصل كلامى إلى قرارة نفسه فأثر فيها ، غير أنه ما برح متمادياً فى غيه ومصراً على باطله . ثم سكت وأخذ يمشى سبهللا بخطوات

واسعة سريعة وقال : إن لهذا الشاب لمستقبلا مجيداً يكون له فيه شأن خطير . . إنه لا تنقصه مزية من مزايا العلم وشدة العارضة ودقة الشعور ولقد استمال القلوب اليه حتى قلبي الذى كأنه قدّ من صخر . على أنه يجب أن يجمع إلى هذه المزايا خصلة الطمع والطموح إلى المعالى فلنبادر إلى اضرام نارها فى قلبه فأن فى ذلك خيراً لنا وله .

الفصل الثالث

ما كان منذ ٣٠٠٠ سنة فى غرفة الطبيب ورأسه

امتثل بنطاؤر لامر أمينى فاستدعي بعاكر الذى كان ينتظر بالفناء حتى عيل صبره . وبعد أن أدخله عليه عاد ليقابل الاطباء ويسألهم معالجة الجريحة . وكان رهط من كهان بيت سيتى يزاولون الطب (١) وكان من يريد منهم بعد إتمام الدراسة فى هذا البيت واحراز رتبة كاهن أو درجة النبوغ فى الطب يقصد إلى (عين شمس) حيث كانت توجد أقدم وأكبر مدرسة طبية فى الديار المصرية فيتلقى فنون الطب فيها حتى ينال درجة (رئيس) فيها كلها أو فى واحد منها كالجراحة أو أمراض العيون ، ثم يرجع إلى طيبة ليعين إما فى قصر الملك أو يندرج فى سلك الاساتذة فيما برز فيه أو يزاول معالجة المرضى فى الفرع الذى نبغ فيه ، ويمهر فى ذلك حتي يمتد صيته فى الآفاق وتخترق شهرته السبع الطباق . وكان الاطباء يقطنون طيبة الاحياء مع خضوعهم للنظام الكهنوتى بمعنى أنه إذا مست الحاجة إلى طبيب لا يطلبه أحد رأساً من منزله بل من هيكل سيتى ، يفاوض فى هذا الطلب رئيس الاطباء .

---

(١) ان الفوائد والمعلومات الواردة في هذا الفصل مستخرجة من أوراق البردى المستكشفة قبل سنة ١٨٨٢ ومنها الورقة رقم ١ المحفوظة بمتحف برلين والورقة الهيروغليفية المحفوظة بمتحف لوندرة ، وتاريخ هذه الاوراق من عهد الاسرة الثامنة عشرة أى في القرن السادس عشر قبل الميلاد وقد أيدت مضامينها اقوال هيرودتس وديودورس الصقلى المؤرخين الشهيرين

وعليه فى هذه الحالة أن يقدم اليه اسم المريض ويصف أعراض مرضه فيرشده عندئذ إلى الطبيب المنقطع لعلاج مرضه .

وكان الاطباء كالكهنة يستمدون أرزاقهم من الاملاك الموقوفة على الهياكل والضرائب المفروضة برسمهم على الاهلين والنذور التى يقدمها هؤلاء إلى الآلهة . ومن ثم كانوا لا يقبلون من أحد جزاء مقابل علاجهم إياه ، لأن المريض كان إذا شفى من مرض أفاض بالنذور والهدايا الكثيرة على الهيكل الذى ينتسب اليه الطبيب . وكان من العقائد الراسخة بأذهان العامة أن الشفاء من المرض يتوقف على النذور والقرابين أكثر منه على مهارة الطبيب .

ومن الحقائق المقررة فى التاريخ أن قدماء المصريين بلغوا فى المعارف الطبية شأواً بعيداً وغاية لا تدانى ، ولكن لما كان الاطباء من رجال الدين فقد اضطروا إلى اتخاذ الاعمال الروحانية كالرقى والتعاويذ من وسائل العلاج حتى انتهى الامر بالاهلين إلى نسبة الشفاء اليها لا إلى الحقائق العلمية الثابتة . وكان ببيت سيتى أطباء كثيرون تنوعت معارفهم وتباينت خصالهم وتفاوتت درجاتهم ، فاختار بنطاؤر من بينهم لعلاج الفتاة التى صدمتها مركبة بنت أنات صديقه (نبسشت) حفيد الطبيب المشهور فى تلك الازمان بهذا الاسم . وكان (نبسشت) هذا أصدق أقران بنطاؤر بالمدرسة وأشدهم ميلا اليه ووفاء له ، وكان من أمره أنه شغف منذ نعومة الاظفار بممارسة العلوم الطبية . فلما غادر بيت سيتى إلى مدرسة عين شمس للاخصاء والنبوغ فى علومها آثر فن الجراحة

فاستقصى فيه البحث حتى أخذ بأطرافه واستقرت قواعده كلها فى ذهنه .

وكانت النية معقودة على تعيينه أستاذاً لعلم التشريح فى تلك المدرسة الجامعة وإنما عدل عنها للعثمة فى لسانه تحول دون احرازه هذا المنصب العلمي الرفيع الذى طالما تاق اليه العلماء القطاحل فلم تتحقق أمانيهم . وكان أبواه وأقاربه فى حزن وتوجد ويأس من تسنمه غارب ذلك المنصب بسبب تلك العاهة الممقوتة . أما هو فكان منشرح الصدر قرير العين بها إذ وجد أنها خير نصير له على العزلة والتفرغ للابحاث العلمية والانصباب على التحقيقات التى يرجى أن تفضى به إلى استكشاف أسرار الحياة العنصرية وأن يقضي فيه وقته ، بينما تذهب أوقات أقرانه بدداً فى الترنم بالاناشيد والاغانى الكهنوتية .

وكان أساتذته يحثونه على موالاة البحث والتنقيب ليقفوا منهما على الحقائق العلمية الغامضة فى فن التشريح . ولقد كان يخالفهم فيما يعتقدونه من تأثير الوسائل الروحانية كالسحر والرقى والنذور فى شفاء الامراض أو عدم شفائها ويأبى التسليم بأن بين القواعد العلمية المؤيدة بالتجارب وبينها علاقة ما ، إلا أنه كان لا يجهر بهذه الآراء ولا يفضى إلى أحد بها لما فيها من مخالفة المبادىء المتبعة ، ولكونه لو أقدم على هذا الفعل لعوقب بالطرد من الهيكل بتهمة الابتداع والالحاد . على أنه لم يكن هناك ما يحمله على الجهر بآرائه إذ كان يرى فى كتمانها خير الذرائع للانفراد بمزاياها والاستئثار بلذة الوقوف على أسرارها . وقد بلغ منه حب الكتمان والميل إلى العزلة أنه كان إذا دعاه داع إلى شرح تجاربه

العلمية الدقيقة فى محفل حافل بالعلماء والفضلاء شعر بانقباض فى صدره ونأى عنهم بجانبه اعتقاداً منه أن الأولى به قضاء وقته منقباً عن الحقائق العلمية التى وهب لها حياته .

قلنا إن بنطاؤر اختار هذا الطبيب لعلاج الفتاة ثقة منه بكفاءته ولأنه من خاصة أصدقائه ولأنه كثيراً ما صحبه وهو يرتاد الغابات ويجوب الفلوات ويجوس خلال الجبال والصخور للبحث عن الاعشاب الغريبة والحشرات النادرة ، والتقط معه الكثير منها فأعجب بذكائه ونشاطه وخبرته .

ولقد كان بنطاؤر يشعر فى هذه الجولات بلذة بالغة ويجنى منها فوائد جمة ، إذ كان يرى ما لم تكن عيناه قد وقعت عليه قبلا من الكائنات ويقف على الحقائق العلمية المرتبطة بها . وكان نبسشت لشدة شغفه بالبحث فى هذه الحقائق يستقيم لسانه وتزول عنه اللعثمة فيعبر عن مراده بأفصح بيان وأحسن أسلوب . وكانت المودة بينه وبين بنطاؤر وثيقة العرى إذ كان يجد فيه ما ينقصه من الصفات الفاضلة كدقة الشعور والقدرة على إبراز المكنون من الافكار ، فى قالب النثر تارة وطوراً فى قالب الاشعار .

أما بنطاؤر فكان من أصحاب المدارك السامية والكفايات العالية والقدرة التى لا ريب فيها على حل المشاكل وفهم عويصات المسائل ، إلا أنه كان كالتلميذ لاستاذه إذا قيست معارفه فى العلوم بمعارف صديقه وكانت له على هذا الاخير دالة كبرى ونفوذ قوي إذ كان نبسشت لا

يصدر إلا عن رأيه ولا يعمل إلا بنصائحه ، ضارباً عرض الحائط بآراء زملائه فى عمله ونصائحهم ، ما ذلك إلا لأنهم كانوا فى مناظراتهم العلمية يركنون إلى مجرد النقل غثاً أو سميناً ولا يقيسون الامور بأشباهها ولا يحكمون البصر والبصيرة فيها ، بخلاف بنطاؤر فأنه كان لا يقيد حكمه بقاعدة مأثورة ولا بمبدأ منقول إلا إذا سبرهما بثاقب نظره ووزنهما بصائب رأيه .

وكانت غرفة نبسشت التى يتفرغ فيها لأبحاثه العلمية وتجاربه الفنية تحت مخزن الحبوب من هيكل سيتى ، فى معزل عن الأماكن الآهلة بساكنيها . فلما أن غشيها بنطاؤر ليكلف صديقه بمعالجة الفتاة الجريحة أخذ يتعثر فى أذياله كلما تقدم خطوة إلى الأمام ، لأنها كانت محشوة بما لا عداد له من الاعشاب الخضراء والجافة والاقفاص المختلفة الاحجام من سعف النخل والآنية المتباينة حجماً وشكلا ، مغطاة بأوراق مثقوبة تحتوى حيوانات وحشرات شتى كاليربوع والحرباء والهامة والضفدعة والافعى والجعران وما شابهها . وكان بوسط الغرفة مائدة خشب عليها دواة عظم وجملة مدى من حجر الصوان وأخرى من نحاس ، وباحد أركانها حصيرة ومتكأ خشبى ، وهو المكان الذى كان نبسشت ينام فيه .

ولما سمع نبسشت وقع أقدام بنطاؤر دون أن يراه أخفى ما بيده تحت المائدة وتخبط فى أمره وحار حيرة التلميذ الذى يفجأه أستاذه لاعباً . وكانت بيده سكين ذات مقبض من السأسم (الابنوس)

فأخفاها فى طيات ثوبه ثم وقف ويداه على صدره فى انتظار المقبل . وكان بالغرفة مصباح ضعيف الضوء ، فلما دخل بنطاؤر أدرك سر الخوف الذى وقع فى روع صديقه وأيقن أنه يرجع إلى ارتكابه محظوراً . وحين تحقق نبسشت أن الزائر بنطاؤر اطمأن قلبه وهدأ روعه فصاح به : أما كان ينبغى ألا تزعجنى فى هذه الساعة ؟ ثم دس يده تحت المائدة وأخذ ما كان ألقاه فأذا هو أرنب حي مثبت على لوحة من الخشب ، وقد فتح بطنه حتى بدا القلب منه .

عندئذ استأنف فحص أعضائه وانصرف إلى ذلك كأن لم يكن بالغرفة سواه . فأخذ بنطاؤر يتمعن حركاته ، وانه لكذلك إذ فجأه الشاعر بوضع يده على كتفه قائلا : كان لزاماً عليك يا أخى ، وقد عمدت إلى مخالفة الواجب والقانون ، إغلاق الباب حتى لا يراك أحد . فاضطرب نبسشت حتى كاد ينقطع نياط قلبه من الهلع وأجاب متلعثما : هم . . هم . . هم . . أ . . أ . . أخذوا مزلاج البا . . باب حين د . . د . . دخلوا منذ أيام وأنا . . أ . . أشرح يد بتاحميس . . ميس المزوّ . . ر . فقال بنطاؤر : وجثة هذا المسكين تنقصها إذن اليد اليمنى ؟ قال نبسشت وهل تفيـ . . فيـ . . ده هذه اليد فى الآخرة . . ؟ قال بنطاؤر : لكن هل وضعت بالاقل فى قبرها تماثيل شبتى ؟ (١) قال نبسشت : ليس هـذا إ . . إلا . . حمقاً . . و . . شعوذة . قال بنطاؤر : خذ حذرك يانبسشت

---

(١) كانت توضع هذه التماثيل مع الموتى لمساعدتهم على أداء اعمال الحياة الاخرى وهى تحمل في يدها اما قاسا او محراثاً وعلى ظهرها كيس البذور وقد جاء فى الفصل السادس من كتاب الموتى بيان مزايا التماثيل وفوائدها

أنت تمضى فى طريق الأباحة متخبطاً وتنتهك حرمة الدين .. أما دريت أن من يعذب حيواناً ولو لغرض حميد يلق فى الآخرة مثل هذا العذاب؟ يخيل لى أنك تنتحل لنفسك عذراً فتقول بجواز تعذيب الحيوان متى كان القصد خدمة العلم واستكشاف الحقائق النافعة للانسان . قال نبسشت : أو تعتقد أنت بصدق ما تقول ؟ فابتسم بنطاؤر وسكت ، ثم حدق فى الارنب مناجياً نفسه : عجباً كيف يبقى هذا الحيوان المسكين حياً مع أنه لو أصاب إنساناً ما أصابه من العذاب ما بقي لحظة على قيد الحياة ؟ إن الانسان ضعيفة اعضاؤه ولا يحتمل ما يقاسيه الحيوان ! فهز نبسشت كتفيه وقال : قد يكون ما تقوله صواباً . قال بنطاؤر : أعتقد أنك موقن بصواب قولى . قال نبسشت : ومن أين لى علم ما إذا كان القوم قد حظروا علىّ خص يد مزور لأقف على كنه حركتها . قال بنطاؤر : تذكر يا صديقى ما أوردته كتبنا المقدسة من توقف سلامة الروح على صحة البدن . فأخذ نبسشت يحد النظر فى بنطاؤر ويقول : ليست الروح مما أعانى البحث فيه ، فتصرف أنت فى أرواح العباد كما تهوى ودعنى أبحث فى جسومهم ، حتى إذا أصيب أحدهم برض أو بكسر أقمت منه المعوج وأصلحت الفاسد . قال بنطاؤر : الحمد لتوت[1] أن لم تعارضنى فى عرفانك تقويم أعضاء

(١) توت اله العلم والطب فى اعتقاد قدماء المصريين الذين كانوا يمثلونه برأس طير اللقلق المعروف ويقولون ان الاله (رع) أخرجه من العدم كالشعاع المنبعث والضوء المتالق لكى يكون له مصباحا يهديه فى الظلمات الى مكامن الاعداء وقد صار بعد ذلك اله القمر الذى يدبر الامور بالحكمة ويقيسها باشباهها كما أن القمر يدبر المواقيت ويحدد الازمان ثم اله الاداب والعلوم والفنون وكان يسميه المصريون تيشوت اى الكبير مرتين أما اليونان فكانوا يسمونه ترسما جستس أى الكبير ثلاث مرات

الانسان واصلاح فاسدها : قال نبسشت . الكمال لله وحده . . إنى لمقرّ بعجزى ومعترف بأنى لم أبلغ فى ضبط يدى ، وهي تحرك المبضع ، مبلغ المثال الذى يطلب منه العمل فى الظلام . قال بنطاؤر : كلافأنت ندّ (كيزو) الذى فاق الاقران فى اتقان التصوير بالهيكل وهو أعمى . قال نبسشت : قل ما شئت ، وكل ما أعرفه فى نفسى أننى لست بين اجادة العمل وعدمها فى حد الوسط ، فأما أجيده للدرجة القصوى أولا أجيده مطلقا . قال بنطاؤر : إنا نرغب منك الاجادة فيه وما جئتك الآن إلا مختبراً . قال نبسشت : وهل بك علة ؟ أجاب بنطاؤر : الحمد لأ يزيس التى أودعتنى قوة اقتلع به النخل من أصوله ، وإنما جئت لأدعوك إلى علاج جريحة ، فأن الاميرة بنت أنات كانت ... فقاطعه نبسشت بقوله : أليس للاسرة المالكة طبيب ؟ قال بنطاؤر : دعنى حتى أتم كلامى . . كانت الاميرة بنت أنات فى مركبتها إذ صدمت فتاة فأصابتها بجرح بالغ . قال نبسشت : وهل الفتاة بالمدينة أو بالمقبرة هنا ؟ أجاب بنطاؤر : هنا وهي ابنة أحد المحنطين . فصاح نبسشت ابنة محنط . . ولمَ لم تحفنى من قبل بهذه البشرى ؟ ثم ألقى بالارنب وأدوات الجراحة تحت المائدة . أما بنطاؤر فبهت لابتهاج صديقه وقال : لعلك تعلل نفسك باستكشاف سر غريب عند أولئك المدنسين . قال نبسشت : الامر فى هذا يرجع الىّ وقد عولت على عيادة الجريحه الآن وما اسم والدها ؟ أجاب بنطاؤر : اسمه بينم . قال نبسشت : ولكنى أخشى ألا أوفق معه لادراك غايتى ونيل أمنيتى .

وعلى أثر هذه المحادثة أخذ قنينة محكمة السدّ وتحيل لفتحها . ثم غمس فيها قلماً كقلم المصور ، وبعد أن أخرجه أدناه من أنف الارنب فمات من فوره ، لان السائل الذى فى القنينة كان الاستركنين وهو سم قاتل . ثم ألقى به فى صندوق وقال لصاحبه : هلم بنا إلى حيث تريد . قال بنطاؤر : ولكن ينبغى ألا تخرج بهذا الثوب الملوّث . فتنبه نبسشت الى أنه لم يغير ثياب العمل ففتح خزانة الملابس واختار منها ثوباً أخذ يفرغه على جسمه وبنطاؤر على مقربة منه ، فشهد أنه لم يخلع الثوب القذر وأن تحت هذا الثوب ثياباً أخر ، فأمسك يده ضاحكا ، فأمعن نبسشت فيه النظر مستغرباً وسأل عن سبب الضحك فأجابه : كيف تفرغ الثوب النظيف على ثياب قذرة أصبحت تشبه فيها البصلة بتعدد طبقاتها ؟ فضحك نبسشت وقال : الآن أدركت سبب اشتداد الحرارة فى جسمى . . أرجو منك إذاً أن تبرح هذا المكان حتى أخلع هذه الثياب وتستأذن لى من أمينى بالخروج من الهيكل . قال بنطاؤر : لا فائدة فى الاستئذان مادام أنه أمرنى بندب طبيب لمعالجة الجريحة فى بيت بينم . قال نبسشت : وهل علم أن الفتاة ابنة محنط الموتى ؟ أجاب : نعم . قال نبسشت : لا بد لى من علاجها أيضاً بالرقى والتعاويذ ، لهذا أرجو منك أن تستأذن النبي جاجا و فى أن يصحبنى الشيخ (تيتا) لترتيل الرقى والتعاويذ التى لا قبل لى كما تعلم على تلاوة حرف منها للعتمة لسانى . قال بنطاؤر : الافضل أن يصحبك كاهن شاب بدلا من ذاك الشيخ الاعمى قال نبسشت : انى مع كراهتى لهذا الشيخ أرى أنه لا بد لى منه لفصاحة

لسانه . قال بنطاؤر : حقا انه لجهوري الصوت فصيح اللسان ، ولقد سمعته منذ أيام يرتل التعاويذ لاحد المرضى ويحصى البلح الذى أخذه فى مقابل أجرته . قال نبسشت : إذا صحبنى إلى بيت بينم فانما يصحبنى رغم أنفه لأنه يبغض الفقراء ويفضل أن يضع يده فى هذا الأناء الممتلىء بالعقارب على غشيان دورهم وتناول طعامهم ومع هذا فلك أن تعده بأننى سأعطيه ما فى خابيتى من النبيذ لعله يجىء عن طيب خاطر . . أما أنا فلا أسيغ هذا الشراب فى الحر الشديد لأنه يكدر صفاء نظرى . . ثم أين يسكن بينم أبجنوب المقبرة أم بشمالها ؟ أجاب بنطاؤر : أظنه يسكن بالشمال ، على أن بعاكر ما زال هنا وهو المأمور بارشادك إلى بيت الفتاة . . قال نبسشت باسما . إن هذه الليلة غريبة الشأن . . وما هو طالعها فى التقويم يا ترى ؟[1] . . غريبة جداً هذه الليلة ، يسألوننى فيها معالجة ابنة محنط كما أعالج أميرة ويذهبون بى إلى بيت أبيها أنا الطبيب الوضيع الحقير فى ركب كركب فرعون ولكن ليتنى ما خلعت ثيابى . قال بنطاؤر : الحرارة فى هذه الليلة شديدة . قال نبسشت : لست أخشى الحرارة بل بعاكر الذى اشتهر بأطواره الشاذة فقد كنت منذ يومين أعالج شابا ضربه فكسر ترقوته ، ويا ليتنى كنت أحد جياد الاميرة بنت أنات لأدوس بسنابكى هذا الوحش الضارى لا تلك

---

(١) وجد أنم تقويم مصرى فى الورقة الرابعة من مجموعة اوراق البردى المعروفة باسم (ساليه) وهو يحتوى بيان طالع كل يوم فى السنة من سعادة ونحس وفى كثير من الهيا كل تقاويم أخر خاصة بالاعياد والاحتفالات الدينية وأكثر هذه التقاويم شرحاً وتفصيلا هو الذى فى هيكل مدينة ابو وقد نشره دوميشن العالم الالمانى

الفتاة البريئة . فضحك بنطاؤر وقال : وأنا أيضاً أتمنى ذلك . ثم انصرف قاصداً جاجابوثانى أنبياء هيكل سيتى ورئيس أطبائه ليستأذنه فى أن يرافق نبسشت الشيخ تيتا مرتل التعاويذ والرقى .

الفصل الرابع

أين يتناجى الكهان في أحوال بنى الانسان

علم بنطاؤر أن جاجابو كان يتناول الطعام فى مأدبة شائقة أعدت احتفاء بعالمين من علماء خينو[١] صدر الامر بنقلهما إلى بيت سيتى، اكراماً لهما وترفيعاً لمقامهما . وقد مدت المائدة بأحدى ساحات الهيكل تحيط بها أعمدة مزخرفة بالألوان الزاهية والصور الجميلة وتضيئها مصابيح لا حصر لعددها . وكان لفيف الكهان جلوساً حول المائدة على صفين متوازيين وأمامهم من الوان الطعام الشهيّ أفخاذ الغزلان وشواء الأوز والبط[٢] والقرنبيط والهليون والفطير والحلويات والانبذة المعتقة التى ملأت بها دنان الهيكل .

وكان الخدم يجيئون بهذه المأكولات صنفاً صنفاً من مائدة أخرى رتبت عليها الاطعمة بأسلوب حسن ونظام متقن ويطوفون بالمدام على المدعوين فيسكبونها فى أقداحهم حتى تفيض من حافاتها . وكانوا عقب الفراغ من كل صنف يقدمون لهم آنية من نحاس أصفر يغسلون فيها أيديهم ومناديل من التيل الناعم لتنشيفها . فلما فرغ القوم من الطعام

---

(١) خينو مدينة كانت على شاطىء النيل بقرب حدود النوبة وكان بها مدرسة لتخريج الكهنة وموقعها محدود الآن بالقرب من جبل السلسلة

(٢) كانت الغزلان فى ذلك العهد من الحيوانات الداجنة وترى الآن مرسومة على الاثار اما حية فى الحدائق أو مذبوحة فى حوانيت الجزارين ووصف هذه الوليمة ماخوذة من صور الولائم الكثيرة المرسومة فى المقابر

أخذوا يشمون الورود والرياحين التى وزعت عليهم فى باقات منسقة تنسيقا بديعاً ،فكانت تحفزهم رائحتها الزكية إلى المحادثة فى شؤون شتى والمناقشة فى موضوعات مفيدة . ومما زاد فى طلاوة حديثهم تشابه ثيابهم وتوافق شاراتهم الكهنوتية ، لأنهم كانوا من كهنة بيت سيتى وكبار موظفيه وليس بينهم أجنبي يتعرف أسرارهم أو يتسرق أخبارهم .

وكان جاجابو الذى ندبه أمينى لرآسة الحفلة فى صدر المائدة متكلفا فى أوضاعه العظمة والرفعة يتحرى بهما سترعيوبه الجثمانية التى لا تتفق مع الرآسة ، فأنه كان قصير القامة كبير الهامة أصلع الرأس غليظ البدن غليظ الخدين . وكان كلما عرته دهشة أو أحس بانفعال برقت أسرته ولمعت عيناه واضطربت شفتاه الدالتان بغلظهما على غريزته الشهوية . وكان بالقرب منه كرسي خاليا هو كرسي أمينى ، وإلى جانبيه يمنة ويسرة كاهناخينو اللذان برسمهما أدبت المأدبة، ويليهما باقى المدعوين جالسين بحسب ترتيب الاعمار ، الاكبر فالكبير فالصغير فالاصغر ، عملا بأنظمة الهيكل وقوانينه .

وتكلم فى أثناء المحادثة (توان) أكبر الكاهنين المحتفل بهما وهو الذى كانت مصنفاته فى الانشاء تدرس بالمدارس[1] فقال : أيها العلماء المحترمون ! لا يسعنا أن نقابل الشرف الذى أسبغتم علينا نعمته بدعوتنا إلى الانتظام فى عقدكم إلا بما يستحق من جزيل الشكر وجميل الثناء والحمد . فانا بوجودنا فى هذا المكان المقدس نفوز بالزلفى من فرعون

١، ادى البحث فى الاثار القديمة على بعض جمل انشائية لهذا الكاتب الشهير

الذى نسأل له طول البقاء ودوام الصحة والهناء . . ولقد تخرج من مدارس خينو عدد غير قليل من أساطين العلم وفطاحله ، ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها . . الحقيقة التى ننادى بها على ملأ منكم هى ان المعاصرين من خريجيها لم يبلغوا وما هم ببالغى شأو زملائهم خريجي بيت سيتى الذين سما بهم شأن هذا البيت الى ذروة المجد الخالد وأصبحت مدارس هليوبوليس ومنفيس بازائه فى الدرك الاسفل . ولقد عاهدت نفسى رغم قصورى وضعتى أن أؤيدها بروح الالهام الذى نستنشق رياه العبق فى هذا المقام واستجلاء مجالى العلوم والمعارف لانتهاج الطريق القويم والحث على الاقتداء بمحاسن أعمالكم والتخلق بمكارم أخلاقكم فلقد أنست فيكم ما يشجعنى على الاجتهاد للوصول إلى المأمول . وانى أختم كلماتى بتوجيه عبارات الثناء إلى أمينى عميد الكهان الذى ذاع له صيت بحسن السيرة وسعة العلم الذى جنى ثماره القاصى والدانى وإن أنس لا أنس واجب التنويه بالعالمين الشهيرين جاجابو و (مريابو) اللذين رددت الآفاق ذكرهما . ثم قام المحتفل به الثانى وقال : من ذا الذى أريد أن أخصه منكم بمدحى وثنائى لأنه نظم أحسن الاناشيد يمجد بها الاله آمون ؟ . . أين شاعركم هذا فخر الشعراء ومن هو بينكم حتى استمتع برؤيته واغترف من فضله ؟ فأشار جاجابو إلى كرسي خال بآخر المائدة وقال : هو صاحب هذا الكرسى وهو أصغر الكهنة سنا وأزهرهم مستقبلا وأرفعهم شأنا . قال توافى : لقد سرت أشعاره مسرى الامثال وحفظها الكبير منا والصغير .

قال كبير المنجمين[١]، لا ريب أن الآلهة أجزلوا له العطاء وأفاضوا عليه المواهب ؛ إلا أننى أنست منه استبداداً بالرأي أزعج خاطرى وانحرافاً عن المذهب أقلق بالى ، وقد أودع أشعاره التى لا مجال للطعن فى صحة أوزانها وانسجام قوافيها سوانح تخالف قواعد الدين المقدس وأركانه الثابتة . وفى النشيد الذى ألمعتم اليه الآن أفكار كان يجب عليه التبصر قبل ابتكاره إياها إذ يخشى أن تفضي إلى كشف أسرار مذاهبنا واذاعتها على ألسنة العامة ، مع أنه أقسم ألا يعرضها للشكوك والريب بقول أو فعل . وانى أضرب لك مثلا على ذلك بعض مقاطيع ذلك النشيد ، فأنه وإن تكن منسجمة اللفظ سامية المعنى يخشى أن يستفحل فى المستقبل ضرر تداولها ، ما دمنا نستعذب التغنى بها ويحفظها العامة والخاصة من الشعب افتتاناً بمعانيها الرائعة وعباراتها الطلية .. وإذا كان من تلك المقاطيع مثل قوله :

« هو الواحد الدائم القهار الجبار ، المنفرد بالخلق والايجاد المبدع لجميع المخلوقات لا على مثال ، المحيط علمه بجميع الاسرار »

« من تأمل بعين الفكر فى مظاهر الكائنات ، وأمعن بنور بصيرته فيما احتوته من سواطع البراهين وبواهر الآيات ، شهد موجدها فى كل صورها ومعانيها بلا حلول ، واستدل بها على أنه الواحد الاحد الذى يحول ولا يزول »[٢]

---

(١) منجمو قدماء المصريين الذين كانوا يستكشفون الطوالع بساعة الميلاد وكانت وظيفتهم من المراتب الكهنوتية — (٢) هذه الاشعار من النشيد الذى نظمه بنطاؤر فى تمجيد الاله وقد وجد مكتوبا على ورق البردى المحفوظ الان بالمتحف المصرى وترجمة غريبو وسترن

أفلم يكن من الواجب منع التغنى بمثل هـذا النشيد خصوصاً فى عهد أماط الاجانب فيه عن وجوههم نقاب الحياء فاشرأبت أعناقهم لاستطلاع الاسرار الدينية ؟ قال حافظ الحزينة : قلت صواباً فقد أطلع أمينى هذا الشاب على الاسرار الكبرى قبل أن ينضج عقله ويستعد لأدراك كنهها . قال جاجابو وكان يفتخر بانتساب بنطاؤر اليـه : ان أميني لم يطلعه على تلك الاسرار إلا إجابة لطلبى كاستاذ له ، وإنما الواجب على عشيرتنا الافتخار بهذا الشاعر الذى ذهبت له فى الآفاق شهرة كبيرة . . أما الشعب فلا خوف على عقيدته من عادية الشكوك لاستظهاره أشعار بنطاؤر ، فقد رأيت أن الناس كلما ترنموا بمنظوماته ترنحوا طرباً لجودة مبانيها وسمو معانيها مع جهلهم بحقيقة ما ترمى اليه من الحقائق والاسرار . . وما من مرة تغنوا بها فى عيد الدرجات حتى سكروا بسلاسة عباراتها ولطف إشاراتها . قال رئيس المنجمين : لاعجب إذا رأيتك ماضياً فى تمجيد هـذا الشاعر فأنما هـو برعايتك يستظل ويكنف عنايتك يلوذ ويعرى محبتك إياه يستمسك وإنما أنت ترضى منه مالا ترضاه من غيره وتغفر له من باطله وشاذ أعماله مالا تغفره لسواه . أما أنا فما برحت موقناً أن أناشيده تزغات شيطان رجيم وأنها تجور بحافظها ومرتلها عن قصد السبيل وأخاف أن تصبح الشرارة التى نستصغرها الآن معظم النار إذا لم نتلاف الامر بالحكمة والروية . فاضطربت شفتا جاجابو وقال : لا تأخذنكم ريبة فى أمر تلميذى فسيكافح العدو بعزم شديد ويحسن البلاء فى الذود عن مصالحنا بقوة

تفل الحديد ويستذل لاجل الدين كل شقي عنيد ويعمل ما تعمل الشمس ذات الجناحين بالظالمين وكل خارج متمرد على الدين . . فلم تحاولون الآن أن تقصوا جناحيه وتحرموه ان يدرج بقدميه ؟ ان زئير الاسد لأشد من مواء الهر وأشعة الشمس لاتنبعث بضوئها المتألق من مصباح ضعيف فدعوا بنطاؤر بحاله إذا شئتم الا ينطبق عليكم مثل من أصابه ألم فى ضرس فخلعه وخلع معه الاضراس الصحيحة . قال الاكبر من عالمي خينو : لقد شعرنا نحن أيضاً بدنو الاعداء وتدخل الغرباء فوجهنا الشطر السليم منا إلى الجنوب تحاميا من تطرق الفساد اليه فلم تنفع الحيلة إذ عم الفساد وجرف سيله الناس فمضوا فى ظلمات الجهل متخبطين، لا يفرقون بين حق وباطل ولا بين طهر ودنس . . وإنما الدنس من عمل تيفون اله الشر والظلام . . قال رئيس المنجمين وقد اضطرمت فى قلبه جذوة التعصب : يحاط الاجنبي هنا بصنوف الرعاية وتبذل فى مرضاته أساليب المداراة فيتدخل فى الاخلاق والعادات تدخل الرمال التى تسفيها رياح الصحراء فى أخشاب البيوت ، وكثيراً ما ذهب به التدخل إلى غشيان المنازل والهيا كل حتى لكأنكم ترون الآن على عرش خليفة (رع) واحداً من سلالة . . . وكان أميني داخلا ساعتئذ من المكان الذى مدت فيه مائدة الطعام وسمع كلام رئيس المنجمين فقاطعه بقوله : صه أيها الجرىء المتهجم لا يفه لسانك .. بهذه الالفاظ البذيئة فى حق مليكنا الشرعي الذى آل اليه قضيب (رع) رمز التملك بطريق الوراثة . فسكت رئيس المنجمين وأحنى رأسه اشعاراً بالطاعة . وكان الحاضرون

قد وقفوا جميعاً تعظيماً لأمينى وردوا على تحيته بأجمل منها ثم جلس وقال لجاجابو : مالى أراك فى غضب لا يليق بحلم الكهان وتؤدتهم وما الذى حصل في هذا المجتمع بينكم حتى اضطربت موازين عقولكم ونفوسكم؟ أجاب جاجابو : كنا نتحدث بأمر الاجانب الذين نسلوا إلى مصر من كل جانب وانتشروا فيها انتشار الجراد وأحرزوا من القوة والسلطان ما يأتون معه كل يوم بضرب من ضروب البدع فى العادات والاخلاق ولجأنا بسببه إلى الاخذ بمقاومتهم وصدّ تيارهم الجارف دفعاً لضررهم ومنعاً لفسادهم . قال أمينى : سترونني فى طليعة المحاربين لتلك الطغمة الشريرة التى جلبت معها الينا المصائب وانى لأخشى أن تتسع خروق الفساد بعد ما تواردت من جهة الشمال أخبار يسوء سماعها الاحباء ويسر الاعداء . سأل الحاضرون بصوت واحد : وماذا جرى .. هل انهزمت جنودنا ؟ أجاب أمينى : كلا .. لا يزال الظفر حليفها ولكن سهام المنون أصابت أكباد ألوف الجند في ساحة القتال فاضطر المليك رعمسيس إلى طلب النجدة ، وقد تسلمت من بعاكر قائد طليعته كتابا منه وآخر من صديق لى فى ركابه يتضمن أولهما الامر بحشد ٥٠ ألف مقاتل . ولما كانت طبقات المجندين قد خرجت كلها للقتال فلا مفر لنا اليوم من حشد ذلك المدد من المزارعين والصناع ، وهم قوام الهيا كل وعمادها .

ما استقرت هذه الكلمات فى مسامع الحاضرين حتى بدت عليهم آيات الاستياء والتذمر . فضرب رئيس المنجمين الأرض بقدمه حانقا

ودمدم الكاهن مريابو بكلمات لم يفهم معناها . أما جاجابو فقد سأل رئيس الكهنة بقوله : وماذا اعتزمت ؟ أجاب أمينى : اعتزمت تنفيذ أمر الملك وسأجمع هنا كهنة هيا كل طيبة للتشاور فى هذا الأمر الخطير . وعليكم أن تبتهلوا إلى الله أن يضىء بصيرتكم بنور السداد ويؤيد آراءكم بالحق ! فأذا بحثنا فى المسئلة واستقر رأينا على شيء فيها قدمناه الى الوالى وألزمناه قبوله ثم سكت هنيهة وقال : أيكم حضر الصلوة التى أقامها الوالى أخيراً ؟ أجاب رئيس المنجمين . لقد حضرتها . قال أمينى : تعال عندى بعد الوليمة . ثم أرسل نظره حواليه وقال : لم غاب شاعرنا عن هذه الحفلة البهية ؟ وما أتم هذا السؤال حتى دخل بنطاؤر مسلما على الحاضرين وتقدم نحو أمينى فى طاعة وخشوع وسأله أن يأذن لتيتا الاعمى بمرافقة نبسشت المكلف بعلاج الجريحة ، فأجابه إلى طلبه ثم قال : ليبادر القوم بالذهاب فلا يزال بماكر بباب الهيكل وقد عيل صبره انتظاراً .

ما غاب بنطاور عن الانظار حتى خاطب أكبر الكاهنين أمينى بقوله : أيها الأب المبجل لقد وافق منظر بنطاؤر سابق ظني به واعتقادى فيه الكفاية العالية وما أشبهه بأله الشمس وما أوفر الدلائل على أنه من سلالة كريمة وأصل عريق فى الشرف والمجد . قال أمينى : ليس أبوه إلا من فقراء الفلاحين فى الارض الموقوفة على الهيكل ومع هذا فقد كان موفقاً حينما بعث بولده إلى المدرسة وتوليت بنفسى

تثقيف عقله وتهذيب طباعه حتى صار من نوابغ العصر فى مصر .(١) قال الكاهن : وما وظيفته بالهيكل ؟. أجاب جاجابو : تدريس النحو والبيان لطلاب الفرق العليا ، دع أنه من الثقات فى علم الفلك ورصد الكواكب وله خبرة واسعة بتفسير الاحلام .

وفى هذه الأثناء كان بنطاؤر قد عاد فسأله جاجابو : إلى أين يذهب بعاكر مع جراحنا الأبكم وزميله الأعمي ؟ أجاب : إلى بيت بينم لعلاج الفتاة الجريحة ، أما بعاكر فقد أنست منه غلظة فى الأخلاق توجب البعد عنه والنفور منه . قال أميني : لعله متذمر مما ناطته به بنت أنات وإذا صدقت فى حدسى هـذا فلا عجب أن ساءت خلقه . قال كبير من الكهان : ان أخا بعاكر الذى برح المدرسة منذ سنوات كان لين الجانب سمح الاخلاق ، أما هو فلا يزال وحشي الطبع ردىء الخلق . قال أميني : كان والده من أعيان رجال مصر المعروفين بسعة العلم واصالة الرأى ومكارم الأخـلاق . قال الكاهن : إذاً فقد ورث طباعه الفاسدة من أمه . قال أميني : كلا إن والدته من اللائى اشتهرن بالعفة والصون وكرم المحتد . قال بنطاؤر : وهل من القواعد المقررة أن يكون الولد شبه أبيه ؟ أنظروا إلى الثيران المقدسة أيوجد من بينها ثور يحاكى أباه شكلا أو لونا ؟ قال جاجابو ضاحكا : يستخلص من قولك أنه لو كان أبو بعاكر العجل أبيس لما استحق ابنه أن يوضع

---

(١) يدل المكتوب فى اوراق البردى على ان المصريين لم يكونوا منقسمين الى طبقات بحسب درجاتهم فى الهيئة الاجتماعية وان أحقر الناس كان يصل الى اسمى المراتب فى الكهنوت والحكومة بعلمه وكفائته

بزريبة أحد الفلاحين . قال بنطاور : ان خلقه الآن مابرح كما كان بالمدرسة ولذلك كنا نسميه الحمار المتوحش . وكان زملاؤه بالرغم من صلابة جسمه لايدعون فرصة تمر إلا وعاكسوه وتحرشوا به . قال أميني : حقا ان الاطفال يجهلون الشفقة والحنان ويحكمون على الاشياء بظواهرها ولايكلفون أنفسهم مؤنة البحث فى أسبابها ، فكثيراً مارأينا طلبة المدارس لا يميزون بين البليد منهم والكسول ولا بين الملتفت المنصرف إلى درسه واللاهى المنقطع عنه الى السفائف ، فتراهم يتخذون الأول كالثانى هدفا لنكاتهم ومزحهم . . ولو دروا أن البلادة عيب غريزى ليس فى قدرة مخلوق اصلاحه مهما أوتى من حول وحيلة لما ازدروا بصاحبها وحقروه فى أعين العموم . ولو كان بعاكر فى أثناء وجوده بالمدرسة على شيء من لين الجانب ودماثة الطبع لما صار مضغة فى أفواه أقرانه ووسيلة يصرفون بها الهموم عن قلوبهم . ثم التفت أميني إلى كاهني خينو وقال :الذى أراه هو أن يرخى العنان للطلبة وأن لايحجر عليهم فى شيء من تصرفاتهم على شرط مراقبتهم عن قرب حتى لاينحرفوا عن جادة الاعتدال بالوقوع فى أحد الطرفين الافراط أو التفريط . ذلك لان منع الشبان من الاسترسال فيما تدعوهم اليه حدة المزاج وحمية الشباب من المزح والمطايبة تعطلت أهم الآلات المساعدة لهم على فهم دروسهم ، فان من دلائل صحة النفس والعقل انشراح الصدر وسرور القلب . وهاتان الحالتان مرتبطتان كارتباط صحة البدن بالرياضة الجثمانية وأرى أنه لا أدعى إلى توازن الانفعالات النفسية فى

طور الشباب ولا أبعث على اعتدالها من قضاء بعض الوقت فى مزاح ولعب لتنشط النفس من عناء الجد فتستأنفه بعزيمة صادقة وهمة لا تقف دونها صعوبة ولقد صدق من قال : « ان التلميذ أحسن أستاذ للتميذ »

قال مريابو : غير أن بعاكر ما استفاد من أقرانه فائدة ، لانهم كانوا ينفضون من حوله ويتحرزون من مخالطته لما رأوه فى طباعه من الغلظة والجفوة والصلف فمقتوه وجانبوه . قال أمينى : لا شك أنه كان طالباً تعساً بل أشقى الطلاب الذين وكلت تربيتهم الىّ ، لتكلفه العظمة والكبرياء وبعده عن سذاجة التلمذة التى تتوقف عليها سعادة الحياة المدرسية ، حتى انه ليبدو وهو فى عنفوان شبابه كأنه شيخ حنكته التجارب . ولعل الخالق جل جلاله قد سلب فؤاده نعمة التسامح الذى لا لذة ولا هناء فى الحياة بدونه . فلقد كان يرى فى ممازحة أقرانه إياه جنونا وفى مداعبتهم له اضطهاداً ومشاكسة . وبعيد عن الشك أن والده أساء اليه إذ قابل هذا الخلق منه بالتسامح فلم يحضه على الاخذ بمكارم الاخلاق وبالحسنى فى معاملة الناس . ولعله كان وقتئذ يعتقد أنه إذا تلظى ابنه بنار الغضب وهاج هائجه علواً وتجبراً وتغشمراً هابه الناس وترشح لرتبة (موهار) الجيش المصرى . قال أحد كاهني خينو : سمعت الكثيرين ينوهون باسم الموهار ويمجدون فعاله ولكنى مازلت أجهل حدود وظيفته . قال جاجابو : وظيفة الموهار ارشاد الجيش ببلاد الاعداء والسير فى طليعته بشرذمة من الجند لاستطلاع احوال الارض من سهولة وحزونة وما يكون بها من الجبال والاودية وعيون الماء والمدائن والقرى ثم تدوين

ذلك كله فى تقرير يومي يشرح فيه ماعنّ له من الملاحظات وارساله بعد ذلك إلى قائد الجيش الذى لا يتحرك إلى الامام إلا إذا بنى أوامره وتعليماته على مادوّن فى ذلك التقرير اليومى .(١) قال كاهن خينو : يستخلص من هـذا البيان أن الموهار كما يكون بارعا فى حمل اليراع ينبغي أن يكونه في حمل السيف وارواء ظباته بدماء الأعداء . قال أمينى : نعم فقد كان والد بعاكر كاتباً بليغاً وبطلا مقداما وكانت تقاريره السريعة الدلالة على المراد ، مع قصر عبارتهـا ، تصور لقارئها تصويراً محسوساً حالة البلاد التى سيخترقها الجيش حتى لكأنه يشهد بباصرته وهادها ونجادها من قمة جبل شاهق ، وهو أول من لقب بالموهار أى البطل الشجاع . وكان الملك يكرمه ويحترمه ويستنصحه مستمداً بآرائه السديدة . قال عالم خينو : إذاً فهو سليل بيت راسخ فى الشرف . أجاب رئيس المنجمين : كيف لا وهو فرع شجرة أصلها ثابت فى الأرض بل هو فى أسرته الكريمة شهابهـا الساطع وبدرها الطالع .. كان والده البطل (آسا) الذى أسبغ الملوك عليه حلل الشرف والمجد وأفاضوا على أسرته العطاء وسنوا لافرادها الجوائز والصلات ، حتى أن الملك (هور ام — هب) لحم نسبه بهـذا الشهم إذ زوج منه أبنـة اخته فاصبح بذلك نظير والى طيبه بل قسيمه فى حق الترشح لعرش الملك ، غير أن

---

(١) يؤخذ من اوراق البردى المحفوظة بمتحف لوندرة ان وظيفة الموهار عند المصريين تشبه وظيفة وزير الحربية في العصر الحاضر غير أن الفرق بينهما هو أن الموهار المصرى كان يصدر التعليمات العسكرية بناء على خبرته الشخصية بخلاف وزراء الحرب الآن فانهم يصدرون التعليمات الى الجيش من الغرفة المخصصة لهم في قصر وزارة الحربية

رعمسيس الاول جد الملك الحالى حرم تلك الأسرة المؤثلة المجد هذا الحق بالقوة والغصب .. فقاطعه أمينى قائلا : زن كلامك ياهذا فأن رعمسيس الاول الذى تصفه بالغاصب إنما هو جد ولىّ أمرنا الملك الحاكم الآن وفى عروقه يجرى الدم الملكي المنبعث فيها من والدته سليلة الاله (رع) . قال رئيس المنجمين : وهذا الدم ألايجرى أيضاً فى عروق الوالى ؟ أجاب أمينى : اعلم أن رعمسيس الثانى هو ملكنا وصاحب الأمر والنهي فينا ، وسيبقى كذلك ماشاءت الربوبية . ويبدو لى أنك وان اشتعل رأسك شيباً فقد نسيت أن كلم التحريض على الثورة أشبه مايكون بشرر النار الذى تحمله الرياح حيث يشاء القدر فتأكل الشرارة الواحدة مدينة بأسرها . ثم التفت إلى بقية الكهان وقال لهم : أما أنتم معشر الاصدقاء فكلوا مريئاً واشربوا هنيئاً ولا تتناولوا سيرة الملك بكلمة ولا تجادلوا فى أمره القاضى بحشد المدد واعداد العدد ، أما أنت يابنطاؤر فعليك فى بكرة الغد بتنفيذ أمرى بما عهدته فيك من مروءة وهمة . ثم انصرف بعد أن ودع الحاضرين ، وما أغلق الباب خلفه حتى قال أكبر عالمي خينو : ان ماتصل بى من الاخبار عن رئيس طلائع الملك وما يقوم به من جلائل الأعمال لما يستوجب العجب والفخر . . فهل هو حقيقة على مايذكر به من سعة التدبير وبعد النظر فى العواقب ؟ .. ثم كيف يفوز بهذا القسط الوافى من الخصال الفاضلة وقد كان فى المدرسة معروفا بالغباوة وعصيان الاوامر ؟ أجاب رئيس المنجمين : لامحل للسؤال فلسوف يجرف الاضطراب

منصب الموهار كما جرف منصب الامارة وعرش الملك . قال عالم خينو : وكيف تندثر هـذه المناصب العليا مادام أصحابها يتقلدونها ؟ أجاب جاجابو : الدهر خؤون لايؤمن ، إذا صافاك يوما بقضاء مرادك انقلب عليك أعواما وعاملك بغير ماتشتهى . ومانراه الآن ينطبق عليه المثل السائر : « العنب لايعز على ولد صاحب الكرم » وقول البعض : « يكفى لولد البواب أن ينادى مرة ليفتح له الباب »

قال أحـد الكهان ممن لزموا الصمت دفاعا عن بعاكر : لقد أخلص هذا الرجل للملك فأدى له بمثابرة وهمة واقدام خدما جليلة ، دع شهرته بالتقوى وإيتاء المعروف فأنه لايصرفه عنهما صارف أبداً . أما كان فى عهد طفولته يشترى بكل مايتحفه به أهله من نفقة الجيب القرابين الكثيرة ويقدمها إلى الآلهة بينا كان زملاؤه ينفقون مالهم فى الملاهي وما لايفيد الا الضرر جسما وعقلا ؟ أظن ألا أحد يملك مثل ماعنده من الاحجبة والتمائم والتماثيل المقدسة أو يقيم ما أقامه أخيراً من الحفلات الفخمة تذكاراً لوفاة والده ، وجملة القول عندى أنه قدوة الشبان ونابغة هـذا الزمان . قال حافظ الخزينة : نحن لا ننكر عليه هذه الخلال الكريمة فأخلاصه لوالده المتوفى حديثاً فضيلة نادرة المثال قال جاجابو : ماتلك الخلال الكريمة الا ثمرة مجاهدته لتقليد أبيه كى يقال عنه ومن يشابه أبه فما ظلم ، على أنى لا أجد من جوامع الشبه بينهما الامقدار ماتشبه الاوزة البجعة والبومة النسر . ولو أنكم عرضتم على أنظاركم أحوال الاثنين لوجدتم أن كرامة الاب وعزة نفسه صلف

فى الابن وتغشمر وأن قسوة الاول التى كان يلطفها العدل والرفق استبداد فى الثانى وعسف جائر وأن مثابرة ذاك تصاب وعناد فى هذا إلا أنه يصح مع هذا أن تكون ثروته التى تنتفع بها خزينة الهيكل شفيعاً له لدى حافظها الذى كان ينبغى عليه تفضيل الثمر المتناثر حول جذع النخلة اليابسة على الاثمار الدانية القطوف فى أنضر الاشجار وأينعها . هذا ومازلت أعتقد أنه مهما قرب من القرابين وصرف فى سبيلها من الملايين فالآلهة لاتلتفت اليها ولا تشمله بالرعاية من أجلها ، ولو كنت تدرى أن هذا الشاب قد انتفخت أوداجه أذى وشراً واتخذت الشياطين جسمه وكراً فلم يبق فيه حيز ذرة للآله (رع) لما أطريته الى هذا الحد . قال رئيس المنجمين : وهل سبرت غور قلبه ووقفت على مكنون سره لتحكم بأنه لهذا الاطراء غير أهل ؟ قال جاجابو : سبرته وعرفت سره كما سبرت هذا القدح الذى ارتشف منه النبيذ المعتق . . سبرته وعرفته لأنى خبير بأحواله منذ خمسة عشر عاما ، عليم بأن قلبه متقرح بقروح الغايات والشهوات وبأنه لاحظ له فى الشفاء منها ، ولكن أى ضرر من الاستفادة بما يجزله لنا من العطاء . ولئن يكن ماله غير حلال فكثيراً مايعالج الطبيب جريحه بمر العلقم أو بوضع السم فى الدسم . قال رئيس المنجمين : أكلامك هذا عن ضغينة كامنة فى صدرك على ذلك الشهم الهمام ؟ فاضطربت شفتا جاجابو وضرب صدره بيده وقال : الضغينه . . الضغينة . . نعم هي عاطفة امتلأ بها هذا الصندوق العتيق . . أصغ لقولى أنت يارئيس المنجمين وأنتم

معشر السامعين واقتربوا منى جميعاً لتتلقوا هذا الدرس عنى . إن للضغينة نوعين ضغينة الانسان على الانسان ، وقد وفقت والحمد لله لقهرها والتغلب عليها بعد ما ذقت مرارتها أعواماً استنبطت من الخبرة فيها أن أشد الميول الفاسدة ضرراً بالمرء حقده على أخيه . لأنه إذا كان حب الكسل يستفز النفس إلى النشاط والعمل فان المضيّ مع الضغائن يكون كالنار المدمرة والسيل الجارف . والضغينة إذا غشيت القلب حالت بينه وبين أنوار الحقائق الساطعة وأضلته السبيل فى ظلمات الغرور . لذا كانت الالوهية تعفو عن جميع الخطايا إلا خطيئة الحقد التى تذهب بكل حسن جميل . أما ضغينة النوع الثانى فقد بارك فيها الآلهة الذين ابتهل اليهم ليل نهار ألا يمحوا أثرها من قلبي ، وحدّها كراهة الشر والكذب والظلمة . وانى لأسائل الآلهة أن ينتقموا منى إن كنت أبغض بعاكر نجل صديقي وأن يلقوا بقلبي فى غياهب الظلمة فريسة للشياطين إذا خالط نفسى نفور من ذلك الشاب المدنس الذى ظن أن يستميل الآلهة اليه أو يكسب محبتهم بما يقدمه اليهم من النبيذ والحيوان وساوم على السعادة كما يساوم المرء على رداء يلبسه أو دابة يركبها . لقد امتلأ فؤاد ذلك الخبيث بالشرور والاحقاد فلا عجب إذا رفضت الارواح العلوية قرابينه ورفستها أنت يارئيس المنجمين كما ترفس بقدمك إناء يشمل العقارب والأفاعى . ولقد شهدته يصلى مبتهلا إلى الله ، وما صلاته إلا رياء ونفاقا أراد بها الظهور بلباس التقوى والورع حتى يسهل عليه الفتك بشاب فى قلبه منه ثرة وسخيمة لا ليتحلى بمكارم الاخلاق

ويسترضى بعبادته الملك الخلاق .

قال رئيس المنجمين : ألم تتضمن صلوات الاقدمين توسلا للآلهة أن يقهروا أعداءنا ويلقوهم تحت أقدامنا ، ومع هذا فكثيراً ما سمعت بعاكر يستنزل الرحمات على الموتى من آله وأقاربه . قال جاجابو : لقد وقفت على أسرار الكهنوت فكيف غاب عنك أن المراد بالاعداء فى تلك الدعوات شياطين الظلام والأمم الاجنبية التى تضمر لمصر السوء ؟ قال سبتاح رئيس المنجمين : ولد بعاكر فى ساعة نحس إذ لم تغدق عليه الآلهة هاتور نعمة السرور التى يسمو لاحرازها الشبان ، لانه لما شرع في الاقتران بفتاة كان متدلها فى حبها جاء مينا حارس ركاب الملك فأخذها منه غصباً وتزوج منها ، فكيف بعد هذا يهون اقناعه بالعدول عن مخاصمة من سلبه أنفس ذخر عنده ؟ قال أحد كاهني خينو : وكيف أمكن مينا أن يحل رباط الخطبة وهي فى شريعتنا عروة وثقى لا انفصام لها ؟(١)

قال رئيس المنجمين : كان بعاكر قد شغف حبا بنيفرت ابنة خالته راتوتى أجمل غادات طيبة فخطبها من آلها ، ثم حدث أن توفي والده فى الحرب وسأل الملك قبل وفاته أن يعين ابنه بعاكر خلفا له . فلما تولى هذا المنصب وجاء بجثة والده إلى القطر المصري حيث دفنها عاد أدراجه إلى آسيا للقيام باعباء وظيفته فى الجيش . وفى أثناء ذلك

---

(١) جاء في قطعة من رواية شنيو المكتوبة على ورقة بردى محفوظة بالمتحف المصرى ما يأتى « البيت الشريعة هى التى تربط الزوج بالزوجة »

لاحت له فرصة فبادر الى طيبة لاستجلاء محيا خطيبته غير أنه ما كاد يصل الى (ثانيس) مدينة رعمسيس حتى نمي اليه خبر زفافها على مينا أحد ضباط حاشية الملك ، فهاج وماج وزأر وزمجر . وغير خاف أن الاسف على مفقود يزداد بنسبة قيمته ، وقد كانت نيفرت فى عين بعاكر أجمل نساء الارض ، فكيف لا يكاشف بالعداوة والبغضاء خصمه الذى قضى على أمانيه مالم يكن الدم الجارى فى عروقه دم ضفدع لادم انسان . . وهل يلام عندئذ إذا قرب الآلهة مئات البقر ليصبوا على عدوه مينا جام غضبهم وسخطهم ؟ قال جاجابو : انه لخطأ بين أن تقبل هذه القرابين مادمت واقفا على سر الغرض المقصود بها وعارفاً بكنهها . ولا ريب أننى لو كنت من أهل هـذا الهيكل لامتنعت عن عبادة الآلهة فيه لأن كهانه يحققون أمانى امرىء طفح فؤاده بالشرور ، فى مقابل مال يتقدم اياه ، ومع هـذا فأن الاله القادر المدبر لشؤون هذا العالم بماسنه من النواميس الابدية الخالدة لن يتقبل قربان بعاكر وانما يلقى به إلى شياطين الشر ليذيقهم مرارة طعمه . أما أنت فلا لوم عليك ولا تثريب لأنك بصفتك الحافظ لخزينة الهيكل لا يهمك فى الحقيقة شيء سوى أن تمتلىء الخظائر بحيوانات القرابين ، وإنما لاتنس ان (سيت) إذا رآك راضياً عن توارد القرابين ووفرتها طار فرحا وعرك يديه الحمراوين [1] اشارة إلى الاغتباط والسرور . ولقد دنس

---

(١) سيت هو اله الشر الممثل لاضطراب العناصر وعدم التآلف فى طبيعة الكون . ويقول قدماء المصريين أنه كان أحمر اللون دلالة على الشر والفساد وكانوا يعتقدون أن ذوى الشعور الحمراء من الاشرار المفسدين

بعاكر حظيرة هذا الهيكل المقدس بما استنزله على مينا من اللعنات والضربات والطاعون والاسقام والموت ، وبالغ فى تدنيسه اياه بدعائه الى الله أن يرمي نيفرت بالعقم فلا تلد ذكراً ولا أنثى يكون لها ولزوجها زينة الحياة الدنيا وأن يملأ قلبها بالغموم والاكدار . قال رئيس المنجمين : ان الآلهة تقبلت دعواته فلقد مضى على زواجهما أربع سنوات لم يتمتع مينا فى خلالها بمعاشرة زوجته سوى أسابيع قليلة لاشتغاله بالحروب ثم هي لم تلد الى الآن ، ولست أدرى لماذا لاتشفق بعد ذلك على بعاكر مع علمك بميله إلى تعضيدنا بماله ؟ قال جاجابو بصوت خافت : إنى أريد الاستفادة بماله كما استفاد به رئيس الكهنة الذى تتساوى عنده الوسائط ماأدت إلى الغرض المقصود . ألم يأمرنا الآلهة بسلوك طريق الشر للوصول إلى الخير . مع بقاء كل شيء على حاله فلا يسمي الشر خيراً ولا القبيح جميلا ؟ . إنى أنصح اليكم أن تستنزفوا أموال بعاكر على أن تعاملوه بحسب أقواله وأفعاله حتى لاتتهموا بالحيد عن محجة الصواب . دعوا مواشيه تدخل الحظائر برسم القرابين وأمواله تتراكم بخزينة الهيكل ولكن لاتدنسوا قلوبكم باعتقاد أن الالهة تتقبلها . . ثم لابد من ارشاد ذلك الشاب المفتون إلى الصواب إذ من واجباتنا جميعاً غرس بذور الخير والطاعة فى النفوس التى يعهد الينا تهذيبها . قال بنطاؤر : ما أوسع رحمتك فى شدتك وعدلك فى رحمتك ! قال جاجابو وقد نهض متحفزاً للانصراف : لقد كشفت لكم عن قروح ذلك الرجل فعليكم بعلاجها واعلموا أن اطراءكم إياه يزيد هذه

القروح استنهاراً ويذهب بالأمل فى شفائها . أما إذا ذكرتموه بعيوبه فلعله يهتدى لاصلاحها . وإذا لم ترق هذه النصيحة فى نظركم فاعلموا أنى ساجىء إلى هنا وبيدى مدية القرابين فأطرح المريض أرضاً وأشرح جسمه تشريحاً يقيه شر السقوط فى مهواة الخطيئة . وكان رئيس المنجمين فى خلال هذا الحديث يهز كتفيه ويتبسم . فلما انصرف جاجابو التفت إلى عالمي خينو وقال : لقد سمعتما الآن كلامه الذى اعتدت سماع مثله ، وكان الاولى له أن يكاشف به صغار الطلاب لا كبار الكهنة . نعم إن قوله يدل على سلامة الطوية وشرف الغاية ، غير أنه لا يتناسب مع الموضوع ولا يطابق حقيقة الواقع إذ بينا هو يحض على التمسك بتلك المبادىء نسمع الرئيس أمينى يقول فى كل الاوقات « ان الوسائل تبرر الغايات » أي أنه إذا توقف السلام العام على تضليل مئات الناس عن سبيل الحق والصواب فهذا التضليل جائز مادام أنه يؤدى إلى غاية شريفة ويرمى إلى غرض نبيل

الفصل الخامس

كيف أيقن بنطاؤر أن الاميرة رقيقة الاحساس والشعور

أدبرت جيوش الظلام فرشقتها الشمس من كنانة أشعتها بالسهام، ووالت رمي النبال حتى تكسرت النصال على النصال، وهب نسيم الصباح معطراً بأنفس الأرواح، وانعكس شعاع الشمس على الرمال وصخور الجبال، فتلألأت كالماء إذا سامتته الاضواء، وآبت الاسود إلى أوجارها وهبت الطيور من أوكارها، وانتشر الرجال في الحقول يسقون الارض ويلقون فيها البذور ويجرون اليها الماء وتحلق تلك الطيور فوقهم فى السماء، وتزاحم المرسى بزوارق الزوار وسفن التجار مشحونة بصنوف البضاعة من حاصلات ومصنوعات، وأخذ النوتية يتلمسون ظلال الاشجار أو يجلسون تحت جدار، فى انتظار الزوار الذين يقصدون الهياكل والمقابر زرفات ووشتى، وآوى أحد المتسببين إلى شجرة جميز يبيع فى ظلها إلى الغادين والرائحين بعض الأغذية والمسكرات فأحاط به النوتية واخلاط الهمج يشترون منه تارة ويتضاربون مع بعضهم أخرى، حتى إذا انحطت قواهم وخارت عزائمهم عادوا الى السفائن فناموا على سطوحها فى حر الهجير مستظلين بأكمامهم أو بالاكواخ الصغيرة المتخذة من سعف النخيل.

وكان الناظر يرى بقرب هذا المكان أفواجا من العبيد تقوست

ظهورهم لثقل مايحملون من الصناديق المملوءة بالقرابين المصدرة إلى الهياكل من أصحاب النذور، وإلى جانبهم جماعات أخرى منهم يسحبون بالحبال صناديق ملئت بالاحجار المنحوتة ووضعت على اسطوانات خشب كان جماعة من المسخرين فى نقل هذه الاحجار من مقالع اسوان وخينو يسكبون عليها الماء الغزير كيلا تحترق بقوة الاحتكاك. وكان المفتشون والمراقبون يستحثون هؤلاء المساكين على السير بما يصبونه على جسومهم العارية النحيلة من سياط العذاب فيشكون بثهم بأناشيد يستمدون من انسجام قوافيها قوة يعالجون بها تحريك تلك الاحجار الصلدة الجسيمة. ولكن أصواتهم كانت تخرج خافتة من حلوقهم لما أصابهم من الجوع والعطش وتولاهم من الضعف الذى تكلّ بسببه الهمم.

وليت كانت أسباب التعذيب مقتصرة على الضرب بالسياط فان اسرافاً من البعوض كانت تقتفى آثارهم وتلسع أقفيتهم بحمتها المؤلمة وتضاعف آلامهم فاذا نفد جهدهم ووقفت ضربات قلوبهم سقطوا على الارض ولا حراك بهم لشدة مانالهم من التعب والسغب، وصارت لا تؤثر فيهم لسعات البعوض ولا سياط المراقبين.

وكان إذا أثر هذا المشهد الأليم فى نفس الرائى فقصد إلى جبال ليبية حيث يسود السكون، رأى فيما يلى الوادى المترامى الاطراف هناك وفى إحدي صخوره قبر والد فرعون. ثم إذا سار فى طريق مؤدية إلى صخور صفراء اللون أثرت أشعة الشمس فيها فجعلتها بحيث يخالها فى

الليل أشباحا تتسرب من أعماق القبور شهد بالقرب من مدخل ذلك الوادى ركباً تتزاحم فيه الاقدام بالرغم من شدة القيظ، يتقدمه أربعة غلمان فى سن اليفوعة يحملون بأيديهم قضبانا طويلة ويلبسون ثياباً سابلة الى الركب وعلى رؤوسهم مناديل مزركشة بأسلاك الذهب تنسدل حواشيها إلى الظهر كالغدائر المسترسلة، لاتكاد أقدامهم العارية تمس بأطرافها الثرى لسرعة ركضهم أمام عجلة جميلة المنظر يجرها فرسان كفرسي الرهان لايهدأ لهما روع لكثرة مايحركان رأسيهما ويشيلان بذنبيهما المضفورين بأسلاك الذهب كأنهما يفخران بمنظرهما الجميل أو يباهيان بسمو قدر الاميرة بنت أنات كريمة رعمسيس التى كانت تسوسهما، فبغمزة واحدة توقفهما أو تمر بهما الى يمنة أو يسرة حسب ارادتها.

وكان رجلان يركضان وراء هذه العجلة يحمل كل منهما مروحة كبيرة من ريش النعام الناصع البياض ليحجب بها أشعة الشمس عن مولاته ويتبعهما ثمانية رجال يحملون على الاعناق محفة استوت فيها نيفرت زوجة مينا تتبادل مع الاميرة مارق وطاب من الحديث. وكانت هي وبنت أنات على جمال نادر وحسن وافر غير أنهما كانتا تختلفان عن بعضهما بصفات ومميزات خاصة تزيدانهما ظرفاً ولطفاً. أما نيفرت فقد اجتمعت فيها محاسن الجمال المصرى بمميزاته الجاذبة للقلب الخالبة للب من امتشاق قدّ ونحول خصر ولين عطاف ووضاحة حاجبين وسواد شعر ودعجة عينين. وكانت بنت أنات تناهز التاسعة عشرة من

عمرها وكانت أرق من نيفرت بشرة وأنقى منها لونا وكانت تنم عيناها على قريحة وقادة وذكاء نادر وشعور لطيف كما كان أنفها الأقنى يدل على أنها من سلالة سام (١) وكان يحيط بشعرها المرسل الى كتفيها من نقطة انسداله منديل حرير معلم بالأبيض والازرق يستتر مكان العقدة منه بخاتم ذهب بصورة ثعبان على رأسه تاج مرصع بالنيلم (٢) وكان شعر فودها الايسر مرسلا بشكل غديرة تتخللها أسلاك الذهب إلى مايؤازى شحمة الاذن وعود قدها اللدن ملتفاً برداء من الحرير القانى الدقيق النسج مثبتة عليه بنطاق من الذهب حمائل مزركشة . وكان حول جيدها الاسطوانى عقد من اللؤلؤ والاحجار الكريمة يداعب نهديها البارزين فى كل زفرة وشهيق .

وكان يتبع الاميرة ضابط من الاشراف وثلاث محفات فى كل محفة اثنان من ضباط البلاط الفرعونى واثنا عشر عبداً يتلوهم حملة القضبان فثلاثون جندياً مرتدين بأردية قصيرة وعلى رؤوسهم المناديل وفى أيديهم اليمنى خناجر كبيرة وفى اليسرى سعف النخل رمزاً الى مهمتهم السلمية وتتدلى السيوف بحمائلها الى مؤازاة القدم . وكان يحف بهذا الزى العظيم مئات من الأبكار الناهدات يحملن على رؤوسهن جرات الماء يوافين بها من يصيبهم الظمأ من العساكر ورجال الحاشية .

---

(١) توجد جملة صور لرعمسيس الثانى أجملها وأتقنها الصور الموجودة فى متحف تورين بايطاليا ويظهر منها أن أنفه أقنى واشبه شيء بمنقار النسر وأقرب فى الشبه أيضا بانف نابليون الاول

(٢) كان الثعبان عند قدماء المصريين رمزاً على الملك والسلطة يمثل مالها من الحق فى الاعدام والعفو كما أن الثعبان اذا لم يلدغ لا يقتل وكان فراعنة مصر يزينون تيجانهم بصورة الثعبان. والنيلم هو الياقوت الازرق

وكن يجارين الجياد الصافنات وتلك القدور فوق رؤوسهن لاتميل يمنة ولا يسرة ولاتتداعى الى السقوط .

وكان رجال بطانة الاميرة يستظلون بظلات يحملها خدم يركضون خلفهم ، وكانوا يتحدثون بلغو الحديث ، وكانت الاميرة تعطف على جيادها لأن الذباب كان لايفترّ عن لسعها كما كان يتبع العسكر وحملة المحفات والظلات . وكانت البنات الحاملات جرار الماء يجارين تلك الجياد ويسابقنها على حصباء تتلظي بأشعة الشمس حتى كادت قلوبهن تتمزق وأعصابهن المتوترة تنقطع لشدة ماتالها من الاعياء ولا راحم لهن ، إذ كان الجميع بين لاه بحديث أو مشفق على حيوان أو متزلف للاميرة بعبارة مدح أو استحسان . وما زال الركب سائراً حتى وصل إلى منعرج طريق قريب من مدخل الوادى الذى فيه مقبرة الاسرة الملكية المتقرضة ، فأشارت الاميرة بوقوف الركب فوقف . وما هي إلا هنيهة حتى علا فى الافق غبار انكشف عن الموهار بعاكر فى عجلة يجرها جوادان أدهمان من جياد الشام كان الدم والزبد يتساقطان من لجاميهما بعد إذ قطعا المسافات الشاسعة خبباً على أحجار صلدة ، وما أدرك الركب حتى هبط من عجلته منفتلا نحو الاميرة فبعد أن حياها بتحية الاحترام قال لها : فى هذا الوادى دار أولئكم الذين ستشملهم الاميرة بنعمة الزيارة ، فهل تأذن لى بأرشادها اليها ؟ قالت الاميرة : الافضل يا بعاكر أن نذهب اليها على الاقدام ليرتاح رجال الركب ونساؤه . فانحنى بعاكر إشارة الطاعة ، أما هي فوثبت من عربتها وثبة

الغزال بعد أن أسلمت أعنة الجياد إلى أحد اتباعها وتلتها فى النزول من المحفات نيفرت والوصيفات وتسلل حاملو الظلات والجنود الى ناحية وقفوا فيها شاخصين فى الاميرة يرتقبون أوامرها ، فأمرتهم بملازمة أماكنهم وأن لا يصحبها سوى بعاكر ونيفرت .

ثم جدت فى السير على حصباء تتلهب حرارة وأدركت أن نيفرت لن تستطيع مسابقتها فخفضت من غلواء سيرها . وما بلغت الى آخر الطريق حتى وقف بعاكر بغتة . وكان وقوفه تجاه سور هبطت عليه نسور تجردت رؤوسها من الريش ولزمت السكون بحيث يخيل معه للناظر من هيئتها أنها جامدة باردة . فاقبل نحوها ثم جثم أمامها إعظاماً لها لانها درجت فى هذه البقعة باسم الالهة التى كان سكان طيبة يعتقدون أنها الحامية لحمى مدينتهم فاقتدت به بنت أنات ونيفرت .

وأشار بعاكر بسبابته بعد ذلك إلى كوخين مبنيين بالآجر وطمى النيل قائلا : ذانك كوخا والد الفتاة الجريحة . فانطلقت بنت أنات نحوهما واجفة الفؤاد مضطربة القلب مزلزلة القدم وتبعها بعاكر حتى إذا بلغت الحائل القائم دون الكوخين طرق أذنيها أنين مستطيل وبث متقطع ، وسمعت نيفرت هذا الانين فأخذها الروع وترامت على بنت أنات ثم وقفتا تحدان البصر فى بعضهما لشدة ما نالهما ولبثتا كذلك وقتاً قالت الاميرة للموهار بعده : هيا اسبقنا إلى المكان . فصدع بأمرها وقال متبسما : ألا يحسن أن ندعو الينا هذا الرجل لنوقي أنفسنا الدنس بالوقوف ببابه ؟ وكانت نيفرت تحدق فى بنت أنات بعين

المبتهل الراجى ألا تدخل . فقالت الاميرة بصوت تدل نبراته على السيادة والامارة : لست أخشى الدنس ولا اتقيه فهلموا بنا ندخل . ولم يكن الموهار برح مكانه فقال : أتريدين أن تستنزلى على نفسك غضب الآلهة . غير أن الاميرة كانت فى أثناء هذا الحديث اجتازت الحائل وأشارت إلى نيفرت باقتفائها فبسطت هذه ذراعيها استنكاراً وضرعت إلى مولاتها أن تحجم عن فعلها . فضحكت هذه وهزت كتفيها استخفافاً ثم لم تكن إلا صرّة الحالب حتى دخلت وجار الحانوطى وغابت عن النظر فوجدت به معزتين وحماراً ودجاجاً يفحص الارض .

ولقد أزعج الاميرة هول ما رأت ، لأنها اعتادت رؤية المناظر السارّة والمشاهد البديعة . على أن انزعاجها لم يك تقرفاً أو ترفعاً بل شفقة وحناناً على أرباب ذلك المسكن الحقير وأخذ منها العطف بحيث ودت أن لو تنكرت بزي الشحاذين واطمار الفقراء حتى لا يتنبه الحانوطى وآله إلى قياس الفرق بين حالهم وحالها وحتى لا يتراءى لانظارهم ضعة قدرهم وسفالة مقامهم فى الاجتماع الانسانى ، فتكون كالملك المتجبر الذى يتعمد الجلوس إلى مائدة رصّ فوقها شهي الطعام ورائق المدام ثم يعرض عليها أفراد رعيته وقد عضهم الجوع بنابه .

وكانت كلما جالت بنظرها فى انحاء الوجار وضح لها الفارق العظيم بين ما تعودته من المناظر الفخمة وبين ما تشهده فيه من آثار الضعة والفاقة ، وشعرت بقلبها الحنون تحفزه الآلام . وكلما طرق أذنيها أنين الفتاة الذى يستمطر من العيون الدمع الهتون ضاق صدرها واحتواها

اليأس لعلمها أنها سبب شقاء هذه الفتاة وعذاب آلها .

وقد تمنت الاميرة أن لو تعود الى مكانها وتخلص من هذا المنظر المؤلم لولا أنها بلغت الى نقطة لا تحمد معها العودة . ولهذا ظلت ثابتة فى مكانها تجيل الطرف حواليها فى دلالات الآلام وبراهين الاحزان . وكانت كلما أمعنت النظر ازدادت يقيناً بعجزها عن تخفيف مصاب القوم بالتأسى والسلوان ، وادركت أن سلطتها الملوكانية ظل زائل وأن الهدايا الفاخرة التى أتت بها لاسترضاء الجريحة وآلها زهو باطل . لذا رجعت على نفسها باللائمة إذ قالت : ليت كان مجيئى هنا فى مظاهر الخشوع والابتهال لا فى مجالى الأبهة والجلال.

أما وجار آل الفتاة فكان لا ينفذ الضوء فيه إلا من كوة صغيرة فى سقفه الواطىء ومن باب ضيق . فلما وصلت الاميرة الى الباب رأت وسط الوجار عجوزاً قوست الاعوام ظهرها وكسا الشيب رأسها ، تلبس ثوباً أزرق من القطن مشقوقاً من الامام بحيث يبدو منه صدرها وقد وشم بشكل نجمة منبعثة الاشعة . وكانت تفترش الثرى وتضم فتاة اليها يظهر من تناسب أعضائها أنها هيفاء القد ومن بياض وجهها وقدميها الممتدتين نحو الباب أنها من الفتيات اللائى سباهن الجيش المصرى فى حربه مع أقوام الشمال . وكان بالقرب منها شيخ طاعن فى السن يتحسس بيده هاتين القدمين مدمدماً بكلمات متقطعة لا يفهمها السامع ولو داناه .

أما الجريحة التى كانت خشنة الثوب الذى كان لا يسترغير عورتها

وجزءا من جسمها فكانت فى وضعها السالف وانطباق جفنها قليلا أشبه بالطفل إذا استهوته الاحلام فاستعذب المنام ، لولا أن شفتيها كانتا من آن إلى آخر تتشنجان تشنجاً يدل على شدة ألمها وزوال لذة أحلامها .

وكان شعرها النحاسي اللون المرسل بين كتفيها مرصعاً بورود ذهب بنضرتها الحزن الشديد على ما نزل بصاحبتها من الجراح فى صدرها ونهدها على أثر مرور عجلة الاميرة فوقها . أما بنت أنات فقد لفت نظرها هذا المنظر المؤثر ومضت فى تيار الافكار بينما كان نبسشت يجس نبضها ويعد ضرباته ، وخلفه تيتا الاعمى يرتل التعاويذ والرقى . وكان من آن إلى آخر يفتح حقيبة العقاقير الطبية فيتناول منها سائلا يقطره على الجرح ليسكن منه الآلام .

وكان بجانب الجدار نسوة متفاوتات فى العمر تقاطرن من كل فج وحدب حين بلغهن خبر المصاب لتعزية آل الجريحة فاسترسلن فى البكاء حتى أحرقت الدموع مآقيهن وحزت فى جلباب خدودهن وكانت كل منهن تقوم تلو الاخرى لتجىء بماء فى إناء من صلصال ليغسل الطبيب به الجرح الفاغر . فكان كلما صبّ شيئاً منه على صدر الجريحة رجفت أعضاؤها وتفتحت عيناها وأرسلت منهما إلى واحد من الواقفين حولها نظرات تنمّ على مقدار ما عراها من الدهشة المقترنة بالاحترام له والارتياح لرؤيته . ولم يكن بنطاؤر بحيث ينتبه من غفلته إذ كان متطامناً إلى جدار يرتقب وصول الاميرة ، ولكن اتفق أن تلاقى

نظرها بنظره فلم يتمالك أن بسط يديه ضارعاً الى الله أن يسبغ عليها حلة الشفاء . ثم عاد فأطرق برأسه وانصرف الى ما كان فيه كما لو كان ارتقابه حضور الاميرة الأمر الوحيد الذي يجول بخاطره . وكان مجيء بنطاؤر إلى هذا المكان فى شارة الكهان وشوارهم الابيض ليؤدى ما كلفه به أمينى من انذار الاميرة ، أى أنها إذا تخطت عتبة بيت ينيم إلى داخله فقد استهدفت نفسها لعقوبة القانون الدينى ، وهى استحالة تطهيرها مما يلحقها من الدنس ما لم تلتمس من الكهان الصفح عنها . وكان كلما تدبر ما عهد أمينى اليه به من تعزير الاميرة لانها أتت أمراً يعده من أشرف الفعال وأوجبها للحمد والتمجيد أحس بعبء تلك المهمة على عاتقه ومخالفتها لاعتقاده .

ولقد أسلفنا أن مخالطة بنطاؤر لنبسشت أثرت فى حاله فوسعت نطاق عقله وطهرته من أوضار الاعتقادات الباطلة وفتقت ذهنه لخواطر وأفكار لو جهر بها فى حضرة زملائه لما تردد الرئيس أمينى فى تسفيه رأيه ومعاملته معاملة الملحدين باعتبار أن تلك الخواطر والافكار إن هي إلا نزغات شيطان رجيم ووساوس تدعو إلى الثورة والانقلاب .

ومع هذا فما برح بنطاؤر شديد التمسيك بالخيالات وفاسد الاعتقادات لمحض المسايرة والمجاراة احتفاظاً بمركزه فى الكهنوت وحتى لا تفوته فرصة الصعود إلى شرائف الرتب . ولا جرم فقد كان المصريون يعتبرون الكاهن أنبه ذكراً من التاجر والفلاح وأسمى قدراً من الجندي فكان لذلك لا مندوحة له عن العمل بحسب أصول الدين ،

وان يكن فى ذاته لا يسلم بصحة الاسباب التى أفضت الى وضعها .

ومن أخص ما كان بنطاؤر يتظاهر بالتسليم به من أصول الدين وقواعده اعتبار المحنطين قوماً مغضوباً عليهم وأن من مظاهر هـذا الغضب قضاء الدهر عليهم بمزاولة هـذه الصناعة وأن المحنط لا يملك لنفسه الحق فى اتخاذ حرفة سواها يزاولها ، لأنه لا يجوز له بمقتضى تلك الاصـول والقواعد التملص من عمـل يضطره إلى أدائه حكم الوراثة عن أبيه وجده ، ولسوف يؤديه من بعده رضوخا لهذا الحكم ابناؤه وأحفاده ومن بعدهم من الاجيال . وكان الكهان يعللون هذا القضاء المبرم بأن المحنط إنما يكفر بمزاولته حرفته الوضيعة عن سيئات وخطيئات زلت فيها قدمه قبل حياته الحاضرة باعتبار أن روحه حلت سابقاً فى أحد الاجسام ثم فارقته ساعة وفاته تلتمس الحياة الاخرى ، غير أنها طردت منها لما ارتكبت من الآثام الكبار وقضى عليها بالحلول فى جسم جنين من أجنة طبقة المحنطين السافلة اللعينة لتحاكم عقب الوفاة أمام قضاء العالم السفلى .

وما تخطى بنطاؤر باب بيت المحنط حتى أحس باضطراب وتقزز فى نفسه ولاسيما إذ تذكر تلك النظرية الحلولية وفتح لها باب إيمانه . وكان الشيخ الهرم يخالسه النظر فقال له معترضاً فى دهشة : هاك أحد ذوى الثياب البيضاء . . أفيجوز أن تحول المصيبة الدنس فتجعله طهراً ؟ فسكت بنطاؤر ولبث الشيخ يدلك قدمي الفتاة بلطف ، عملا بأشارة الطبيب . وكانت حركة يده منتظمة فى ذهوبها وجيئتها انتظام عجلة

الناعورة فى دورانهـا اذا اطردت القوة المحركة لها . أما بنطاؤر فقد تخبل فى أمره حين سمع كلام الشيخ وأخذ يسائل نفسه : ما مراد هذا الرجل بقوله إن المصيبة تمحو الدنس ؟ هل المحو خصية من خواصها أم هو صفة طارئة عليها ؟ نعم ان النار تطهر المعادن من الخبث وتنقيها ، والرياح تقشع السحب وتقصيها ، ولـكن لم لا يصح تطهير الانسان من دنس لصق به ولم يقضى عليه بالبقاء طول عمره متمرغاً فى حمأته ؟ ثم التفت إلى المحنط فأنس منه هشاشة تذكر معها ما كان بين والده وهذا الرجل من قرائن الشبه ، فهاجت هذه الذكرى من نفسه طائفة من حوادث الماضى الدفينة فيها . ومدّ نظره بعد ذلك الى العجوز امرأة الشيخ فتبين فى وجهها أمارات القلق والحزن ورآها تنتفض من آن إلى آن انتفاض العصفور بلله القطر أو تنكبّ على الفتاة كلما ضعف نفسهـا أو اشتد خفقان قلبها فخشع لهول ما رأى ووجم وخيل له أن باباً موصداً انفتح أمامه على مصراعيه فتراءت له حوادث الماضى كأنما قد صورها مصور بارع وبدا له شبح شخصه لما انتابته وهو صغير أعراض الحمى التى أنهكت قواه وأكلت منه وشربت ولاح له مثال أمه تحوطه بصنوف العناية وتشمله بمظاهر العطف والرعاية وتلزم فراشه ليل نهار ثم استخلص من مجموعة هذه المرائى المروعة ما حقق له أنها كانت قدوة النساء فى العطف على الابناء . ولـكنه لم يلبث بعد مقارنته إياها بالعجوز فى الشفقة والحنان ، هذه عليه وتلك على ابنتها ، ان ظهر له بون ما بينهما فى ذلك وان حنان والدته عليه ما هو إلا قسوة إذا قيس

بحنان العجوز .

وما انتهي بنطاؤر من هذه المقارنة حتى أخذ يناجي نفسه بقوله: إن الحب الطاهر واحد لا يتعدد وكل لا يتجزأ لانه مستمد من حب ايزيس لهوروس أي من حب الأم ولدها . وإذا كان ولع العجوز بالفتاة حقيقة لا مراء فيها ، فينبغى أن يكون هذا الولع مشتقاً من ذلك الحب الرباني وطاهراً مثله من الدنس ، وإذا كان مصدر الطاهر الطهارة فلا محل لما زعمه الزاعمون من دنس المحنطين والتصاق هذا الدنس بمحنطيهم أو الداخلين في بيوتهم . . تلك هي الحقيقة البيضاء التى لا تحتاج فى تفهمها إلى عناء . . وإذا قلنا إن القدرة الربانية بثت فى اللبوة الحنان على جروها وأودعت الكركدن الرفق بصغاره وكلاهما يستمد روحه من الشيطان أفلم يك أدنى الى الصواب أن يكون الانسان أشفق على بنيه وذراريه من الحيوان ؟

رفعت العجوز رأسها رويداً رويداً عن جسم الفتاه بعد أن ظلت بضع ساعات منكبة عليها لأن الرجاء فى نجاتها من الخطر المحدق بها قد عاودها لما تحققته من دلائل مثولها للشفاء ، وتهلل وجهها فرحاً وأنشأت بعد إذ استقرت مطمئنة فى مكانها تبشر الطبيب وزوجها بهذه البشرى . وكان لا يزال زوجها يدلك قدمي الفتاة بيده اليسرى فبسطها مع اليد اليمنى ليحمد الله على هذه النعمة واقتدت العجوز به فى القيام بفروض الحمد .

وحانت من بنطاؤر التفاتة نحو العجوز فرأى آثار الورع بادية على

وجهها وراعه منها مشاركتها زوجها فى التوجه الكلي الى الربوبية فكانا يمثلان فى وضعيهما آنئذ معنى التجرد عن المحسوسات والصبو بجوارحهما الى عليّ الذات ، ولم تخالطه ريبة فى شدة شغف المرأة بحب الفتاة ومرت بخاطره ذكرى ممات أخته الوحيدة حينما ترامت أمه عليها والدموع تتحدر من مآقيها ، وكيف كان والده يضرب الارض بقدميه جزعاً ويأساً وينزع شعر رأسه وجداً وحزناً ، وقال : أعظم بورع هذا الرجل وأكرم بحنان امرأته وإن اعجب فعجب منهما تلك المسارعة إلى حمد المنعم على ما أولاه من النعم .

منذ هذه الاونة دب إلى قلب بنطاؤر دبيب الشك فى صحة ما يؤمن به من المباديء الدينية فأخذ يقارن بين الانسان والحيوان إذ قال : تحب الضباع صغارها ولكن الحيوان لا يضارع الانسان فيما رصد نفسه له من استطلاع الحقائق الربانية وتسنم ذرى الكمالات الادبية المجردة من كدورة المادة . وبعد صمت قليل قال : لا عقل للحيوان يفكر به ولا يرجى أن يدبره عقل ما دامت الربوبية الابدية البقاء . . ذلك لأن الحيوان متجرد من آثار الحياة العقلية بل من بعض مظاهر الحياة الجثمانية نفسها حتى التبسم ، وهو من أيسر هذه المظاهر . فالحيوان من هذا الوجه يشبه الطفل فى أول عهد وجوده من جهة أنه لا يتوافر فيه أثناءه سوى القوة الحيوية التى هى روح الحيوان . ولكن لا يمر بالطفل زمن ينفذ فيه شعاع الروح الدنيوية أي الادراك العام الهادى للنفس فى ظلمات الحياة حتى تبدو مظاهره فى أول ابتسامة

تحرك بها شفتاه . وليست هذه الابتسامة أقل فى صفائها سطوعاً من من نور الحق الذى منه تنبعث واليه ترتد . ولقد شهدت فتاة المحنط تبتسم كذلك الطفل وكل مولود حملته أمه ووضعته ، فلو كانت مدنسة ولم يفرق بينها والمخلوقات فارق لما شاركتهم فى الابتسام الذى هو أول مظاهر الادراك الحيوى .

مضى بنطاؤر فى تيار هذه الهواجس وعرض على ذهنه ما خطر له من أسباب المقارنة والقياس حتى تملكت نفسه الشفقة على تلك الفتاة فجثا على ركبتيه ضارعاً إلى من بيده ملكوت كل شيء وعنده مفاتح الغيب أن يصلح الاحوال ويحسن المآل . وكان دعاؤه منبعثاً من قلب سليم وصاعداً الى ذلك الخالق المبدع الذى كانت تحرم الاسرار الكهنوتية عليه الجهر باسمه الاقدس لا إلى الآلهة الكثيرة التى يغالى الشعب فى تمجيدها لادراكه إياها بالحس وسهولة استطلاعه حقيقتها مع ضعف عقله وقصر نظره . وما آمن بنطاؤر بهذه العقيدة حتى توجه إلى بارىء النسم مبتهلا أن يأخذ بناصر عشيرة المحنطين التى ضربت عليها الذلة والمسكنه وكادت تنقرض بالحرمان المهلك ، وأن ينتشلها من الحضيض الذى تنكست فيه منذ قرون ، وأن يمده بروح من عنده ليهتدى فى طريق الحياة إلى جادة الحق والصواب ، وأن يوفقه لتبديد سحب الشكوك التى غشيت بصيرته ليتم ما عهد به أداؤه على ما ينبغى من الحكمة والسداد .

وما أتم الدعاء حتى وقف فى مكانه الاول فشيعته الفتاة بلفتة من

لفتاتها . وكان كأنه قد نشط من عقال الخمول وزوده إيمانه الجديد عزماً لم يعهده قبلا فأخذ يفكر فيما لا بد له من موافاة الاميرة به عند لقائه بها وكان يعرفها قبلا إذ رآها مراراً فى الحفلات الدينية التى تقام عادة بطيبة الاموات . ولطالما أعجب بحسنها وافتتن بجمالها كغيره ممن كانوا يشيعونها بنظرات الحب ولواعج الغرام كلما مرت فى زيها العظيم ، غير أن هذه المعرفة لم تتعد حدود الاستشراف اليها من بعيد ، فاصبح بنطاؤر فى افتتانه بها كمن يفتتن بالكواكب فى لألائها ويتطلبها بامعان النظر فيها وهو يعلم أنها منيعة المرام بعيدة المنال .

أخذ بنطاؤر بعد هذا يجيل النظر فى أركان الوكر المظلم وقد غص بالناس وتساءل كيف يباح لبنت أنات ورجال حاشيتها العديدين الدخول فيه ، ثم تخيل قدومها فى ركبها الخفيل ودنوها من باب الوكر الذى ضربت عليه الذلة والفاقة والمصائب حاملة تاجها الملكي وبدا له كأن رجال حاشيتها بما عهد فيهم من الخشونة والغلظة يدفعون النساء اللائى جئن لعزاء المحنط وزوجته على مصيبتهما ويقصونهن عن ممر ركبها حتى لا يقع نظرها الكريم عليهن وهن فى اطمارهن الرثة وشاراتهن المحزنة فيقشعر جسمها وينقبض قلبها أو يعاملون الطبيب وصاحبه بالامتهان ، ثم استجمع فى مخيلته ما يعقب ذلك من الهرج واختلال النظام ويبديه صويحبات الاميرة من علامات التقزز والترفع كسد الانف باطراف الانامل أو الامر بتنحية الشيخ وزوجه عن طريق الاميرة . وربما اضطرا أن يطرحا الفتاة أرضاً بينما هما يضمانها

إلى صدريهما للمبادرة باستقبالها وتقبيل الارض بين يديها ، وتمثلت له بنت أنات بعد ذلك ناثرة عليهما حلقات من الفضة أو الذهب على سبيل التصدق وإظهار الرضاء بينما يجتمع النسوة اللائى تفرقن ويصحن صيحات الفرح والسرور . وتراءى له عقب ذلك كله تألف الركب ثانياً للعودة بالاميرة ولكأنه كان يسمع بعض رجال حاشيتها وهم يقولون : بارك الاله في ابنة الشمس وأدام لها الشرف والكرامة تلقاء ما أبدته من آيات الشفقة والاحسان ثم يبعد الموكب حتى يختفى مرآه عن العيان .

وما تمثل لبنطاؤر هذا المنظر حتى اشتد به الغضب والتبرم لأنه صاغ من هذا الخيال حقيقة فوقف إلى جانب باب كوخ الجريحة تأهباً للذود عنه وللحيلولة دون دخول الاميرة فيه إذا فاهت بما لا يرضيه من الكلام . غير أنه لم يلبث بعد هنيهة أن حاسب نفسه حساباً عسيراً إذ قال : قد تكون عاطفة الشفقة والرحمة حفزتها لهذه الزيارة . . ولكن لا . . ما جاءت الاميرة إلى هنا والدافع لها هذا الوازع النفسانى الشريف ! بل كل ما فى الأمر أن قصر الملك أبيها أصبح يبعده عنه خالياً من بواعث اللهو والانشراح وما يدعو الى قطع حبال الوقت فى الهناءة والاغتباط فجاءت فى قضها وقضيضها لتتخلص من سأم الاقامة وملل الوحدة . ولعلها ناجت نفسها بقولها ان قضاء ساعة فى زيارة هذه الاسرة الحقيرة خير من الاستقرار فى مكان لا ينشرح فيه الصدر باستجلاء مختلف المناظر البهجة فضلا عما تتداوله الالسنة عندئذ من

عبارات الاطراء فيها والتنويه بذكرها لأنها مع سموّ مكانها وعلوّ قدرها قد تفضلت منة وكرماً منها بتفقد أحوال الرعية بما جبلت عليه من شرف الخصال وكرم السجية . ثم أطرق هنيهة بدت عليه فيها لوائح الغضب لأن وسواسه كان يحدثه بما أتته بنت أنات من الرذيلة بتلبسها بهذا الخلق . . وأية رذيلة أوجب فى نظره لانتقاص القدر من الازدهاء بالباطل والتباهى بما يربأ بسجاياها الكريمة أن تتنكس فى حضيضه . وكان يحس إذ ذاك بتزاحم الفاظ اللوم والتأنيب على لسانه الذى كاد ينطق بها غير حاسب حساباً لمكانة الاميرة ، اعتقاداً منه بأنه فيما مر بخاطره من الافكار لم يجر عن قصد السبيل فى حكمه عليها . وأنه لفى هواجسه هذه إذ سمع جلبة خيل مقبلة ووقع حوافرها على الصخور فانصت باهتاً . وما هي إلا برهة من الزمن حتى توردت بنت أنات اليه من ملتوى الوادى فى هيئة هيئة وزي عظيم ومرت من باب الوجار الحقير مرور الطيف وجلست إلى جانب الجريحة فلم يعرفها أحد من الحاضرين وفى مقدمتهم نبسشت وصاحبه تيتا . على أنهم هموا جميعاً بالوقوف فأشارت اليهم بالبقاء فى مقاعدهم ففعلوا ، ثم أمعنت النظر فى الجريحة بعين يخامرها الحنان والعطف ومدت يدها اليها ونظرت بعد ذلك للعجوز قائلة : ما أجمل هذه الفتاة ! فهزت العجوز رأسها تصديقاً على هذا الاعجاب . أما الفتاة فقد افتر ثغرها بابتسامة دلت على سرورها بما سمعته من الثناء على جمالها وودت أن لو كان فى قدرتها التشكر للاميرة والثناء على صنيعها الحسن . وأدركت بنت أنات ذلك منها فكفتها

مؤونة هذا العناء بأن وضعت على صدرها بلطف ورفق وردة زاهية نضيرة مما زينت به غدائرها . وكان الشيخ لا يزال دائباً على دلك قدمي الفتاة فنظر إلى الاميرة وقال لهـا : جزتك هاتور خيراً على صنيعك الحسن الذى طوق أعناقنا بالمنن وزادتك جمـالا على جمالك . فقالت الاميرة : أرجو منك يا أبت أن تصفح عنى فقد وقع هذا المصاب رغم إرادتى . فنهض الرجل واقفاً وقال : أأنت بنت أنات ؟ فأطرقت برأسها وأجابت : نعم أنا . فقدحت عيناه شرر الغيظ وقال : هيا ابرحى هذا المـكان وإلا تدنست نفسك مدى الازمان . قالت : لن أبرحه حتى تغفر لى ذنبي وتستر عيبي . قال : ما فرط منك كان رغما عنك . . ألا تدرين أن سنابك خيلك قد تدنست إذ داست هذا النهد ؟ ثم رفع الغطاء عن صدر الجريحة فاذا بجرح غائر ينزف بالدم فأشار اليه ثم قال: ذه أول وردة رصعت يدك بها صدر ابنتى . . أما الوردة الثانية وهي هذه . . وكان قد تناول الوردة التى وضعتها بنت أنات على الغطاء وهمّ بالقائها خارج الكوخ فأمسك بنطاؤر بيده وقال له بصوت متخلخل : مكانك ! . ألا تبصر بعقلك الضعيف وقلبك المتقرح بالاحزان الوردة الثالثة التى جاءت الاميرة لتهديكها وهى وردة العطف والاحسان ؟ ان الاميرة على سمو قدرها ورفعة منزلتها قد تنازلت بالحضور إلى هذا المـكان لا لتسترضيك بالمال بل لتوليك كل ما تملك من أدب وخشوع عطفاً عليك والتماساً للمغفرة منك . ومن تهبط ابنة رعمسيس من علاها لزيارته وتفقد حالته حق عليه الخضوع لها بلا مراء ، ولو كان أمير

الامراء . وإذا كان الآلهة تقدست اسماؤهم وتعالت أقدارهم قد تقبلوا من بنت أنات استغفارها من ذنوبها فلم لا تسامحها أنت أيضاً ولو لتكفر عن نفسك السيئة التى حملت وزرها بحكم الوراثة وستلقيه على عواهن ابنائك من بعدك على تعاقب الاجيال .

فأطرق الشيخ برأسه ثم رفعها بعد إذ سكنت عاصفة غضبه وقال لبنطاؤر : ان يدك أيها الكاهن شديدة قاسية وكلامك أشد إيلاما من طعنات الرماح . . لم تتعمد هذه السيدة الفاتنة الحسن ، حينما أرسلت لجيادها العنان ، إلحاق الاذى بحفيدتى هذه لا ابنتى كما تقولون . ولو أنها كانت زوجك أو زوج هذا الطبيب ، بل لو أنها كانت ابنة تلك العجوز التى تلتمس قوتها من فضلات القرابين لذهبت من الصفح عنها الى مقاسمتها ما هي فيه من بؤس وشقاء ساقهما اليها القدر المحتوم والقضاء الذى لا مفر منه . فما وقع من الاميرة كان عفواً لا قصداً واضطراراً لا اختياراً وإنما شأنها فى ذلك شأنى حيث حرمت الطهارة وحرمانى إياها لم يكن جزاء ما قدمت يدي من شر ، إذ هو ثمرة ما قدر علىّ مذ كنت فى المهد صبياً لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً . وبعد فقد كان حتما على مثلى وهذا مكانه فى الاجتماع إن يحمل على عاتقه وقر ذلك المصاب أو يتناسى ما أدركه من الشقاء وان توافرت أسباب تدعونى الى الزهد فى هذه الحياة بل إلى القنوط منها . ألست أرى كبار الناس وصغارهم يفرون منى إذا التقوا بى فى الطريق حذرَ التلوث بلوث الدنس بل ويقذفوننى بالاحجار حيث تقع أبصارهم علي سائراً

كنت أو واقفا ؟ (١) . . . أليس من الخسران ومصائب الحرمان أن أرى غيرى يكتسى من عمله بحلة الشرف والفخر بينما لا أجنى من عملى غير العار والشنار والقذف بالشتائم والاحجار ؟ على أنى رغم هذه الضائقة لا أحمل لأحد فى صدرى حقداً بل أجر ذيل الاغضاء على تلك الزلات واعفو عن تلك الخطيئات . وجدير بمثلى أن يعفو ويتجاوز حتى يقوم الدليل عندى على أن ما أنا فيه من الشقاء قضاء ليس منه مفر وشدة لا دافع لها . وإذا كان مآل أمرى حرمانى ملاذ الحياة أبد الآبدين فجدير بمثلى أن يعفو عن الخطايا ويغضي على الزلات .

كانت بنت أنات وهو يفوه بهذه العبارات المملوءة حكما وعظات تحدق فيه النظر تحديقا ينم على تأثره فقاطعته سائلة : وهل عفوت عنى أيها الرجل الشقي الحظ ؟ فلم يلتفت اليها بل ظل منصرفا إلى بنطاؤر واستأنف كلامه بقوله : الرجل الشقي الحظ ! . . هو أنا . . نعم أنا ذلك الرجل بلا مراء . . ألم تزجرونى من بينكم مزجر الكلب . . ألست أعيش هنا غير ما تعيشون ؟ . ألم تتلقونى بصنوف الاهانات كلما وقفت بينكم كما يهان الطفيلى . . ألم تعاملونى معاملة الذئب إذا سطا على قطيع الغنم ؟ قال بنطاؤر : اعلم يا شيخ أن الاميرة جاءت تلتمس عفوك وتحسن اليك . قال الشيخ : عسى الأله المنتقم الجبار يدون صنيعها فى كتاب الحسنات ويصب على أبيها جام الاحزان والغموم ، فانى أشكو بني من

---

(١) قال ديودورس الصقلى المؤرخ أن المحنطين كانوا يشقون جثث الموتى باحجار حادة واردة من الحبشة ويوغلونها فيها بمقدار ما تسمح لهم به القوانين الموضوعة لنظام حرفتهم فاذا اتموا هذه العملية ثار اهالي الموتى عليهم بالشتائم فاذا ولوا الادبار رموهم بالاحجار

إمعانه في العسف بى والأساءة الىّ إذ اغتصب أولادى السبعة وساقهم إلى ميدان القتال ليذوقوا الوبال والنكال . ومما زادنى مضضا أن ابنته أصابت ابنة أصغرهم سنا بجرح بالغ ليس له دواء ولا يرجى منه الشفاء. وقد كانت لحياتى ، فى هذا الوكر الحقير ، كشعاع الشمس يبعث الحياة فى الوجود . أما أولادى السبعة فقد مات منهم ثلاثة بالجوع والعطش فى أعمال إيصال النيل بالبحر الأحمر (١) وقتل ثلاثة فى حرب الحبشة ، أما السابع وهو الكوكب الساطع فى سماء حياتى فوسواسى يحدثنى بأنه لا منجاة له من براثن وحوش الشمال .

ما استقرت هذه الكلمة فى أذني العجوز حتى هاجتها ذكرى ابنائها فأخذت تولول وتبعها النسوة اللائي جئن لتعزيتها وتخفيف مصيبتها ، فانتبهت الفتاة مروعة وسألت : من تبكين ؟ أجابت العجوز : نبكى والدك ياريحانة القلب وثمرة الفؤاد . فأسفرت ثنايا الفتاة عن ابتسامة الطفل الذى يكتم أهله حقيقة ما يسأل عنه وقالت : والدى في طيبة الآن وقد رأيته بها فقبلنى وقال إنه وصل اليها بحصته من الغنائم وانه سيقيم هنا فلا يعود إلى ميدان القتال . ثم أتحفنى بحلقة من الذهب الخالص كانت منوطة بثوبى وقبما دهمتنى العجلة ومرت على صدرى وها هى خذيها لتشترى بها قربانا للآلهة ونبيذاً لجدّى وكحلا وغصن

---

(١) كانت تسمى هذه الاعمال باللسان المصرى القديم (ثينات) أعنى النقب أو الحفر وهى تطابق موقع قنال السويس فى جزء منه وقد جاء وصفها على الجدار الخارجى المواجه للشمال من هيكل والكرنك في الصعيد ويؤخذ منه تطابق جزء عظيم من قنال السويس وترعة الاسماعيلية الحاليين مع تلك الترعة القديمة

مصطكي لك[١] فقد مضى زمن طويل عليك ولم تتكحلى .

وكان ينيم يصغي لحديث الفتاة فلما انتهت منه بسط يديه حامداً الله ومثنياً عليه . ثم رأى بنطاؤر العجوز ولسانها يلهج بالحمد والثناء وتشارك بعلها فى هذا الدعاء ودموع السرور تساقط من ماقيها . إلا أن الشيخ لم يلبث أن ارتاع إذ ذهب الى أن الفتاة قد شبه لها أبوها فى صورة انسان يماثله أو أنها رأت فى المنام ما قصته على الاسماع، ولكن من أين يأتى الالتباس أو الوهم وقد رأى الحلقة معقودة بثيابها وحل العقدة واستخلص الحلقة منها والتقطتها بنت أنات بعد إذ سقطت من بين أصابعه وقدمتها اليه بل بعد أن قالت له هذه الاميرة : قد كان قدومى عليك اليوم عنوان سعادة ومقدمة خير ، فقد كنت يائساً من بقاء ابنك على قيد الحياة فجاءتك البشرى بوجوده قريبا منك ، وكنت قانطا من شفاء ابنته وها هي بعنايته تعالى مقبلة عليه . وما كادت تتم كلامها حتى دنا ينيم منها حبواً وأمعن فيها النظر مغرورقة عيناه بالدموع ثم قال مبتهلا مولاتى: تجاوزى عن خطيئتى كما تجاوزت عن ذنبك. أجابت : إننى لشاكرة لك حسن صنيعك ثم التفتت إلى نبسشت وأوصته أن يعنى بأمر المريضة ودنت من الفتاة فقبلتها بين عينيها وتركت إلى جانبها دملج ذهب مصفي وبرحت المكان بعد أن أمرت بنطاؤر باقتفاء أثرها .

---

(١) يسمى الكحل باللغة المصرية القديمة (مستم) وقد كان شيوعه فى مصر نقلا عن اهالي آسيا. أما اعواد شجر المصطكى فكان يستعملها قدماء المصريين فى تنظيف الاسنان وكانت لهم طرق لصناعة الحبوب من الافاويه المعطرة للفم ولا تزال هذه الطرق مبينة في أوراق البردى التى استكشفها ايبرس

الفصل السادس

تنازع العشق والسحر

كان بعاكر ونيفرت فى خلال ما مر من الحوادث ينتظران أوبة الاميرة من بيت ينم ، وكانت الشمس آنئذ فى سمت الرأس ترسل سهام أشعتها النارية الى الصخور الصلدة والتلال الجرداء القائمة الى جانبي المضيق فتنعكس منها حرارة كالسعير تكاد تزهق الارواح . ولم يك فى تلك الارجاء مكان ظليل يأويان اليه ويتقيان به هذه الحرارة المحرقة ، فأمرت الاميرة حاملى الظلات بالوقوف حيث توجد العجلة والمحفات .

ولقد انقضى زمن طويل وهما بهذا المكان لا تنبس شفتاهما بكلمة الى أن عرا نيفرت الضجر وتولاها الملل ، فرفعت عينيها المتلوزتين نحو بعاكر وقالت : لقد طال غياب بنت أنات ببيت المدنسين وأحرق جسمى حر الهجير فما العمل ؟ قال بعاكر : لا بد لنا من انتظارها هنا على كل حال . ثم ابتعد عنها قليلا وصعد فى صخرة يترامى النظر من قمتها الى مدى سحيق . وبعد أن سرح النظر حوله دنا من نيفرت وقال : لقد اهتديت الى مكان يقينا أشعة الشمس . فلما عرفت نيفرت موقعه هزت رأسها منكرة توافر الظل فيه فتلامست الحلى والجواهر التى رصعت بها رأسها فسمعت لها وسوسة لطيفة تشبه حفيف الاشجار ،

ثم لبثت فى مكانها فقال بعاكر : ان سخت[١] قد هاجتها فى السماء عوامل الغضب فرشقتنا بسهامها النافذة فهلمى بنا إلى ذلك المكان نتفيأ ظلاله وان يكن غير جدير بالمقام . فتنفست نيفرت الصعداء ثم اقتفت أثر بعاكر وهو يقصد صخرتين قائمتين يفصل بينهما مضيق ألقت قمة احداهما على قاعه من الظل ما لا يتجاوز مساحته بضع الاقدام المربعة ، فلما انتهى اليه رفع بعاكر حجراً مكعبا وأرساه على هذا المكان بعد قتل ما علق به من العقارب ثم غطاه بمنديل وأشار الى نيفرت بالجلوس عليه قائلا : ها أنت الآن فى مأمن من حرارة الشمس ولظى الظهيرة !

لما جلست نيفرت أخذت تحدق فى الموهار نظرها بعين يخامرها القلق والغيظ ، وكان لا ينفك عن التنقل أمامها جيئة وذهوبا ، فلم تتمالك أن قالت له : الزم مكانك يا هذا وخلك من الغدو والرواح ، فوقف بعاكر موليا ظهره اليها وأخذ يطيل النظر فى الطريق المؤدية الى بيت ينم ، فقالت نيفرت : أما عندك قصة تقصها ؟ فتحول الموهار نحوها وقال : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . ثم استأنف السير ذهوبا وجيئة كالضوارى إذا حبست فى القفص . فقالت : انى عالمة بدخيلة صدرك وما ران على قلبك من الحقد لفشلك فى الزواج بى . . ولكننى لا أجد لحقدك سببا فقد كنا ، حينما خطبتنى والدتك ، أطفالا لا نعقل . وكثيراً ما كنت أبتهج إذا سمعتها تقول عنى أننى

---

(١) سخت الهة كان يمثلها المصريون برأس لبوة أو هرة يعلوها قرص الشمس أو الثعبان وكانوا يسمونها رع وكان اذا علا رأسها الثعبان دلت على شدة حرارة الشمس أو على شدة الهيام والشغف

امرأتك الصغيرة . وكنت أودّ لو تحققت فى المستقبل أمنيتها إذ من يأبى من السيدات أن تكون صاحبة الأمر والنهي فى قصورك الباذخة وبساتينك النضرة وخيراتك الوافرة التى كانت فخر آبائك وأجدادك ؟ فضحك بعاكر مزدريا بهذا القول، فخنقت نيفرت لاستهتاره ولكنها كظمت حنقها وتظاهرت باللين والاعتدال فى القول حتى لا يركب بعاكر متن الشطط معها فى خطابه فقالت : نعم انى أنست منك غضباً عليّ واعراضاً عنى ولكن مهما يكن غضبك أيجوز لك أن تفسر قولى بافتتانى بثروتك وطموحى لأموالك ؟ إنى أكرر لك ما قلته الآن وهو أنى كنت شديدة الاحترام لك والعطف عليك وحسبى شاهداً على ذلك مقاسمتى إياك همومك وأحزانك حينما كنت تشكو بثك اليّ وتتوجع من تضييق والدك عليك واساءة زملائك اليك ، فلما توفى والدك سافرت الى آسيا . . فقاطعها بعاكر ساخراً بقوله : . . ففسخت عقد الخطبة ونسيت مواثق المودة وتزوجت بمينا ملازم ركاب الملك . . . انى بكل ذلك عليم يا نيفرت فلا حاجة بك الى تكراره . قالت نيفرت : يسوءنى جداً يا ابن خالتى أن تكون واجداً علينا وأن تعرض والدتك عنا وتتنحى عن مخالطتنا ولكن هلا عذرت وأنت أدرى بحال المرء إذا تيمه العشق وسلب قلبه وأخذ لبه ؟ قال بعاكر وقد وقف أمامها مواجهة واضعاً يديه على صدره : نعم أنا بكل ذلك عليم ولكن ألا تدرين أنت أيضا أنى كلما فكرت فيك شعرت بأن ناراً تتأجج بين جوانحى بل أن جحيما تلظى فى كل جسمى ؟ وما كاد يتم

كلامه حتى شخصت عيناه وبحّ صوته وقال : لعلني نسيت أن منصب مينا لدى الملك يصرف الانظار نحوه أكثر منها نحوى فى منصبي بعيداً عن جلالته . . ووالدتك . . فقاطعته نيفرت بصوت مرتفع : لم تكن والدتى هي التى اختارت . . ولا هي التي أشارت بتفضيله عليك وانما أنا التى اختارته إذ رأيته يوما يقود عجلة الملك فبدا لى كأنه إله الشمس وقد حانت منه التفاتة اليّ فرمانى من لحظه بسهم أصاب فؤادى . وحدث بعد ذلك أننا التقينا يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك فبهرنى منظره الشائق فى شارته الجميلة وخيل لى أن الالهة هاتور قد نسجت حولى نسيجاً لحمته وسداه أشعة الشمس المسجدية ، فافضى اليّ بما فى قرارة نفسه إذ قال إنه يشعر من حبى بمثل ما أشعر من حبه فلما خطبنى الى أهلى بعد ذلك أبت والدتى أن تزوجنى منه فاعترانى همّ كثير لا يعدله غير ما كنت أتمناه أن أكون قرينة له ، وعراه هو أيضا وجد شديد لم ينفع معه التأسى ، فصار لا يهنأ له طعام ولا شراب ولا يهدأ خاطر ، ولحظ جلالة الملك تغيراً فى حاله فسأله عن سبب حزنه ووجومه ، إذ كان كما تعلم يحبه ويجلّ قدره ، فكاشفه بسره وأوقفه على حقيقة أمره ، فتلطف به وواساه وتفضل كرماً منه وإحساناً بطلبي من والدتى التى لم يسعها ، والطالب هو سيد البلاد ووليها ، الا ان تسارع بالطاعة . وانى أؤكد لك بان نعيم الابرار فى عالو[1] ليس بالشيء

---

(١) عالو باللغة المصرية القديمة مسكن الابرار فى الجنة وقد جاء فى كتاب الاموات انهم يقيمون فيه بالقرب من مياه جارية ويغرسون ويحصدون

المذكور إذا قيس بما أوتيناه من السعادة والهناءة أنا ومينا ، حتى لقد طوّح بنا الظن يوماً أننا صرنا فى عداد الآلهة .

وكانت عينا نيفرت شاخصتين فى السماء فلما وصلت الى هذا الحد من الحديث حدقت النظر فى بعاكر وقالت : ولكننا ما لبثنا على ذلك أياماً معدودة حتى تكدر صفونا بهجوم قبائل الخيتاس[1] على وطننا فاضطر رعمسيس الى قتالهم ولزم مينا ركابه فى ميدان القتال ، ولم يكن قضى معي من الايام إلا خمسة عشر ثم .. فقاطعها بعاكر بصوت مضطرب : ثم أجاب الآلهة دعائى وتقبلوا رجائي إذ فرقوا بينك وذلك الذى سلب هنائى وسبب شقائى ، واضرموا فى قلبك نار الشوق اليه . وإذا ظننت أنك أتيتنى بنبأ جديد فقد أخطأ ظنك ، لأنه إذا تمتع مينا بمحاسنك الفتانة خمسة عشر يوما فقد ذهب الى حرب يصرع فى ميدانها عشرات الالوف من الشجعان . فتبرمت نيفرت بهذا الكلام وصاحت : كلا فلسوف يؤوب بالسلامة وتقرّ عينى برؤيته . قال بعاكر : جائز أن يعود ولكن ألا تعلمين أن أيدى الخيتاس قاسية وأن سيوفهم ماضية وأن جبال لبنان تحلق فى سمائها الوف النسورة ولا يستحيل أن تكون محومة على جثته الآن تمزقها كما مزق قلبي وتسلبه روحه كما سلب لبي ؟ وكان وقع هذا الكلام فى نفس نيفرت أشد إيلاما من طعن الحسام فلم تتمالك أن وقفت واتجهت نحو بيت

---

(١) الخيتاس هم الاراميون الذين كانوا مع شعوب آسيا الغربية يحتلون صعيد مصر فى عصر رعمسيس الثانى

بينهم ، غير أنها لما تولاها من الهلع بسبب ذلك الكلام خانتها القوى فسقطت فى مكانها ثم عالجت الكلام فلم تستطع بل شعرت بضيق فى صدرها وخفقان فى قلبها حتى لم تعد تعى شيئاً مما يحدث حولها . وكان بعاكر يحدد فيها النظر وهو جامد فى مكانه لا يواسيها بكلمة تخفف من آلامها ، ذلك لأن قلبه كان أشبه بأحدى شجرات الجنوب تطرح الثمار الرطبة والثمار الجافة معاً فى وقت واحد أو فى بعض أيام السنة التى يطلع القمر فيها على الافق والشمس ساطعة الضياء ، أعنى أنه كان يتراوح بين طرفي العشق والضغينة تراوحه بين الامل فى الظفر بأمنيته واليأس منها . وكانت دموع نيفرت ما زالت تهطل مدراراً ، فاذا شهدها بعاكر تحدر على خديها هدأ روعه واطمأن قلبه وزال ما به من الاضطراب وانطفأت النار المتضرمة بين جوانحه ، إذ كان يشبهها بالطل إذا كسا الازهار أكسبها البرودة وذهب بما فيها من جفاف . ولكنه مع ما أبداه من جفاء الطبع وغلظ الكبد وهو فى هذا الموقف الذى تحن فيه العواطف وتتلاشى دقائق الاحقاد كان لا يلبث ، كلما خالسها النظر ، أن يزداد هياماً بها ويحس بتأثير محاسنها أفعل فى قلبه المستهام منه عن ذى قبل فيقف عليها نظراته لا يصرفها صارف عن شخصها المحبوب ، ويهم بالتماس رضائها عنه وتقديم كل ثروته اليها فى مقابل كلمة صفح يسمعها من فيها أو قبلة يضعها على ثغرها المنضد بأسنان لؤلؤية لا نظير لها نظاماً وإشراقاً .

وبعد ساعة أفاقت نيفرت من غشيتها فكفكفت الدمع ونظرت

الى بعاكر ساخرة مستهترة وقالت بصوت خافت : لقد جف لسانى من العطش فهات لى ماء . أجاب : إن ميعاد حضور الاميرة قد دنا فكيف العمل؟ قالت : لقد انحلت قواي بما أصابنى من العطش الشديد . ثم تناثرت الدموع على خديها فهز بعاكر كتفيه ثم هرول مسرعاً نحو الوادى القريب حيث مقابر أجداده لاحضار الماء . وكان عارفا بمنعطفاته ومضائقه لكثرة ماتردد على المقبرة فى الليالى المقمرة للصلاة على أرواح الموتى . وكان بوده أن يأتى بالماء من بيت ينيم إلا أنه تذكر أن هنالك مغارة تأوى اليها عجوز شمطاء ففضل أن يأتي بالماء من عنده وانصرف مغذاً السير ، رجاء أن يسترضى نيفرت بمروءته . وكانت تبدو لناظره وهو يجرى باكية متوجعة فيذوب عطفا عليها ويزداد هياماً بها وإن يكن من جهة أخرى يبغضها أشد البغض لما تبديه نحوه من الصد المتلف والهجران القاتل .

وكان باب المغارة الذى يحفظ العجوز من سطوات بنات آوى واللصوص الذين يتسللون خلال الديار فى جنح الظلام مفتوحاً . وكانت جالسة تحت ظلة من الخرق البالية مثبتة الاطراف بقوائم خشب يستعان بها على حزم أعواد النبات . وكان بالقرب منها هرّ أسود ينشق الرائحة الذافرة التى تسطع من رؤوس الغربان والبوم التى طرحتها العجوز بعد أن استخرجت عيونها . وكان بجوار الباب طائران من الجوارح يغشاهما الدخان الكثيف المتصاعد من نار وقودها حطب بعض النباتات ، فلما دنا بعاكر من هذا الباب نسي هواجسه ولا سيما

حينما سمع العجوز تسأل بصوت خشن : هل غلى الشمع الذى على النار ؟ ثم سمع برطمة من الداخل لم يفهم معناها وانما فهمتها العجوز لقربها من مصدرها حيث قالت جواباً على قائلها : ضعى عليه عين قرد[١] وريش أوز وخرقة بالية من ثوب معلم ثم حركى هذا المخلوط رويداً رويداً حتى إذا امتزج بعضه ببعض اطفئى النار ثم خذى الجرة واملئيها ماء . . وما أتمت هذا الكلام حتى برزت من المغارة أمة سوداء بلغ ردفاها من النحول مبلغا يخيل للناظر معه أنهما هيكلا عظم طليا بالقار . وكانت تستر عورتها بخرقة بالية فسد لونها فتناولت إناء من صلصال وضعته على شعر رأسها المتجعد وسارت فى طريق مقابلة للتى جاء بها كرمنها . أما العجوز فكانت نحيفة الجسم محدودبة الظهر ، قد أكل الدهر عليها وشرب ، فلما وقع نظرها على بها كر نهضت للقائه بعد أن عصبت رأسها بمنديل حرير معلم وألقت على الارض حصيرة لاخفاء رؤوس الغربان والبوم التى كانت تتصاعد منها رائحة كريهة ثم عادت إلى مزاولة عملها كأنها لم تبصر بأحد ولم تجاوب على نداء بها كر إياها بصوته الجهوري ، فرأى أن يدنو منها أكثر مما فعل فمدت اليه نظرها وقالت : انى أحمد سعيك أيها الزائر الشريف ، فلقد وافيتنا يحف بك يوم سعادة ويوم نور ، وزرتنا فاسبغت علينا حلة المجد والفخر . فألقى بها كر اليها

---

(١) ان بعض الكلمات التى تروى هنا على لسان العجوز وتحضيراتها السحرية مستنبطة من ورقة البردى المعروفة بالورقة السحرية المحفوظة الي لان فى احد المتاحف . وبقية الكلمات والتحضيرات ماخوذة من ورقة سحرية اخرى تعرف باسم ورقة هاريس ، المترجم لها ، وتاريخها مطابق لتاريخ وقائع هذه الرواية ومن ورقتين غير السابقتين تسمى احداهما بورقة ليد والثانية بورقة برلين وهذه الاخيرة باللغة اليونانية

بحلقة فضية[1] وقال لها : قفى على قدميك وأتنى بماء نقي فى إناء نظيف . فالتقطت العجوز الحلقة الفضية ، وبعد أن حدقت النظر فيها طويلا قالت : هذا هو اللجين الخالص ! هـذا هو المعدن الكريم ! ولكنه دون ثمن مائي السحري العجيب الفعل الغريب التأثير . قال بعاكر : لا تكثرى من الهذي أيتها العجوز وعليك باحضار الماء فوراً . ثم رمى اليها بحلقة ثانية فقالت : انك طلق اليدين ! انك نديّ الكفين ! لذا أريد أن أطلعك على جميع الاسرار وأفتح لك مغالق الابواب . والذهب الوضاح لها خير مفتاح . . لقد طلبت منى بقيمة الحلقتين ماء ولكن لم تقل لى ما هو الماء ، فأن عندى منه أصنافا عدة منها ماء إذا تناولته صانك من فتكات الحيوانات الضارية وماء يساعدك على استنزال النجوم من أفلاكها وماء يوقفك على أسرار الطرقات المجهولة وهو أليق بك وأعلق بوظيفتك ، وماء تسبر به أعماق القلوب أو ترى بواسطته فى المنام لذيذ الاحلام وماء يعينك على تحصيل العلم والتمييز بين العدو والصديق وبين الغث والسمين وماء تعرف به متى يموت أعداؤك وماء يخفيك عن الانظار وماء تزيل به الاصبع السادس من رجلك اليسرى . قال بعاكر : يظهر من كلامك أنك تعرفيننى أيتها العجوز ؟ قالت : كيف لا ولى عين ترى الغيوب وتستطلع ما فى القلوب ويد حذقت تجهيز المياه النافعة للكبار والصغار . قال : إن هذا إلا من أساطير الدجالين وحيل المشعوذين . ثم أخذ بمقبض سوطه وقال للساحرة :

---

(١) كانت المعاملات عند قدماء المصريين بحلقات من الفضة والذهب

هيا اسرعى فأن السيدة التى لأجلها . . فقاطعته قائلة : لمَ لم تقل من بادىء الأمر أنك تريد ماء لسيدة ؟ . . ولقد كان فى إمكانى معرفة قصدك لولا أن كل الذين اعتادوا طلب الماء السحرى النافع فى استهواء أفئدة النساء أمراء وأعيان من ذوى الاسنان وليس فيهم من هو مثلك فى ريعان العمر وعنفوان الشباب .

اختفت العجوز هنيهة ثم عادت وبيدها إناء اسطوانى الشكل دفعته إلى بعاكر قائلة : دونك الشراب الذى تطلبه وطريقة استعماله أن تشوب نصفه بماء وتعطيه من تحب استهواءها اليك فأذا لم يأت بالغرض المقصود فوافها بالنصف الثانى، إذن لا بد من حصول الفائدة على ما يوافق الأمل . واعلم أنه لا خوف من هذا الشراب حتى على الطفل الصغير . أما الشيخ الذى قعد به عجز الشيخوخة وخمولها فهانه إذا تناوله تدب فيه روح النشاط والهمة . وان تكن فى ريب من صدق قولى فهاءنذا اشرب منه قبلك . ثم رفعت القدح الى فمها كمن يتجرع شرابا وقالت : أرأيت بعد أنه لم يلحقنى منه سوء ؟ وما شربته الآن أمامك كاف لمثلى ، ولو تجاوزته لعرضت قلبى لخطر الوقوع فى شرك هواك ، وأنا عجوز شمطاء . . فعليك إذاً بهذا الماء يا بني فان لم يوافق تأثيره حسن ظنك به يكن ما دفعته لى من المال غير رابٍ على ثمنه ، وان وافقه فقد حقت عليك مكافأتى بثلاث حلقات من الذهب الابريز . وانى لموقنة من قضائك لى بهذه الجائزة .

قالت ذلك وبعاكر مصغٍ اليها لا تنبس شفتاه بكلمة ، فلما

أمسكت عن الكلام جذب الأناء منها فى عنف وشدة ووضعه فى قطرميز فضة ثم ألقى للساحرة بثلاث حلقات فضه بعد أن سألها إناء مملوءاً بماء النيل . فهرولت الساحرة الى داخل المغارة قائلة : ما لى أراه عجلا ملولا ؟ لقد سألنى أأعرفه وهو ما لا خلاف فيه ، ولكن لا أدرى من هي معشوقته .. أهي وردة الصغيرة ابنة المحنط القريب منا أم غيرها . فان تكن هي فله العذر فى هيامه بها إلا أنها الآن طريحة الفراش وقد لا يرجى لها البقاء بعد الحطمة التى أصابتها . . وبعد فلا مناص لى من تعرّف الخبر . . أما أنا فلو كنت فى مقتبل العمر لما مال قلبى الى هذا الرجل . . وإن أعجب فعجب أن ينال بغيته بغير ما يبديه من الصبر وقوة الاحتمال ويبسط يده به من وفير المال .

طافت هذه الهواجس بخاطر العجوز وهي تملأ بماء النيل المصفى جرّة من الخزف البرّاق ، فلما انتهت غطت فوّهتها بورقة غار رسم عليها قلبان مترابطان بسبعة خطوط متوازية ، ثم خرجت فتناول بعاكر منها الأناء وأمعن النظر فى الورقة فقالت الساحرة : فى هذه الورقة سر ارتباط القلوب كما ترى ثلاثه للرجل وأربعة للمرأة وسبعة لمن لا يتجزأ شعاع شاشاش شارشال اشاشا[1] وأخذت بعدئذ تردد هذه الرقى الشيطانية فلم يلتفت بعاكر اليها بل عاد من حيث أتى قاصداً مكان نيفرت وقبل أن يدركه بقليل وضع الجرة على حجر مستو ثم أخرج من القطرميز إناء الماء السحرى بيد راجفة وقلب خافق فخيل

(١) هذه الالفاظ مستخرجة كما هى من الورقة السحرية الموجودة في برلين

له أن هاتفاً يصوّت به : ها هو الشراب السحرى فلا تهملن فرصة ساقها القدر اليك ، وإلا أفلتت من يدك أبد الآبدين .

وكان بعاكر في هذه الآونة كأنسان يعتمد فى إصلاح شأنه على قريب له تؤول ثروته اليه بعد وفاته، ثم يعثر بالمصادفة على وصية لهذا القريب تحرمه الميراث منه . . فهل يرفع هذه الوصية الى دار القضاء مجتزئا بما سيؤثر عنه من الامانة ، ويكون حينئذ كالباحث عن حتفه بظلفه ، أو يمزقها ويمحق أثرها ليظفر بما كانت نفسه تطمح اليه من الثروة والغنى ؟

تبين مما تقدم كيف كان بعاكر شديد الحرص على عقيدة آبائه والمحافظة على أوامرها ونواهيها ، فلما ظفر بالماء السحرى الذى أكدت العجوز أنه الوسيلة لنيل الأمانى ضعف إيمانه وخامره الشغف بكسر هذه القيود التقليدية فناجي نفسه بما يأتى : نعم إن الفسق إثم كبير وخطيئة لا تغتفر ولكن أي حرج لو تقيدت بنيفرت ؟ إنى بلا ريب أحق بها من سواي لما يلحمنا من القرابة وصلة الرحم بل لما لى عليها من الحقوق السابقة وأفضل من مينا على كل حال . وإذا كان هو زوجها أفلم أكن ابن خالتها وأسبق الشباب الى خطبتها ؟ قال هذا وأخذ يعرض على ذاكرته نصوص القانون فتبين له أنها تقضى بالاعدام على ممارسى السحر الاسود (١) وكانت العجوز معروفة بمزاولة هذه المهنة

---

(١) انظر ماكتبه المسيو س . بيرش عن ورقة البردى السحرية فى المجلة الالمانية الصادرة سنة ١٨٦٣ وماكتبه المسيو شاباس عن ورقة هاريس المشهورة وماكتبه المسيو ديفريا عن ورقة البردى القضائية المحفوظة بمتحف برلين

الحقيرة وذهب لها بسببها فى طيبة ذكر سيء . غير أن وسواسه عاد اليه فقال : ولم أعد مجرماً أثما إذا كنت بهذا العمل غير عامد استهواء الفتيات وسلب ألباب الغانيات . . وهب أننى عمدت الى إصابة هذا الغرض ، فلم لا يقال إن الآلهة وأرواح الموتى من أهلى قد رأفت بى فتقبلت منى ما قدمته اليها من القرابين ومهدت لتحقيق أملى واجابة سؤلى فهدت خطواتي الى مغارة العجوز التى أرشدتنى بباعث من نفسها الى الشراب السحري الذى يلين القلوب الصلدة ويجذب الميول المستعصية ؟

كان بعاكر معروفا فى أصحابه بشدة العزم وقوة الشكيمة وارتقاب الفرص للوثبة عليها عند سنوحها . وكان إذا قال فعل وإذا فعل أصاب الغرض ، غير مفرق بين السهل من الامور والصعب الذى يستدعى إعمال الروية فى معالجته حتى يجيء وفق المراد ، إلا أن هذه الهمة لم تكن لحدة فهمه أو سعة حيلته أو بعد نظره فى المصائر ، بل هي ثمرة من ثمار المصادفة العمياء .

وكانت عادته ان يحمل قلادة ثبتت فيها التمائم المختلفة الاشكال والأحجام لاعتقاده بما لها من الخصيات النافعة والفعل العجيب الذى بثه فيها الكهان ببركة دعواتهم الصالحات مقابل ما كان يدفعه اليهم من وافر المال ويتحفهم به من جزيل الخيرات . وكان يحتفظ دائما باشياء ثلاثة : حجر اللازورد وتمثال وخاتم . أما الحجر فكان معلقا بسلسلة ذهب منوطة بنطاقه ، وفائدته عنده أنه إذا القاه على الارض فواجه

السماء وجهه المنقوش دل ذلك على نيل المطالب وتحقيق الاماني والعكس بالعكس . أما التمثال فكان يمثل صورة الاله افيرون برأس ابن آوى ، وهو هادى الضالين ومرشد المسافرين وفائدته عنده أنه إذا التمس الهداية الى طريق ألقاه على الارض أيضاً فحيث ينصرف رأسه يذهب راشداً على خط مستقيم ، فلا ينشب أن يصل الى الغاية المقصودة . أما الخاتم فقد ورثه من أبيه وبالغ فى صيانته لما يحتويه من أسرار القوة والبأس ، لأنه كان فيما مضى للملك تحوتمس الثالث الذى دخل عداد الآلهة فأمر بوضعه على أقدس قبر لاوزريس بهيكل أبيدوس[1] ليستمد منه القوة وقد أهداه قبل وفاته إلى أحد أجداد بعاكر . وكان فص هـذا الخاتم منقوشاً بثلاثة رموز مقدسة وثلاثة غير مقدسة ، وفائدته أنه إذا ودّ أن يتعرف ما سيقع له من ضر أو نفع مسّ الفص بطرف خنجره ، فاذا أصاب رمزاً مقدساً دل ذلك فى اعتقاده على أن والده الذى حل فى نفس اوزريس راض عن مشروعه فيبادر الى تنفيذه ، وإذا مس رمزاً غير مقدس عدل عن عزمه وانتظر ما يرشده هـذا الرضاء اليه فى الظروف الملائمة .

يبدو مما تقدم أن همة بعاكر فى قضاء مصالحه وتنفيذ مشاريعه كانت ثمرة رضـوخه المطلق وطاعته العمياء لما تخبره به المصـادفة

---

(١) كان قدماء مصر يعتقدون ان تيفون اله الشر قتل الاله اوزريس وقطع جسمه اربعة عشر قطعة ثم القاها في جهات بعيدة من القطر المصرى فلما رأت ايزيس زوجة اوزريس ذلك شيدت قبرا جميلا على كل قطعة . واقدس هذه القبور قبر ابيدوس وكان وجوه المصريين يوصون قبل وفاتهم بدفن جثتهم بجوار هذا القبر التماسا لبركته

الناطقة بلسان ذلك الخاتم . وكان من عادته أحياناً أن يضمه الى صدره وينتظر ريثما يلتقي بأحد فى طريقه ، فاذا مر من اليمين أفاد ذلك موافقة والده إياه على عمله أو من شماله أفاد العكس . وعلى هـذه القاعدة بني بعاكر أعماله وتصرفاته كافة ، فكان لا يعمل عملا ولا يقول قولا إلا إذا وافق عليه الموتى من آله . ولقد اتخذ أباه وأخاه الاكبر المتوفى فى ريعان الشباب رائدين له فى طريقه يدلانه على سبل الخير ويعدلان به عن مهاوى الشر ويمحضانه النصح ، فكان يعمل بما يأمرانه به وينهيانه عنه . وقـد وقر فى نفسه أنه اذا استمد بروح والده أو روح أخيـه ليستشيرهما فى أمر خطير وعمل بنصيحتهما وفق للنجح والخير ، وإذا خالف مشورتهما أحدقت به المصـائب من كل جانب . وقد علمته التجارب أن لتينك الروحين من المزايا ما تفضل احداهما به الاخرى . وإنما العمدة على العادة فاذا اعتاد من احداهما الموافقة على مالم تأذن به الثانية استمد بها دون هذه والعكس بالعكس .

وكان بعاكر يرى أنه بالسير على هذا المنهج وعدم الحيد عنه يفوز برضى الآلهة ويكون حظياً عندهم . فقد استقر فى خلده أن أرواح الموتى تتحد بعد ثبوت براءتها بروح الكون وتشترك فى تدبير شؤونه مع الارواح الاخرى . وهذا ما استحثه على تقديم القرابين الكثيرة اليها بمدفن آله وفى هياكل العبادة ، ولا سيما فى هيكل سيتى الذى كان يمجد كهانه ويكرمهم ويعمل بنصائحهم ويبالغ فى الشكر لهم والثناء عليهم . وكان يعتقد أنه إذا سار على هذه الخطة اتصلت روحه بالربوبية فتجل

عن مناظرة الكائنات السفلية، فانتفخت أوداجه لذلك كبراً وعتواً وتاه على الاشباه والنظراء، اعتماداً على الأيثار الوهمي الذى خيل له أن الآلهة قد ميزته به على أفراد الأمة المصرية، فى مقابل تفانيه فى محبتهم ودأبه على تقديم القرابين الى هياكلهم. أما أساتذة بعاكر من كهنة هيكل سيتى فكانوا يقومون المعوج من خلقه ويرشدونه الى الطريق الاقوم غير أنهم كانوا يتحرزون من تصحيح غلطاته ويمدونه فى طغيانه استبقاء لما كان يسديهم إياه من جزيل النعم ويوالى هياكلهم به من وفير الخيرات.

ولما استقر فى نفس بعاكر الاعتقاد بانه مشدود الأزر بالقوى الخفية ومكلوء على الدوام بعين العناية الصمدانية انقض من حوله الاصدقاء وبان عن معاشرته الرفقاء، فكان لا يرى إلا وحيداً فى ميادين القتال بل وفى طرقات طيبة. ولقد بالغ فى البعد عن الناس والنفور منهم حتى وصموه بالكبرياء ولم يعترفوا له بغير فضيلة واحدة وهي العزم وقوة الارادة. وقد أفضى به اعتقاده بتناسخ أرواح الموتى وتدخلها فى شؤون الاحياء من قرابتها الى الزعم بأنها كانت تبعث من قبورها فيراها رأى العين ويخاطبها فى شؤونه ويستعين بها على قضاء حاجاته. وكان كلما فكر فى هذا الاعتقاد هاجت شجونه وثارت نفسه وتراءت له صورة مينا، فلا يلبث أن تدب فى صدره عوامل الضغينة والحقد فيكثر من الصلوات للآلهة والتزلف الى الكهنة ليعجلوا بموت هذا الخصم اللدود والمناظر العنيد.

قلنا ان بعاكر وضع على الحجر الأناء الذى تسلمه من العجوز الساحرة لتطفيء نيفرت بمائه نار ظمئها ، فلما تحقق استواءه فى وضعه ولم يخش عليه الانقلاب تناول الماء السحرى بيد راجفة . وكان الشغف بنيفرت قد بلغ منه حدًا نسي معه كمين حقده عليها وتذكر حينما همّ بصب الماء السحرى فى الأناء نصوص القوانين الدينية على السحر وأنه من الآثام التى يعاقب مرتكبها بالاعدام ، فتخبل فى أمره وتراجع مستطار اللب روعاً وفزعاً ، غير أنه لم ينشب أن تزود من غرامه الشديد قوة وإقداماً فعاد إلى موقفه الاول ، ولكن مروع العينين منزعج الضمير ولبث فيه جامداً لا يتحرك . ثم تذكر الخاتم ووجوب الرجوع الى ارشاداته ، لا سيما وهو فى موقفه الحرج ، فما هى إلا طرفة العين حتى أبرزه من جيبه ومس وجهه بسن السيف فلم تصب رمزاً ما من الرموز المقدسة التى تفشت فيه ، وهو الدلالة على وجوب العدول عما انتواه من أمر . ولو كان لهذا الأمر علاقة بغير نيفرت وحبها لما تردد طبعاً فى العدول عنه ، إلا أن تدلهه فى عشقها كان قد ملك من قياده وأفقده الصواب فلم يعبأ بدلالة الخاتم ، فعمد الى استشارته بطريقة أخرى إذ ضمه الى صدره ونطق باسم (أوزريس) ثم انتظر ريثما يسنح له إنسان أو حيوان حتى إذا مر عن يمينه دل ذلك على رضاء والده عنه وموافقته على ما انتواه ، أو عن يساره دل ذلك على العكس فينصرف عن نيته . وما هي إلا إناخة راكب حتى لاح له خلف الجبل طائران صفقا بجناحيهما وحلقا فى الجو فترة من الزمن ثم مرا عن يساره ولم يمرا عن

يمينه كما كان يود ، فكاد ينشق غيظا وهم باراقة الماء السحري على الارض لولا أن شيطان الجنوب كان يتعقبه فى كل حركة فأذكى فى قلبه نار الحب ، فما لبث أن تذكر نيفرت ساحرة لبه وسالبة فؤاده ، فخارت عزيمته وتلاشت قوته ولكنه عمد الى إناء الماء السحرى فسكب نصف ما يحتويه منه فى الأناء الذى على الحجر واتجه به نحو نيفرت ليقدمه اليها فاذا بهامقبلة عليه فأخذته منه متلهفة وتجرعت كل ما فيه عباً. ثم تنفست الصعداء قائلة : أشكر لك يا بعاكر ما خولتنى من النعمة وقلدتنى من المنة فقد شفيت بهذا الماء الزلال غليلى وشرحت صدرى ، ولكن خبرنى ما الذى مر على رأسك من البلايا حتى رأيتك مضطرب الحركة ممتقع اللون ؟ . . ألما قاسيته من العناء وتكلفته من المكروه لاجلي ؟ ثم صعدت فيه بصرها ومدت نحوه يدها فتناولها وقبلها بشغف ولهف . عندئذ افتر ثغر نيفرت عن ابتسامة ملكت على بعاكر مشاعره ثم قالت : حسبك هذا وكفى يا بعاكر ، فقد برحت الاميرة بيت بينم ولا بد لنا من التأهب لاستقبالها ، ولا تنس على كل حال ما وجهته الي منذ ساعة من القول المؤلم والتنديد القارص نعم لست بمنكرة أنى أثرت فى صدرك الغيظ الذى حملك على أن ترمينى ، بسهامهما ، إلا أنى أود أن أراك فيما أنت الآن عليه من السكون وطمأنينة النفس وأن تعمل مجداً لاصلاح ذات البين بين والدتك ووالدتى . ثم أومأت اليه بسبابتها كمن يتوعد غيره بسوء العاقبة إذا لم يبادر بالطاعة . قالت هذا ورمته بسهم من لحظها أصمى فؤاده وزاده بها غراماً وافتتاناً .

أخذت نيفرت سمتها بعد ذلك إلى بيت ينيم تاركة بعاكر من خلفها يضغط صدره بكفيه معالجا بهذه الحركة تخفيف خفقان قلبه ومناجيا نفسه بقوله : لا ريب فى أنها آيلة اليّ وأنى قابض على ناصيتها فى آخر الأمر بفضل هـذا الماء العجيب . . بورك فيك أيتهـا القوة السماوية ! وكان من عادات بعاكر المألوفة وعباراته المأثورة أنه إذا ظفر بأمنية أو خيل له انه سيظفر بها تهلل فرحاً وكرر تلك الجملة (بورك فيك أيتها القوة السماوية) . ولقد انطلق لسانه بها فى هـذا المقام إشارة الى أن الامر الذى عالجه واستعصى عليـه فيما مضى قد تمهدت له السبل وزالت من أمامه العقبات ، فهو يشكر القوة السماوية التى تذلل الصعاب وتفتح موصد الابواب .

على أنه لم يستطع البقاء فى مكانه بل أخـذ يتتبع مواطىء أقدام نيفرت بعد أن احتفظ بالأناء فى نطاقه لكي يروى بمـائه غلتهـا إذا عطشت ثانياً ، وهو بذلك قد عمل بنصيحة الساحرة تلك العجوز الفاجرة . إلا أنه لم ينشب أن أحس بوازع نفسي يذم اليه رأيه ويقبح فعله وينحي عليه بصنوف التوبيخ والتقريع مذكراً إياه بواجب الاستقامة وفضل الصدق والأمانة . ولـكنه لم يعبأ بصوت الوازع ولا نداء الضمير بل تمادى فى غيه وسجل عناده واستخفافه بهزّ الكتفين وتحريك اليدين ، فعل المتبرم من سماع النصيحة لا تطابق هواه . وعلى الجملة كان كالسكير الذى كلما القيت فى روعه الرهبة من عواقب ادمان الشراب انحط على دنان الخمر يعب من مشمولها عباً .

وكان بعاكر لا يستطيع أن يكاشف نيفرت بغيظه من مينا ولا يجهر بعزمه أنه فاعل كذا وكذا للفتك به ، بل كان يكل الى (القوة السماوية) العناية بتصريف الحوادث على ما يوافق شهواته . اما الآن فقد استقل بارادته واستأثر بحريته وأصبح فى غنى عن الاستمداد بتلك القوة أو الاعتماد عليها ، ثم شطح فى الالحاد والكفر بما حبب اليه ارتكاب ما طالما اعتقد منافاته للارادة الربانية وكثيراً ما كان يتقي السقوط فى المحرمات بما كان يظهره من التقى والصلاح والدأب على تقديم القرابين للآلهة والموتى فى الهياكل والمقابر .

وحدث فى هذه الأثناء أن خرجت الساحرة من المغارة وتتبعت آثار بعاكر لترقب حركاته وتعرف من هي المرأة التى من أجلها جاء فى طلب الماء السحرى ، فلما دنت منه توارت خلف صخر وقالت : هو بعينه الرجل السداسي أصابع الرجل اليسرى . . أراه يتكلف الوقار والرصانة حتى ليخيل لناظره أنه وارث آسا حقاً فى هذا العصر . أما نيفرت وبعاكر فقد التقيا ببنت أنات وبنطاؤر فى جوف الوادى ، وكانت الاميرة قد لزمت الصمت عقب خروجها من وجار المحنط . فما غاب هذا الوجار عن نظرها حتى وضعت يدها على صدرها وترددت أنفاسها دراكا ، كأن خطراً يتهددها أو كأن حركتي الزفير والشهيق قد اختل نظامهما بتأثير الفزع من الخطر الداهم ثم عادتا الى سابق عهدهما من التواتر المنتظم . وقبل لقائها بنيفرت صوبت البصر فى بنطاؤر ثم أطرقت قائلة : ان ما شهدته الآن لعجب عجاب . فلم يجاوب بنطاؤر

على قولها مجتزئاً بحركة من رأسه تفيد معنى الموافقة عليه . ولم تكن بنت أنات أمعنت فيه النظر ولا تثبتت من ملامحه الا عند مابرح بيت المحنط فانها أخذت ترمقه بعين الاعجاب وسألته : أأنت الكاهن الذى طهرنى أمس من الدنس بعد زيارتى الاولى لبيت بينم ؟ أجاب : نعم أنا الذى طهرك . قالت : ما عرفتك الآن إلا بنبرات صوتك. وانى أشكر لك صنيعتك معى لانى اتخذتك لنفسى ، مذ شجعتنى على العمل بوحي الضمير ، قدوة صالحة في الاعتقاد فعدت الى هنا مرة اخرى بالرغم مما نصحنى به الناصحون . وانى لأتوسم فيك القدرة على الدفاع عنى ، إذا استطال أحد فى كرامتى على مسمع منك . قال بنطاؤر : إنى إن بكرت الى هنا فما هو إلا لأبلغك أنك ما زلت على دنسك . قالت وقد عرتها دهشة شديدة : إذن لقد رجعت فيما كاشفتنى به من عقيدتك ؟ قال : كل ما عندى أننى موكل بتنفيذ الأوامر العليا التى تفرض علينا القوانين تقديسها . . . وإذا لم تتدنس بنت أنات بلمس المدنسين فمن ذا الذى يتدنس ؟ قالت : أتوسم فى هذا الرجل شرف النفس واستقامة الطبع رغم ما يتبادر الى الذهن عند رؤيته من خمول الجاه وضعة القدر ، ولكننى إذا أخطأت فى ظنى ولم أصب شاكلة الصواب بحدسى فانى التمس من الآلهة التسعة أن يقيلوا عثرتى ويصفحوا عن زلتى . وعلى كل حال فلا يسعنى أن أصفه بغير صفات الورع والكرم وعزة النفس ما دامت هي الصفات التى يتحلى بحلاها ، ولكنك أنت أنت الذى كان بالأمس يزعم القدرة بكلمة على التطهير من الدنس مالى أراك

الآن تعامل المحنط كما يعامل السفلة والاوشاب ؟ أجاب : يرجع ما شهدته من انحرافى عن خطتى الأولى أن عظيما من رجال الدين أمرني، وأمره ضربة لازب ، بالمحافظة على الاصول والتقاليد إذ قال لى إن سلسلة هذه التقاليد قد سطا عليها مبرد الشكوك والبدع ، واننا إن لم نأخذ حذرنا فلامفر من انقطاع السلسلة وسقوطها بصلصلة تصم الآذان وتلقى الهلع فى القلوب . قالت : معنى هذا أنك تحسبنى مدنسة حتى الآن لا لا نى أخطأت بدخولى فى بيت المدنسين بل لمجرد العمل بالنواميس الوضعية والتقاليد القديمة . . وبعدفأجبنى إن كنت ما زلت على ما عهدته فيك من الصراحة والاخلاص والنزاهة والميل إلى مجانبة الاعتقادات الباطلة . . أجبنى فأن فى جوابك راحتى وهناءتى أو تعبى وشقاوتى . فتنفس بنطاؤر الصعداء إذ شعر بضيق فى صدره دل على أن الشكوك أخذت تنتاب إيمانه ثم قال بصوت خافت أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً : أنت تزجين بى فى مأزق لا مخرج لى منه إلا إذا صارحتك بما يدور بخلدى من أفكار وآراء خليق بى محوها من ذهنى وإزالة أثرها من عقيدتى . . غير أنى أوثر مخالفة الأوامر على معارضة الحقيقة وحجبها وإنما هي بنت الشمس التى أسموك باسمها (بنت أنات) . . أوثرها مصارحاً اياك بأنى لا أدرى أكان المحنط مدنساً لذنب اجترمه آباؤه فيما غير أم غير مدنس . لأن مركزى فى الكهنوت لا يؤهلنى للحكم فى أمر من الخطورة بمكان ما نراه الآن . إن كل ما أطلعت عليه من أحوال الرجل ويجوز لى الحكم عليه بمقتضاه أنه من ذوى الميول الشريفة

والعواطف العالية التى تجعلهم أسرع ما يكون تأثراً بالعوامل الطارئة كما تتأثرين أنت وأتأثر أنا ويتأثر غيرنا على حد سواء. أرى لهذا أن ما شهدناه بأعيننا وأحست به قلوبنا فيما قضيناه من الوقت بذلك الوكر لا يلصق بنا ذرة من الدنس بل ربما طهر قلوبنا من ادران الشكوك والريب. وإذا أخطأت الصواب فى هذا الاعتقاد فأنى أضرع الى الآلهة الكثيرة الاسماء أن تقيل عثرتى وتصفح عن زلتى فانها هي التى أوجدت المحنط من العدم كما أحدثتنا منه كذلك، معتقداً بوجود القوة الربانية الوحيدة التى تصعد الى عرشها الأسمى آيات حمدى وثنائي فى البكور والآصال، وبأن الكون وما حواه من بدائع المخلوقات وغرائب الكائنات، ومن أحياء وناميات وجامدات ومن فرح وكدر صنع الله عز وجل الذى أتقن كل شيء.

وكان بنطاؤر فى هذه الأثناء يصعد نظره فى السماء، فلما انتهى من المصارحة السابقة أطرق برأسه فاشتبك نظره بنظر بنت أنات يتشعع فرحاً وسروراً فصافحته بلهف فلثم بنطاؤر طرف ثوبها شكراً لهذا العطف الملكي والرعاية العالية فقالت له بلهجة شديدة: خلّ هذا عنك وأعفنى منه إذ الأوفق أن تضع يدك بيدى لتعمنى بركاتك فأنك رجل صادق وبالحق ناطق، وشاركنى فى الضراعة الى الآلهة أن يطهروا أولئك المساكين من الدنس فانه لا شيء فى الكون على سعة أرجائه وتباعد أطرافه أجمل من ان يرى المرء نظيره على الفطرة التى فطره الله عليها وألا يوصم بوصمة عار يزعم الزاعمون أنها سرت الى الابناء من

اصلاب الجدود والآباء . ثم أجالت النظر فيما حواليها فرأت بعاكر ونيفرت مقبلين من بعيد ، فقالت : إنهما ينتظراننا فى أشعة الشمس المحرقة فلنذهب اليهما . ثم سارت يتبعها الكاهن فلم تمض في الطريق قليلا حتى دارت على عقبها لتسأل بنطاؤر عن اسمه ، فلما ذكره لها قالت : كيف .. أأنت إذن شاعر بيت سيتى ؟ أجابها : هكذا يقولون .

وقفت بنت أنات عندئذ باهتة وصوبت فيه النظر كما يفعل من يستثبت شخصاً لقيه لأول مرة بالطريق عقب تعرفه عليه ، ثم قالت : لقد فزت يا بنطاؤر من نعم الآلهة بالنصيب الأجزل وإنى أراك قد بلغت الغاية من الرأي الصائب وبعد النظر فى العواقب ، وأجدفيك من قوة البيان وسماحة البديهة وفصاحة اللهجة ما تصوّر به للأنظار دقيق الافكار ، لذا أريد أن اتخذك أصدق خليل وأرشد دليل . فاحمر وجه بنطاؤر حياء وقال بصوت خافت ، بينما كان بعاكر ونيفرت يتقدمان حثيثاً نحوهما : كنت الى هذا اليوم من حياتى لا أرى حول عقيدتى إلا الشك والتردد ، أما الآن فقد انجلت الريب وحل محلها اليقين بنوره اللامع وشعاعه الساطع .

الفصل السابع

خيبة آمال

انتهت بنت أنات مع رجال حاشيتها ، بعد فترة من الزمن ، الى بيت سيتى . وكان أحد رماحة الركب قد سبق اليه لأخطار رئيس الكهنة بقرب وصولها ، فاستعد للقائها مع الكهان وما هي إلا دقائق معدودة حتى أقبل الركب تتقدمه الاميرة فى مركبتها ومن خلفها بنطاؤر وبعاكر فى محفة واحدة .

وكان الباب الكبير للهيكل مفتوحاً بحيث يرى النظارة من دونه ما يليه من فناء المذبح المبلط بالنهاء الصقيل تحيط به ثلاثة صفوف متوازية من الاعمدة الضخمة الراسية القواعد على أوطد الآساس وأمتنها فيبهرهم تناسق النقوش التى غطيت بها الجدران والافاريز والاعمدة وتيجانها ، وما جمعت من جمال التنميق وحسن البرقشة والتزويق وفى وسط ذلك الفناء مذبح القرابين تحيط به المباخر المعدة لأحراق كرات الريفى (١) تسطع منها الروائح العطرية فتملأ بأريجها رحب المكان وتستدرج من يشمها الى الاغفاء برهة من الزمان .

---

(١) الريفى بخور كان شائعا في مصر واصناعته طرق مختلفة مدونة فى أوراق البردى التى اكتشفها ايبرس وفى كتبات ديوسقوريدس وبلوتاوك وجالينوس وغيرهم وقد ركب الاجزائى فوجت في براين بخور الريفى نقلا عن تلك الكتابات فوجد ان احسنها ما أورد شرح تركيبه ديوسقوريدس وهو يتركب من النبيذ وعنب كورانت والاسفالت والمصطكى والعسل واللادن

وكان بصحبة رئيس المنجمين مائة كاهن افرغت على أبدانهم ثياب ناصعة البياض واصطفوا على شكل هلال منتظم الاحديداب ، استعداداً لاستقبال الاميرة بما يناسب معاليها الخطيرة . وكانوا لا يفترون عن ترديد الأناشيد بصوت يملأ القلب أسى وحسرة ، فاحتشد اخلاط الناس خلف تماثيل أبي الهول المواجه بعضها بعضاً على صفين متوازيين يفصلهما طريق يمر منه الزائرون بين ضفة النيل وباب الهيكل . ولقد لبثوا ساكنين ساكتين لا يتساءلون عن نبأ هذا الاحتفال العظيم ، لاعتيادهم شهود امثاله في كل آن ولأنهم لا يهمهم منه سوى إثارة الاشجان بما يسمعون من شجي الالحان . وبعد قليل لاحت بنت أنات في ركبها المنيف فلما دنت من هذا الجمع الحفيل رنت الى جلالتها الاحداق وامتدت نحوها الاعناق وانطلق الكهنة يتغنون معاً « السلام على ابنة رعمسيس . العبادة لابنة الشمس بنت أنات » . ثم أعادوا السلام على بدئه فكانت الآفاق تردد صداه آونة بعد أخرى ، وظلوا كذلك حتى اجتازت الطريق المرصوف المحفوف من جانبيه بالتماثيل ، ووقفت مركبتها تجاه باب الهيكل فركع الكهنة ركعة الاجلال وحياها المنجم الأعظم بالتحية اللائقة بهذا المقام . ثم ولى ظهره اليها وتحفز للدخول فاقتفت الأميرة أثره ، ولكنها لم تمض بضع خطوات حتى اندفعت أصوات الكهان بما يصم الآذان من الألحان ، فوقفت في مكانها باهتة متخبلة إلا أنها لم تلبث أن استأنفت المسير فما كادت تخطو خطوة حتى التقت بأميني عند عتبة الهيكل الأعظم مرتدياً بثيابه

الكهنوتية التى ورد وصفها فى فصل سابق ومد اليها المحجن[1] كأنه هم بأن يلكزها به وقال لها بصوت يلقى فى النفس الروع : إن وجود صاحبة العفة وربة التقوى وتاج الصون ابنة رعمسيس فى هذا الهيكل الاقدس لمن أجمل الاشارات الى هطول البركات ووفور الخيرات ، ولكن التقاليد الدينية صريحة النصوص فى وجوب اغلاق أبواب بيوت الآلهة فى وجوه الذين يلحقهم الدنس وتمسهم شوائب الرجس، لا فرق فى هذا بين العبد الحقير والامير الخطير . فاستحلفك يا بنت أنات باسم القوة السماوية التى تستمدين منها وجودك الذاتي لتقولن لى الصدق فيما أنا سائلك عنه . . أأنت طاهرة أم لا زلت ملوثة بأدناس المحنطين ؟

قال هذا ووقف تجاه الأميرة يحد فيها بصره فأحفظها هذا القول وغاظها وكسر بالها فاحمر وجهها وطفق نهداها الرمانيان يصعدان ويهبطان استنكاراً لمعاملة لا تليق بمكانتها واستقر فى خلدها أن الكاهن الأعظم دبر لها مكيدة للوضع من كرامتها فوطنت النفس على مفاجأته بما لم يكن فى حسابه من القول المقذع . ثم أنشأت تتكلم ، فحدق أمينى فيها بعين الارهاب والتهديد وتربد وجهه تربداً تغيرت به بهجته وتنكرت بشاشته فأمسكت عن الكلام . إلا أن هيبة منظره لم ترعها إذ تجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن يرى بنت أنات لا تقيم له وزنا ولا ترعى له

---

(١) عصا الكهنوت

حرمة واحتدمت فى نفسه نار الغيظ وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردي من خلال بشرته الصافية الأديم . إلا أنه رأى أن يكظم هـذا الغيظ ويأخذ بالأناة فى الأمر فأعاد السؤال الأول فى صيغة لطيفة الديباجة ظاهرة المعنى فقال : أعيـد عليك سؤال الآلهة الذين أنابونى عنهم فى بيتهم هذا بمجيئك الى هنا تبغين التطهر من الدنس الذى تلوّث به جثمانك وروحك ؟ أجابت بصوت جهير : سوف أجاوبك على هذا السؤال . قال : إذا جاوب والدك عليه فانمـا يجاوب الآلهة فقط وانى لآمرك يا بنت أنات أن تبرحي هذا المكان المقدس الذى تلوّث باقذار وجودك به . فارتاعت بنت أنات لهذا الكلام وقالت : هاءنذه ماضية فى سبيلى . ثم دنت دنوة من الباب فاذا بها تبصر بنطاؤر واقفاً مبهوتاً ومرتاعاً ، لأن ما سمعه من أقوالها وإن وافق اعتقاده ليس من الهنات الهيّنات لا سيما وأن لأمينى من بسطة الجاه والنفوذ وقوة البطش ما تعنو له جباه الجبابرة . ولقد خرقت الأميرة بثبات جأشها وقوة حجتها سياج هذا النفوذ فوضعت من قدر أمينى فى نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصته وأعوانه .

ولهذا ظل حينما انكفأت الى قصرها يشيعها بنظره فيبصر بها وهي تومىء الى بنطاؤر إيماءة لم يدرك معناها . وكان هذا الشاعر يحلق بفكره آنئذ فى جوّ الخيال فانبهته الأيماءة من غفلته . فأخذ يرشقها بنظرات تشف عما فى فؤاده من الهيام ، فأيقن أمينى أن بين الاثنين سراً لا يفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق : فارتعد غيظاً وصوت

بينت أنات أن تقف وأن تصغى اليه ، ففعلت ناظرة إياه بعين المستفهم عن سبب استرجاعه إياها ، وهي ماضية فى طريقها . فقال : أنت يا بنت أنات تظاهرين الآلهة بالعداوة والتعدى . والمتبادر الى الفهم أنه لم يزين لك هذه الغواية ويتركك فى هذه العماية إلا حليف لك هو الآن بمرأى منك ومسمع . لهذا أنذرك أيتها الفتاة الجامحة فى الضلالة بأن الآلهة لا تتجاوز عن ذنبك إلا إذا رجعت اليهم بحسن التوبة . ثم صعد نظره فى بنطاؤر وأومأ اليه بسبابته قائلا : أما أنت أيها الكاهن الذى تمادى فى البهتان وخضع لوساوس الشيطان فعبثاً تطمح الى استدرار غيوث المكارم الربانية والفوز بالمغفرة الالهية ، فلقد أصررت على الباطل والبهتان ونكثت العهود وحنثت فى الايمان . ومع أن الآلهة قد أجزلت لك المواهب وأغدقت لك العطاء ، من ذكاء متوقد وخاطر سريع ، فسنعاملك بالحرمان من هذا المعهد ونبعدك الى أقصى مكان ، مشيعاً بالخزي واللعنة من كل إنسان .

فرفعت بنت أنات رأسها وصوّبت نظرها الى أمينى وصعدته فيه ثم التفتت الى بنطاؤر وكان واقفاً تجاهها فرأته ساكن الجأش مطمئن النفس ، وقد أخذ يتقدم نحوها بقدم ثابتة . ففهمت أنه يبغي تبرئة نفسه مما عزاه الكاهن الاعظم اليه وخشيت أن تفرط منه كلمة تخشى عاقبتها أو تزل قدمه فى هفوة يسر عليه النهوض منها ، فتقدمت نحو أمينى وابتدرته بقولها : إننى وحدى الجانية على نفسى بما تعمدته من الدخول فى وجار المدنسين . ولا يد لهذا البرىء الساحة من كل ذنب الطاهر النفس من

كل عيب فيما اجترحته من الآثام . . كلا بل أنه أكثر من نصحي أن أتجنب الدنس فلم تبلغني العظة وزجرني فلم يعمل الزجر في نفسي . وهاءنذه قد جئتك مستميحة العفو، فاقلني من عثرتي وامح ما بي من الرجس الذي حال دون دخولي في هذا المكان الاقدس .

لم تتم الاميرة هذه الكلم حتى تهلل وجه أمينى بشراً وسروراً وشملها بمظاهر عطفه إذ بارك فيها بأمرار يده على رأسها، ثم سار بها في داخل الهيكل حتى وصل الى قدس الاقداس حيث غمس شعرها الفاحم في الزيوت التسعة ، بينما كانت رائحة البخور تسطع من حولها . وأذن لها بعد ذلك بالعودة الى قصر الملك أبيها ذاكراً لها أنها لم تبرأ تماماً من الخطيئة وأنه لسوف يرشدها الى ما يجب اداؤه من الصلوات وتقديمه من القرابين لتخلص خلوصاً تاماً من شوائب الدنس، ووعدها بأن يرفع هذا الأمر الى مقام الآلهة حتى إذا تلقى أوامرهم فيه بادر بابلاغها اليها . وقعت هذه الحوادث والكهنة عاكفون على ترديد الأناشيد والناس في خارج الهيكل يذهبون مذاهب شتى في تأويل أسباب هذا الاحتفال ، وينتظرون خروج الأميرة للوقوف على جلية الخبر ، لا سيما وأن الشمس كانت في تطفيلها وأن الساعة قد أزفت للرحيل من مواطن الاموات . ومما جرى على لسان بعض من كان يهمهم استراق الاخبار أن جماعة الكهان ضربوا على بنت أنات اللعنة والحرمان لزيارتها وردة التي فاقت فتيات طيبه بالحسن والجمال .

وكان سواد اولئك الذين يتنسمون الاخبار من العامة وأفناء

الناس كالصناع والمحنطين ، فلما وقفوا عليها هاجوا وماجوا وانقسموا شيعاً وأحزاباً وتخاذلوا كتخاذلهم الذى أفضى فى عهد استيلاء الاجانب على بلادهم الى التناحر، ثم أنحوا باللائمة على الكهنة لاستبدادهم وعسفهم فى مناصبهم التى تستدعى ملاينة الناس والرفق بهم وانتقلوا من ذلك الى الطعن فى القوانين والتقاليد المأثورة ذاهبين الى أنها تخالف ضرورات العصر ورموا القائمين عليها بالظلم والاجحاف .

وكان فى المتظاهرين جندى باسل لعبت الخمر بعقله فتناول حجراً رمى به باب الهيكل ، ففعل الاطفال فعلته وتحفز الرجال للقتال . وكانت الحمية قد دبت فى نفوسهم بتحريض النساء اللائى ساءهن الاستهانة بمقام الأميرة . وكان الكهان دائبين فى أثناء ذلك على ترديد الاناشيد الدينية ، ولكن علت صيحات المتظاهرين على أصواتهم فلم يعد أحد يسمعها . وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى انشقت الابواب وبرز منها أمينى بملابسه المحلاة بالوشى متثاقل الخطوات متهاديا فى مشيته تحف به الهيبة والوقار . وجاء فى أثره عشرون كاهناً يحملون الرموز المقدسة والتماثيل الالهية فلم يلبث السكون أن نشر جناحيه على المتظاهرين . فثابوا على الفور الى السكينة ولزموا حدود الأدب ، فوقف أمينى وقال بصوت جهير : لم تفسدون علينا الامور وتمنعوننا من إقامة الصلوات ؟ فما فاه بهذا السؤال حتى طرقت المسامع ضجة دلت على اختلاف السامعين فى الاجابة عليه والاعراب عن مكنون ضمائرهم إذ أصر البعض على وجوب المضي فى المظاهرة ، وفاه بألفاظ الوعيد

والتهديد وارتاع البعض الآخر لمنظر الكهان فصلى مع المصلين عملا بأوامر الدين . وكان اسم بنت أنات يسمع خلال ذلك ألوفاً من المرات، فلما انتهى القوم من ضوضائهم صاح بهم أمينى : تراجعوا يا قوم عن مواقفكم وتنحوا عن أماكنكم لبنت أنات سليلة الملوك العظام ! فلقد قصدت الاميرة هذا المقام الاقدس لتسجد أمام الآلهة ملتمسة منهم مافاتها من الطهارة بخروجها على القوانين والتقاليد .. فطوبى للاتقياء المتمسكين بعروة الدين وسحقاً للاشقياء الكافرين ! اسجدوا أيها الناس ثم أبسطوا اكف الابتهال الى المولى المتعال أن يهطل عليكم غيوث العفو عن سيئاتكم ويبارك فيكم وفى أولادكم من بعدكم . وأمر بعد هذه الخطبة القصيرة أن يقدموا اليه آلة الخشخشة المقدسة(١) فلما تناولها أومأ بها الى السماء فانطلق الكهان يترنمون بنشيد دينى استهوى السامعين فاطرقوا بالرؤوس صامتين ، فقال أمينى : ان القوة الالهية باركت فيكم فاهرعوا الى منازلكم وافسحوا للأميرة المكان لتعود الى قصرها فى أقرب آن . قال هذا ودخل الهيكل فأخذ الحراس يفرقون الجموع فى طريق أقيمت على عطفية التماثيل واعتلت بنت أنات مركبتها ، فقال فقال لها أمينى وقد اجتازت عتبة الباب : اعلمى يا بنت أنات أن القصور الباذخة التى شادها والدك على أجمل الانماط إنما قامت على أعناق أفراد الأمة المصرية . فاذا فككت عرى التقاليد القديمة التى تربط هؤلاء

(١) آلة الخشخشة كانت شائعة عند قدماء المصريين في حفلاتهم الدينية وهى على مثال اللعبة المعروفة بالشخشيخة الشائعة الاستعمال بين اطفال العصر الحاضر غير ان هذه تختلف عن القديمة فى كيفية التركيب وان اتحدت منها فى الغاية المقصودة من حيث احداث الصوت المعهود فيها

الافراد بعضهم ببعض فلا مناص من التخاذل والتدابر وكلاهما مفضٍ الى تداعي تلك الجدران وسقوط تلك الاركان .

قال هذا ثم توارى عن الانظار فأخذت بنت أنات تسوى أعنة الجياد . وأنها لكذلك إذ لمحت بنطاؤر مستنداً الى عمود الباب يرشقها بنظرات الهائم الولهان، فألقت السوط الذى بيدها، كما لو سقط منها بلا عمد وأرادت بهذه الحركة لفت نظره واستنفاره لالتقاطه ورفعه اليها، غير أنه لم يكن التفت الى هذه الحيلة فأشارت الى أحد الاتباع فالتقط السوط وقدمه اليها وتحرك الركب رويداً رويداً حتى غاب عن العيان .

أما بنطاؤر فكان لا يزال مشرد الفكر، وقد لبث فى مكانه كمن أخذته الصيحة حتى طرق سمعه رنين الطبل النحاسي المؤذن باجتماع الطلاب لتلقي الدروس، حينئذ اعتدل فى وقفته ومرّ بيده على قلبه وجبهته كمن يقوم من نومه وقد نسي ما راه من لذيذ الاحلام فأخذ يستجمع شتاتها من هناك وثمّ . ثم هرول قاصداً فناء الهيكل المعد للتدريس فوجد الطلاب متربعين به بعضهم لصق بعض، فى شكل حلقة كاملة متأهبين لتلقى درس البيان على استاذهم بنطاؤر المشار اليه بالبنان . فلما وقف فى بهرة الحلقة لينثر عليهم درر الالفاظ لحقه عيّ وحصر، لأن عقله لم يكن فى هذه الآونة حاضراً بل طائراً وراء قلبه الذى سلبته بنت أنات بجمالها الباهر وشبابها النضير الزاهر . ولقد كان فى هيامه بها غافلا عن بون ما بينه وبينها حسباً ونسباً، ولو لم يغفل عن إدراك

هذا الفرق لما طوح بنفسه فى هذا التيار ، ولكنه كان من جهة أخرى يعتقد أنه من كرم المحتد وطيب العنصر بحيث يجيز لنفسه الطموح الى الرتب الشريفة والمقامات العالية ، وأن يكون فى طليعة العظماء بل من صفوة الأمراء . وكان هذا الاعتقاد يزداد رسوخاً فى نفسه كلما فكر فى بنت أنات وتمثل وجهها الجميل وقدها الاثيل وود لو تكون له أجنحة فيطير اليها ليقصر محبته عليها .

تلك كانت حالة بنطاؤر عندما تأهب لالقاء درس البيان على الطلاب ، ولكنه لم ينشب أن أدرك من امتداد أعناقهم اليه وتحويم أنظارهم عليه أنه فى غير مواطن العشق والهيام . فبادر بنشر ملف من ورق البردى قدمه اليه (أنانا) أمهر تلاميذه . وكان فى اليوم السالف قد وعدهم بتفسير ما تضمنه من الحقائق الفلسفية ، وما اليها من الحكم البالغة التى تقصر عن إدراكها افهامهم ، فتطامن الى الجدار وأطال التأمل فى الورق فلم يستطع فهم شيء مما احتواه إذ أشكلت عليه الحروف واستعجمت الكلمات فلم تتيسر له تلاوتها . ولطالما أجهد الذاكرة ليلم بماهية الدرس الذى وعد بتفسيره فلم يحضره شيء من حوادث الماضى وظل متحيراً ساعة كان الطلبة فى اثنائها يتغامزون ويتهامسون لتبين سر ما أصاب أستاذهم من العي والاستغلاق حتى تعذر عليه الكلام ، على خلاف مايعهدونه فيه من ذلاقة اللسان وفصاحة البيان . ولاح لأنانا أن استاذه يضغط على ورق البردى ضغطاً كاد يفتت أجزاءه وكان لا يستطيع إنباهه الى ذلك خيفة أن يكون متفرغاً لاستجماع شتات موضوع

الدرس فى ذهنه فيكون تدخله داعية لنفور شوارد الموضوع واستغلاقه عليه ، ولهذا أمسك عن الكلام . ووقع نظر بنطاؤر آنئذ على اسم الملك منقوشاً فى الجدار المقابل له ومشفوعاً بكلمتي (الاله الرحيم) فتذكر الموضوع فى الحال وانصرف الى تلاميذه متهلل الوجه بشراً واغتباطاً وقال لهم : بم تعرفون الرحمة الالهية ؟ قفوا جميعاً على أقدامكم ، وليسرد كل منكم سوانح فكره فى هذا الموضوع . فقام الطلاب جميعاً وأخذوا يشرحون ، بعضهم تلو بعض ، ما عنّ لهم من الآراء والافكار ، فمنهم من أصاب الشاكلة فأحسن وأجاد ومنهم من أخطأها فخلط وهذى . أما أنانا التلميذ الأول فقد استرسل فى وصف الخليقة بكلمات رشيقة ومعاني دقيقة ، وسرد ماحوته من غرائب المخلوقات وعجائب الكائنات الحية والنامية والجامدة ، وانتقل من هذا الوصف البديع الى بيان العلاقة بين الالوهيـة والخليقة على اختلاف مناشئها وتعدد مظاهرها وأنها تشير الى رحمة آمون ورع وفتاح[1] وشفقة بقية الآلهة :

وكان بنطاؤر ينصت لاقوال تلميذه معجباً بها واتخذها تكأة له

---

(١) امون اله طيبة وكان قدماء المصريين يعتقدون انهم لم يطردوا العمالقة من وادى النيل الا بمعونته وقد أضافوا صورته الي صورة (رع) اله هيلوبوليس فاتحدت فيه بذلك صفات كل الآلهة ولذا جردوا طبيعته من شوائب المادة ونسبوا اليه الصفات الروحانية فقررت الاسرة الرعمسيسية تلقين طلبة المدارس بأنه العقل المدبر لكل شيء فى العالم وأنه في آن واحد زوج والدته ووالد نفسه وابن نفسه وانه المودع للروح والعقل فى الكائنات الحية وأنه الدرة الخفية القابضة على ميزان العقل والمجزى على الحسنة والسيئة — اما فتاح فكان فى اعتقادهم الاله القديم الواضع لمبدأ الخليقة والقائم بتنظيمها وكان يحيط به دائما السنيمو السيمة اى المهندسون المكلفون بتنفيذ ارادته وكان يلقب بصاحب الحقيقة وخالق عنصر الضوء وخالق الثلج والفاتح له لانه فلق الثلج فخرجت منه الشمس والقمر . وكانت مدينة منفيس مقر عبادته

فى تفسير درسه فشرح ما جال بخاطره من الافكار وسنح له من الآراء. وأفاض فى ذلك بكلام سهل المخرج مطرد السياق، حتى خلب الاسماع وبهر العقول. وقد أبان عزة شأن الخليقة وما حوته من بدائع الكائنات واتحاد الجسم بالقوى العقلية، وذهب فى هذا الباب كل مذهب الى أن قال فى ختام الدرس: « ان الارض التى هبطناها بقضاء الله وقدره لنمشي فى مناكبها ونأكل من رزقها أحسن مقام للانسان فى الحياة الدنيا، وهي بما حوته من الكائنات الحية والنامية والجامدة دليل على وجود الاله القادر المبدع، وان فى كل كائن أثراً واضحاً ثابتاً يثبت استمداده الحياة من امداد ذى الوجود السرمدى وسعة رحمته تعالى، وانه موجود فى كل مكان، فأينما صرف الانسان وجهه وجده وكان دليله ورائده ». واسترسل مخاطباً الطلبة بعد ذلك إذ قال: « فابحثوا إذن عنه أيها الطلبة فاذا اهتديتم اليه فخرّوا له سجداً وكونوا لنعمته من الشاكرين. ولا تقصروا شكركم له على ما برأ من مخلوقات، بل اشكروا له عز وجل ما أولاكم من نعمة القدرة على إدراك كنهها ومعرفة حقائقها بما خصكم به من العقل والتمييز. وإنما أنتم الآن تجاه أكمة عالية فاصعدوا فيها حتى إذا تسنمتم ذراها العالية فسرحوا الطرف فيما حواليكم الى أقصى مرامى النظر تجدوا الشمس فى الاصيل وقد اضرمت أشعتها الآفاق بلهب من العقيق. ثم ارمقوا هذه الآفاق إذا نضّ النهار جيده فسترونها وقد اكتست بطيلسان اصفر وارقبوا الكواكب الساطعة والنجوم الثاقبة فى فحمة الليل الهادى، وقد خطت

على بساط السماء اللازوردي أفلاكها الاهليلجية المنتظمة التي لا تكف عن مواصلة السير فيها منذ الأزل ، وابصروا بالطفل فى مهده والازهار وقد تفتقت عنها الاكمام باطراف الاغصان ، وتأملوا كيف تحنو الأم على وليدها وكيف تتكاثل الازهار بالندى ، تجدوا لكل من هذه المظاهر الرائعة حدّا يقف عنه ولن يتجاوزه الى ما بعده . أما الرحمة الالهية فكالآفاق لا حد لها على الاطلاق ، وكالبحار بعيدة القرار ، لكن أدريتم أين يسطع شذا هذه الرحمة وعلى من تغدق المواهب اللدنية ؟ الرحمة والمواهب هذه إنما تفيض على قلوبكم إذا طهر عنصرها وشرف جوهرها وامتلأت بالحب ، لأن القلب المحب الرحيم مرآة تتجلى الطبيعة فيها بأحسن ديباجة وأظهر رونق ، فلولا القلب لما ابتسم ثغر الطفل فى مهده ولا تفتحت الورود فى أكمامها بل لولاه لتضعضعت أركان الأيمان وكدر صفاء العواطف والوجدان وانحلت عرى التقوى والاحسان ولما نزعت النفوس الى الاله الواجب الوجود ولجأت الى حظيرة قدسه تخلصاً من أكدار المادة وظلمات العوالم السفلى ، هو الاله الذى تعجز الالسنة عن وصف ذاته وتحار الافهام فى معرفة كنهه وتحديد صفاته . هو الاله الذى لا إله إلا هو ، هو الاله الذى اليه تضرع الآلهة التسعة العظمى وتبسط الأكف الى مقامه الأسنى كما يمدّ المستجدى يده التماس البرّ من المنعم الجزيل الاحسان » .

وما أتم بنطاؤر هذا البيان حتى طرق الآذان دوي الطبل النحاسى المؤذن بختام الدرس فأمسك عن الكلام . ولبث الطلاب سكوتاً كأن

على رؤوسهم الطير إذ أخذهم الروع واعترتهم الدهشة لطلاوة الدرس وحلاوة ماتضمنه من الافكار، فتركهم تحت هذا التأثير اللطيف وقصد الى حديقة الهيكل فى طلب الراحة والعزلة . إلا أنه ما كاد يبلغ الى باب الهيكل حتى أحس بيد قد هوت على كتفه فتأمل فأذا بها يد أمينى الذى أراد بهذه الحركة أن يستوقفه، فلما وقف باهتاً قال له : لقد خلبت يا بنطاؤر ألباب الطلبة ببيانك وجذبت قلوبهم بفصاحة لسانك ! فكان لهذه الملاحظة فى نفس بنطاؤر تأثير الثلج فى المحموم إذا وضع على صدره لأنه كان عالما بأساليب الكاهن الاعظم فى التوبيخ وأنه يصبه عادة فى قالب التحبيذ والمدح وهو إنما يريد به التأنيب والقدح . وعلى هذه الطريقة واصل حديثه إذ قال : الحق أحق بأن يتبع . . لقد كنت ثملا بخمرة العشق والهيام فوقفت بين التلاميذ لتلقى عليهم الدرس فنسيت ما كان يجب أن تتصدى له بحكم وظيفتك ففتحت أبواباً كان ينبغي أن تبقى مغلقة وجهرت من الحقائق الفلسفية والدينية بما لا يصح أن تهبط به الى مدارك طلبة العلوم الاولية ! وهل ذهب عنك أنك أقسمت بالايمان المحرجة أن تحرص على الاسرار فكيف بذلتها الآن على ملأ من الصغار ؟ وعرضت سلعتها فى سوق الابتذال برمتها الخاصة والعامة على السواء ، وهي فخر الكهنة وشرفهم وشارتهم القدسية التى ليس لغيرهم أن يطمح الى التحلى بها . أجاب بنطاؤر : لقد وقع تعزيرك من نفسى موقع السيف المرهف من العنق ولكن رب ملوم لا ذنب له . قال أمينى : ليت هذا السيف قد بلغ منك الى ما بين الجنبين ليستأصل

من قلبك جذور الفساد التى أخذت منه مغرساً عميقاً . . انك وان تكن فى فتاء السن فلست أشبهك بالعود اللدن الذى يسهل تقويمه أو الشجرة المباركة التى تؤتى أكلها كل حين ، بل أشبهك بالعود اليابس المعوج والشجرة الفجة الثمر التى يغترّ الاطفال بنضرتها فاذا تسابقوا الى اقتطاف ثمرها ذاقوا منه السم الزعاف . . ومع كل هذه الهنات رضيت أنا وجاجبو ببقائك فى هذا الهيكل ولم نذهب الى ما ذهب اليه باقي الكهنة الذين استرابوا بذمتك وقرروا مقاطعتك والبعد عنك . وكان مما زادنا ثقة بك أنك أقسمت بالأيمان المحرجة ألا تكاشف أحداً بأسرارنا ، ولكننا لم ننشب أن رأيناك جامحاً فى غوايتك ومعرضاً عنا بجانبك ومقبلا على احترام ما يخالف حسن ظننا فيك ، فأنك ما كدت تتم الدراسة وتندرج فى صفوف الكهنة والاساتذة حتى مددت يدك فهتكت أستار الاسرار وطوحت بنفسك فى تيار الزندقة والالحاد .

قال بنطاؤر : كفى لوما وتعنيفاً ! انك ان تحسب صنعى جهلا فخير لى الجموح فى غوايتى واللجاج فى ضلالتى ، ونعمت الضلالة إذا وافقت الحقيقة وطابقت العدالة . قال الكاهن الاعظم : صه أيها الزنديق الزائغ عن محجة الطريق ! ألا تعلم أن العدل لا يلتمس إلا من القانون والقانون يحرم إفشاء السر المكنون ؟ لقد فهمت الآن الحقيقة فما تعنى بها يا أشقى الخليقة . قال بنطاؤر : الحقيقة التى انطلق بها لسانى هي التى لم يجرأ أحد قبلى على الجهر بها بعد استجلاء مظاهرها . . إنى لم أر وراء ستار الاسرار ما يدل على اشتقاق الروح من الذات الخفية المدبرة

لشؤون البرية ولا على قيامها بجزء من الحكمة الالهية . ومتى بدت هذه الحقيقة فى الانسان بمظهرها الجلي . . فقاطعه أمينى بقوله : نعم ! نعم ! أنه ليهون على مثلك يا بنطاؤر أن تسمي نزعات نفسك الأمارة بالسوء بمظهر الامدادات السماوية والحكمة الالهية ! ! قال بنطاؤر : ألا يحيط علم هذا الاله الذى وسع كل شيء بارادته الغالبة وقوته القاهرة اللتين تستمد منهما إرادتك وقوتك كسائر الناس سواء بسواء ؟ قال أمينى وقد روعه ما طرق سمعه : ان يفهم عامة الناس معانى هذه الاقوال فلا عجب إذا مدّوا اليك الاعناق وقصدوا اليك من سائر الآفاق ، وأقام كل منهم فى نفسه عرشاً لعقيدة خاصة يكل اليها الهيمنة على إرادته وتصرفاته ثم يزعم أن الاله يوحى اليه بما يجب عليه من قول أو فعل ! وانى لأرى ، وملء فؤادى الاسف ، أن القوانين قد لعبت بها الاغراض وهتكت حرمتها الغايات وعصف الجهل بما احتوته من أصول العدل . قال بنطاؤر : أنا واحد من قليلين اطلعوا على الحقيقة فاهتدوا بهديها واستضاءوا بضوئها الذى إذا لاح للعامة بهر أبصارهم وخلب عقولهم . قال أمينى : وبه بهرت أبصار تلاميذنا إذ أرسلت أشعته اليهم فنفذت الى قلوبهم ! قال بنطاؤر : نعم هكذا فعلت لاجعلهم أهلا لصون الاسرار من عبث الاغيار . قال أمينى : وهل تثق بهم لو أفضيت اليهم باسرار قلبك الثمل بخمرة العشق ؟ قال بنطاؤر دعنا من هذا الكلام يا أمينى . قال الكاهن الاعظم : طاعتك لى فرض محتوم عليك لأننى أستاذك والي يرجع حق عقابك على مخالفتك أصولا كان يجب أن تعلو على شهوات

النفس . ألا تدرى أن من الواجب على من يحيط بالاسرار الدينية أن يرضخ للدين ويعمل بأوامره ونواهيه ، فلم تهمل القيام بهذا الواجب المقدس ؟ اما اوليتك الود الخالص مذ كنت طفلا الى أن بان عذارك ؟ ألم استودعك أمانيّ التى ما زلت أعتقد أنها فى حرز حريز ؟ خذ للسفر عدتك ولا تطلعن عليك شمس الغد إلا وأنت آخذ سبيلك الى هيكل (حاتاسو) ، فان ما تعمدت الزلل به من فاحش الاغلاط والتخبط فيه من واضح البهتان قد استوجب عزلك من مناصب التدريس السامية ونقلك الى رئاسة كهان ذلك الهيكل ، وأرجو أن تكسبك التجارب فيه حكمة فيعلو مقامك بين العدو والصديق . وعليك بقائى قبل بزوغ كوكب سوتيس [١] لأزودك النصائح اللازمة ثم انى أسألك الاستمداد بعون الله على أداء مهمتك والتوجه اليه تعالى فى قضاء حاجتك ، وأن تصعد كل يوم الى سطح الهيكل للسلام على الشمس عند بزوغها . وسأضرع الى مجيب الدعاء أن ينقش فى صدرك أصول الدين ويرشدك الى الحق بنور اليقين . . .

ما فاه أمينى بهذه الأوامر والزواجر حتى انكفأ عائداً الى مخدعه وأخذ يتمشى فيه سبهللا ليسكن اضطرابه ويسرى الهم عن نفسه . وكان بالقرب منه منضدة صغيرة عليها مرآة من الصلب الصقيل ، فتناولها بعد أن تراءى فيها هنيهة طرحها فى مكانها ، وقد تربد وجهه كأنه

---

(١) هو الشعرى اليمانية او كوكب الكلب وكان يسمى عند قدماء المصريين بكوكب ايزيس المقدس وكانوا يتخذونه قاعدة للحساب الفلكى لان مجراه فى فلكه يعدل السنة الشمسية الفلكية

تحقق من دمامة صورته وقبح هيئته . ولعله علل ذلك بتسلط الغضب والحدة عليه وبتوالى المباغتات فى ذلك اليوم ، حتى لقد زعزعت ثقته بالرجال وحملته على اساءة الظن بهم فى كل حال .

ومما برح به وزاده هموما واتراحا ان تلك الثقة أدت به الى الزلل والسقوط فى مهاوى الخطأ والخطل ، حينما عامل بالجفاء والشدة ابنة رعمسيس رغم ما كان كهنة طيبة ينبهونه اليه من كرم سجاياها وطهارة ذيلها وشدة رفقها بالفقراء والبائسين . وكان يراجع نفسه بهواجس كثيرة لتسويغ خطته منها أن مخالفة بنت أنات لقواعد الدين وزيغها بذلك عن الطريق القويم فرصة أتاحتها المصادفة لتأييد نفوذه وتوطيد شوكته فأنه اضطرها الى المثول بين يديه فى موقف الاستكانة والذلة وكل ما أخذه على نفسه مسارعته الى تطبيق العقوبة عليها وأنه كان خليقاً به أن ينظرها الى حين . ولكنه لم يلبث أن التمس لنفسه المعاذير بقوله ان الذى حمله على الظهور بمظهر الشدة هو الخوف على الكاهن بنطاؤر أن تزل به القدم وأن يقع بعد فى مهواة الندم ، ثم التبرم بتماديها فى العصيان وتبجحها أمامه بالباطل والبهتان .

وكان الكاهن الاعظم حينما أمر بنطاؤر بتعزير بنت أنات على ما سولته نفسها لها من انتهاك الحرمات يريد استفزازه الى صعود درج المعالى بمعاملة امراء الارض وعظمائها كعامة الناس إذ كان يعتقد أن نظام الهيئة الاجتماعية يتوقف على بقاء ازمة الحكم فى قبضة الطائفة الكهنوتية . وكان لاصابة هذا الغرض يرشح الاكفاء من رجاله

للمناصب الدينية التي تكون المعاملات فيها دائرة مع سراة الأمة وأعضاء أسرتها الملكية ، ليلقوا الروع فى قلوبهم ويقعوا موقع الاحترام فى نفوسهم . ثم أطرق هنيهة وقال متابعاً حديثه الاول لنفسه : نعم لا بد من البلوغ الى هذه الغاية التى ليس من ورائها مذهب لذى همة ، ولا مفر منه حتى لا يرفع العظماء والأمراء عقيرتهم على الكهنة وحتى لا يكونوا فى معاملتهم إياهم بالصلف والخيلاء أزهى من الديكة . أما بنطاؤر فلاحق له فى أن يصبو الى هذه الغاية الجليلة والمقصد الشريف ، لأنه ما زال فى عنفوان الشباب ، ولو شب على هذه المبادىء لانتقشت فى صحيفة صدره . ولست أنسى عجزه فيما مضى عن مقاومة الشهوات النفسية وقصوره عن مغالبة النزعات الغرامية ، ولكنه اذا أقام فى هيكل حاتاسو وترأس فيه على رهط من الكهان والمبخرين ورجال القرابين تولدت فى نفسه محبة الرئاسة فينبذ وراءه ظهريا ما ينتحله الآن من رقة الحاشية وعطف الفؤاد ويتعذر على الغانيات استهواء قلبه برشاقة القدود وورد الخدود . وأهم من هذا أنه ، وهو فى مركزه الجديد ، سيروض نفسه على الطاعة لا سيما إذا دفعت نزعات الحسد والشر أحد الكهان الى رفع لواء العصيان ، فانه يحس وقتئذ بما يحق لكل رئيس على مرؤوسيه من واجب الطاعة . وربما اضطر الى التذرع بسلاح الشدة والعنف لاظهار كلمته وتحصين نفسه ومركزه من حملات العصاة ومباغتات المتمردين فيكون منهم معه مثل ما كان منه معي حينما استظهر بالمعصية على الطاعة وبالفرقة عن الجماعة فلقد قضت سنة هذا الكون بـ (أن من شب على العصيان كان مآله الى

الاستبداد والطغيان) . ولقد لاح لى من فعال هذا الشاعر أن فؤاده الشفاف الخالص من شوائب الغرض قد افتتن بحب بنت أنات وحقا فانى لا أرى بمصر غادة، ولو فازت من الجمال الفاتن بأوفى نصيب، لا يذوب قلبها هياما بينطاؤر الذى يشبه بحسن ذاته وكمال صفاته (رع هرما كيس) وتنثر من فيه درر ألفاظ تيشوتى [١] . أما الآن وقد بعدت الدار وشط المزار فقد اصبح مستحيلا على بنت أنات أن تخامر شاعرنا بلحاظها الفاتنات .

قال هذا وأسرع فى مشيته وباعد فى خطوته ، وظل هكذا زمنا ثم قال : ما أغرب هذا الاتفاق ! لقد دخل هذا المعهد فتيان امتازا بحدة الذكاء وصفاء القريحة وفاقا الاقران فى ميادين المساجلة والامتحان كما تفوق ذرى النخل حشائش الارض ، فشملتهما بعنايتى وقصرت عليهما رعايتى ووددت يوما أن يكونا لى خليفتين من بعدى، غير أنهما ارتكبا من الاعمال ما خيب فيهما الآمال . أما الاول وهو ميسو [٢] فقد ولى الادبار وافتدى به الثانى وهو بنطاؤر ولم يخش هذا العار ! ما سبب ذلك ياترى ؟ أأسأت اليهما ؟ . . ام ذا جزاء عطفي عليهما ورفعى من شأنهما ؟ ألم يجدا فيما عهدته بهما من الاعمال ما يؤيد مذهبهما ويكفل لهما تحقيق الآمال ؟ لقد ران على قلبيهما الزهو والغرور فظنا انهما أرفع عباد الله

---

(١) هوتوث هرمس (انظر كتاب ماسبرو في تاريخ أمم الشرق القديم صحيفة ٤٨ من الطبعة الثانية)

(٢) اسم موسى عليه السلام ، الذى كان معاصرا رعمسيس الثانى . وفى عهد خلفه كان خروج العبرانيين من مصر

شأناً وأسماهم مكاناً وجرد كلاهما من نفسه عالما التمسا فيه رضى الاهواء والشهوات والمضي فى تيار المصالح الذاتية والغايات . . ظناً أنهما ان تخلفا عن الناس لحقت بهما الاهانة والضعة وتبددت أمانيهما التى تعبدت قلبيهما بالوهم الفاسد والخيالات المستحيلة ، فشعرا بلذة لم تلبث أن تلاها غم وانقباض . . ألا ان مكانتى فى الهيئة الاجتماعية لتدعونى الى الثبات والاستمرار فى مخالطة الناس حتى يهتدوا بهدى ويعشوا على نور معارفى الدينية ، وأن أكون لهم كالماء الدافق من ينابيع جبل لبنان ، يقطع المسافات الطويلة فى مساربه وقنواته ، فاذا ما خالطت مياه الانهار الكبرى أكسبتها لونها وطعمها .

أمسك أمينى هنا عن مناجاة نفسه بهذه الهواجس واستدعى كاتب الهيكل ، وهو أحد الكهنة الملقبين بالآباء المقدسين ، وقال له اكتب رسالة الى الكهان جميعاً أن أقيموا الصلوات لتطهير بنت أنات مما لوثها من الدنس بخروجها عن أفق أوامر الدين ونواهيه . . إنما . . ناولنى القلم والقرطاس والمحبرة ، فانى أفضل تحرير هذا المنشور بنفسى . فوافاه الكاتب بأدوات التحرير والتحبير ، ثم تراجع الى أحد أركان المخدع ، بينا كان أميني يخاطب نفسه بقوله : ان السطور التى سيرقشها يراعي الآن ستكون عنوان حرب عوان يشيب لهولها الولدان ! !

الفصل الثامن

عادات داخلية وأحوال منزلية

طلع بدر السماء على طيبة الاحياء ، فبهر الناظر بسنائه الباهر ، وكشف ما امتازت به من الحركة والحياة على طيبة الاموات . هنا لما مالت الشمس الى المغيب وانتهى الكهنة من ترديد أناشيد المساء ، ضرب السكون فسطاطه ونشر الهدو أعلامه . وهناك كان بدء الحركة والانتقال ، لانه بمغيب الشمس زالت الحرارة الشديدة وأعقبتها البرودة ، فخرج الاهلون زرافات ووحداناً للرياضة وترويح النفوس . فمنهم من سار فى الطرقات ومنهم من صعد الى ذرى المنارات وسطوح المنازل لاستنشاق النسيم . وكان الكثيرون منهم يتهافتون على المنتديات العامة لابتياع النبيذ والجعة وعصارة الفواكه ، ويتزاحمون حول الخطباء والشعراء ليستمعوا منهم ذكرى حوادث الماضين أو يطوفون حول المغنين ، فيرافقونهم فى أداء أغانيهم بالنفخ فى المزمار والنقر على الدفّ الصنجيّ الأطار .

وكان قصر الملك شامخ العلوّ جنوبى هيكل آمون بوسط حديقة غناء حفت بها منازل العظماء من بطانة الملك وحاشيته ، وبينها قصر وطيد الاركان سامى الجدران رحب الفناء تناطح ذروته السماء . شاد بعاكر هذا القصر بعد وفاة أبيه ليحل فيه عندما يتزوج بنيفرت ريحانة فؤاده

ومالكة قياده . والى الشرق من هذا القصر المنيف بيت فسيح الساحة متنائي الاطراف ، إلا أنه عتيق البناء هو البيت الذى ورثه مينا عن أبيه ولم يباشر فيه إصلاحاً بل تركه على حالته تخليداً لذكرى الاجداد ، وأسكن به نيفرت ووالدتها (راتوتى) . ولقد أقام به معهما أياما قضت عليه وظيفته من بعدها بمغادرته لملازمة ركاب الملك الهمام فى حروبه مع أهل الشام .

وكان بكل باب من أبواب تلك القصور الشامخة والدور الفسيحة الباذخة ، أفواج من الحاشية والغاشية والمصطنعين يتناجي بعضهم ويتباحث آخرون واقفين يترقبون قدوم سادتهم ومواليهم . وكان باب قصر بعاكر يلفت الانظار برسومه البديعة ونقوشه الانيقة الداله على المغالاة فى البذخ والافراط فى الترف . وكان مما يميزه عن غيره من المبانى الحافلة أدقال جيء بها من جبال لبنان وغرست أمامه لرفع الاعلام[1] . وكان الداخل فيه يصل الى ساحة متباعدة الحواشى مرصوفة بحجر النهاء يحيط بها إيوان مظلل بظلة تحملها أساطين خشب على صفوف

(١) هذا الوصف ماخوذ من رسوم منازل الامراء وبساتينهم على جدران قبور تل العمارنة وقد نقلها ليسيوس بشكلها فى الجزء الثالث من كتابه الموسوم باثار مصر والحبشة وكانت الحدائق نادرة فى عهد قدماء المصريين لدلالتها على بذخ صاحبها وترفه واتساع ثروته . وجاء فى ورقة البردى الرابعة المحفوظة بمتحف القاهرة ما يشير الى ذلك وهو : « لقد اشتريت ارضا يثمر فيها الرى واحطت حديقتك بالاسوار العالية وغرست اشجار الجميز حول منزلك الرفيع الذرى وكللت رأسك بالازهار ولكن لا بد من يوم تزهد فيه نفسك هذه الخيرات وتشعر فيه بالسآمة والملال من الحياة » وهو يقابل فى معناه قول الشاعر العربى :

أيا من عاش فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمع من حرام او حلال
هب الدنيا تقاد اليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

والادقال جمع دقل الساريات

متوازية . وكانت هـذه الساحة مخصصة بسكني العبيد والخدم وبها مواقف للخيل وأماكن لادخار المؤن الشهرية لسكان القصر . وإزاء المدخل العام باب يتأدى بالداخل الى حديقة غناء غرست بها أشجار الفواكه والازهار صفوفاً ألوفاً وبزرت البقول والخضروات فى مربعات متساوية متوالية يحف بها من الاطراف أشجار النخل والجميز والتين والرمان والياسمين الذى كانت تعبق رائحته بأرجاء البستان فينشرح لها الصدر ويرتاح الفكر .

وكانت (ستخم) والدة بعاكر تتولى بنفسها فى هذه الحديقة أعمال المتعهدين بخدمتها من ري وحرث وغرس ، فتأمرهم بغرس نبات نادر أو بملء البركة بالماء الذى كان يصل اليها فى مسربين يتواصل انحداره فيهما من ناعورتين يديرهما ثوران صباح مساء ، فينقضي النهار وهما لا يفتران عن اغتراف الماء من النيل حتى إذا ما انصبّ فى البركة تشعب منها الى انحاء الحديقة فى مئات من المسارب والقنوات ليروى ألوف الاشجار التى تتدلى منها الفواكه والثمار .

وفى الجهه الشرقية من الحديقة حجرات شيدت بعضها الى جانب بعض طبقة واحدة أو بضع طبقات ولكل منها طنف ومستشرفات تحملها أعمدة خشب رفيعة ، ويشرف الواقف فيها على الحديقة . وكان بعاكر يقيم فى تلك الحجرات مع أهله وقرابته . وكان بجوارها بناء على شكل زاوية قائمة أعدت لحفظ الانبذة والثمار وصيانة الاقمشة والمنسوجات والجلود والاشعار والاوبار ، وبناء آخر متين الجدران

يحتوى ما ادخره جدود بعاكر واقتناه هو من النفائس القيمة كالسبائك من المعدنين الكريمين الذهب والفضة وتماثيل الحيوانات والأوانى الظريفة الشكل واللازورد والاحجار الكريمة، الى غير هذا من التحف التى يقصر عن وصفها اللسان . وكان بوسط الحديقة مقصورة زينت بالنقوش الانيقة التى تلفت الانظار وتستهوى الخواطر والافكار ومصلاة نقشت فى جدرانها صور الآلهة ونصبت تماثيل آباء بعاكر تحيط بها لفائف التحنيط وكلها بصورة أوزريس وان اشبهت وجوهها وجوه أصحابها وملامحها ملامحهم المميزة لذواتهم . وكان الجناح الايسر من القصر ينبعث اليه الضياء من جميع الارجاء ، ولكنه خص بالعبيد والاسرى تقع الانظار عليهم فيه مجتمعين مثنى وثلاث ورباع أو مضطجعين على رقع من حصير سعف النخل وقد اتزروا بمآزر من القطن .

وكان الى جانبي الباب مصابيح ترسل أشعتها الباهتة الضعيفة فتضىء رجالا جلسوا متربعين الى مائدة واطئة يتناولون ما طاب لهم من الطعام ويبدو من كمودة بشرتهم أن الشمس لوحتهم بلفحاتها ودمغتهم بحر هجيرها . وكان طعامهم خبزاً وشواء غزال . فكانوا ينتابونه تارة ويتعاطون تارة أخرى شراباً أصفر اللون يقدمه اليهم خدم فى أكواب من صلصال مدهون بطلاء براق . أولئك الرجال هم موظفو القصر والقائمون بادارة شؤونه . وكان يتصدر رئيسهم المائدة فقبض على فخذ الشواء واقتطع منه قطعة قدمها الى قيم البساتين قائلا

له وهو يشير الى أحد العبيد : لقد كلت يدى من ضرب هـذا العبد لأنه كلما تقادم عليه هنـا العهد ازداد عناداً وكسلا . أجاب القيم : لقد تبينت منه هذه العيوب وأنا أتفقد الاشجار ، إذ رأيت النخل مجرداً من سعفه بما جعله أشبه بالطيور وقد تتف ريشها[١] قال ناظر الخيل : يجب علينا الاقتداء بمولانا ، فانه يتخذ عصيه من السأسم الذى لصلابته يعيش مائة سنة . قال ناظر الماشية الموكل بماشية القرابين : هذه العصي تعيش أكثر من عظام الجسم فلو اقتدينا بمولانا فلا يكون بين خدمة القصر غير الاكتع والاعمى والاعرج وأرباب العاهات . قال الرئيس : أتذكر المسكين الذى كسر له مولانا ترقوته بضربة من تلك العصا وهو الآن طريح الفراش يئن من شدة الألم ؟ . انى لفى كدر شديد لهذا الحادث ، لأن الرجل كان من أمهر صانعى الحصر عندنا ، والحق يقال إن والد مولانا كان أرفق منه باتباعه إذ كان إذا ضرب أحدهم لا تأخذه مثل هذه القسوة . فسمع الحاضرون صوت متكلم قد توارى عن الانظار يقول بصوت مجوني : يظهر أنك جربت ضربه . فالتفتوا جميعاً الى مصدر الصوت وضحكوا ضحكا عالياً إذ علموا أن الزائر رجل قصير القامة لا يكاد يعدل ارتفاعه ارتفاع طفل فى الخامسة من العمر . وكان بمدينة طيبة كثيرون من أمثاله ، لأن قدماء المصريين

---

(١) شهد كتاب قدماء الرومان واليونان بميل المصريين الى المزاح وان احدهم ربما انفق ثروته على قصيدة مجون او هجو لينشرها على الجمهور يؤيد ذلك الصور والرموز المنقوشة فى اثار مدينة آبو والمرسومة فى ورقة بردى محفوظة بمتحف تورين وقد اعتر البحث على فصل من كتاب فلافيوس فوبسكوس الروماني يشبه فيه الشعب المصرى بالفرنسيين

من ذوى اليسار والوجاهة اعتادوا أن يكون من بين المقربين منهم أو المصطنعين لهم أقزام كذلك الزائر يقضون الاوقات معهم فى الممازحة والتماجن . وكان هذا القزم المسمى (نيمو) من اتباع نيفرت ، وقد امتاز على أمثاله فى طيبه بحدة اللسن والتفنن فى التنكيت حتى كان لا يفجأ قوما فى مجلسهم إلا استقبلوه بالأيناس والبشاشة .

فلما برز نيمو الى موظفي قصر بعاكر وهم جلوس الى المائدة . وخاطبهم بذلك أغربوا فى الضحك ونشطوا لقدومه . وحينما أمسكوا عن الضحك قال : امنحونى موضعاً ضيقاً بينكم ، ولعل زيارتى إياكم فى هـذا الوقت لا تثقل عليكم فان الجعة التى تحتسونها والشواء الذى تتذوقونه لن يحل بهما مكروه إن شاركتكم فيهما ، فانكم جميعاً تعلمون أن معدتى لا يتجاوز حجمها حجم رأس الذبابة . قال رئيس الطهاة : نعلم ذلك جميعاً ولكن ما قولك فيما يحتويه كبدك من الصفراء اللعينة التى تزيد بوفرتها على صفراء فرس البحر . أجاب نيمو ضاحكا : ان صفراء كبدى تغلى وتفور اذا حركها بمغرفة جهله طاه غبيّ مثلك . . وعلى أي حال فسأجلس بينكم بأذنكم . . قال الرئيس : أهلا بك وسهلا . . ماأخبار اليوم وبمن أتيت ؟ أجاب : أتيت بنفسى . قال الرئيس : إن يكن هذا كل ما أتيت به فهو قليل . قال نيمو : أجل لأنى لا أطمح الى مقارنة نفسى بكم . . والآن وقد وصل بنا المزاح والتماجن الى هذا الحد فلندعهما جانباً ولنتكلم فى غيرهما من الشؤون الهامة . . إن السيدة راتوتى والدة مولاتى نيفرت والوالى الذى جاء الآن لزيارتها وجهاً بى

الى هنا للاستفهام منكم أحضر مولاكم بعاكر أم لم يحضر . فلقد كان مع الاميرة بنت أنات ونيفرت بالمقبرة . ولما لم تعد مولاتى الى الآن اشتد بنا القلق والخوف عليها لأن الليل كما ترون قد ضرب بأرواقه . قال الرئيس بعد أن رفع نظره الى السماء : حقا لقد كاد القمر يتكبد السماء مع أن مولانا حفظه الله وعدنا بالعودة قبل غروب الشمس . قال رئيس الطهاة : وقد اعددت له الطعام فى الموعد المعتاد فاذا لم يحضر الآن اضطررت لأعداده مرة أخرى . قال الرئيس : ان تأخر مولانا فهو لا بد فى ركاب الاميرة بنت أنات . قال نيمو : كيف ، وقد مضى الهزيع الاول من الليل ، لا تعود سيدتى نيفرت ؟ قال ناظر البساتين باسما : على مَ دارت المحادثة اليوم يا ترى بين بعاكر ونيفرت ؟ . . . وهل صحيح ما أكده لى اتباعها من أنهما لم ينبسا بكلمة واحدة ؟ قال أحد الحضور : لا لوم على مولانا إذا عامل بالجفاء والصد امرأة رضيته بعلا ثم ألقت بنفسها فى أحضان سواه . انى كلما تذكرت الساعة التى نمي الى سيدى فيها خبر عدول نيفرت عن الاقتران به اشعر بالحر والبرد يتناوبان جسمى بتأثيرهما المتلف . قال نيمو : ولم تهتم بهذا الامر إذا كنت تشعر بالحر فى الشتاء وبالبرد فى الصيف ؟ . . أتتمنى من نعم الله وآلائه فوق هذا ؟ قال المتولى سياسة الخيل : لا تظنوا المشكلة قد انحلت ، فبعاكر رجل دفين الحقد شديد أوغار الصدر لا يستلها منه شيء حتى الشدائد ، فمهما تكن عناية الملك به ورفعه إياه الى شرائف الرتب فلا بد من يوم يحاسبه فيه مولانا على غدره وقبيح فعله . قال

نيمو : ان راتوتى لا تحفل بهذه السفاسف ولا تصرف همتها الآن إلا الى قبض ما لمينا صهرها من خير المال . ومع هذا فقد اتجهت فى العهد الاخير ميولها الى إعادة صلات الود بينها وبين اسرة بعاكر، وظفرت بموافقة الوالى على سعيها ، لأن من أحب الأمور اليه أن يرى البيتين مرتبطين بعرى الألفة الوثيقة والاتحاد الاكيد . ثم التفت الى الرئيس قائلا : اسعفنى بقطعة من أطايب شوائك فان معدتى خاوية على عروشها.

قال رئيس الطهاة : أظن يا نيمو أن الخزانة التى تحفظ مولاتك فيها أموال مينا أصبحت كمعدتك خاوية على عروشها ؟ أجاب القزم : أجل هي كعقلك خاوية على عروشها . ثم التفت الى الرئيس وأحد الخدم فطلب من الاول معاجلته بقطعة ثانية من الشواء ومن الثانى كوب شراب .

قال متولى سياسة الخيل : أما قلت الآن أن حجم معدتك كرأس الذبابة فلم أراك تبتلع اللحم الآن كتماسيح اراضى شد (١) ولكن لا غرو فقد جئت فى عصر انقلب كل شىء فيه على عقبه وتحول الى ضده حتى أصبح الانسان بحجم الذبابة وأصبحت الذبابة بحجم الانسان . قال نيمو باسما مع استمراره فى الاكل : أود أن يكون وعاء جسمي أوسع مما هو وأغلظ بشرط ألا يبلغ غلظ أخلاقك وشدة حرصك المانعين لك من معاجلتى بقطعة ثالثة من الشواء . . الىّ سريعاً يا هذا بقطعة من ضلع الغزال الذى بيد الرئيس حتى أبتهل الى زيفا (٢) أن تغدق عليه

---

(١) أراضى شد هى الفيوم الآن وبها هيكل الاله « سبك » الذى تربى فيه التماسيح وتحلى بالذهب والفضة

(٢) زيفا الهة الخصب والخير والبركة عند قدماء المصريين

الخيرات وتشمله بالبركات . قال الرئيس : خذ أيها المسمور . . إلا أنى أنصح لك أن ترخى نطاق ثوبك حتى لا تتعطل حركة معدتك . . ولقد كنت أود أن أخص نفسى بهذه القطعة الشهية ولكنى أعطيكها اعترافاً بدقة حاسة الشم فيك . قال نيمو : لم لا تكون حاسة الشم دقيقة عندى ؟ أما دريت أن أنف المرء ميزان تميزه بين الجيد والردىء ؟ قال قيم البساتين : أو هذا من الممكنات ؟ قال الرئيس : هات من كلامك الذى يشبه الدر إذا ما انتثر عسى أن يلهيك الكلام عن تناول الطعام . قال نيمو : أما دريت أن باستطاعة المرء أن يتكلم ويأكل كما ترانى أفعل الآن ؟ . . ان الانف الاحدب الشبيه بمنقار النسر آية علوّ الهمة وسموّ الشأن . . أنظر الى فرعون وأسرته الكريمة تجد أنوفهم مصبوبة فى هذا القالب وهي غير أنف الوالى فانه أقنى معتدل كأنف تمثال آمون الدال على الاستقامة وإرادة الخير . ولقد اختص من هذه الفضائل بالنصيب الأوفى واشتهر بالاعتدال فى جميع الاعمال ، فلا هو بالمختال الفخور ولا الوضيع المتسفل ، بل هو على ما ينبغي أن يكون ذو المروءة والهمة . وانى لأراه أجدر بالتربع فى دست الملك من سواه . قال رئيس الطهاة : إذا كانت مبايعة الملوك بالأنوف فعلى الدنيا العفاء . . . على أن أنف رعمسيس إذا كان كمنقار النسر فى الاحديداب فأنى أفضله على سواه . . وبعد فما قولك فى أنف سيدتك نيفرت ؟ قال نيمو : أنف دقيق لطيف ينفعل بمؤثرات خاطرها الشريف وانك لترى مارنه يهتز اهتزاز أكؤس الزهر إذا ماحركها نسيم الفجر

قال رئيس الطهاة : وما رأيك في أنف بعاكر ؟ قال نيمو : أنف أفطس عظيم واسع الخياشيم . . إذا دنا صاحبه من خصمه في معركة وأثار (ست) العثير انبثت فيه ذراته فاهتاج غيظا وحرداً . . . أنف ترتبط به أحوال بعاكر وأطواره الى حد لا أعد مبالغاً فيه إذا قلت : « إنه ليس في بعاكر بل أن بعاكر فيه » ؛ أنف يكفي النظر اليه لاستكناه سر هذه الخطوط الزرقاء التي سطرت بها جلودكم . . أنف مستمد من أنف ستخم شقيقة سيدتي راتوتي . . أنف مكور مرن المارن . . فقاطعه مقدم الخدم بقوله : نحن يابذيء اللسان دعوناك الى لحم الغزال لا الى القيل والقال . . أمسك عن كلامك أمسك وإلا جذبتك من طوقك وأسقطت كواكب السماء على قتبك ! قال نيمو رابط الجأش : ذه خير فرصة لأستخرج من قتبي مايقع فيه من الكواكب لاتحفك منها بما يقوم بحق مكافأتك على ما أطعمتني من أكولتك . . لقد وصل بعاكر في عجلته فاستودعكم الله أيها الصحب وأوصيكم ، إن جاءكم أنف محدودب كأنف النسر وساقكم الى ميدان الحمام في بلاد الشام ، أن تذكروا ما قاله نيمو القصير لكم ، فأنه بأسرار الرجال بصير وبمزايا أنوفهم خبير .

كانت عجلة بعاكر قد اجتازت الباب خلال ذلك بقرقعة رددتها جوانب القصر ، فهبت الكلاب من أوجارها وأخذت تهز أذنابها وتهر هرير الفرح للقاء سيدها وصاحبها ، وتراكض الخدم من أماكنهم فاحاطوا بالعجلة لتلقي أوامر سيدهم ، فأمسك سائس الخيل بأعنة

جواديها ، ووقف مقدم الخدم تجاهها لخدمة مولاه عند نزوله منها ، وتسرب رئيس الطهاة الى ناحية المطبخ لاعداد الطعام وتفرق الباقون ليؤدى كل منهم عمله . أما بعاكر فنزل عن العجلة قاصداً الى الحديقة فما كاد يصل الى بابها حتى طرق سمعه دويّ الطبل النحاسي الذى كان يدق فى هيكل آمون وصدى أصوات الكهنة الذين كانوا يرتلون الاناشيد الدينية ، فوقف فجأة ونظر الى السماء هنيهة ثم قال لمن حوله : ها قد طلع كوكب سوتيس . قال هذا ثم خرّ ساجداً واضعاً جبهته فى كفيه ، فاقتدى به أتباعه فى مظاهر التقوى والصلاح .

عرف كهنة قدماء المصريين بترصد الفرص السانحة لتأييد شوكتهم بين العامة ، فكانوا إذا لاحت ظاهرة سماوية كبرق أو رعد أو غيم ألقوا فى نفوس العامة من الاعتقادات الدينية بشأن الحوادث العلوية ما يخولون لانفسهم به حق الاشراف على أعمالهم السرية والجهرية ، وبلغ من نفوذهم لذلك أن المصريين كانوا ، إذا فاض النيل ، قالوا إن لفيضانه سراً إلهيا لا يحيط به غير الكهان ، وأن الواجب عليهم مقابلة هذه النعمة بالحمد والشكران . ولهذا كانوا فى مدة الفيضان يقيمون الاعياد ويسيرون المواكب ويترنمون بالأغانى الدينية ويقربون القرابين ، وغير هذا مما يدل على استقرار ذلك الاعتقاد فى نفوسهم وانتقاشه على صفحات صدورهم .

لبث بعاكر وخدمه جاثين على ركبهم فترة من الزمن ، منصرفة أنظارهم الى كوكب سوتيس المقدس منصتين بالخشوع والرهبة الى

الاناشيد الدينية التى كان يترنم الكهنة بها فى هيكل آمون . فلما انقطع الصوت نهض بعاكر فتراءى له شبح رجل عارى الجسد مستنداً الى جدار قريب منه ، فاشار الى الخدم أن ينهضوا ثم أمرهم بالاتجاه صوب هذا الشبح . فلما دنوا منه قال لرئيسهم : أجلد هذا الرجل مائة جلدة لتخلفه عن أداء الصلاة وعصيانه أوامر الآلهة . قال الرئيس : مولاي هذا الرجل إنما هو صانع الحصر وقد وصاه الطبيب بالراحة والاخلاد الى السكون . وهو لا يستطيع أن يحرك ذراعه لشدة ما يشعر به من الألم ، وقد ضربه مولاي بعصاه . قال بعاكر بصوت جهير : لقد استحق العقوبة لسوء أدبه وفرط تقصيره . ثم ولى عنه بكتفه ودخل الحديقة حيث أمر حافظ المؤن والاغذية بتوزيع كمية وافرة من الجعة على الخدم . ثم قصد حجرة والدته . وكانت جالسة بدهليز منمق بالازهار المتسلقة تداعب طفلة فى الحول الثانى من عمرها ، وهي ابنة ولدها الاصغر ، فسلم عليها باحترام فاستقبلته بوجه باش وثغر باسم . وكان بالقرب منها كلاب صغيرة ، فلما أن دخل أخذت هذه الجراء تثب عليه فرحاً به ، فأسكتها ثم التفت الى الطفلة وشرع يداعبها فبكت وصوتت صارخة فنأى عنها بجانبه قائلا : إنها لفتاة سيئة الخلق رديئة الطبع . فالت ستخم : انى أداعبها منذ ساعة فلم تجفل منى كما جفلت منك ، وما ذلك إلا لأنها ترانى على الدوام ، أما أنت فلست مثلى حتى تميل اليك . قال بعاكر : قد يكون هذا التعليل حقاً ، ولكن أليس بعجيب ونادر أن تنفر الطفلة منى فى حين تميل هذه الكلاب الي

وتستأنس بى ؟ قالت ستخم : لا عجب وأنت جاهل بأساليب ملاطفة الاطفال . قال بعاكر : إذا كنت ملمة بهذه الأساليب فهلمي بأسكاتها فقد ملأ صراخها أركان القصر . . واعلمى انى أرغب فى مكاشفتك بأمر خطير . فلاطفت ستخم حفيدتها حتى أسكتتها ثم بعثت بها الى حجرة أخرى مع بعض الخدم ، ودنت بعد ذلك من بعاكر وأخذت تلاطفه بأمرار يدها على خده قائلة : لو كانت هذه الطفلة ابنتك لأقبلت عليك لتثبت لك بحركاتها البعيدة عن التصنع أن أجزل هبة وهب بها الانسان ولد تقرّ به العين وتطيب النفس . أجاب : فهمت الآن ما الغرض الذى ترمين اليه ، دعي هذا الموضوع .. موضوع الزواج لنتداول فى حادث جلل جئت خصيصاً لمشورتك فيه . قالت : تكلم . قال : انى منذ يوم النحس الذى انقبض فيه قلبك لم أوجه الى نيفرت كلمة إلا فى هذا النهار . ولقد رأيت بعد هذا الهجر الطويل أنه خليق بنا نسيان ما فات وتجديد ما كان بيننا وبين خالتى من قديم الصلات .

تحولت ستخم نحو ولدها ، وقد هش وجهها وافترّ ثغرها وترقرقت بالعبرات عيناها ، وقالت : لقد أثلجت صدرى وأجليت كربى حتى أكاد لا أصدق ما تقول . قال : لقد راق لى وصل ما انقطع بين البيتين فقد كفانا ما فات من خصومات وحزازات . قالت : صدقت يا بنيّ فقد طال الامد ولكل شيء حد .

ثم أطرق برأسه مليا ، فجاش بخاطر والدته أن تدعوه الى الدنو منها والاطمئنان الى صدرها ولكنها لم تفعل حرصاً على راحته

واكتفت بأن تناولت يده فجعلتها بين كفيها وطفقت تناجي نفسها بقولها : لقد حدثني وسواسي بأن ختام هذا اليوم سيكون على مانشتهي لأنني رأيت الليلة الماضية فيما يرى النائم كأن أباك تقمص في جسم أوزريس وانني كنت في طريقي الى الهيكل فاذا ببقرة ناصع بياضها تمشي على مقربة مني ومن ورائها موكب عرس ، ورأيت كأن نور الاله آمون المقدس يأكل فطير الحنطة . فالتفت بعاكر اليها وقال : إن رؤياك هذه لبشرى خير ويمن وبركة . قالت : هلم نقوم إذن بمفروض الشكر والحمد للآلهة على هذه الآلاء المتتابعة ونقضي حق الطاعة الواجبة لهم . ولنقصد في صبيحة الغد الى منزل أختي راتوتي لنتصافى ونتصافح ونغضي على ما فات من الاغلاط والزلات ونوثق فيما بيننا الروابط والعلاقات . . وبعد أفلم نكن ابنتي أب واحد وأم واحدة ؟ . إن نظام الكون يتوقف على توثيق الرابطة بين أفراد الأسرة الواحدة ولن يتطرق الخراب الى العائلات إلا بما ينبت فيها من الخلاف والمنازعات . . في حين أن تمكين الروابط بين أفراد الاسرة الواحدة داع الى إعلاء شأنها وتخليد ذكرها . . لقد مات ما فات ، واعلم يا بني أن بطيبه غادات في الجمال بارعات يضارعن نيفرت في حسنها إن لم يفقن عليها . ولا يذهب عن بالك أن الاعيان وذوي المقامات الرفيعة اليك طامحون وفي مصاهرتك طامعون . فوقف بعاكر وأخذ يسير في الحجرة مسبهلا ، بينا كانت والدته تتم كلامها في هذا الموضوع إذ قالت : لا أجهل انني لمست بهذا الكلام جراح قلبك ، ولكن أما

لهذه الجراح التئام بانقضاء الساعات وانطواء الايام ! . . إذا لم يك مرور الليالى كافياً لشفائك من هذا الداء العضال فلا بد ان تصبح يوما هنيء البال . . ألم تك أوفر حظا الآن من مينا وأسعد جداً ؟ فعلى مَ جعلت له فى صدرك دفين البغضاء والحقد ؟ . . أجل . . لا أنكر ما لنيفرت من الجمال الفاتن والقد الرشيق، ولكن ألا تدرى أنها ما برحت صغيرة السن عاجزة عن إدارة شؤون البيوت وللمعاشرة لا تحسن ؟ . ألا تدرى أننى قد بلغت من الكبر عتياً ، وقريباً يدرج جسمي الضئيل فى لفائف التحنيط وأودع فى القبور الى يوم النشور ، وأنك إذا دعاك داعي الحرب الى الشام لتطعن الاعداء بالحسام ، فلا تلبث أن تقع فى الحيرة حين لا تجد فى منزلك من يديره ؟ إن إدارة البيوت تستدعى التدبير الصائب والرأى الثاقب ! . . أما قلت لك أن جدك آسا كان يقول «إن البيت إذا استقامت اموره دل على حسن تدبير أهله وقيامهم بواجباتهم » ؟ . . . إنى أبتهل لهاتور أن تلقى فى أحضانك زوجة على ما يروم قلبي وتطمح اليه نفسى . فقبل بعاكر ما بين عيني والدته قائلا : ليس فى الامكان أبدع مما كان . . أتريدين يا والدتى أن يكون النساء مثلك فى التدبير والاتقان ؟ فتبسمت ستخم وقالت : أنت تطنب فى مدحى وتنشر مناقبي مداهنة منك ورياء . ومع هذا فلا يخلو مدحك إياي من الصواب، فأن نساء اليوم اقتصرن على لبس الديباج المنسوج فى فينقيا ، وجاوزن القصد فى التبرج والتزين واقتدين بنساء الشام فى لهجتهن السريانية ، وأبحن للخدم التصرف فى شؤون منازلهن على ما

تسوله لهم نفوسهم الخبيثة ، فى حين أن من أقدس واجبات المرأة صيانة البيت من عبث الخدم بالمراقبة المستمرة الحازمة . وأسوق لك مثلا على ذلك . . أختى راتوتى وابنتها نيفرت . . فقاطعها بعاكر قائلا : ليست نيفرت كبنات هذا العصر ، لانك أحسنت تأديبها وما فرطت فى تهذيبها . ولو أنها بقيت فى بيتنا لكانت له كوكب سماء وتاج سعادة وهناء . فحدقت ستخم فى ولدها بعين تخامرها الدهشة وقالت : نعم نعم هي غادة فاتنة إذا أصمت قلب عاشقها بسهام لحاظها أغضى على هفواتها وأقالها من عثراتها ، وهل نسيت أننى كثيراً ما غضبت عليها لتواتر شكواك من معاملتها إياك بالصد والهجران . ولكن حيث قد أسبلت ستار التغاضى على الماضى فأنى أسامحها وزوجها مينا وأتجاوز عما ارتكباه من الاعمال التى أدت بك الى اضطراب البال .

ما كادت لفظة (مينا) تدوى فى أذن بعاكر حتى تربد وجهه وتغضنت جبهته وقال بصوت جهير : نسامحه ! . . نتغاضى عن سيئاته ! هو . . كلا بل ليهلك كما يهلك السفلة الطغام فى الصحارى والقفار ولتمزق جثته الضوارى ، فلا يواريها التراب مدى الاحقاب . فسترت ستخم ووجهها بكفيها ثم قبضت على التميمة المعلقة بعنقها وقالت بصوت خافت : إن فى صوتك ما يلقى الفزع في القلوب ولا يعلم مقدار ما روّعنى إلا علام الغيوب . . أعلم انك على وغر فى الصدر دفين من زوج نيفرت . أعلم ذلك منذ شهدت على وسادتك السهام السبعة التى كتبت عليها « ليهلك مينا » وقد ظهر لى منها أنك اقتديت بأهل سوريا فى هذه

الحيلة التى يظنون أنهم بها على أعدائهم يتغلبون . . أيها الآلهة أغيثونى من رؤية هذا الوجه العبوس الباسر . . حذار حذار يا بعاكر فأنك بتلك الفعال الممقوتة تغاضب الألوهية وتعارض قضاءها المبرم . لقد ربيتك أنا ووالدك على احترام الآلهة وتعظيمهم فلمَ لا تكل اليهم شؤونك وتدعهم يعاقبون الباغين بما بغوا والمعتدين بما اعتدوا ؟ أما علمت يا بنيّ أن أوزريس يسلب الذين يتخذون ولياً ونصيراً من دونه ما أولاهم من النعم ويصب على رؤوسهم جام العذاب والنقم ؟

قال بعاكر : أو تجهلين اننى بمثابرتى على تقديم القرابين قد خصنى الآلهة بالفوز على المعتدين . . أو تجهلين أن مينا إذ غصبنى خطيبتى قد أصبح من اللصوص الاشرار وهو لم يخجل حتى الآن من هذا العار . وكيف تريدين بعد هذا العناد ألا أسلط عليه روح الشر والفساد ؟ . إذا كان بقلبك يا والدتى ذرة من حبي فلا تسمعينى اسم هذا الشيطان الرجيم والعدو الاثيم . فهزت ستخم رأسها قائلة : أتدرى فى أي طريق نحن مسوقون ؟ إن حرب الشام لا بد لها من نهاية بعد شهور وأيام فيعود مينا الى طيبة فى معية الملك رعمسيس ويتبدل الصلح الذى نرتع فيه الآن بأشد الاحقاد والاضغان . . ولست أرى لهذا الفتق رتقاً إلا بأصغائك لنصيحتى وعملك بمشورتى ، ألا وهي التزوج بامرأة جديرة بمثلك . قال بعاكر : لا تذكرى الزواج . . إذ لا حاجة لى به الآن ولا تتعجلى فالعجلة من الشيطان . لقد اعتزمت السفر بعد أيام الى بلاد الشام ، أفتريدين إذا تزوجت أن أقتدى بمينا فى فعله الذميم فاترك

زوجتى كالأرمل لا أنيس لها ولا عشير ؟ ثم لماذا أراك شديدة الرغبة فى زواجي ؟ أما كفاك أن أخى متزوج وأنه يقيم وزوجه عندك ؟ ألا تكفي معاشرتهما إياك لترويح نفسك وتسرية هموم الوحدة عن قلبك ؟ أجابت : يعلم الله مقدار حبي لهما وشغفي بهما وبأولادهما ، ولكن أنسيت أن أخاك هوروس أصغر سناً منك وأنك أنت وحدك الوارث لما تركه أبوك من المال . وهذه ابنة أخيك التى أبكيتها الآن قد جمعت من الظرف والحسن ما يسر الخواطر ويقر النواظر ، إلا أن عنايتى بها لن تحرمنى لذة السرور بالقيام على تربية ولد ترزق به ليرجع فى المستقبل اليه أمر هذه الاسرة ، وليكون الوصلة بين أصولها وفروعها . ثم لا تنس يا بنيّ وصاة أبيك لك فأنها وصاة مقدسة يطلب من مثلك احترامها وعدم الحيد عنها . أفلا تذكر أنه سر بخطبتك لابنة خالتك نيفرت وتضاعف سروره حينما علم أن سلسلة سلالة آسا لن تنقطع حلقاتها وأنه لا بدّ من بقاء هذه الحلقات متصلة بهذا الاقتران طول المدى ؟ أما الآن وقد تزوجت من غيرك وآثرته عليك فليس ثمة ما يحملك على ألا تتخذ بديلا منها تحقيقاً للمقاصد الابوية الشريفة . قال بعاكر : إذا أخطأ رجائى المرمى ولم تحقق الايام أمنيتى فليس ذا الذنب اقترفته . . دعينى أودعك يا أمى لتأخذى من النوم حاجتك فقد أرتفعت الكواكب حتى كادت تبلغ سمت الرأس وإنى أسألك ، إذا توجهت فى ضحوة الغد لزيارة أختك ، أن تؤكدى لها بأن بيتى ما برح مفتوحاً لها على السعة والرحب . وقد غاب عنى أن أوافيك بخبر خطير ،

وهو أن قيم منزل خالتى قد عرض على قيم منزلنا أن يبيعه قطيعاً من البقر ، ولست أدرى لهذا سبباً لاسيما وأن الماشية اللازمة لفلاحة أراضى مينا قليلة العدد . قالت : أنت تعلم أن بيد خالتك الآن زمام أملاك صهرها وأنها فى عوز دائم لأموال تنفقها فى التزين والتجمل حتى لا تضاهيها امرأة من نساء طيبة كلهن فى زخرف الثياب وتألق الحسن ولمعان الزهرة ، ولا تزاحمها على استهواء الاعيان والعظماء الى التردد على قصرها المنيف وفى مقدمتهم والى هذه المدينة . ثم لا تنس أن ابنها لا يشق غباره فى الاسراف والتبذير ، فلا عجب بعد كل هذا إذا كانت كل آن فى حاجة الى الاصفر الرنان .

فهز بعاكر كتفيه مستنكفاً من سماع هذا القول وانصرف الى مخدع نومه . وكان هذا المخدع خالياً من كل أثر يدل على التأنق وحب الرفه والنعيم إذ كانت جدرانها مجصصة بالجير ومجردة من الرسوم والنقوش ما خلا بعض كتابات تحيط بالنوافذ والابواب وتتضمن طائفة من الامثال والقواعد الدينية . وكان بصدر المخدع سرير يمثل أسداً رابضاً وعليه فروة أسدة سوداء ، وعند رأسه متكأ من خشب السأسم مجلل بنقوش وكتابات كثيرة والى جانبه كرسي قصير القوائم من هذا الخشب يتخذه من يريد النوم سلماً يصعد فيه اليه . وكانت تحيط به أسلاب من الاسلحة ومجموعة سياط والسهام السبعة التى كتب عليها « ليهلك مينا » . وكانت هذه الثياب مثبتة بالجدار بحيث تتقاطع فى جزء منه كتبت عليه حكمة فى الحث على إغاثة الملهوف ومؤاساة

الفقراء وتفقدهم بالمطعم والمشرب والملبس ومعاملة الكبير والصغير بالعدل والمواساة .

وكان عند رأس السرير مخبأ مغطى بستار من ديباج أحمر وبالقرب من زواياه الاربع أعمدة تحمل تيجانها تماثيل تمثل ثلاثة منها صورة الآلهة آمون وموت وخون والرابعة صورة والد بعاكر والى جانب كل منها مذبح لتقديم القرابين وتجاويف لوضع المواد العطرية وخزانات مدهونة بألوان زاهية تحتوى أمتعة نفيسة خاصة ببعاكر من ملابس وكتب وتماثيل وتمائم وجواهر، ومنضدة بوسط المخدع حولها جملة من الكراسى الواطئة .

وكانت تضىء الحجرة مصابيح عديدة ، فلما أن دخل بعاكر فيها وثب عليه كلب هائل فاغراً فاه ، لم يلبث أن عرفه وأخذ يحوم حوله ويثب فرحاً به ، فأخذ بعاكر برأسه بين كفيه وقبله وكان شكله بحيث يدل على الذكاء والهمة . وكان الى جانب السرير عبد طاعن فى السن بدين الخلقة وافى الذراعين مدمج المفاصل، فدفعه بعاكر بقدمه قائلا : لقد اشتد بي الجوع فانهض لتهيىء مائدة الطعام . فقام العبد متثاقلا وخرج لتنفيذ أمر مولاه وظل بعاكر وحده فتذكر الماء السحرى فاستخرجه من القطرميز المعلق بنطاقه وأخذ يتأمل فيه معجباً ثم وضعه فى صندوق خشب به قناني كثيرة تحتوى الزيوت العطرية الخاصة بالقربان . وكان من عادة بعاكر فى كل مساء أن يملأ بهذه السوائل العطرية التجاويف المنقورة فى المذابح ويجثو على ركبتيه أمام الالهة

ويستغرق فى الصلاة زمناً . الا أنه صرف عنهم فى هـذه الليلة نظره وشخص فى تمثال والده زمناً أخذ بعده يقبل قدميه بخشوع واحترام قائلا : لا بد لى يا أبت من قضاء لبانتك والرضوخ لأرادتك ، فأن العادة الحسناء التى تخيرتها لتكون قرينة ولدك سوف يعقد له عليهـا . وأخذ بعد هذا يجوب أقطار الحجرة مقلقل الشخص مروع العين منزعج الضمير ، لأنه كان يعرض على نظره حوادث الامس فتنفعل نفسه بما طرأ عليها فيه من المؤثرات .

ثم وقف أمام الآلهة يرمقها بعين الاستهتار والاحتقار والتوى بعد عنها بجنبه منصرفاً نحو جهة أخرى ، فنظر السهام السبعة فافترثغره باسما وتهلل وجهه بشراً وترنحت أعطافه سروراً وطرباً وقال : لا بد ليدى هذه من الاجهاز عليه . ولقد كان فى أول أمره كالغريب الحائر يتخذ لنفسه دليلا يرشده الى سواء السبيل فاذا لم تعد له به حاجة أغضى عنه ولم يبال به وأعرض عنه احتقاراً حتى يعدل بنفسه عن ملازمته .

وكان الكلب يتابع مولاه بنظره فى حركاته فلما سمعه يقول «لا بد ليدى هـذه من الاجهاز عليه» خيـل له أنه يناديه ، فاسرع نحوه ووثب عليه مراراً فلم يسع بهاكر إلا أن زجره وقال : لقد اعتدت أيها الكلب مطاردة الضباع فى الصحراء واقتناصها قبل أن تصيبها رمية الرامى ، وهـذا فضيلة فيك يجوز لى أن أحرزها إذا لم تسعفنى الآلهة بمددها وتشد أزرى بقهر خصمى اللدود . ثم صعد نظره فى تمثال أبيه قائلا : وأنت يا أبت لم لا تشد أزرى وتشرح صدرى . . ألا تعلم أننى

بحاجة الى معونتك ودوام رعايتك ؟ ثم أمسك عن الكلام لأن العبيد كانوا دخلوا فى الحجرة يحملون على رؤوسهم صحاف الطعام ، فقال بعاكر : ألم أنبهكم مراراً الى تهيئة لون واحد دسم ومحرض لشهوة الأكل ، فلم جئتم إذن بهذه الاصناف الكثيرة ، ثم أين النبيذ ؟ أجاب أحد العبيد وهو الذى كان متمدداً الى جانب السرير : لم نأت به لأن مولانا لم يعتد تعاطيه . قال بعاكر : لكن أود احتساء كأس أو كأسين منه فى هذا المساء . كلا ، بل عجل بخابية من نبيذ راقم العتيق[1] فاخذ العبيد يتأمل بعضهم فى وجوه بعض ثم سارعوا الى تنفيذ الأمر وقال أحدهم وقت انصرافهم لأحد رفقته : جرت العادة أن يأكل مولانا كالأسد الأسيد ويشرب كالذباب ولكنه اليوم . . فقاطعه صاحبه قائلا : صن لسانك عن الزلل واسرع بنا الى صحن الدار لنحسو الكؤوس ونزيل البؤوس ، فقد أمر مولانا بتوزيع الجعة على جميع الخدم لأنه على ما يظهر قد فاز اليوم بمأمول أو وافاه نبأ ميمون .

كان لوقائع اليوم الماضى تأثير عميق فى عقيدة بعاكر أفضى الى انقلاب عظيم فى عاداته . فانه بعد إذ كان يبغض الشراب ويتجنب المخالطة ويرفض الدعوة الى الولائم تخلصاً من تعاطى المسكرات ، مال فى هذه الليلة الى الانفراد ليحسو من الشراب كأساً بعد كأس . ولقد ظل يتجرع حتى ثقلت رأسه وحجبت بصره غشاوة ، فقام يتلمس سريره

---

(١) راقم بلدة بجوار هرم سقاره المدرج بالغرب من مقابر منفيس كانت شهيرة بزراعة الكروم وعصر النبيذ الذى ورد ذكره فى كثير من اوراق البردى

حتى إذا اهتدى اليه رفع الستار المسدول على المخبأ فاستخرج منه تمثالا من الحجر للالهة هاتور مصنوعاً على مثال صورة نيفرت ومبرقشاً بأبهج الألوان ، لأن رعمسيس كان قد أمر أحد مهرة المثالين بصنع تمثال لها يشبه نيفرت . فلما تم صنعه بذل بعاكر مبلغاً طائلا من المال للحصول على صورة منه طبق الاصل ، وهي التى ما كاد يخرجها من المخبأ حتى أجال طرفه فى أنحاء المخدع لاتقاء الرقباء . فلما اطمأن خاطره وضع تمثال نيفرت أمامه وألقي بنفسه عليه وأخذ يقبل ثغرها الجامد البارد ، ثم ترامى على السرير بدون أن يخلع ثيابه أو يطفىء السراج فنام نوماً ثقيلا .

غير أن بعاكر لم يذق لذة النوم فى الجنح الاخير من الليل إذ فجأته الاحلام المزعجة ، فأخذ يصيح صياحاً عالياً قام ذلك العبد فزعاً بسببه ، وطفق الكلب يهرّ هريراً مستطيلا حتى هبّ بعاكر من نومه وتنبه من رقدته وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ، مكدّاً فكره فى تذكر الاحلام التى أزعجته ليعرضها على أحد المنجمين . وبينا هو كذلك إذا بأصوات الكهنة الذين أزاحوا عن أعينهم غشاء الهجود ونهضوا لاستقبال الشمس بأناشيدهم الدينية فى هيكل آمون قد استأذنت على سمعه ، فلزم الصمت برهة خشوعاً ورهبة وأحس انفعالا فى القلب اعتقد معه أن الآلهة تنعي عليه سوء سلوكه ، فخلا الى نفسه وأخذ يحاسبها حساباً عسيراً ورماها بسوء النية وفساد السريرة وآلى ألية أن يترك السحر والسحار ويكل أموره الى الاقدار .

قصد بعد ذلك الى الحمام وبينا كان يحرك فيه الماء الفاتر الممزوج بأزكى الروائح العطرية تذكر نيفرت وتأثير الماء السحرى فى فؤادها ودهش لتردده فى إعطائها إياه، ولعبت بنفسه الهواجس وساورته الأمانى التى تحجب عن البصيرة نور الحق والصواب وتزين الباطل بالتمويه الزائل، فجمح فى غوايته ومضى في تيار عمايته حتى اعتقد فى الظلام الحالك أنه اسطع الانوار وفى شوك القتاد انه أنضر الازهار. غير أنه شعر بالعشق، وقد أخذ عليه مشاعره، فكبر عليه أن يعجز عن مقاومته فبذل فى هذا السبيل كل جهوده. ولكنه لم يلبث أن وقع في براثنه ورضخ لجائر حكمه فكان من شأنه، وقد نزلت به هذه الضائقة، ما يدعو الى تشبيهه بمن تنزع به أمنية الربح الى قطع أجواز الفلوات وجوب القفار، حتى إذا فجأته العواصف وحاول الخلاص من شر ما تسفيه الرياح الهوجاء انهالت عليه وطمرته كما ينهال الثرى ويطمر جثث الموتى. غير أن الصبح ما كاد ينبلج وما كادت تطلع الشمس من خلف الروابى، حتى عاوده البشر وانشراح الصدر فلبس ثيابه المزركشة وجلس برهة يجيل فكره فى حادثات اليوم الماضى فازدرى بما كان ضميره يعيبه عليه ويسوقه ساعة الاستحمام من العظات اليه، وقال إنه لقادر على مكافحة الآلهة ومقاطعتهم وتحقيق مقاصده دون أن يفزع اليهم. وتطوح فى الالحاد حتى أنكر عليهم القوة والقدرة والسداد.

الفصل التاسع

أخبار شؤم من الشآم ويوم بؤس من أنكد الأيام

كانت الشمس فى سمت الرأس ترسل أشعتها الى مدينة طيبة وترشقها من كنانة حرارتها بسهام حادة النصال ، وكان المار بالطريق المستقيم المؤدى الى قصر رعمسيس تصيبه لفحاتها فيحس أنه أصبح ناراً تلظى . وجرت العادة أن يكون هذا الطريق إذا توهجت الودائق معطلا من الأنيس والطارق . غير أنه كان فى ذلك اليوم يموج بأفواج من الناس يتدافعون فيه بالمناكب بين راجل وفارس وراكب ، وكان جماعات من العبيد يحملون على متونهم قرب الجلد يطيرون منها رشاش الماء على الارض لتسكين ثورة الثير وتلطيف حرارة الهجير ، ومع هذا فقد كان الغبار يتطاير كالشرار فيغشي الرائحين والغادين الذين انجلبوا من جميع الاقطار لاستطلاع الاخبار التى وردت من ديار الشآم . وكان كلما ذاع خبر بين ملاء المتزاحمين سرى بينهم سريان ريح الجنوب إذ كانوا يهتمون به على السواء لتأثيره فيهم جميعاً باليأس تارة وطوراً بالرجاء .

وبيان ذلك أنه ما تمزق ستار الليل واسفر من خلاله وجه الصبح الوضىء حتى وصل الى طيبة من المعسكر المصري ببلاد الشآم ثلاثة برد يحملون خرائط مملوءة كتباً ومراسلات تتضمن أنباء القتال ومايكون

قد أحرزه من الفوز أبناء مصر الاشبال[١] . وكانت جماهير الاهلين تنتظر وصولهم بصبر يخالطه الرجاء تارة واليأس أخرى فكانوا ، وقد أصبحوا نهباً للظنون والهواجس ، كمن يرقب المزن إذا لاحت على أفق السماء فاما أن تهطل أراضيه غيثاً منبتاً أو صيباً فيه ظلمات ورعد وبرق .

وأغلب ما ورد من الكتب والمراسلات كان يحمل بشرى السوء بقتل زوج أو شقيق أو جرح ابن أو صديق . وكانت تلوح على وجوه بعض المزدحمين عندئذ علامات السرور والبشر لأنهم ، وقد وصلت البرد وتخلصوا من مرارة الانتظار والصبر ، جعلوا لا يحفلون بما تكون الكتب الواردة اليهم قد احتوته من أخبار الشؤم ، لأن المرء فطر على التعلة برجاء الخير والتباعد عن مظان الضير .

وكان الناس يخفون سراعاً الى ساحة قصر الوالى ويحومون حول الاعوان المنوط بهم فرز المكاتيب وترتيبها لتوزيعها ، الخاص منها على من وردت باسمائهم وعناوينهم وتلاوة العام على ملأ الحاضرين . وكانت الرسائل العامة عبارة عن بيانات باسماء القتلى والجرحى فى مواطن القتال ، وكان الاعوان إذا شرعوا فى القراءة تطاولت اليهم الاعناق ورمقتهم الاحداق ، لأن المستريب أشد الناس ألماً بما يداخله من الريبة فى أمر يمسه بذاته أو احداً من اهله . وكان السامعون ، إذا تليت عليهم تلك

---

(١) كان المصريون يميلون الى انشاء الرسائل ولهم ذوق مشهور فيها وهم اول من احدث البريد ورتب السعاة وكانوا يسمونه « فاسمات » وقد افاض المؤرخ ماسبرو فى هذا الموضوع فى كتابه المرسوم « انشاء الرسائل عند المصريين في عهد الفراعنة »

الرسائل يعالجون الخلاص من هذا العذاب بانصاتهم اليها واستكشافهم جانب سرها ليزيحوا الريبة عن ضمائرهم، سواء أكانت الاخبار الواردة صادقة أم كاذبة. وكثيراً ما كان اهتمامهم باستطلاع الضار منها أعظم منه باستطلاع السار. ألا ترى رسل السوء يجدّون السير فى أسفارهم وينشطون الى إذاعة الاخبار السيئة، كما لو كانت مدعاة لانشراح الصدور وتفريج الكروب؟

وكان بقصر الوالى (آنى) القريب من قصر فرعون أماكن خاصة بأولئك الكتبة والاعوان يتصل بعضها ببعض على هيئة إيوان مستطيل الى جانبه فناء ينتهى الى غرفة كبيرة جعلت للفصل بين الناس فى خصوماتهم. وكان الوالى يتصدرها متربعاً فى دست الحكم لاقامة الوزن بالقسط. وكان الموكلون بأدخال الخصوم عليه، وهم من الاحراس، واقفين بالأبواب وبأيديهم المحاجن الطويلة يلقون بها الرهبة فى قلوب المتقاضين.

وكان منظر القوم بعد تلاوة الاخبار موجباً للدهشة والاعتبار، ودالا على انقلاب الامور وتغير الاطوار. فأن المتعقبين للانباء بعد إذ كانوا سواء فى اليأس والرجاء تعاكست أحوالهم وتناقضت أشكالهم فما كادت الكتب العامة تتلى على مسامعهم حتى أخذ البعض يصيح بصيحات السرور والطرب لتأكدهم سلامة أقاربهم فى الجيش من كل عطب، وطفق البعض الآخر يعول ويبكي لنعي قريب أو قتل حبيب. وكان النفر الاول تبدو على وجوه رجاله نضرة السرور والبشر لعلمهم

أن لهم حصة فى أسلاب العدو ، أما الرهط الثانى فكانت قلوبهم تقطر حزناً وتنال منهم الآلام فجالت الدموع فى عيونهم ثم هطلت كالمطر المدرار .

وكان الناظر يرى غير هؤلاء واولئك جموعا من النساء يحثين التراب على رؤوسهن ويخمشن الوجوه بأطفارهن ، نائحات صائحات يشققن الثياب مولولات : وازوجاه ! ووالداه ! وأبتاه ! وكان الشيوخ الذين واقتهم أنباء البريد بالبأساء يكتفون بامرار أيديهم على لحاهم البيضاء . أما الأيامى فكن يتعلقن بأذيال الأعوان والكتاب يتوسلن اليهم أن يعيدوا تلاوة الاسماء اذ كن يعللن بالأماني أنفسهن بأنهم يكونون قد أخطأوا فتطمئن خواطرهن لاصلاح الخطأ وتهدأ نفوسهن بزوال الريبة ، والا استسلمن الى مظاهر الحزن وعلاماته المحسوسة من لطم وخمش وحثو تراب ، وغيره مما كان قدماء المصريين لا يستحيون من صدم الابصار به على ملأ من الناس فى قوارع الطرقات وأعطافها .

وكان نيمو يغدو ، خلال هذه الحوادث ، ويروح بين جموع المزدحمين مستثبتاً فى وجه كل فريق ، كما لو نيط به استطلاع اسرارهم واستقراء ضمائرهم أو كما لو نكأته هذه المناظر المحزنة وآلمت قلبه فحفزت نفسه للعطف عليهم والرفق بهم . وكان يخص باهتمامه الجموع التى يكثر فيها النواح والعويل ، فاتفق أن دنا من امرأة مثرية تنسكب العبرات من عينيها كوابل المطر ، اذ عال من صبرها ونال من اجلادها نبأ وفاة زوجها فى آخر واقعة فقال لها : اذا استطعت أن تقرئى السطور

المنقوشة بين أفاريز هذا البناء وتميزى حروفها من خلال الدموع المنحدرة على خديك فلا بد أن يدهشك معناها . . . إن تلك السطور تحتوى اسم رعمسيس مشفوعا بالالقاب السامية والنعوت العالية ! أفتعرفين أية هذه الصفات تستدعى الاهتمام أو الالتفات ؟ . . هي التى ذكر فيها أنه « واهب الحياة ومفيض النعم » نعم . . انه بلا خلاف واهب الحياة ومفيض النعم ، بل بارىء النسم وموجد الكائنات من العدم . . ولا عجب ، فليس بعزيز على من يميت الابناء والازواج فى ميدان القتال أن يحيي بموتهم الثكالى ويتيم الاطفال !

فظلت المرأة كالمنزول بها دهشة من ذلاقة لسانه وفصاحة بيانه ، وما همت بمجاوبته حتى رأته متعلقاً بأذيال شيخ قوس ظهره الهرم ولاحت عليه أمارات الضعف والسقم ، وسمعته يقول له : أرأي أحد فى طيبة كلها شاباً يماثل ابنك فى بارع الجمال ونادر الخصال ، قبل أن تغتاله يد المنون فى ساحة القتال ؟ كلا . . لو كنت أباه لخلقت لكل من ابنائى الباقين عاهة لا يصلحون بسببها للجندية التى هي أصل كل بلية . . فعليك إذن يا أبت بهذه الحيلة فأنها لجلاء الكرب عنك خير وسيلة . ثم اعلم أن بلاد الشام قد أصبحت للشبان المصريين الضريح العام . وأنه ليبدو لى أن رعمسيس تعهد لنسورة لبنان بتغذيتها مدى السنين بأجسام المصريين ، لأنها أجسام سليمة ومن الامراض عقيمة .

وكان الشيخ قبل أن يجاذبه نيمو أطراف الحديث راضياً بالقضاء

الذى نزل مغضياً عما به قد حل، فلما سمع هذا الكلام هاج منه الشجن وتوالت عليه الأحن، فشبك أصابع يديه ووكفت الدموع من عينيه. ثم انتقل من البكاء الى الانين والرثاء، فلما شهد نيمو منه هذا الانفعال لفت نظره الى الوالى وقال: لو كان هذا الشهم الهمام قابضاً على أزمة الاحكام فى هذه الايام، لما سيق ابنك الى ميدان الفناء حيث يتبدد جسمه أشلاء، بل لما وجد فى وادي النيل كله من اليتامى والشحاذين والايامى، من ضاق بهم رحب الفضاء وارتفع أنينهم الى عنان السماء. الحمد لله على أن لا يزال ماء النيل حلو المذاق، ولكن دوام الحال على هذا المثال يجعل هذا الماء العذب أجاجاً كماء بحر الشمال لانحدار دموع المنكوبين فيه على التوالى.

وما سمع الوالى هذه الكلمات حتى ترك منصة الحكم وأخذ يتعمل من الحركات والاشارات ما أراد الايهام به أنه متأثر من الحالة الحاضرة فى البلاد وما يقع من الحيف بالعباد، فاستقر فى خلد الحاضرين أنه مشاركهم فى أحزانهم فطفقوا يعولون حتى دوت أصواتهم فى أركان المكان وطرقت آذان كل إنسان، وبهت لها سائر أولئك الذين كانوا يملأون رحب الطريق الموصل الى القصر منتظرين نوبة دخولهم على الوالى لاستطلاع الاحوال.

وشرع الاحراس فى الآن نفسه يخرجون الناس من غرفة المجلس كي يحل محلهم غيرهم مما لم يسمعوا اسماء القتلى والجرحى، فأخذ الكتاب ينادون بها وعاد الوالى الى منصة الاحكام.

وكانت تجمعه وفرعون لحمة القرابة ، وكان معروفا بالعلم وكرم الاخلاق وشدة الطموح الى الملك ، ولكنه كان يكتم أصحابه هذا الطموح ويتظاهر بالقنوع بمنصبه وبما له من الحظوة عند فرعون . وكان رعمسيس الاول جدّ رعمسيس الثانى من أسرة سامية استوطنت مصر بعد نزوح عرب الرعاة[١] وامتازت بالشهامة فى قتالهم ، على عهد تحوتمس وأمينوفيس . ولكنه استعان فيما بعد بأمواله الكثيرة على اسقاط العائلة المالكة واغتصاب الملك منها ودبر لذلك مختلف الوسائل والحيل .

ولما توفى رعمسيس الاول أراد ابنه سيتى الاول أن يوثق أركان عرشه فاقترن بتائى حفيدة امينوفيس الثالث فرزق منها برعمسيس الثانى الذى لم يعارضه أحد فى ملكه على مصر ، لأن قوانين البلاد فى ذلك العهد كانت تجيز للانثى أن تتولى الملك وتحكم فى الناس ولذا اعتبر المصريون أن الحكم انتقل من والدته اليه فثابوا الى الدعة والسكون .

على أن سيتى كان قبل موته قد أصدر أمراً عالياً للامة بمشاركته ابنه فى الحكم[٢] فانقطعت بذلك أسباب الفتن التى كان فى قدرة الناقمين والمتبرمين أن يضرموا نارها بعلة أن سيتى الاول لم يكن من

---

(١) عرب الرعاة او الهكسوس اقوام توردوا على مصر من جهة الشرق مع اقوام من آسيا كانوا يهاجرون اليها فاستولوا على وادى النيل وحكموا فيه ٥٠٠ عام وقد اضطرت الاسرة الفرعونية المالكة وقتئذ أن تلتجىء الى النيل الاعلى ولكنها دأبت على مقاتلة الهكسوس حتى طردتهم من مصر واستأصلت شأفتهم

(٢) شارك رعمسيس الثانى والده فى الملك منذ ساعة ميلاده وتوجد فى هيكل أبيدوس (العرابة المدفونة) نقوش فسرها ماريت وماسبرو بان الملك رعمسيس كان يفتخر فيها بقوله « انه كان ملكا وهو فى البيضة » ورعمسيس هذا هو الذى كان يسميه اليونان سيزوستريس ويسمى على الآثار القديمة باسم (جيزورا) وقد اعتاد اليونان فى كلامهم على رعمسيس أن يخلطوا اعمال والده سيتى الاول باعماله

الاسرة المصرية القديمة . وكان آنى بن اخ تانى أصغر سناً من رعمسيس فرباه والد هذا فى هيكل سيتى وعامله معاملة الاب الرحيم لولده البار ، فأظله برعايته وحاطه بعنايته ، بينما كان من جهة أخرى يشتت شمل الاسرة المالكة المغلوب على أمرها ويصادر أملاك أفرادها ويقصيهم الى أبعد الآفاق .

ولقد أثبت (انى) رغم ذلك صدق ولائه للملك سيتى وابنه رعمسيس . وكثيراً ما كان بعض أخصاء فرعون يتزلفون اليه بالسعاية فى حق آنى ويحذرونه عاقبة الثقة به والركون اليه بقولهم إنه من سلالة الاسرة البائدة وأنه طامح للملك ويسعى جهده للاستيلاء عليه ، فكان رعمسيس لا يفتح أذنه لوشاياتهم بل كان ، كلما ازداد تحذيرهم إياه ، يغمره بنعمه ويفيض عليه غيوث كرمه ، إذ ما فائدة آنى من انتمائه الى الألوهية وانتسابه الى سلالة رع ، بل ما فائدة قوله إن رعمسيس لا يلتحم بهذه السلالة إلا من ناحية الأم فقط . . ألم يكن رعمسيس قابضا فعلا على زمام الاحكام ومتصرفا برقاب الانام وبيده صولجان الفراعنة العظام ؟ ألم يرزق بثلاثة عشر ولداً حسبه وكفى أن يخلد أحدهم ذكراه ويكفل بقاء الملك فى أسرته الى ما شاء الله ؟

كل هذه الاسباب حدت برعمسيس قبل شروعه فى حرب الشام الى تنصيبه واليا على طيبه لما بينهما من لحمة القرابة ولأنه قام فى بلاد كوش (١) باعمال جليلة جعلته مكينا عند فرعون وأثيراً بثقته ، فكان

---

(١) بلاد كوش هى الحبشة

خليقا بتقلد ذلك المنصب الرفيع .

وقد جرت العادة أن من يكن حاد الطبع عجولا ملولا يسكن ثائره ويهدأ روعه تجاه صاحب السكون والتؤدة ، بل ينظر اليه بعين الاجلال والاحترام ويرضخ لما يبديه من الآراء أو يقرره من الاحكام . وكان آنى ممن عرفوا بالرصانة والجلد عند نزول الملمات ، وألف رعمسيس فيه هذه الفضائل مراراً فخصه من دون رجال بطانته وأساطين حكومته بذلك المنصب الخطير مفضلا إياه على كل أمير .

وما كان لأحد أن يجرأ على اتهام آنى بالطمع فى دست الملك أو يصمه بدس الدسائس ونصب الشراك لتحقيق هذا المراد ، لأنه كان مشهوراً بالعفة وعزة النفس والتصون عن الدنايا ، لا سيما وان رعمسيس لما عرض عليه النيابة عنه فى الحكم مدة غيابه أبى ولج فى الأباء ، إلا أن الملك تمكن من اقناعه بأنه لا مفر له من القبول ، فلما قبل كان هذا عنده غاية المأمول . وليس من حرج عليه فيما فعل ما دام يعتقد أن عامة الناس وخاصة البطانة الملكية لا يتهمونه بالتطلع لتلك الغاية العزيزة والتشوف لذاك المرام البعيد ، فهم يعلمون أنه لم يتزوج ولم يكن له ولد وان من جعل وكده تقلد الرئاسة أو الاستيلاء على الملك فأنما تخدعه بوارق الطمع بحفظ العرش للاعقاب من ذريته تخليداً لذكراه واحياء لسمعته .

وفى ذلك اليوم المشهود تقدم الى آنى ، وهو فى مجلسه ، فلاح يشكو اليه ما أصابه من الأذى بهجوم الجند على أرضه ومصادرتهم

ماشيته ومحصوله ، فتلطف به وواساه ووعده بالنظر فى دعواه ، فانصرف الرجل قرير العين معللا النفس ببلوغ المرام ، وفى غضون الجلسة ذكره الكاتب بما وعد من الأمر بتعيين المحقق فأجاب : الواجب على أفراد الامة المصرية التكاتف على دفع النفقات الحربية وسدّ حاجة الجند من ميرة وذخيرة وعلوفة لما فى التقصير فى أداء هذا الواجب من تعريض الجند للمعاطب ، فشكوى الرجل باطلة ومن حلية الحق عاطلة .

تقدم اليه بعد الفلاح مأمور اسوان من أعمال مصر الجنوبية ، فطلب اليه التصديق على صرف مبلغ من المال لصيانة شواطىء النيل من طغيان المياه ، فاستمع الوالى لقوله مبتسم الثغر طلق المحيا ثم قال : إن نفقات الحرب استهلكت الميزانية حتى لم تبق فيها بقية تفى بأنجاز تلك الاعمال النافعة . . على أننى سوف أوافيك بجانب من مالى الخاص حتى لا تتعطل المصلحة العامة . ثم ودعه ورجا منه أن يبلغ الى سكان اسوان تحيته . وما غادر المأمور المجلس مبتهجا بما لقيه من الحفاوة والاكرام حتى أمر آنى له بمبلغ جسيم . وكان آنى أثناء اصغائه لما يطرح عليه من الشكاوى يتعمل الحزن إبهاما للشاكين بأنه يحس آلامهم ويشاطرهم أحزانهم ليخفف وطأتها الشديدة عن كواهلهم .

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب حينما طرق أسماع الملتفين بالكتبة صراخ فاستغاثة فنحيب ، فلم يك إلا مرور الطيف حتى تحولوا نحو مصدر الصياح واشرأبت أعناقهم لاستطلاع الخبر ، بعد إذ كانوا

منكسى الرؤوس حزناً وأسى . وأخذ الاحراس يفرقون الحشود التى توردت على ذلك المكان فعلا صياحها وازداد أنينها حتى تجاوبت الآفاق بدوي أصواتها . وساقت فصيله الجنود الليبية الصارخ الاول الى السجن وألقته فى غيابته وأنفذ الوالى من عنده رسولا لاستجلاء الحقيقة ، فعاد معه اليه ضابط الحرس ليخبره بأن قزم الاميرة راتوتى ما برح منذ ساعات يخترق صفوف الناس ليحرضهم على الثورة . قال آنى : إذا كان ما تقول مطابقاً للواقع فعجل بالقبض عليه وزجه فى السجن . ثم التفت الى بعض خاصته موعزاً اليه أن يأتى له بذلك الرجل سراً مع تطفيل الشمس .

وكان المحتشدون قد لمحوا الكاهن الاعظم فى ملابسه الكهنوتية يحف به لفيف الكهان ، فوقفوا صفوفاً ألوفاً على عطفي الطريق وركعوا إعظاما وإجلالا ، فمرّ بينهم مباركا فيهم وداعيا لهم . وما أبصر به الوالى حتى سارع اليه لاستقباله فى مظاهر الخضوع والخشوع ، ثم صحبه الى صدر المجلس وما كاد أمينى يستقر فيه حتى قال له : أيتأتى أن يكون المستحيل ممكنا . . وهل يجوز أن ينتظم رجال الدين فى سلك الجند ؟ . أجاب آنى : لا بد من أبطال للظفر بالأعداء الانذال . قال أمينى : ولا بد أيضاً من العمال لأداء ما تستدعيه الحياة من الاعمال قال الوالى : قضت إرادة الملك بحشد فلاحى الهيكل وتوجيههم الى محاصد الارواح قبل أوان البذار . ولا مفر لنا من الخضوع لأرادته فما نحن إلا عبيد جلالته نعمل بأشارته . قال أمينى . : تالله انى لأراك

أطيب منه مغرسا وأكرم محتدا وأولى على كل حال بالاستواء على أريكة الملك . . وبعد فهل يحسن بك تعطيل الزراعة والقاء الناس فى خطر المجاعه . . أما كان حقيقا بك أن توسع منها النطاق بل أن تفتح لها أبواب الصحراء لتبلغ الى أقصى الآفاق ؟ (١) . فتجاهل آني ما ترمى اليه هذه الكلمات من المغازى والمعاني وقال : إن أرضنا لا تبقى كلها فى حرمان من الزرع فانه لا بدّ لرعمسيس من الانتصار على عدوه بما يصل اليه من الامداد . قال أمينى : وأى الآلهة يسعفه بالمعونة والمدد وقد جعل وكده اغلاق الهيا كل وتعطيل الشعائر ؟ قال آني : لاتجزع يا أبت فعما قريب ينال الانتصار ويعود الينا مكللا بالغار ، فيجزل لكم العطاء ويضاعف القربان دفعا لغضب الآلهة واستنزالا للرحمة والغفران . ولا مراء فى قرب وصول أنباء الانتصار فقد جاءني من جلالته كتاب يذكر فيه اعتزامه عقد الصلح متى تمّ له الفوز فى المعركة المقبلة ، وهل انتهى اليك ما تواطأت الرواية به من اعتزامه الاقتران بابنة (حيتسار) ملك الخيتاس ؟ ثم حدّد بصره الى أمينى باسما وقال : فما رأيك فى هذا الموضوع ؟ أجاب : رأيى أن رعمسيس ما زال يعتقد أنه غصن الدوحة الفرعونية وخلاصة الجنس المصرى ، مع أننا لو تقصينا الحقيقة لأيقنا ان ليس فيه من المصرية إلا ما استمده من أمه عمتك التى لولاها لما خلص له هذا الملك الواسع المصون بوحدته من كل مساس إن شاء الله .

---

(١) قال نابليون الاول ما يوافق هذا المعنى « اذا حسنت الادارة في مصر واستقامت فان خصب النيل يتناول اراضى الصحراء ويجعلها قابلة للزرع واذا ساءت الادارة فيها اوغلت الصحراء فى الاراضى الخصبة حتى تبلغ ضفاف النيل »

قال الوالى : إن يخطأ فى زعمه فقد أصاب فى انتسابه الى الدم الملكي المستمد من دم اله الشمس . قال أمينى : نعم لقد أصاب . . إلا أن هذا الدم يجرى فى عروقه مشوباً بمختلف العناصر ، أما دمك فملكي صريح لا يشوبه شوب . فأشار اليه الوالى أن يصمت ، ثم سارّه فى أذنه : صن لسانك واعلم أنا لم نكن فى خلوة . قال أمينى : ليس فى هذا الجمع الحاشد من يفهم مغزاة حديثنا ، على أن ما جهر به من الاقوال تداولته ألسنة الاطفال . قال آنى : وماذا يكون المصير إذا اتصل بالملك أنك تحض الناس على المروق من طاعته ؟ أجاب : إذا اتصل ذلك به فسيعلم أنه مما يخالف أصول السياسة والعدل الافتئات على حق من له وحده النظر فيما إذا كان دمه أم لا ملكياً صرفا مستمداً من إله الشمس ، وإن أعجب فعجب أن يظل رعمسيس فى منصة رع ؟ . قال آنى : أتود أم لا إطاعة الأوامر فقد قلت لك أننى عبد الآمر . قال أمينى : كيف لمثلى أن يخلع الطاعة لمليك البلاد والمتصرف فى رقاب العباد ؟ غير أنى لا أبت الآن فى أمر قبل انعقاد مجلس الكهان الذى يرجع اليه حق النظر فى مطالب رعمسيس والبت فيها بالرفض أو بالقبول . قال آنى : ان الاستشارة تفضى الى التأخير فى تعبئة الرجال وارسالهم الى ميدان القتال ، وأنت عليم بأن الحاجة ماسة اليهم إذ هي الحرب متعطشة للدماء وارواء ما بها من لهب الظماء . قال أمينى : إذا كان للحرب ملك مقدام فللصلح غيره ممن يحبون السلام .

أمسك أمينى عن الكلام فوضع آنى محجن الكهنوت كما يضعه

أمام تماثيل الآلهة ثم تقدم الى صدر الغرفة فتبعه الوالى باسما وقال : أما عندك حديث طريف ؟ أجاب : بلى فقد سقطت بنت أنات أمس فى وهدة الخطيئة فأمرت باقامة الصلاة فى الهياكل وتقريب القرابين لتطهيرها من لوثها . فأطرق الوالى مليا ثم قال : إذا كان الغد بكرت الى بيت سيتى وأرى أن تؤجل الصلاة الى أجل غير مسمى ، فوعده أمينى بأجابة طلبه ثم انصرف ، وبرح آنى قاعة الجلسات عائداً الى القصر .

فلما وصل اليه وجد به ملفات تبادر الى ذهنه أنها تحتوى أخباراً خطيرة فطرحها جانباً وتناول غيرها مما كان يعلم أنه لا أهمية له وأنشأ يتلوه . وكان الى جانبه عبد يتسلم منه كل ورقة تليت ليلقي بها فى أتون نار بينما كان أحد الكتبة يسطر ما يمليه الوالى عليه من المذكرات رداً على ما قرأه . فلما أتى على آخرها صرف الكاتب وتناول رسالة وردت اليه من فرعون عنوانها هكذا « الى أخى آنى » فأيقن أنه لا صلة لها بأعمال الحكومة بل بشأن خاص فعجل بفض ختامها فاذا فيها ما يأتى :

« بعثت اليك بخط الكتبة طائفة من الرسائل ماسة بشؤون مصر إذ أعربت فيها عن عطفى الدائم على أمتى المصرية ، وأفصحت عن رغبتى فى انهاء الحرب قريباً ، واليوم أكتب اليك بخطي هذه الرسالة أوافيك فيها بأسرار ليس لسواك أن يطلع عليها . ولقد تعلم أن روح الألوهية السارية فى جسدى طالما حفزت لسانى للنطق بأحدى كلمتى (نعم) أو

(لا) تنفيذاً لمشروع أو عدولا عنه، وموافقة على اقتراح أو رفضاً له. وإذ قد سألتنى الاقتران بابنتى المحبوبة بنت أنات فلن أكون فرعون مصر ان لففت عليك وكتمتك انى ما انتهيت من تلاوة كتابك حتى انطلق لسانى بلفظة (لا).

« ولا يرعك هذا الأمر وقد وردت دائماً منى على ما تحب، فان له سبباً حرياً بالاعتبار. ذلك انى استطلعت النجوم واستشرت أحشاء الموتى فى موافقة هـذا القران أو مخالفته فأجمعت الطوالع على رفض طلبك. وقد كان مما يحرج له صدرى أن أفجأك بهذا الرفض، وأنت منى بالمكان الأثير بل وأنت الذى يسرى فى عروقه من الدم الملكي مثل ما يسرى منه فى دمى، بل ما هو أطهر منه وأنقى كما أكده لى صديق ما برح يحذرنى منك ومن الثقة بك لطمعك فى عرش الملك.

« وإذا كنت قد خست بعهدى لك فليس لرهبة منك، فلن أكون ابن سيتى أن أثر الخوف فى إرادتى أو ضعضع من همتى. وكل ما فى الأمر أن طلبك جعلنى فى موقف اضطرنى الى رعاية ما أبداه لى صديق حميم من حق الولاء، والا فمن غيرك أهل لبنت أنات وجدير به الطموح الى أبعد الغايات، وهل يكون كفؤاً لهـا إلا الطامح لاغتصاب زمام الحكم على مصر والاستيلاء على ما يتبعها من الولايات؟ فعليك بالاستيثاق إذن من رضاها فأن مالأتك على طلبك ورضيتك لها بعلا فحبا وكرامة، ولا مناص فى هذه الحالة من إقامة الاعراس يوم عودتي من بلاد الخيتاس. ولا يذهب عنى أنك من فتاء السن بما يضمن

السعادة لزوجك وأن ابنتى العزيزة ستجد من خبرتك وحكمتك سياجا وافيا . ولك أن تخبرها بموافقتى على رغبتك وانى لأبتهل الى هاتور أن تفتح لك قلبها وتسلم اليك مقاليدها ان شاءت أن تكون بعلا لها ، فان إرادتها حكم يخضع كلانا له صاغراً »

كان آنى فى أثناء مطالعته هذا الكتاب يتربد وجهه ويتبين فيه الضجر والتنكر . وكان يقف تارة ويمشى مسبهلا تارة أخرى أويستند خائر العزيمة الى أحد أساطين الغرفة ضاربا فى بيداء الفكر والهواجس ، فلما جاء على آخره تعيست جبهته وهمّ بالتلاوة مرة أخرى فما كاد يتمها حتى صاح : « هذا دواء مر ممزوج بالعسل فهل خامر لبّ فرعون أنى امرأة(١) » . ثم لزم الصمت هنيهة وقال : فهمت الآن كيف يجمع المرء ، إذا اتجه اليه أحد بطلب ، بين الرفض والقبول وكيف يرده بالخيبة بعبارة ظاهرها إجابة المأمول . يا لرعمسيس فى دهائه وحيلته . . يتعمل مظاهرتي على تحقيق أمنيتى وهو أدرى بأطوار ابنته وأنها كأخواتها فى السن لا تود الزواج من مثلى ، وقد ناهز الاربعين ولو اقترن من قبل لرزق بمثلها ! . . ثم يكلفنى الخضوع لحكمها بعلة أنه سيعمل بإرادتها ، وما هي الا فتاة غير مسؤولة عن تصرفاتها ! !

خامرت هذه الهواجس آنى زمناً لم يتمالك بعده من أن يطرح على الارض كتاب رعمسيس فيلتقطه العبد ويعيده الى مكانه . ومن

(١) جاء في قراطيس البردى الطبية المحتوية شرح صناعة الحبوب الطبية أنها كانت تعطى للنساء ممزوجة بالعسل وللرجال كما هى .

أن يلقي كرة معدن فى طست فضة فيتقدم اليه بعض الاعوان ويأمرهم باحضار القزم نيمو . وكان الوالى، وقد كاد مقراض اليأس يأكل خيوط آماله ، مضطرباً ثائراً على رعمسيس لما يتصنعه من الرفق به . وهو في أقاصي الشام . وكان يرى فى سلوكه معه ما ينطبق عليه المثل « إذا أهداك عدوك وردة فليس لتشم رائحتها بل ليؤذيك شوكها » .

أقبل نيمو خلال ذلك فترامى على قدمي آنى فأمر هـذا أعوانه بالانصراف من حوله ، فلما انصرفوا اذن له بالمثول بين يديه وقال له : قضت الضرورة بألقائك فى السجن اليوم . قال نيمو : شكراً لمولاي على هذه النعمة فأنه سيمد بها فى عمرى . فسأل آنى : وكيف يطول بها عمرك ؟ أجاب : ذلك لأن ساعات السجين تعادل الاشهر والسنين . قال آنى : خلك من هذا المجون والهراء فأنه لا يليق سمعهما إلا بالنساء . . ولولا أن راتوتى هي التى حرضتك على هذه الفعلة لقتلتك شرّ قتلة أو بعثت بك الى الليمان حيث تضرب وتهان . قال نيمو : وكيف ترضى لى بالليمان ويدى الصغيرة لا تنقل شيئاً أكبر من الفرزان . . ولئن أكن قصير اليدين فلسانى يتجاوز فى الطول ذراعين ، وهو إذا انطلق انساب كالافعوان أو جرى كالسيل فى الوديان ، فتارة يغمر المزارع الناضرة وطوراً ينكشف عن الأراضى الغامرة . قال آنى : ان سيلك مهما تدفق بالماء فمن الممكن إحاطته بالجسور وهو بهذه الوسيلة لا يجور . قال نيمو : مولاي أدرى بأننى لا أتعدى الحد خشية الوقوع فى الضد ، وكل ما أتيته من الاعمال اننى أطلعت الناس على حقيقة الاحوال ،

وكشفت لهم الستار عن سبب ما عراهم من الاحزان والاكدار ، ووصفت لهم وسائل العلاج ومن هو الطبيب الذى هم اليه فى أشد الاحتياج . قال آنى : ولكن ما قولك إذا كان هذا الطبيب لم يكلفك بهذه المهمة ؟ ومع هذا فقد أحسنت إذ بفعالك على كفاءتك قد برهنت ولأنت من يعول عليه فى الاحوال الخطيرة والمهمات الكبيرة فكن حكيما فطناً ومدبراً لبقاً ، واعلم أني قد احتاج اليك وأعول فى بعض شؤونى عليك ، فالزم الآن بيت سيدتك حتى استقدمك وسارع اليه فى الحال وسلمها هذا الكتاب الوارد برسمها مقرونا بأزكى التحية . قال نيمو : سلام على آنى بن الشمس .. وبعد فهل عندك كتاب آخر لسيدتى نيفرت ؟ أجاب : لم يرد كتاب من مينا ولكن علمت أنه على ما يرام فاذهب على عجل وصن لسانك من الخطأ والخطل .

توارى نيمو عن الانظار ونهض آنى الى غرفة مدت له فيها مائدة حوت شهي الطعام ولذيذ المدام . ولكنه لم يتعاط منها لاشتغاله ببنت أنات وما ستتلقى به طلبه من رفض أو قبول . وبعد هنيهة أمر بالعبيد فحضروا وأخذوا يسوون شعره ويفرغون عليه ملابسه فلما انتهوا تناول المرآة وتراءى لنفسه فيها ثم ركب عجلته قاصداً الى بنت أنات . وكان فى أثناء سيره يزين له ابليس أنه صار قرين بنت أنات وخليفة رعمسيس .

الفصل العاشر

قلة مال واضطراب بال

كان الناظر الى قصري مينا وبماكر من نقطة متساوية البعد عنهما لا يفرق بينهما فى تنضيد بناء ولا فى احتفال تنميق . ولكن كان أولهما أقدم عهداً من الثانى وأقل منه حظوة بالعناية والتعهد ، إذ كانت نقوشه الجميلة تندثر وأركانه المدعمة تتداعى الى السقوط وحديقته الغناء يذهب ببهجتها الاهمال بحيث كان يكفى النظر الى عدم تناسق أشجارها وانطماس مجارى الماء فيها للحكم بأن أصحابها اغفلوا العناية بها لضرورة ماسة من الضرورات .

وكانت الحديقة كلها فى هذا الحال من الاهمال على اتساع أرجائها وتباعد أطرافها ، اللهم إلا الطريق الموصل الى مسكن راتوتى ونيفرت فقد كانت تحف به أشجار باسقة ذات ثمار يانعة .

وكانت حجرة راتوتى مؤثثة بأجمل الأثاث وأحسن الرياش ومنمقة بما يبهر الابصار ويحير الافكار من عجائب الصناعة ونوادر الاختراع ، فمن مناضد السأسم الملتوية القوائم على شكل حلزوني يذكر الناظر بالثعبان فى تلويه ، وأرائك يعلوها الفراش الوثير من المخمل والاستبرق وأصص ازهار يعبق أريجها فى الارجاء وأكواب للشراب وخزانات قام بتكفيتها على أبدع النقوش أحذق الصناع وصحاف مرمرية يسطع

منها شذا السوائل العطرية وطنافس سميكة طريئة بثث فى كل مكان ، وما الى ذلك كله من بواعث الراحة ووسائل الرفه والنعيم اللذين تصبو اليهما نفس كل إنسان . وإذا كانت ربة البيت قد تعمدت اغفال ترتيب هذا الأثاث الفاخر على قاعدة التشابه والتناظر فقد زاد هذا الاهمال فى حسن الرونق والجمال .

فى هذه الحجرة الباهرة الجاذبة بحسنها للناظر . كانت نيفرت مضطجعة على احدى الأرائك تلاعب بأناملها هرة بيضاء دون أن تنبس شفتاها بكلمة ، بينا كانت إحدى الجوارى أمامها تروح لها بمروحة كبيرة لتلطيف الهواء إذ كان اليوم شديد وقع الشمس محتدم الهاجرة ، وكانت والدتها تودع ستخم وبعاكر وكانا قد حضرا لزيارتها ثم انصرفا .

مضت أربع سنوات لم تطأ قدم بعاكر ووالدته عتبة بيت راتوتى لما كان مستحكما بينهما وبينها من النفور والجفاء على أثر تزويج نيفرت من مينا . وقد أبدت ستخم خلال زيارتها ما يدل على زوال الجفاء وحلول المودة والصفاء رعاية لحرمة القرابة وصلة الرحم ، فلما توارى الزائران عن العيان خلف أشجار الرمان التى كانت أزهارها القانئة كالنار المتأججة أقبلت راتوتى على ابنتها وسألتها : أو كان يخطر هذا ببال ؟ . أو يظن أحد أن يقيم بعاكر على حبك الى الآن ؟ فاحمر وجه نيفرت حياء وأخذت تضرب الهرة البيضاء بمروحتها ضرباً خفيفاً متداركا ، ثم تنفست الصعداء وقالت بصوت العاتب : دعينى يا والدتى الآن من هذا الكلام .

كانت رانوتى معتدلة القوام أملود الساقين ريا المعاصم متجانسة الاعضاء . كانت معروفة فى طيبة بجمالها الفتان ومحاسنها الغضة وبالتفنن فى التجمل والتزين والميل الى التبرج بالازياء الجديدة حتى كنّ فى ذلك لا يأخذن إلا عنها ولا يقلدن غيرها في حسن الشارة وتنسيق الزينة وخلاعة المشية ولطف الحركات . وكانت يوم زارتها ستخم تحمل مطرفاً مسها من الخز يزيدها التبختر فيه بقوامها اللدن رقة ورشاقة . وكانت عادتها ألا تتكلف فى التجمل ولا تتحرى شيئاً من أسباب التصنع والتعمل إذ كانت لا تهوى التحلى بالعقود والدمالج والجواهر التى تصبو اليها نساء مصر عامة ، بل كانت تجد خير معاض عنها فى تنميق الازهار الطبيعية على جسمها ووضع أكليل ذهب مصفي على رأسها يحيط بغدائرها المنضمة ضفيرة واحدة مرسلة الى كتفيها بما يدل على قصد الاهمال مبالغة فى التبرج والدلال .

وما كان لراتوتى مال تالد ولا طارف وما امتلكت أرضاً للزراعة ولا دوراً للسكنى . لهذا وذاك لجأت الى مينا وعاشت فى بيته مع نيفرت لتدبر أملاكه وتتعهد شؤونها بالمراقبة . ولم يكن لها ملاذ ، قبل هذا القران ، سوى دار اختها ستخم لأنها كانت تزوجت من أخيها (١) وعاشرته زمناً أتلف فيه كل ما أفاضته عليه الاسرة المالكة من الهبات وما ورثه من وافر المال فى شهوات النفس وملاذها ، فلما توفى لم تجد

---

(١) كان زواج الاخ شائعا عند قدماء المصريين وقد نقل البطالسة عنهم هذه العادة التى كان يحبها المقدونيون ولهذا انتحلوا حينما تزوج بطليموس فيلادلف بشقيقته أرسينوه حبيا لهذا الزواج وهو اقتران الزهرة بزحل فى الحسابات الفلكية وقتئذ

ما ترثه عنه فلاذت مع ابنها وابنتها باختها ستخم التى استقبلتها بصدر رحيب ووجه مشرق وتنزلت لها عن دارها لتتخذها مثابة لها ولتستغل من إيرادها ما تنفقه فى بعض شؤونها ثم عهدت بالموهار زوجها القيام بتربية شقيق نيفرت، وكان فتى حلو الطلعة كثير الازدهاء بنفسه ميالا الى دنايا الامور وسفسافها .

وكانت راتوتى لا تشعر بأعباء هذه المنن المترادفة على عواهنها، إذ كانت، بما جبلت عليه من الكبرياء والأنفة والاعتداد بذاتها، تعتقد أن ما تفيضه أختها عليها من المكرمات وتطوق به جيدها من المنن ليس إلا فرضاً محتوماً عليها وواجباً يطلب منها أداؤه، بل ديناً تقوم بوفائه نحوها، وان ليس فى ذلك ما يحط بالقدر أو يذهب بالجاه وحسن الذكر .

وكان مما يحرج صدر راتوتى أن يسمعها ذوو الحجي من معارفها عبارات الحض على وجوب قيامها بتأديب ابنها وتثقيف عقله ليعتمد على نفسه متى نزل فى معترك الحياة، لأنها كانت لفرط حبها إياه لاتود أن تسمع فيه لوما ولا عذلا، ولو كان القصد منهما مجرد الارشاد والنصح . وكانت لا يستولى عليها الحياء إلا إذا ضرب لها زوج اختها الامثال بالمسرفين السفهاء وحذرها من التبذير وصور لها ما يستتبعه من ذل الفقر، فأنها كانت تمسك عن الكلام أو تتهم اختها بالزهو وحب الفخر وأنها لذلك وحده تكرم مثواها، لا لرعاية حب القرابة أو الحرص على صلة الرحم وأنه أصبح من ثم لا يحق لأحد مطالبتها

بأن تقابل بالشكر والثناء صنيعاً مشوباً بالرياء . وقد جاء كفرانها بالنعمة على هذا الوجه مصداقاً لحقيقة ثابتة يتضمنها المثلان السائران « التحدث بالجميل حمل ثقيل » و « لا يقابل صاحب الاحسان إلا بالجحود والنكران » .

وكانت راتوتى لشدة عوزها ترتقب الفرص لتنفيض غبار الفقر عن نفسها ، فما أقبل مينا عليها فى طلب يد نيفرت حتى أجابته فوراً بالقبول ، إذ كانت فى مسارعتها الى ترجيحه على ابن اختها ما يغنيها عن الاعتماد على أقاربها فى سد عوزها ورتق فتوقها ويطابق إرادة رعمسيس الذى كثيراً ما أعرب عن رغبته فى إتمام هذا القران .

ولما تم الزفاف اقامت راتوتى مع نيفرت بدارها الجديدة ، ولكن لم تمض أيام حتى شب ضرام الحرب بين مصر والشام فرحل مينا فى جيش الملك لقتالهم فتم لراتوتي ما كانت تتمناة من الاستئثار بالرقابة على أملاكه الواسعة وتسديد ديونها الخاصة من إيرادها والتصرف فى الباقى على مشتهاها . وقد ابتسم لها على الجملة ثغر الأمانى وأتت لها تلك النعمة الجزيلة من وراء الآمال ، إذ أصبحت وفى قدرتها بذل جزيل المال فيما تميل اليه من التجمل بالمخمل الموشى والجواهر النفيسة فتستدرك ، فى بحبوحة ما أسني لها من الرزق وأرغد عليها من العيش ، ما فاتها من مظاهر الترف والنعيم فى أيام الحرمان إذ كانت عالة على غيرها .

ولم تقتصر على نفسها فى الاسراف من أموال مينا بل أغدقت على ابنها من هذه الخيرات ما استطاع به الظهور أمام الجمهور بمظاهر

العظماء فاقتنى المركبات الجميلة والخيول المطهمة ونظم بمساعى والدته فى سلك ضباط البطانة الفرعونية . أما نيفرت فلم تدع راتوتى واسطة إلا اتخذتها لأرضائها بقضاء مشتهياتها فأصبحت من رفعة القدر وسمو المكانة بحيث تناظر فى الترف والبذخ أميرات الاقطار الاسيوية .

وكان آنى يقيم فى أثناء الحرب بقصر فرعون فأصبح بذلك جاراً لراتوتى فاغتنمت هذه فرصة الجوار لاستدراجه للتردد عليها حتى انتهى الأمر به الى الهيام بها واستشعر بضرورة لقائها كلما أمكنته الفرصة . وكثيراً ما كانت هذه المقابلات تفضى الى محادثات تتحرى راتوتى خلالها استفزازه الى الطمع فى عرش الملك . ولولا أنه كان واقفا على صلتها بالأسرة المالكة السالفة وأنها حرمت مثله الحقوق الملكية لما اختلف اليها للانس بحديثها .

وهي التى حرضته فى أحاديثها على خطبة الاميرة بنت أنات دهاء منها ومكراً ، فقد كانت على يقين ثابت أن فرعون سيرفض طلبه فيحنق عليه فتستدرجه بوسائل الاغراء الى العمل بما ترسمه له من الخطط وتضعه من القواعد المطابقة لمآربها والمحققة لأمانيها .

وكان نيمو آلة مطواعة فى يدها يؤدى بالهمة والنشاط والأمانة كل ما توعز به اليه ، مع أنها لم تكاشفه بشيء من أسرارها ولكنه سرعان ما كان يتبين مرادها قبل أن ينطلق لسانها بكلمة أو تندفع يدها بحركة ، فكان كمن يقرأ فى وجهها ما ينفعل به قلبها من المؤثرات . وكانت عادتها إذا أرادت معاقبته على أمر أن تضربه بالمروحة ضربا

يكاد يكون لمسا . وقد بدرت منه كلمة فى اليوم الغابر عاقبته عليها بهذه العقوبة، لأنه قال فى خلال حديث له «لو سمي فرعون مصر بآني بدلا من رعمسيس لأصبحت راتوتى الهة لا ملكة » فارتاعت لهذه الكلمة ونظرت اليه بعين المستفهم فقال : نعم لأنها حينئذ تكون منه بمنزلة المرشدة المشيرة لا الجارية الأسيرة .

وفى مساء ذلك اليوم لم تنتبه راتوتى الى ما بدا من الاحمرار فى وجه نيفرت بسبب ماسمعته من ذمها فى بعاكر لأن نظرها كان منصرفاً نحو باب البستان ترتقب عودة نيمو، فلما عيل صبرها قالت : أين نيمو يا ترى ؟ لا شك فى وصول رسائل الينا اليوم من معسكر الجيش بالشام . فتنفست نيفرت الصعداء قائلة : لقد مضى زمن طويل ولم يصل كتاب من مينا . ثم تهللت فرحا وصاحت : ها قد حضر قيم دارنا . فالتفتت راتوتي اليه وقد دخل الحجرة من باب عرشت عليه أغصان الاشجار وسألته عما يريد فأجاب : ان التاجر (عبشا) قد لجّ فى طلب ثمن المركبة السورية وأقمشة الخز . فأمرته راتوتى ببيع الغلال وتسديد ما عليها له من المال . فقال : البيع غير جائز ونحن لم ندفع حتى الآن الضرائب المفروضة للهيكل . ثم إننا سلمنا للمتعهدين بتوريد اللوازم من هذه الغلال ما لم يبق بعده إلا مايفى بمؤونة البيت والبذار . قالت : بع بعض الثيران وادفع له المطلوب من الاثمان . قال : وكيف العمل وقد بعنا منذ أيام الى الموهار قطيعاً برمته فلم يبق إلا ما إذا بعناه أصبحنا لا ندرى كيف تدور النواعير والطواحين ! وهل نسيت

يا مولاتى أنه لا بد لنا من استبقائها للبنها وزبدها وجبنها ولنتخذ من روثها ناراً للاصطلاء بها عند الحاجة (١)، فأمسكت راتوتى هنيهة عن الكلام ثم قالت : اذهب الى هرمونتيس وقل لمباشر جياد مينا أن يبعث الينا بعشرة منها . قال : لقد كلمته فى هذا الأمر فأكد لى أن مينا حذره من التفريط فى جواد واحد من جياده إلا ما يلزم لجر مركبة نيفرت . قالت راتوتى : يجب أن تطيعوا أمرى وهاءنذه منتظرة وصول الجياد غداً . قال : ان مباشر الجياد رجل عنيد .. فقاطعته قائلة : فليعلم هو ولتعلم أنت أننى صاحبة الأمر والنهي فى هذه الدار ، فعليك بأحضار الجياد هنا بالرغم من أوامر مينا . وكانت نيفرت قد وقفت خلال هذه المناقشة على قدميها ، فلما سمعت الكلمات الاخيرة من حديث والدتها قالت : كلا بل يجب أن تكون أوامر زوجي هى التى يتحتم تنفيذها ، وإذن فلا يبرح جواد واحد مربطه . وإذا كنتم فى حاجة الى مال تسدون به ديونكم فها كم الدمالج التى أهدانيها الملك أنزعها من معصمى لتنفقوها فى هذا السبيل أو فى غيره ، وان تكن قيمتها تعدل عشرين جواداً ، وإذا فرطت فيها فلن أفرط فى جواد واحد لزوجي . فتناول القيم الدمالج وأخذ يجيل فيها نظره فاحصا ناقداً فاذا بها مرصعة بالاحجار الكريمة والجواهر النادرة . ثم أرسل الى راتوتى نظرة المستفهم فهزت كتفيها إشارة الرضى المصحوب بعدم

---

(١) كانت مصر كما لا تزال الى اليوم محرومة من الغابات والاجمات ولذا كان فقراء المصريين يتخذون نارهم من روث المواشى بعد تجفيفها كما يفعل الفلاحون الآن

الاكتراث وقالت : فليبقها عبشا عنده حتى تصل الينا حصة مينا في الغنائم التي نرجو وصولها قريباً فنوفيه كل حقه . ثم تحولت نحو ابنتها وقالت : لقد مضى عام يا عزيزتي لم يرسل مينا الينا في خلاله شيئاً يذكر . وانصرف القيم بعد ذلك ، فطرحت نيفرت نفسها على فراشها كما كانت وقالت بصوت خافت : لقد كنت أعتقد أننا في غنى ويسر . قالت راتوتي : كان في الوسع أن نصل الى درجة لا تسامى من الثروة وسعة العيش ، إلا أنه لما يجري في عروقنا من الدم الملكي أصبحنا تجاه واجبات ينبغي أداؤها . ولا يذهب عنك أن الانظار متجهة اليك من أقاصي التخوم لأنك زوج بطل الابطال في الجيش ، فلا يسمعن أحد أنه أهمل شأنك أو لم يتعهدك بما يحفظ مكانتك في نظر الجمهور . . يا لله . لمَ غاب نيمو حتى الان ؟ قالت نيفرت : اني أسمع وقع أقدام في صحن الدار فلعل الوالي حضر لزيارتنا . فصوبت راتوتي نظرها الى البستان فاذا بخادم مقبلا نحوهما ، فلما داناهما أنبأهما بوصول بنت أنات في موكبها الفخم ودخولها من باب الدار مع شقيقها راميرى .

فتركت نيفرت مضجعها مسارعة هي ووالدتها الى لقاء الأميرة وأخيها . وما كادت تلمحهما حتى دنت من بنت أنات وحاولت لثم ثوبها إجلالا لمقامها فتنحت الاميرة وقالت باسمة : حذار يا نيفرت أن يسري الدنس مني اليك ، فان الكهنة لم يطهروني بعد . قال الامير راميرى : أنت طاهرة رغم أنوفهم ونقية كعين رع .

كان الامير فتى يعدّ من العمر سبعة عشر عاما ، وكان من طلبة هيكل

سيتى وأوشك أن يتم دروسه ويتخرج . فقالت شقيقته هازلة وصارفة كلامها الى نيفرت وراتوتى : سأبلغ الكاهن الاعظم خبر هروب هذا البرذون الذى أبى الا مرافقتى هنا . . ولست أستطيع بيان حبه لقرينك يا نيفرت ، فانه يعتبره فريد العصر فى الشجاعة وآية مصر فى فنون الحرب ، وهو الذى ألحّ عليّ فى زيارتك ، والحمد لله أننا جئنا نحمل اليك أخبار اليمن والخير . فخفق قلب نيفرت خفقاناً شديداً وضعت يدها بسببه على قلبها سائلة : وهل هذه الاخبار عن مينا ؟ أجابت : نعم يا صديقتى فأن والدى الملك بعث الينا برسالة يخصه فيها بالمدح والثناء ويصف ما أبداه من ضروب البسالة وأساليب النكاية بالاعداء . ولقد ذكر أله سيخايره فيما يريد أخذه من غنائم العدو واسلابه .

فنظرت نيفرت الى والدتها وقد تهلل وجهها بشراً وأشرق بهجة وسروراً . أما راتوتي فتنفست تنفس المكروب الذى انفرجت غمته وانفك عنه العناء ولاحظت بنت أنات منهما ذلك فربتت بكفها خد نيفرت ، تلطفاً بها وعطفا عليها . ثم خلت براتوتى وتمشت معها حتى وصلتا الى الحديقة ، وكان مما قالته لها أنها تحترمها احترامها لوالدتها وأنها لذلك جاءت تستمد رأيها فى أمر خطير طالبة منها تحرى الصدق والاخلاص فى نصحها . ثم سارّتها بما اعتزمه الوالى من خطبتها إذ قالت : لقد أخبرنى الملك والدى بأن الوالى طامح للتزوج منى وأنه يشير عليّ بالقبول مكافأة له على صدقه وأمانته للعرش ، وانما أحب أن أنبهك الى أن إشارته لم تكن حكما لأنه خيرني بين الرفض والقبول . سألت

راتوتى : وماذا رأيت ؟ أجابت بنت أنات : رأيت أنه لا مناص لى من رفض طلبه . سألت : وكيف ذلك ؟ أجابت : نعم لا بد من الرفض ، وهو السبيل الوحيد الذى ليس فى قدرة مخلوق أن يلزمنى الحيد عنه .

قالت راتوتى : حيث إنك كنت مصرة على الرفض وتقولين الآن انه ليس لأحد أن يلزمك الحيد عنه فأنت فى غنى عن نصيحة مثلى .

قالت بنت أنات : إن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون إلزامى القبول ولئن جئت اليوم لاستطلاع رأيك فما هو إلا لعلمى بأنك صديقة آنى وأن فى قدرتك انباهه بأشارة خفية الى ضرورة رجوعه عن عزمه ليكفي نفسه مؤونة الرفض الصريح فى وجهه ، وهو رجل جدير بالاحترام والاجلال ، وأود بعد هذا ألا يعلم ما دار بيننا من الحديث لكيلا يتبين له منى ، إذا التقينا فى يوم من الايام ، ما يدل على معرفتى بما بذله من السعي للاقتران بى . فأطرقت راتوتى رأسها ثم قالت : نعم أن الوالى يختلف الينا من آن الى آن ويتجاذب معنا أطراف الحديث ولكننى لست أدرى إن كنت أستطيع مفاتحته فى مثل هذا الامر الخطير .

سألت بنت أنات باسمة : ألم تكن مسائل الزواج من اختصاص السيدات ؟ أجابت راتوتى : نعم ولكن زواج الأميرة من المسائل المرتبطة بأعمال الحكومة ، ومع هذا فلا بد لى من أن أطلعك على حقيقة آنى . . إن الرجل رفيع القدر ملحوظ المنزلة . . فاذا ارتضيت به بعلا فلسوف ترين منه المبادرة الى إجابة مطالبك والخضوع لرغائبك والعمل بما ترسمين له .

ثار فى بنت أنات ثائر الأنفة والكبرياء إذ سمعت هذا الكلام وقالت بصوت جهير : أتظنين يا راتوتى أنه مما يليق بكرامتى التماس السعادة الزوجية فى رجل سهل القياد لين العريكة مطواع لأمرى، رعاية لمكانة والدتى أو والدى من كرم المحتد وبسطة الملك ومطلق التصرف فى هذه البلاد ؟ كلا . . انى أربأ بنفسى عن هذه الدنايا، ولقد تبينت من كلامك أنك ما زلت جاهلة حقيقة أمرى مع أنك تعلمين أن الخدم والحشم والضباط يتسابقون الى تلبية ندائى وتنفيذ أمرى وأننى لا أمرّ بطريق حتى يتزاحم الناس للركوع أمامى إجلالا لمقامى، بل أن منهم من يفتخر بلثم قدمي . . ولقد قابلت بالرفض الصريح طلب عشرين ذاتاً كانوا يصبون الى الاقتران بى . . وما كان الرفض لأننى كنت أخشى أن يحط الزواج من مكانتى أو يذهب بشيء من مهابتى وكرامتى بل لأننى كنت أحس بسموّ مقامى عليهم . إن ما أصبو اليه أن يكون بعلى أسمى منى همة وأمضى عزيمة وأقوى إرادة وأن أكون له تابعة ولقدمى في مواطىء قدمه واضعة وأن ألمس بيدى عجزى عن مداناته فى المواهب الفطرية التى خصّ الله بها من قضت حكمته بأن تكون له القيامة على الزوجة .

كانت راتوتى تسمع هذا الحديث وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة الاستخفاف ، فما انتهت منه بنت أنات حتى قالت لها : إذا صح أن الله قد خلق في العصور الخالية بعلا توافرت فيه هذه الصفات الفاضلة فلا إخالك تعثرين عليه ، مهما يكن بحثك الآن عن بعل مثله ،

وإذا كنت لا تزالين مصرة على موالاة البحث عن هذا البعل الذى يتراءى لك فى الخيال فتقى بأن شعورك ستبقي مضفورة [١] حتى تشيب ناصيتك ويبيض فوداك . . ثم أطرقت قليلا وقالت : ها قد حضر أخوك مع نيفرت ، فسألها : أفتتعهدين ببذل ما فى طاقتك لحمل آنى على العدول عن نيته ؟ أجابت : انى قيد أمرك . وحدقت بنظرها فى الأميرة وقالت : كان أمينى رئيس بيت سيتى ، وهو فى نضرة شبابه ، كالرجل الذى تصفينه . ثم التفتت الى راميرى قائلة : أما أنت يا ابن رعمسيس . . أنت الذى ينمو بين الاشجار التى ستتفيأ البلاد بظلها يوما ما خبرنى أي أصدقائك يفوقهم شرفَ خصال وحدةَ ذكاء وشدة عارضة وثبات عزم ؟ أجاب : نحن كافة كأسنان المشط فى هذه الفضائل قالت : لم تصب بأجابتك المرمى . . انى أسألك أتعرف ببيت سيتى شاباً امتاز على الطلبة والاساتذة بحدة الفهم والنبوغ فى العلم بحيث يشبه سنورو [٢] أو تحوتمس أو أمينى ؟ أجاب : كيف لا أعرف . سألته : ومن هو ؟ أجاب : إنما هو الشاعر بنطاؤر .

لم يستأذن هذا الاسم على سمع بنت أنات حتى احمر وجهها حياء واستشعرت بقلبها يخفق خفقاناً شديداً بينا كان أخوها يتابع حديثه مع راتوتى قائلا : لقد فاق هذا الشاعر سائر الاقران برجاحة العقل ورقة العاطفة وشرف النفس ، فاذا تكلم خيل لسامعه أنه ينطق بلسان

---

(١) كان من عادة الابكار وقتئذ ضفر شعورهن الي أن يتزوجن

(٢) سنورو مؤسس الاسرة المالكة وكان مشهورا بالفضائل والصفات العالية

الآلهة ويعرب عما فى ضميرهم . وكنا قبل التلقي عليه يأخذنا النعاس أثناء الدرس بخلافنا وقد تلمذنا له فأنه فى كل يوم يسحرنا ببيانه ويخلب عقولنا بفصاحة لسانه ، ولعلك رأيته رأي العين يا بنت أنات ، فقد كان معك فى بيت بينم المحنط وملازماً لك فى فناء الهيكل حينما أعلن الكاهن الاعظم أمينى تلوثك بالدنس ، ولاحظت ما لوجهه المشرق من الشبه بمحاسن وجه (موت) اله الحرب ، وهو جمال إذا استطلعته الانظار انطبع فى القلوب . ولقد سحرنا أمس ، عقب رحيلك من الهيكل بسحر بيانه وملك أفئدتنا بفصاحة لسانه ، وأضرم فينا نار الشوق الى استجلاء الحقائق الدينية وأفادنا من زاخر علمه بما يستهان فى سبيله كل تليد وطارف . وما زلت حتى الساعة أحس بتلك النار المقدسة تنبث فى جوارحي وتلتهب بين جوانحى . . ولقد آسفنا فراقه صبيحة هذا اليوم إذ قرر أمينى نفيه من الهيكل دون أن يسوغ هذا القرار بسبب ، إلا أننا وقفنا على الحقيقة لأن لنا أعيناً ترى وآذانا تسمع . . السبب أنه لم يعاملك بالشدة والعنف بل أطاع أمرك وعاملك باللطف . ولما كان بعده عنا خسارة لا تعوض علينا فقد اتفقنا على المطالبة باعادته ونعتقد أن طلبنا لن يقابل بالرفض فقد وقع اختيارنا على أنانا التلميذ الأول لتحرير الاحتجاج الذى سنوقعه جميعاً بامضاءاتنا . وإذ كنا نخشى أن تنزل صواعق غضبه بمن يجازف برفع الاحتجاج اليه فقد عقدنا النية على تقديمها معاً لنتحمل جميعاً عاقبة عملنا ، فأذا ألفيناه مصراً على اقصائه الى شاسع الاقطار فلا بد لنا من الشكوى الى آبائنا ولست أرى أن

أميني يمتنع عن إجابة مطالبهم ما دامت تتعلق بمستقبل أبنائهم .

قالت راتوتى : هذه حركة عصيان صادرة عن نزق الشبان ، فحذار يا بنيّ من أميني وأعوانه ، فأنهم لا يحبون المزاح والمهازلة ولا يحتملون البحث والمجادلة . قال راميرى ضاحكا : ونحن أيضا نحب الاستقامة والجد ، وعندى أنه إذا أصر على إبعاد بنطاؤر فلا بد لى من ترك بيت سيتى لاتمام دراستى فى عين شمس ، وانى لواثق أن جميع رفاقى سيحذون حذوى ويقتدون بى . . والآن هلمى معى يا بنت أنات فلا بد لى من العودة الى الصومعة قبل مغيب الشمس ، أما أنت يا راتوتى فاعذرينى ولا تعذلينى إذا قلت الصومعة فقد اعتدنا نحن معشر الطلبة أن نطلق هذا الاسم على المدرسة . ثم التفت الى الباب وقال : ها قد جاء القزم نيمو .

استأذن راميرى وبنت أنات من راتوتى بالانصراف ، فخرجا من باب البستان وما ابتعدا عنه قليلا حتى صافحت الاميرة أخاها بشغف وقالت : ان طلبكم من أمينى حق صراح فاعملوا بجدّ على تحصيله واتركوا المزاح .

الفصل الحادى عشر

يحتاج الانسان الى أصغر منه فى غالب الاحيان

ما ابتعدت بنت أنات قليلا عن بيت مينا ، حتى دخل نيمو فى البستان يحمل كتاباً مختوما ، فلما مثل أمام راتوتى ونيفرت قدمه اليهما ثم قص عليهما حوادث اليوم الماضى بلهجة لم يسعهما معها الا الأغراب فى الضحك . غير أن راتوتى تصنعت الجدّ فأخذت تعيب عليه تصرفه وتنحى باللوم عليه ولكنها لم تلبث أن اطنبت فى مدحه لما يبديه من الحذق والذكاء ، وأمعنت النظر فى الكتاب فقالت بصوت خافت : لعل فى هذا الكتاب بشرى تنشرح لها الصدور . قالت نيفرت : فضى ختامه فعسى أن أرى فيه شيئاً عنه (أي مينا) ففضت راتوتي ختامه ومرت به مراً سريعاً . وما جاءت على آخره حتى طفقت تساهيها وتداعبها قائلة : الراجح عندى أن أخاك كتب الى مينا لأنى لا أجد هنا كلمة بخطه .

فتأملت نيفرت فى الكتاب لا لتقرأه بل لتستوضح فيه خط مينا . وكانت كغيرها من نساء مصر فى ذلك العصر تلم بالقراءة والكتابة ، وكان يلذ لها أن ترى خطه المتموج الاسطر لأنه كان على نقيض خطها الجميل الواضح الحروف المستقيم الاسطر ، فلما لم تر لخط زوجها أثراً فيه انسكبت عبراتها حتى أثرت فى جلباب خدها . وقالت بصوت

متهدج . حيث إن الكتاب خال مما يتعلق بى ، فلا حاجة لى بوجودى فى هذا المكان . فترضتها راتوتى وهدأت خاطرها بقولها : أما سمعت ما كتبه أخوك ؟ فهزت نيفرت كتفيها كمن ينفض عن كاهله حملا ثقيلا ثم برحت المكان دون أن تنبس شفتاها بكلمة .

قلنا إن راتوتى كانت تتقلب فى نعم صهرها مينا وتمرح فى خيراته ، وكانت مع هذا لا تميل اليه بل تخص بميلها وإيثارها ولدها الذى اشتهر بين رفقته بالنزق والخفة وتوافرت فيه خصال والده من العكوف على مجالسة النساء ومداعبتهن ، والنزوع الى المظاهر الباطلة . وقد كتب هذا الكتاب الى والدته يستحثها فيه على إقراضه مبلغاً باهظا من أموال مينا التى تتصرف فيها على ما تشتهى . وكانت عادته ، إذا حرر كتاباً ، الاقلال بالاقتصار على بضعة أسطر لعجزه عن الاسهاب فى التسطير وقلة بضاعته فى التحرير ، ولكنه استرسل فى كتابه هذه المرة لأن الموضوع كان مما يستدعى الالحاح والاسهاب .

وكانت كلما فكت طلسمات خطه وحلت ألغاز عبارته وانتقلت من سطر الى سطر امتقع لونها وانقبض صدرها فطرحت ورقة البردى جانباً وسترت وجهها بكفيها . وقد ظلت فى هذا الاضطراب النفسي بينما كان نيمو جالساً القرفصاء أمامها يرشقها بنظراته وينتقد حركاتها ويتابع إشاراتها . وقد بدا على وجهه ما خامر نفسه من الدهشة حينما رأى من سيدته ما لم يألفه منها قبلا وشهدها ، وقد وردت على آخر الرسالة ، تثب من موضعها وثبة ارتاع لها قلبه وتصرخ صراخاً استطار

منه لبه وتتطامن بجبهتها بعد ذلك الى جذع نخلة قريبة ملازمة الصمت والسكون العميقين . تجاه هذا المنظر الرهيب ، لم يسع نيمو إلا أن يدنو منها قليلا قليلا وان يكب بوجهه على قدميها يغمرهما بالقبل سائلا : مولاتى ! مولاتى ! ما الذى نزل بك وأي سوء أصابك ؟ فحاولت راتوتى أن تصلح من قواها الخائرة وتجمع من عزيمتها التى بددها ذلك الجزع الشديد وودت أن لو تجاوبه ، لولا أن شفتيها اللتين بدلتا من لونهما العقيقى لوناً أصفر لم تطاوعاها إذ ظلتا متلاحمتين متلاصقتين . وكل ما انبعث منها من آيات الحياة ودلائلها ان صعدت في السماء عينيها ثم ارتجفت أعضاؤها رجفة المحموم . ولما أن يئس نيمو من سماع الجواب على سؤاله وهي بهذه الحال أعاد كرة السؤال بصوت جهير : مولاتى ! مولاتى ! ما الذى نزل بك وأى سوء أصابك . وهل تأذنين لى بأن أنطلق فى طلب نيفرت ؟ فأشارت اليه ألا يفعل ثم تلعثم لسانها بهاتين الكلمتين السفلة ! . . الاوغاد ! . .

وترادفت أنفاسها بسرعة غريبة عقب نطقها بهاتين الكلمتين واحمر لون وجنتيها وعينيها وعمدت الى ورقة البردي المتضمنة رسالة ابنها فداستها بقدميها ، ثم أخذت الدموع تفيض من عينيها وتتحدر على خديها وعراها من الجزع ما ضاعف ارتياع نيمو وهلعه لاسيما وأنه لم ير سيدته من قبل فى مثل ما غشيها من الخواطر الرديئة وتمكن من المشقة والعناء . وقد كادت تقف ضربات قلبه من الخوف عليها حتى طوح به الى اعتقاد أنها أشرفت على الموت فما وسعه إلا أن صاح مراراً :

واسيدتاه ! . . واراتوتيتاه ! . . . أجابته عندئذ بصوت متهدج وقد لاحت على ثغرها تباشير الابتسام : ويلك لمَ تناديني بهذا الصوت المزعج وتنطق باسمي الذى تدنس بالعار والشنار . . لقد قضينا النهار في سرور وابتهاج فما أقبل المساء حتى قضت ساعة نحس منه بأن يختم بالغموم والاتراح . وقد جاء فى الامثال أن الواجب على المرء إفشاء الفرح وكتم الترح ، وهو خطأ صوابه عكسه إذ الواجب كتمان السرور عن البشر والآلهة معاً لأنهم جميعاً من الحسدة الاشرار ! قال نيمو : سمعت منك الآن كلمة (العار) ولم أسمع كلمة (الموت) ، وفيما تلقنت من مباديك وتلقيت من تعاليمك أنه لا يأس مع الحياة والقدرة على مجالدة الحوادث ومنازلة الاقدار . فارتاحت راتوتى لسماع هذه الموعظة التى قوت عزيمتها وبدلت من يأسها رجاء . ثم قالت لنيمو : عهدتك حاذقاً لبقاً أمينا . . فهل لك أن ترشدنى الى طريق الصواب والسلامة وأن تجعل ما بيننا سراً لا تبوح به لأحد ولو كان الاله آمون؟ فحدق نيمو فيها ببصره وقال : أنا ما زلت على ما تعهدين فيّ من الاخلاص فى النصح والحرص على السر . قالت : حسنا . . وإلا فلا نلبث أن نسمع الصبية فى الطرقات يتحدثون بما حل بنا من النكبات ، وإذا درى الناس بمضمون الكتاب فلن يجوز إيقاف نيفرت على شيء منه . ثم نظرت فى اتجاه الباب وقالت : أسمع وقع أقدام زائر لعله الوالى آنى . . فعليك يا نيمو بمقابلته والاعتذار لى عنده بمرض ألزمنى الفراش وحرمنى لقاء الزائرين ، وحذر الخدم من الاذن لأحد

بالدخول علي .

خرج نيمو لتنفيذ هذا الأمر ثم عاد فألفي سيدته فى قلق شديد ، فلما نظرته قالت له : اصغ يا نيمو لما أذكره لك من الحوادث المحزنة . سأبدأ بأخفها وقعاً على النفس ثم أتدرج الى ما ترتعد منه الفرائص وتنقبض القلوب . . لقد أغدق الملك رعمسيس على مينا الصلات وأجزل له العطايا والهبات ، إذ جعل لكل قائد من قواد الجيش سهماً معلوما ونصيباً محدوداً . ولكنه استثناه فترك له الخيار فى أخذ ما تطمح نفسه اليه منها إيثاراً له عليهم . . فقاطعها نيمو قائلا : هذه علامات خير وبشائر بركة ويمن فلمَ إذن هذا الحزن ؟ قالت : حقاً إن الخبر فى ذاته لمن دلائل اليمن والاقبال إلا ان مينا لم يفكر فى زوجته ولم يتفضل عليها بسؤال ، بل أنه تنحى عن حصته فى الغنائم مقابل استئثاره بفتاة جميلة هي بنت ملك الدنائم . . اختارها مينا جزاء له على بسالته فى الميدان وسار بها معجباً الى الصيوان . قال نيمو متلعثما : لا ريب عندى فى أن هذا الأمر الشائن يثير الاحقاد ويوقظ الضغائن . قالت راتوتى : ان نيفرت سيئة الحظ بلا مراء إذن كان هذا جزاء ما أظهرته من الولاء . سأل نيمو بصوت الاكتئاب والحزن : وأين بقية الحديث ؟ أجابت : لقد كنت أود السكوت عليها ولكن لا مندوحة لى عن الكلام . . أنت تعلم أن ابنى مع طيشه وسوء تدبيره وقصر نظره فى مصائر الامور يحبنى ويحب أخته حباً جماً . . وقد بدر منى لحظي العاثر أننى حادثته فيما نحن فيه من شدة العوز الى المال لا أقصد ، علمت الالهة ، سوى حضه

على الاقتصاد والتقتير خوفا من وخامة العاقبة وسوء المصير . وكانت الأنباء قد نقلت الينا ما ارتكبه مينا من تلك الجريمة ، فلما رأى منه ابنى صده وانصرافه عنا أحب اسعافنا بما يخلصنا من مخالب الحاجة ، وكانت حصته من الغنائم لا تفي وحدها بقضاء حاجاتنا فلاعب أصحابه عليها أملا فى كسب مبلغ طائل من المال نسدد به ديوننا فخسرها جميعاً وها هو قد عاد الينا خاوي الوفاض ، ثم عاوده الأمل فى الربح إذا هو استأنف اللعب فلاعبهم على مبلغ جسيم ، كلا . . بل على شيء ثمين كان يبتغى به تفريج ضائقتنا وسدّ عوزنا . . وهل تدرى أي شيء هو يا نيمو ؟ تابوت أبيه ويا للحسرة[1] فكانت صفقته فيه خاسرة مثلها فى الغنيمة . . وقد عاد الينا كسير الخاطر كاسف البال احتواه اليأس وسدّت فى وجهه المسالك ، وغير خاف عليك أن من أصول المقامرة إذ لم يدفع المقامر ما خسره بعد انقضاء ثلاثة أشهر صار عرضة للتعزير والتشهير ، لأنه مضطر بحكم هذه الاصول الى نبش القبر واستخراج التابوت وتسليمه الى الرابح ، فنعيش ما بقى من حياتنا موصومين بوصمة عار لا تمحى .

وما أتمت راتونى هذه الكلمات حتى انسكبت من مآقيها العبرات ، فقال نيمو : وكيف يرضى ابنك لنفسه أن يكون مقامراً

---

(١) ذكر المؤرخ هيرودتس ان أزشين احد ملوك الاسرة الرابعة كان اول من أذن برهن توابيت الاجداد وجعلها الضمانة القصوى لدفع الحقوق فمن لم يوف ديونه بعد هذا الرهن كان نصيبه عقب موته الحرمان من الدفن فى القبور فتلقى جثته الي بنات آوى ينهشنها وتناولت هذه العقوبة احفاده

ومزوراً . ان فى هذا الأمر ما يوجب الاحزان ويضاعف الاشجان . ولكن لا تيأسى . . فما مقدار ما عليك من المال ؟ أجابت ثلاثون تلانا بابليا (١) فارتاع نيمو وصاح : ومن ذا الذى يجازف بهذا القدر من المال فى مقابل رهن لا قيمة له ؟ أجابت : هو (أوتيف) بن السيدة (هاتور) وقد خسر بمدينة طيبه فى ليلة واحدة كل ما تركه له أبوه من المال . قال : ان مثله لا يهمل ولا شك حقا له على الغير ولو كان حبة قمح . . ثم أين أنت من مينا . أجابت : لا أظنه بعد ما أتاه من الاعمال يبتز من أوتيف شيئا من المال . ولقد نصحنى ولدى أن استنجد بالوالى فى هذه الازمة والملمة المدلهمة . قال بعد أن هز كتفيه : الرجوع الى الوالى فى هذه الاحوال جهل بحسن التدبير وقصور عن النظر فى مصائر الأمور . قالت : نعم انى أعرف أحواله الداخلية ولكن ألا ترى أن شهرته ومركزه . . فقاطعها قائلا : سيدتى لا تضحي المستقبل بالحال ولا تعللي النفس بسراب الآمال ، نعم يحق لك أن تلتمسى منه المعونة والاسعاف اعتماداً على قيامك بتذليل ما يحول من المصاعب بينه وبين بلوغ المرام من استلام زمام الاحكام ، وانما أخشى أن تفقدى دالتك عليه ونفوذك عنده متى استشف من سعيك التعويل عليه فى استرداد ثروتك ، وأنت أدرى الناس بثروته وأنه منغمس فى الديون لناصيته . قالت : أعلم ذلك جيداً . قال : لا غرابة إذا علمت فداحة ديونه فأنه لم يصرفها إلا فى سبيل استرضائك وقضاء شهواتك وأهوائك . ولعلك

---

(١) يوازى التلان البابلى ٢٢٥ جنيها تقريبا

لا تنسين الحفلات الباهرة التى كلفته من الاموال ما لا يطاق الاحتمال، والمبالغ التى أتحف بها كهنة منفيس بصفته حارس العجل أبيس(١) والهدايا الفاخرة التى أتحف بها قواد الجيوش المصرية الظافرة، فى بلاد الحبشان وكم وكم غير ذلك مما لا يعيه الجنان . . ان صادق الرأي عندى ألا تعتمدى على الوالى فى قضاء حاجتك . وكفي الرجل ما فيه من الضيق وخلو الكف والعجز عن إجابة مطالب العيون التى بعثها الى معية الملك وبثها فى كل مكان لتنقل له الاخبار، وهو ما أدى به أخيراً الى اقتراض ما يلزمه من المال من خزائن الاقاليم . . فانتظرى حتى يقبض على صولجان الملك لتطلبى منه ما تحبين وهو يبادر الى إجابة مطالبك وتحقيق رغائبك .

أخذ بصر راتوتى ينهب وجه نيمو لما أدهشها من نجابته إذ قالت له : أراك خبرت الناس واستبطنت حقيقة أحوالهم . قال : نعم وخبرتى بهم رجوت منك ألا تواجهيه فى طلب مال والا ساء بك المآل . . ثم لا بد لك من التروى فى أمر ولدك وما ينبغى من السعي لرد شرفه اليه . قالت : وشرف زوجى ! وشرفى ! آه لو علمت بما ملأ قلبي من الاحزان والآلام ! . الشرف كلمة يعرفها الارقاء بمبناها دون معناها ويدرك الاحرار ما انطوت عليه من الاسرار . . أنتم معشر الارقاء إن ضربكم

---

(١) لما مات العجل أبيس فى عهد بطليموس سوطر الاول المنطقى صرف الحارس المكلف بحراسته على تشييع جنازته جميع المبالغ المخصصة لهذا الغرض واقترض من الملك عليها ٥٠ تلانا (اى ١١٢٥٠ جنيها تقريبا) وقال ديودورس الصقلى ان حراس ابيس كانوا ينفقون على تشييع جنازة هذا العجل نحو ١٠٠ تلان اى ٢٢٥٠٠ جنيه

أحد ضربا مبرحا فأنما يكفيكم تضميد جروحكم ومعاناة آلامها . . أما نحن فأن رفع السبابة نحونا قصد التشهير بنا يعمل فى قلوبنا ما لا تعمل السهام المسمومة النصال . . أيها الآلهة المخلدون ! من ينتشلني من الهاوية التى فى دركها تنكست . . من ينقذنى من بلائى واخفاقي فى رجائى !

ثم سترت وجهها بكفيها فنظر نيمو بعين العطف اليها وقال : أتذكرين ، سيدتى ، حجر الماس الذى سقط يوماً من خاتم نيفرت وكم قضينا من الزمن فى البحث عنه حتى يئسنا من وجوده ، وكيف أنى فى اليوم التالى بينا كنت أمشي صدمت قدماي جسما صلباً فالتفتّ اليه فاذا به ذاك الحجر الكريم ؟ . . إذا كان ما لا تهتدى العين اليه قد وجدته القدم أفتستبعدين على نيمو ، وهو أحقر عبيدك وأجهلهم بمعنى كلمة الشرف ، أن توفقه محاسن الصدف لحيلة ربما غابت عن خاطر سيدته الواسعة العقل الشريفة الأصل ؟ . . قالت : ماذا جرى لك . . هل خولط فى عقلك ؟ أجاب : عقلى والحمد للآلهة فى سلامة واستقامة ، وما بلغنى من زيارة أختك لك ومصالحتها إياك . . أصحيح هو ؟ أجابت : جاءت لتصالحنى فصالحتها ورضيت عنها . قال : وأي مانع من أن تسأليها حاجتك . . إنها وقد صالحتك لن تتأخر عن اسعافك بالمال ، لأن العداوة إذا خمدت نارها كالجرح إذا اندمل لا بد فى لمسه من الحذر والاحتراس حتى لا ينفتح فيسيل منه الدم ، ولا تستكبرى السؤال فى مثل هذه الاحوال فانك انما تسألين اختاً يهمها أمرك ويعنيها شأنك . قالت : ولكن ثروتها ليست واسعة الى حد تستطيع معه مساعدتى

بما يقنعنى . . وجميع ما فى بستانها ملك لابنائها . سألها : وهل حضر معها بعاكر هنا ؟ أجابت : نعم ولكن بألحاح من والدته لأنه كما تعرف يكمن الحقد لمينا . قال : وما رأيك إذا دعته نيفرت الى الحضور ؟

ما سمعت راتوتى هذا الطلب حتى كاد إهابها يتمزق من الغيظ ونهضت واقفة وقد تبادر اليها أنها أخطأت بالاسترسال فى مكاشفة تابعها بأسرارها ، فلم يسعه عندئذ إلا أن تناول ذيل ثوبها بالقبلات مستعطفا وقال معتذراً : أتريد سيدتى أن أطرح أسرار هذه المحادثة فى زاوية النسيان أو أعمل الفكر فى انتشال ابنها من هاوية الخسران ؟ فترددت راتوتى ثم قالت : دعنى الآن وشأنى فلست أود استشارتك فى أمر مادام أن الآلهة ستلهمنى الصواب فيما أنا اليه منصرفة . سأل : وهل سيدتى فى حاجة الى خدمتى غداً ؟ أجابت : اننى فى غنى عنك . قال . إذن تأذنين لى بالتوجه الى المقبرة لتقديم القربان . قالت : لك ذلك إن أردته . ثم دخلت المنزل وبيدها الكتاب الذى صبّ عليها الهموم والاوصاب . وظل نيمو فى مكانه نهباً للهواجس ثم أخذ يناجى نفسه : «هم يخشون العار والمقت ويتمنون بسببهما الموت ، ولكن ما هذا الشرف الذى لاكته ألسنتهم ومضغته أفواههم ولم يولد أحد متحلياً بوشاحه ؟ . ان الناس طرّا يدرجون بعد مماتهم فى الاكفان وكانوا من الشرف مع هذا فى حرمان . . وغاية الأمر عندى أن الاغنياء من ذوى البطالة والجهالة ينتحلون الشرف ويتخذونه على أنفسهم دلالة ، وهم فى هذا

الادعاء كالحبشان الذين يطلون رؤوسهم بشحم الضان ، فتنقلب سحنتهم وتتغير هيئتهم ، ثم هم بهذه العادة يفخرون وعنها لا يعدلون ، وأفضل عندهم أن تقطع منهم الآذان من أن يتركوا هذا الدهان ، وعلى أى حال فلا بد من استشارة والدتى فى كل أمر ذى شأن فأنها أكثر خبرة من الكهان »

الفصل الثانى عشر

استشارة الساحرة القادرة الماكرة

ما ولى الليل بركنه وأضاء الصبح بنوره حتى شوهد نيمو ممتطياً حماراً أبيض اللون يعدو به نحو المقابر كيلا يدركه القيظ إذا تعالى النهار. وكان عارفا بمنعرجات الطرق وتشعباتها فى هذه الجهة فلم يسلك النهج الواسع الذى يطرقه كل الناس، بل اتجه صوب الجبل الذى يعترض بين المقابر وسهول النيل.

وكان يرى أمامه صخوراً عالية فى شكل نصف دائرة ترتسم على سفوحها الصلدة معابد ضخمة شادتها الملكة حاتاسو التى نصبت وصية على اثنين من ملوك الاسرة البائدة. فلما دنا منها نيمو جعلها الى يمينه وسار فى طريق منحدر تراءت له المدافن منه تتخللها المنازل والهياكل والتماثيل، ونظر فيما يلى ذلك كله نهر النيل ينساب نحو الشمال كأنه سبيكة مصهورة من اللجين، ولفت نظره الغسق الاحمر رائداً لأشعة الشمس وقد انطبعت على لونه الأرجواني منازل طيبة وهياكلها بمنظرها الشائق وارتفاعها الشاهق.

كان بصر نيمو شاخصاً فى هذا المنظر البديع، إلا أنه كان لا يميز جمال تصويره وحسن تأثيره لأنه، وهو على متن الحمار، كان هائما فى أودية الافكار غير ناظر الى مايعترى دابته من التعب لصعوبة المرتقيات

ووعورة المنحدرات . وبينما هو سائر فى مسلك ضيق بوسط الجبال إذ سمع همس إنسان يجدّ فى أثره حتى أدركه ، فتبادلا السلام وظل الاثنان سائرين حتى بلغا الى منعطف يتسع عنده الطريق ، فانفتل نيمو الى أحد عطفيه إذ لحظ أن السائر معه أحد الكهنة المحترمين وقال له : عليك يا أبت بالسير أمامى لأنك بقدميك الاثنتين أسرع من حمارى بأرجله الاربع . قال الكاهن وكان نبسشت صديق بنطاؤر : حسناً فعلت . . انى أغدو فى التماس علاج أحد المرضى .

هنا برزت الشمس من حجابها وتجردت من جلبابها ، فأفلت الشفق الارجواني مولياً الادبار خيفة أن تفتك به جيوش النهار ، وطرق الآذان نشيد الكهان ، فانكب نيمو من متن حماره لصلاة الصباح واقتدى نبسشت به ووقف كلاهما نظره على اله الشمس (فتاح) وكان نيمو شاخص البصر الى الشرق . أما نبسشت فبينما كان باسطا يديه بالدعاء ومصعداً نظره فى السماء ، إذ حانت منه التفاتة الى اليسار فرأى صدَفة من اصداف البحار وقد تجمدت كالاحجار . فمد يده اليها واستولى عليها ونهض بعد ذلك واقفاً فاقتدى به نيمو ولأثره اقتفى ، ثم قال : ما ألطف هذا الصباح ! أرى فيه أن الكهان الذين سمعنا نشيدهم الآن قد انتبهوا من نومهم قبل الساعة المحدودة لقيامهم ، فابتسم نبسشت وقال : نعم ولعلك آت من المقبرة ، ومن جاء بك الى هذا الطريق الوعر المحفوف بالصخر ؟ أجاب : جئت بنفسي ولكن أتأذن لى بسؤالك عن فقراء السكان الذين يقصد البهم طبيب بيت سيتى فى

مثل هذا الآن ؟ قال نبسشت : ان للفتاة التى نيط بى علاجها أبا فقيراً ، أما هي فمرضها خطير . فحدق نيمو فيه النظر وقال : لا بد أنها الفتاة التى دهمتها مركبة الاميرة ، وكيف حالها الآن ؟ أجاب : متماثلة الى الشفاء وعسى أن تحقق الآلهة فى نجاتها الرجاء . قال نيمو : حمداً للآلهة على هذه المنن وشكراً لهم على انكشاف المحن .

جدّ نيسشت بعد ذلك فى المسير ، فلما بلغ من الجبل الى ذروته انحط منحدرا الى سفحه حيث يوجد وجار المحنط بينهم ، فلما هبطه تولى علاج الجريحة . أما نيمو فواصل السير حتى وصل الى مغارة أمه نيخت الساحرة التى علمت بعاكر كيف يستهوى النساء بالقدح المملوء بالماء .

وكانت هذه العجوز الشمطاء والداهية الدهياء بباب المغارة جالسة القرفصاء ، والى جانبها لوح خشب جعلت بطرفيه عارضتين متصلتين بعدة لوالب إذا دارت اقتربتا أو ابتعدتا . وكان بين العارضتين طفل ممدوداً وقد لامست رأسه احداهما والاخرى أخمصى قدميه . وكانت العجوز اللعين تستعين بهذه الآلة على تعطيل نمو الاطفال بمنع أعضائهم من الوصول الى مداها الطبيعى ، ليصيروا على ممر الاعوام أقزاماً كابنها نيمو تبيعهم الأمراء والمثرين بالمال الجزيل ، ليقطعوا بالتماجن والتملح معهم ساعات الفراغ . وما طرق أذن العجوز وقع قدمي نيمو وهو مقبل عليها حتى أسرعت برفع اللوح وطرحه بآخر المغارة وقالت للطفل : لا تحرك وإلا أثخنت فيك ضربا وامعنت أذية أو شددت وثاقك فلا تعود تستطيع فى اللوحة حراكا . قال الطفل : دعينى

ولا تربطيني ولك أن أظل مطروحاً على اللوحة بأرادتى ، فصاحت به كلا . . ثم شدت رباطه وهو يبكي ويستغيث ، الا أنها تكلفت العطف عليه وقالت : إذا لزمت الصمت ناولتك فطيرة بالعسل وأذنت لك فى ملاعبة الدجاج .

فسكت الطفل ولاحت فى عينيه بارقة السرور والاغتباط ، ولكنه تعلق بأذيال العجوز وقال بصوت خافت : سأسكت سكوت الجرذان حتى لا يعلم أحد أنى بهذا المكان ، ولكن أود أن تأذنى لى بالذهاب الى وردة لأعطيها الفطيرة الموعودة . قالت : وردة طريحة الفراش فلا حاجة لك بالغدو اليها . قال الطفل وقد اغرورقت عيناه بالدموع : أتمنى لو أعطيتها الفطيرة . فأخذت العجوز تداعبه وتسليه ثم مدت شفتيها لتقبله بين عينيه ولكنها سرعان ما تحولت عنه قائلة بصوت مزعج : أمرتك ألا تتكلم فالزم شأنك وسأرى إذا كان لك أن تزور وردة أو لا تزورها . ثم ألقت على وجه الطفل كيساً من القماش السميك وعادت الى الباب . فلما أبصرت بنيمو تلقته بمظاهر الاشتياق وأكرمته بشيء من الخبز واللبن والعسل ثم طمأنته على وردة إذ أنه يكثر من ذكرها وسألته عن سبب حضوره وعما إذا كانت سيدته هي التى أرسلته في حاجة تريد قضاءها أم أنه جاء من تلقاء نفسه . ثم ذكرت له أن جماعه الأمراء ولفيف الاعيان والعظماء اعتادوا ألا يزوروا الفقراء ولا أعتاب منازل البؤساء لغرض يرمقون اليه وسألته عمّ يود منها الآن ؟ أجاب : لست أريد شيئاً ولكن . . قالت ضاحكة :

ولكنك جئت الى هنا بايعاز غيرك لا بمحض إرادتك فالنتيجة إذن واحدة ، لأن الذى يطلب أمراً برسم الغير كمن يلتمسه لنفسه . قال : يدل كلامك على ثبات عقلك وحضور ذهنك وأنه لم يتغير منذ زيارتى الاخيرة لك . وهذا الأمر يسرنى ولا شك ملاحظته لأنى في حاجة لنصائحك الرشيدة وآرائك السديدة . قالت : انى أقدم لك نصائحي بثمن بخس فقل لى ماذا جرى .

فقص نيمو عليها فى اختصار وصراحة كل ما اتفق لسيدته راتوتى وذكرها ما أوشك أن يلحق بابنها من العار والفضيحة لرهنه جثة أبيه . فهزت رأسها وتركته يسترسل فى حديثه فما أتى على آخره حتى حدقت فيه النظر وقالت : وهل ما زلت تعتقد إمكان رفع آني الى عرش رعمسيس أي استبدال الباشق من البازى ؟ قال : كيف لا وجيش الحبشة معاضد لنا وزمرة الكهنة متذمرون من الاحكام ومستعدون جميعاً لخلع ربقة الطاعة ومبايعة آنى اعتماداً على نسبه المتصل بدم رع ؟ قالت : يبدو من كلامك أنكم أعددتم للكفاح عدته . قال : لا ريب وأنت تعلمين أن الكلاب الكثيرة مهما تبطىء فى العدو تدرك الغزال وتفتك به . قالت : ولكن رعمسيس أسد أسيد لا يستطاع إخضاعه ولو كبل بالحديد ، وأنتم إنما تجازفون بأنفسكم وتلقون بها فى الهلاك قال . نعم اننا نجازف وما مجازفتنا إلا بقدر سمو غايتنا ، وستقرن مساعينا ان شاء الله بالنجاح . قالت : من ينشد النجاح فليتوقع الفشل ، ومع هذا فافعلوا ما بدا لكم فأنه لا يهمنى من يسوق ابناءها الى مواطن القتال

ويخطف الماشية من الرجال ، ثم قل لى ماذا تريد منى ؟ قال : جئتك بمحض إرادتى لتوقفينى على ما تصون راتوتى به شرف ابنها وأسرتها . فوقفت العجوز واستندت الى عكازها وقالت بعد أن أطالت النظر فى نيمو كمن يحاول استطلاع سر كمين فى صدره واستقراء مضمر فكره : مالى أراك أيها السقط الحقير كثير الاهتمام بأولئك العظماء ؟ أجاب : إن سيدتى راتوتى من أكرم السيدات سجية وأعزهن نفساً فأذا أصبحت فى ثروة لائقة بها فلا بد أن يصيبنى وإياك سهم منها .

فهزت نيخت رأسها استنكاراً وقالت : ربما أعطتك رغيف خبز وتصدقت علىّ بفتات رغيف آخر . . الظاهر لى أن فى الأمر سراً ، غير ما أفضيت الىّ فاننى أنفذ ببصيرتى الى ما يكنه فؤادك وببصرى الى أحشاء الغربان التى أشق بطونها . . إنك لممن ثقلت عليهم البطالة فدبروا التدابير واستنبطوا الحيل للتدخل فيما لا يعنيهم حتى ينفوا عنهم معرة الكسل والفراغ من العمل . ليتك كنت يا بنىّ أطول منك بعشرين ابهاماً فقط ، إذن لنظمتك فى سلك الكهانة ولصعدت فيها الى أسمى مكانة ، وعشت حتى تعلق بالمشنقة فيقول ناظروك « علو فى الحياة وفى الممات » .

ثم ضحكت ظهراً لبطن فغض نيمو شفته غيظا وقال : لو كنت أرسلتنى الى المدرسة ولم أك قصير القامة ولا ابن ساحرة لدبرت للكبراء أنواع التدابير وقابلتهم بمثل ما يقابلوننى به من التحقير لأنهم ، وان علت أقدارهم ، لن يدركوا شأوى فى الذكاء وسعة الحيلة ولن يستطيعوا أن

يلتمسوا لأنفسهم مخرجا من المآزق إذا زجّهم فيها حوادث الدهر أو اندفعوا فى تيار التهور، أما أنا فانى ألبس لكل حال لبوسها وأروغ روغان الثعالب وأعمل عمل من حنكته التجارب . قالت : إذا كنت كما تدعى بهذه المهارة فلمَ جئت للاستشارة ؟ قال : لا بأس بها فى هذا الزمان لانها البصر لمن ليس له عينان ، ثم لا يذهب عنك يا والدتى انك ملزمة بمساعدتي . سألته باسمة : ملزمة ! ولماذا ؟ أجاب : ملزمة لأنك السبب فى قصر قامتى . قالت : ولكننى بهذا الفعل فتحت لك أبواب الرزق وجعلتك فى غنى عن الناس . فهز نيمو رأسه قائلا : لا أنكر هذه النعمة التى تفيد كل من يولد فقيراً مثلى ولكنك زدت على تقصير قامتى ان افسدت منى خلقي وطبيعتى . ثم أطرق رأسه ووضع يده على قلبه كمن يحاول تسكين خفقان ألمّ به ، فدنت العجوز منه وقالت فى رفق : ماذا جرى يا ولدى لقد كنت أظنك فى حالة سارّة ببيت مينا ! فانسكبت الدموع من عينيه وقال : أما زلت على اعتقادك أننى لم أكن سيء الحظ منكود الطالع ؟ لقد أطلعتنى على مستقبل أمرى فأيقنته كما يوقن المرء حقيقة ذاته إذا تراءى فى المرآة ، ولا تنسى أنك أنت التى علمتنى أساليب المكر والدهاء حتى أقوم بالمهام الدنيئة الموكولة الى عهدتي . . تذكرى جيداً . . أنسيت انك بعتنى للقيم على خزائن رعمسيس بمبلغ زهيد من المال ، فأهدانى الى صهره والد مينا ؟ وها قد مضى على هذا الحادث خمسة عشر عاماً وكنت وقتئذ صبياً دون البلوغ ومتفوقا على أندادى فى حدة الذهن وخفة الروح ورشاقة الحركات .

فلما انتقلت الى البيت الجديد اتخذونى ألعوبة لمينا فكان يشدنى فى عجلته الصغيرة بعد أن يزوق جسمى ورأسى بالأشرطة والريش ثم يأمرنى بالركض فاذا تولانى التعب فخفضت السير أهوى بسوطه على جسمي الضئيل لأنشط . وكانت بالمنزل فتاة حنت لها جوارحي وهي ابنة البواب ، فكنت لاأمضى أمامها جارًا العجلة إلا وتغرب فى الضحك لشذوذ ملابسى ، وكان لسان السوط متدليًا على أذنى ينذرني بالعقوبة إذا توانيت فى الركض أو اعترانى الكلال ، وكان العرق يتصبب من جبينى والدم يتقطر من قلبي الجريح .

فلما توفي والد مينا دخل مينا بيت سيتى للتعلم وتخصصت بخدمة زوجة الملاحظ الذى طردته راتوتى الى بلدة هرمونتيس ، فأصبحت فى شقاء ونكد ، لأن بنات المنزل يتخذنني وسيلة للهوهن ومجونهن إذ كن يضعننى فى مهد صغير ويلزمننى البقاء فيه بلا حراك مع غمض العينين حتى أبدو لهن كمن يكون فى سبات عميق ، ويسترسلن بعد ذلك فى ضروب المزح والمماجنة بينما كانت تنتاب قلبي عوامل الحقد والضغينة تارة وأسباب العشق والهيام أخرى . وكنت إذا مللت الاستقرار فى هذا الوضع والتمست الراحة بالالتفات أو التحرك ألهبن ظهرى ضربا بالعصي ، وحدث أن تملكنى الغضب يوما من هذه المعاملة القاسية فضربتنى إحداهن ضربًا مبرحًا أسال دمى ، فأخذنى مينا وقد اشتد بى الغضب الى مستودع الحبوب وعلقنى من نطاقي بمسمار مثبت بالسقف وتركنى معلقا هكذا فى الفضاء أياما معدودة ، قاسيت فى خلالها

من البلاء والمحنة ما لا أنساه أبد الدهر ، فقد تكاثرت عليّ الفيران وأخذت تعضنى بأسنانها الحادة وأنا لا أستطيع مقاومة لما عرانى من الضعف والجوع . وهذه هي آثار العض ما برحت ظاهرة فى ذراعى بلونها الابيض ، فاذا زالت منها بمرور الايام فلن تنمحي من قلبي أبداً أبداً . . وبعد أن عاينت صنوف العذاب خلصنى مينا من مخالب الموت بعد أن اعتذر بأنه نسيني !

ولما تم اقتران مينا بنيفرت دعا الى السكنى فى بيته والدته راتوتى فجعلتنى هذه فى خدمتها . وقد أخلصت الولاء لها حتى تبينت منى الصدق فى القول والاخلاص فى النصح وأيقنت أنها لا غنى لها عنى فحملنى ذلك على إرادة الخير لها والجاه والعزة . ولا خلاف فى أنه إذا استوى آنى على عرش الملك فسأكون وإياها المدبرين لسياسته .

كانت العجوز فى خلال هذا الحديث واقفة وملازمة الصمت . أما نيمو فقد اشتد سعير الغيظ الكامن فى صدره لمينا فأخذ يرغي ويزبد ويقوم ويقعد ، حتى إذا تم كلامه جلست العجوز على كرسي من الخشب وأخذت تنتف ريش هدهد قائلة : لقد فهمت الآن مرادك انك تريد الانتقام من خصومك لتصعد ، فى أمان من مكرهم ، فى أسنى المراتب وتلتمس منى العضد والنصير . اجلس يا بنيّ واشرب هذه القدح المملوءة لبنا ليهدأ خاطرك ويسكن روعك واسمع ما سألقيه عليك من النصائح الرشيدة لا أبتغي منك جزاء ولا شكورا .. اما راتوتى فلا أرى لها اخلاصا من العار الذى لبس ابنها إلا بالاصفر الوضاح وهو موفور بعتبة دارها

فما عليها إلا أن تخطو خطوات لتحصل منه على ما تشتهي . وبعد أفلم يكن الموهار بعاكر ابن شقيقتها ؟ أجاب نيمو : نعم . قالت : ان نيفرت الجميلة ابنة راتوتى وزوجة سيدك مينا قد اتصل بى أن رجلا من الاعيان يحاول اجتذابها اليه . قال : لعلك تريدين بهذا الرجل بعاكر إذ هو السابق الى خطبتها فلم تشأ الاقتران به مؤثرة عليه مولاي مينا . قالت : لقد حضر بعاكر عندى أول من أمس واشترى منى ماء سحريا وإذ كنت شديدة الرغبة فى استطلاع قصده من شراء هذا الماء فقد اقتفيت أثره من حيث أراه ولا يرانى ، فنظرته يقدم الماء الى امرأة ذات جمال فائق علمت فيما بعد أنها نيفرت . سأل : وهل شربت الماء السحري ؟ أجابت : نعم . . شربت ولكنه لا يؤثر فتيلا فى فؤادها إذ هو مزيج من ماء وخل وعصارة لفت وأرى أن فى قدرة نيفرت لتزيد بعاكر افتتانا بجمالها الساحر اقتراض ما يلزمها من المال لتسدد به ديون أخيها وتكشف العار عنه وعن والدتها . قال : ولكن راتوتى عزيزة النفس حمية الأنف إذ سبق لى أن عرضت عليها هذا الاقتراح فوبختنى وطردتنى . قالت : إذا كانت لا تحب أن تواجه نيفرت بعاكر فى هذا الطلب فلتذهب بنفسها . أما أنت فعليك أن تقابل بعاكر وتعلله بأمنية ميل نيفرت اليه وهيامها به ثم تنفض له جملة حال أهلها وما أصبحوا فيه من الذلة والمسكنة فأن رفض طلبك فأفهمه أنك واقف على سرّ مسئلة الماء السحري ، ففكر نيمو قليلا ثم التفت الى العجوز وقال : هذا هو التدبير الصائب والرأى الثاقب . قالت : كنت

بادىء بدء أرى أن مساعيك ربما لا تقترن بالنجاح ولكننى تأكدت العكس الآن واعتقادى أنه يجب على راتوتى أن تشكر لنجلها مقامرته على جثة أبيه . قال : أتقصدين بهذا الكلام أن يشكر راتوتى من لم يقفوا على حقيقة الواقع من جمهور الناس بذلها المال فى سبيل المحافظة على شرف اسم .. قالت : نعم هو هذا واعلم أنك ان تقنع بعاكر بحب نيفرت له واعطاء راتوتى ما تطمع فيه من مال فعقدة الاشكال تنحل .. وعندئذ تحرك عوامل الانتقام فى صدر بعاكر فتحفزه للقضاء على مينا كي يخلو له الجوّ فيقترن بنيفرت وبذا ينتقم فى الآن نفسه ممن أذاقك مرّ العذاب . وقد يحدث أن يصاب رعمسيس برمية سهم تورده موارد الحتوف فيخلفه الوالى آنى على عرش الملك فتتم السعادة وتنال راتوتى ما كانت تتمناه وزيادة . قال : لا ريب فى أنك مصدر التدبير الصائب ومستودع الحكمة وصدق النظر فى العواقب . قالت : انى على ثقة من أنك ستبسط لسيدتيك راتوتى ونيفرت وللوالى هذه التدابير الحكيمة منتحلا لنفسك فخار ابتكارها ، ولكن لا يذهب عنك انك إنما تتبع نصيحتى وتعمل بمشورتي وان لى وحدى فضل الابتكار الذى سيقيلك من العثار . على أنه لا يمضى الغد حتى تنكر هذا الفضل الساطع وتدرجه فى طي النسيان كما لا ينقضى اليوم بعده حتى تعتقد أنك بأشعة عقول الآلهة التسعة تستنير ومن فيوض حكمتهم وصادق إلهامهم تستمد القدرة على القيام بجلائل الاعمال . . وهذا ما أنا به واثقة ولكن لا يغرب عن بالك أنه لا بد لهذه النصائح من ثمن فانما أعيش من ثمن

نصيحة أقدمها أو رأى أشير به أو اقتراح ابتكره . . أما أنت فلك من قصرك ما يكفل لك أرغد العيش وأسنى الرزق كما يعيش غيرك بجذقه فى الصناعة أو جلده على أعمال الزراعة . وإذا التقيت ببعاكر وألقيت فى روعه أن نيفرت تحبه حباً جماً فبادر بمقابلة الوالى آنى وخبره بأن فى صدرى سراً مكنوناً يستطيع به استذلال بعاكر، وهو سرّ لا أبوح به إلا بثمن معلوم على شروط معينة . قال : ليس دون اخباره بمرادك عائق ، ولكن ما الثمن الذى تطلبين ؟ قالت : ثمنا زهيداً وهو وصية يكتبها بأعفائى من ضرائب الكهان والهياكل لأقضى ما بقي من عمرى فيما أشتهي ولأبتنى قبراً يليق بى بعد وفاتى . قال : أرجح ألا يوافقك الوالى على الطلب الأول لأنه يتجنب فى سياسته ما يمس بسلطة الكهنة ، ميلا منه الى مداراتهم ومحاسنتهم . قالت : . . ولأنه يخالف أوامر رعمسيس أيضاً . على أننى لا أكلفه أمراً جديداً فقد سبق أن زودنى رعمسيس وصية من هذا الطراز لقاء نجاحي فى علاج جواده المحبوب ، ولكن النار أكلتها فيما أكلت من متاعى حين صدر الأمر باحراق بيتى الحقير لاتهامى بالسحر وبأن مالدى من الادوات من عمل الشيطان أما القبر فلا حاجة لى به الآن بعكس الوصية فانه لامناص لى منها بعد قليل من الزمان . قال : لا تجزعى فلا بد لنا من الحصول على المأمول وسأقصد الى المقابر لتفقد القرابين ولأعلم هل قدمت فى الوقت المعين ، فاذا لم تشتد وقدات القيظ ضحى هذا النهار فسأسلك هذا الطريق لأعود ورده وأزور جدها ينم وأبقى ساعة عنده .

الفصل الثالث عشر

العواطف الكريمة فى القلوب الرحيمة

كان نيمو يحادث أمه الساحرة حينما أخذ رجلان يغرسان أمام بيت المحنط أوتاداً طويلة نيطت بأطرافها خرق بالية . هذان الرجلان هما بينم وابنه الجندى الذى عاد حديثاً من الشام . وكان الشيخ يعزره لهذيه وثرثرته ويطلب الصمت منه حتى لا يروعها صوته الجهوري . فلما قضيا عملهما وضعا تحت الظلة المركبة من تلك الخرق والاوتاد شيئاً من قش القمح جلسا عليه ولبثا زمنا يحددان البصر فى مدخل البيت حيث كان نبسشت ينتظر بذاهب الصبر انتباه الجريحة من نومها لمباشرة علاجها .

ولقد سأل الطبيب جدّ الفتاة عن الجندى الجالس الى جانبه ، وهو شاب طويل شاحب اللون غزير شعر اللحية ، فأجاب: هو ابنى ، وقد ورد من الشام منذ أيام . سأل : لعله والد ورده . فهز الجندى رأسه علامة الايجاب ثم قال بصوت خافت : ان بعض الناس لا يسلمون بأنى والدها لكونها بيضاء لون البشرة بينما لونى أقرب الى السواد ، ولكن فليعلموا أن أمها أجنبية أورثتها لونها الأبيض المشرب بالحمرة . ولقد كنت لشغفى بحسنها الفتان أخشى أن تمس جسمها اللطيف أنامل فقضى القضاء أن تمر العجلة على صدرها الناصع . وأن تعجب فعجب

أن تبقى على قيد الحياة مع قوة الصدمة وما عانت من شديد الآلام!
عندئذ دنا بينم من الطبيب وقال مشيراً اليه : لولا عناية هـذا الاب المحترم لما عاشت ابنتنا فجزاه الله خيراً تلقاء ما أجزله لنا من النعمة .
فأبرز الجندي من نطاقه كيساً محشواً بالنقود وضرب عليه بيده قائلا : إنا وقد غنمنا الاموال الـكثيرة من سوريا نستطيع أن نوفى الطبيب أجرته ونشترى عجلا نقدمه قرباناً للآلهة . قال الطبيب : خـير لك الاقتصار على تقديم مثال للعجل من عجين (١) وكفى به شهيدا على إعترافك بصنيعة الآلهة وصدق نياتك نحوهم . وما يبقى بالـكيس بعد ذلك فسلمه الى أبيك يقضي به حاجة ابنتك من غذاء ودواء .

فأخرج الجندى الـكيس وأخذ يرمي به بين كفيه طرداً وعكساً كمن يعبث بأكرة اللعب قائلا : انه ثقيل ومحشو بالمال فياليتنى أنفقت مافيه مع الاخوان فى معاقرة بنت الدنان . . وحيث إنى أخطأت هذه الفرصة فخذه ياوالدى لتنفقه فى العناية بوالدتى وابنتى ورده . وفيما كان الشيخ يبسط يده لتسلم الـكيس ويقبضها مترددا إذا بالجندى قد رفع يده الى جبهته كمن يتذكر أمراً غاب عنه ففتح الـكيس قائلا : دعنى ياأبت آخذ من المبلغ سبع أو ثمانى حلقات فأنى فى هذا اليوم ، وأنا على موعد مع بعض الخلان للهو والطرب بأحد مجامع الجند ، يجب أن أتزود اليسير من المال . وما آخذه من الـكيس الآن إن هو الا نفقتى الليلة

(١) كان فقراء المصريين ممن لايقدرون على تقديم الارابين من الحيوانات الحيـة كالعجول والخنازير يصنعون ما يشبهها شكلا من العجين ثم يقـدمونه الى الهياكل بعد انضاجه وتحتوى الآثار القديمة رسوماً عديدة تمثل تقديم هـذه الحيوانات الى الآلهة في المعابد والمقابر

وما يتبقى بعده فانى فى غنى عنه، فأشار نبسشت إشارة الموافقة على هذه القسمة وتلقى الجندي هذا الاستحسان بالشكر وقال له : وأرجو منك أيها الاب المحترم أن توالى الجريحة بعنايتك حتى يلتئم جرحها فقد مللت تقديم القرابين وليس عندى من المال ما أنفقه فى هذا السبيل ، واعلم انى ما برحت متين القوى وافي الذراعين فاذا كنت بحاجة الى من يساعدك على أعدائك فانى مستعد لدفع أذاهم عنك ولو بلغوا العشرين عدا . . حياة بحياة . . أنت أنقذت من الموت حياة ابنتى وأنا أبذل فى سبيل الدفاع عنك مهجتى .

قال هذا وتناول مدية كبيرة طفق يجرح بها ذراعه فيسيل الدم منها على حجر قريب من نبسشت ، ثم قال : هذا هو برهان شكرى لك واعترافى بصنيعتك وأود أن تعلم انى قد أصبحت بعد ذلك اتبع لك من ظلك فمر بما أنت آمر فحياتى فداء لك . قال الطبيب متلعثما : اننى رجل صلح وسلام لا رجل حرب وحسام ، وحسبي هذا الثوب الكهنوتى الابيض ضمينا بدفع شرور الاعداء اللئام . . والآن هل انتبهت مريضتنا من النوم يا ترى ؟ ثم قام ودخل فى وجار المحنط فوقع نظره على وردة مطمئنة الى جدتها ، فلما تراءى لها حدقت فيه النظر بعينيها الزرقاوين ، فقالت جدتها للطبيب : ان وردة تشتهى الخروج وقد نامت نوما طويلا هادئاً . فجس نبسشت نبضها وفحص جرحها ، وكانوا قد وضعوا عليه أوراقاً خضراء ، فقال وقد بدت على وجهه علامات الفرح والاستبشار : من أعطاكم هذه الاوراق الطبية ؟ فلم تحر جدة وردة

جواباً ، فقالت وردة بتؤدة وسكون : وافتنا بها نيخت الساكنة هناك بالمغارة السوداء . قال نبسشت على عجل : نيخت الساحره ؟ لا بأس مع ذلك من بقاء هذه الاوراق فى موضعها ، فأنها لا تضر إذا لم تنفع . قالت العجوز : وقد تذوقت نيخت أيضاً الشراب الذى جهزته لوردة فمدحته بقولها إنه جالب للشفاء . قال : حسن كل هذا وخير منه نقل الجريحة الى خارج البيت لاستنشاق الهواء الطلق والتخلص من هذا الجو الثقيل فأنه لاتحتمله الرئتان . قالت ورده : إن تخرجونى من هذا المكان فحسنا تفعلوا . . أيها الطبيب إننى مبتهجة بحضورك اليوم دون صاحبك الذى يعذبنى بصياحه حينما يتلو التعازيم والرقى . قال نبسشت . لعلك تريدين الاعمى تيتا ، أما أنا فقد اعتزمت ألا أصحبه فطيبي نفساً وقرى عينا ، غير أن الكاهن الذى كان يهدىء ثائرة جدّك يوم زارتك الاميرة بنت أنات سيحضر ليعودك اليوم . وهو رجل صادق النية حسن السريرة . . فواجب عليك . . فقاطعته قائلة : إذن سيحضر بنطاؤر . أجاب : نعم قبل ساعة الظهر . . ومن أين عرفت اسمه ؟ أجابت عرفته من زمن مضى فنظر اليها الطبيب مندهشا وقال : أمسكى ! لا تتكلمى انى أرى خديك قد علاهما الاحمرار وأخشى أن تعاودك الحمى . . والآن وقد جهزنا لك ظلة أمام الباب فلابد من حملك اليها . قالت : أمهلنى من فضلك ! ياجدتي أرجو منك تسوية شعرى الذى ماعدت لكثرته أطيق حمله . وما فاهت بهذه الكلمات حتى تناولت شعرها بملء يديها وشطرته غديرتين ، وأخذت تنقيه من القش

الذى اختلط به لملامسته الارض . قال الطبيب : الزمي السكون والسكوت ياورده، وتجنبي كل ما يسبب لجسمك الاضطراب. قالت: أشعر بثقل هذا الشعر على رأسى . ثم رجت من جدتها أن تساعدها على تسويته ، فدنت العجوز وأخذت ترجله بمشط غليظ من القرن فلما نقته من الشوائب جعلته ضفيرتين متساويتين أرسلتهما إلى كتفيها. وكان نبشست يرى أن حركتها ، وهى لا تزال مريضة ، قد تفضى الى الخطر . وكان يود أن ينبه الى ذلك من حولها من النساء فلم يطاوعه لسانه على الكلام ، لما اعتراه من الدهشة حينما نظر الى وردة فى روعة جمالها فافتتن بها قلبه وطار لبه .

أما وردة فلم تكن ملتفتة اليه حينما انتهته هذه العواطف ، لانها طلبت من جدتها أن توافيها بالمرآة فناولتها العجوز قطعة فخار مدهونة بطلاء لامع فتراءت الفتاة فيها بعد أن جعلتها مقابل الضوء ولبثت برهة تتأمل فى ذاتها ثم قالت : مضى زمن طويل لم أشم فيه اريج الازهار ، فقالت لها : عليك بالصبر يا ابنتى . ثم عمدت الى اناء فانتشلت منه الوردة التى كانت بنت أنات وضعتها على صدرها حينما سقطت لوجهها وأغمى عليها وقدمتها اليها ، فما مستها بأناملها حتى تساقطت أوراقها الذابلة منتثرة حولها ، فسارع الطبيب الى التقاطها ورقة ورقة وقدمها اليها فنظرت اليه مبتسمة وقالت : أشكر لك صنيعتك وأخبرك أننى كهذه الزهرة أسمى وردة وأحب الورد والنسيم العليل ، فهل تخرجوا بى من هذا المكان ؟ فأشار نبشست الى ينيم أن يستعين بابنه على نقل الفتاة

وأن يترفقا بها فى ذلك فصدعا بأمره ووضعاها بالمكان المعد لها تحت الظلة وكان الجندى ترتعد فرائصه وتضطرب يداه المدجتا المفاصل وهو يحمل ابنته خوفا عليها من أن ينتابها ألم ، فلما تم وضعها بذلك المكان بدت عليه علامات الغبطة والارتياح اذ لم يقع ما كان يخشاه . أماهي فتلفتت يمنة ويسرة حتى وقف بصرها على بعض الاشجار فقالت : ما أنضر هذه الاشجار وما أصفى أديم السماء ! يظهر لى أن جدى قد عني بريها وتشذيبها : وهاهي الحمائم قد هبطت من الجو وأخذت تحلق حولى فأئتنى ببعض القمح ياجدتى لتلتقطها فى حضرتى فتضاعف بذلك مسرتى .

أخذت هذه الحمائم المطوقة الناعمة الريش تحوّم حول وردة وتتسابق الى التقاط ما كانت تلقيه يدها السخية من الحبوب . وكثيراً ما كانت تمسك الحبة لها بشفتيها فتنحط الواحدة منها عليها لتخطفها من بينهما بسرعة ولطف . وكان نبسشت يجيل النظر فى هذا المنظر البديع فيروّعه حسنه وتترامى الآفاق أمامه الى أبعد مدى فيستشف منها ما يهديه الى الاعتقاد بوجود عضو فى بحبوحة صدره ينفعل بمؤثرات طالما غاب عنه إدراك كنهها ، ثم استوى جالساً على الرمل وأخذ يفحص الثرى بطرف قضيب فحصاً تجلى عن صورة وردة زاهية بسوقها وأوراقها .

وكان السكون ضارباً فسطاطه على تلك الارجاء ، فآوت الحمائم الى الظلة ، وما هي إلا برهة اشتد فيها نباح كلب بينهم إيذانا بقدوم قادم حتى طمح بصر وردة الى الطريق وصاحت قائلة : جدتى ! ها قد أقبل

الكاهن بنطاؤر . سألت : ومن أخبرك بمجيئه ؟ أجابت : انى موقنة ما أخبرتك به . وما هو إلا مرّ الطيف حتى طرق الآذان صوت قائل يقول « السلام والبركة عليكم كيف حال مريضتنا اليوم ؟ » . وكان بنطاؤر صاحب الصوت ، فشرح نبسشت له حالتها ، فدنا بنطاؤر منها متهلل الوجه . وكان يحمل طاقة أزهار ساطعة الأرج أخذها من مذبح الالهة هاتور التى جعله أمينى فى اليوم السابق كاهنا لهيكلها فقدمها الى الفتاة ، وقد علت وجهه حمرة الخجل ، وقال لها : إن الالهة العظيمة التى توليت خدمة هيكلها بعثت اليك هذه الزهور النضيرة ، وهي لا شك ستمنحك الشفاء والعافية من فيض مكارمها الضافية ، فتشبهى بها اذن وتحلى بخصالها الشريفة من طهر وعفاف ورقة وانعطاف ، ليكون لك من النفوذ مالها . وكما أن أشعتها الساطعة تبدد المتكاثف من الظلمات على أفق الكائنات ، ينبغى أن تكونى لهذا البيت الصغير سراجاً وهاجاً وبدراً منيراً . وكما أنها ما وطئت من الارض مكانا إلا ونمت فيه الازهار الطيبة الشذى ، فلا بد لك من التحلى بمطرف العفاف والصون لتتفجر ينابيع الحب الطاهر الصادق من مواطىء قدميك[1] وانى استنزل عليك بركاتها واستهطل خيراتها ونفحاتها .

قال ذلك وأخذ يجيل النظر فى والدها وجدها ثم تحفز للانصراف فاذا بصوت استغاثه ارتفع من خلال أعواد الذرة المزروعة على مقربة

---

(١) كان أهالى دندره يسمون هاتور بالالهة ذات الاقدام الذهبية وهى تقابل افروديت الهة الجمال عند اليونان

من المكان الذى ما كادت تردد جوانبه هذا الصوت حتى تجلى لانظار الحاضرين شبح غلام صغير رافعاً يده الى أعلى ما استطاع وفيها فطيرة يظهر من تقوس جزء من أطرافها أن كلباً دهمه فقضمها وأن هذا هو علة ارتفاع صوته بالاستغاثة، فما رآه الحاضرون وتبين لبينم أنه الطفل الذى تعذبه العجوز بوضعه فى الاداة الخشبية ليكون من الاقزام حتى سأله : ماخبرك يا (شراعو) ومن جاء بك الى هنا، أجاب والدموع تتحدر من عينيه : جئت بهذه الفطيرة لوردة فقد وصلنى خبر مرضها . وأنا أيضاً مريض فقربه المحنط منه وقبله بين عينيه قائلا : لك أن تهدى ماشئت الى وردة . فتهلل وجه شراعو بشراً وطلاقة ثم اتجه مسرعا نحو وردة وقال لها بعد أن جثا أمامها على ركبتيه : اليك هذه الفطيرة . . . فانها لذيذة الطعم سكرية المذاق . . وسأهدى اليك أمثالها كلما سمحت لى نخت بذلك. قالت : اشكر لك ياشراعو هذه الرعاية . ثم قبلته بين عينيه ونظرت الى بنطاؤر قائلة : هذا الطفل المسكين قد مضت عليه أسابيع ولا طعام يقتات به سوى جذور البردى (١) والنيلوفر الازرق (٢)، ومع هذا فأنه يجيئنى اليوم بالفطيرة التى أهدتها جدتى أمس الى العجوز نيخت .

فاحمر وجه الطفل حياء ثم قال متلعثما : لم أقدم اليك الا نصف

---

(١) قال هيرودتس وديودورس الصقلى وبلياس المؤرخون أن المصريين كانوا ياكلون جذور شجر البردى وسوقها بعد تجفيفها على النار

(٢) كان المصريون يسحقون نوى النيلوفر الازرق الذى يشبه الخشخاش ويتخذون منه خبزا غليظا ياكله فريق منهم (انظر تاريخ هيرودتس) ويؤخذ من اقوال المؤرخين ومما هو مسطور على الاثار ان البردى والنيلوفر الازرق كانا من النباتات الشائعة الزراعة فى مصر وكانا يصلحان لغذاء الفقراء واكد ديودورس أن الرجل كان يغذى ابنه من هذين النباتين حتى يبلغ العشرين من عمره فلا يكلفه سوى عشرين درهما أى ٧٣ قرشاً

الفطيرة ولكن ثقي أني لم أذق طعمها، لأن كلبكم هو الذي أكل النصف الآخر بعد أن دهمني وأنا مستتر بأعواد الذرة انتظر انصراف الاجانب من بين يديك لأستطيع تقديمها اليك . وقد أراد بالاجانب بنطاؤر ونبسشت، قال ذلك وانصرف عائداً فامسك بنطاؤر به ورفعه بين يديه ليقبله بين عينيه وقال الطبيب له : بارك الله فيك ايها المسكين وجزاك خير الجزاء على حرمانك نفسك التمتع بما تشتهي . نعم انك لن تصير من المترين اذا دأبت على الخلق الكريم، ولكن قلبك سيصبح كنزاً يحوى نفائس الخصال ومحاسن الشيم ، فألصق شراعو صدره بصدر بنطاؤر ووضع وجهه بين كفيه كالرجل الكبير يداعب الطفل الصغير وأغروقت عيناه، ثم انحدرت دموعه على صدر بنطاؤر الذى لم يسعه الا أن أنزله الى الارض وتركه يركض حثيثاً فى الوادى نحو مغارة العجوز الساحرة، فما كاد يصل الى منتصف الطريق حتى وقف بغتة إذ كانت الشمس فى كبد السماء . فحدثته نفسه بانه ان ذهب الى المغارة وضعته الساحرة على خشبة التعذيب ، فاستحسن أن يتعداها الى حيث مئات العملة يشتغلون بأنشاء قبر للملك رعمسيس وأن يقضى فى التفرج عليهم بضع ساعات ثم يعود فيذوق آلام العذاب .

وكان على مقربة من هذا البناء الضخم كوخ من سعف النخل اعتاد النقاش الشهير (بتاؤ) أن يقضى فيه ساعات الفراغ من العمل لالتماس الراحة ، وكان هذا النقاش أصم ، إلا أن شهرته بأتقان فن النقش انتشرت فى الآفاق فأصبح فى عداد كبار الرجال الذين تشد اليهم

الرحال ، فهو الذى نقش الكتابات والرسوم الهيروغليفة على المبانى الباذخة التى شادها الملك سيتى الاول فى أبيدوس وطيبة وأبدع فى تنميق قبر هذا الملك الجليل القدر وابتكر الرسوم الجميلة الممثلة لوقائع الحروب ومناظر الاعياد والحفلات على جدار قبر رعمسيس الثانى .

مابلغ شراعو الى هذا المكان حتى أخذ يدخل الكوخ ويخرج منه ويكرر ذلك حتى لا يشعر به بتاؤ . وكان فى كل مرة يجيل النظر فى أعماله ممعنا ، ففاجأه هذا النقاش ذات يوم وهو يصنع من الطين تماثيل بأشكال الرجال والحيوانات ، فاخذ بعض هذه التماثيل وأمعن فيها النظر ثم أعادها اليه باسما بسمة الاستحسان . ومنذ هذا اليوم تأكدت روابط المودة بينهما واشتد ميلهما بعضهما الى بعض ، فكان شراعو يتردد عليه كل يوم ويجتهد فى تقليد الاعمال الدقيقة التى يتمها بتاؤ فى الهيكل . وكان هذا النقاش يمسك عادة عن محادثته ، وانما كان اذا لاح له نقص فى عمله أصلحه له أو أتمه ثم سلمه اليه مبتسما ومستحسنا . وكان اذا لم يحضر شيراعو كعادته شعر بتاؤ بانقباض فى صدره وقلق فى خاطره لما كان يحسه من الارتياح لوجوده عنده ساعة يتلقى عنه فيها علم مالم يعلم من ضروب النقش والتصوير . وكان بتاؤ يقدم اليه كلما حضر قطعة من الطين الصالح لصناعة التماثيل ، فيأخذها معه الى مغارة العجوز ويرتقب انصرافها عنه ليصنع من التماثيل أنواعاً شتى وأشكالا متباينة . وكان اشتغاله بها ينسيه مايلقاه من العذاب فى آلة تقصير القوام ليكون من الاقزام .

الفصل الرابع عشر

— لا تحرك الثعبان اذا نام ولا الكاهن اذا تناول الطعام —

برح بنطاؤر بيت المحنط وسار مفكراً فى طريق الصحراء المؤدى الى الهيكل الذى يتولى ادارته ، وكان يضرب أخماسا لاسداس ويتوقع الاحتكاك بصعوبات جمة فى سبيل ادارة هـذا الهيكل (١) الذى شادته حاتاسو (٢) للالهة هاتور . وكان للكهان القائمين عليه امتيازات خاصة يتناقلونها بالوراثة، من أهمها انهم يرشحون للرياسة واحداً منهم . وكان رئيسهم السابق (رونى) فى نزاع الموت فرأى أمينى صاحب الحق فى الاشراف على كهنة هذا الهيكل أن يعين بنطاؤر رئيساً عليهم بدون ان يستشيرهم فى أمره ، فكبر عليهم هـذا التصرف وأصروا على مناوأة الرئيس الجديد ، وعقدوا عليها نياتهم الى حد أنه لما تسلم مقاليد الرئاسة لم يلق منهم غير الاهانة والتحقير . وقد زادوا على ذلك أن استظهروا بمعصيته على طاعته وبباطلهم على حقه لاسيما وقد أنسوا منه الصلابة فى الحق والميل الى الاصلاح . وكان من المفاسد الشائعة بينهم والمتغرزة

---

(١) لايزال هذا الهيكل موجودا الى الآن بشكله الاول دون أن يعتوره خلل وقد أورد دوميشن في كتابة الموسوم (دونتمة ملكة مصرية) أهم رسوم هذا الهيكل ونقوشه وجاء فى كتاب لبسيوس شرح ضاف لهذا الاثر القديم

(٢) حاتاسو هى ابنة تحوتمس الأول وقد تزوجت باخيها تحـوتمس الثانى وعينت وصية لاخيها تحوتمس الثالث وقد اشتهرت بسمو الهمة ومضاء العزيمة وفى عهدها انشئت أعمال كثيرة عادت على جميع الاهالي بالمنافع العامة وقد امرت ان يصورها النقاشون بلباس الرجل ولحيته

فى طباعهم التهاون فى العمل والركون الى البطالة والكسل حتى بلغ من أمرهم فى ذلك أن ترخصوا فى فروض الدين وصاروا لا يؤدون صلاة الصبح المفروضة لفتاح اله الشمس ، فقضى بنطاؤر لرتق هذه الفتوق بان يبكر صغيرو السن منهم بترتيل الاناشيد لينبهوا كبارهم الى قضاء حق الواجب عليهم . وكانوا فيما عدا ذلك يتجرون بالتحف النادرة التى تهدى لهاتور فأصدر أوامره الصارمة بالحرص عليها وحفظها وعدم التصرف فيها ، كما حال أيضاً دون تحككهم بالنساء اللائى يحضرن من اقاصى القطر اسرابا متتالية وشتوتا لزيارة هذا الهيكل والتبرك بصاحبته المعبودة ذات المناقب العديدة .

وكان بنطاؤر قويم الخلق عفّ النفس شغوفا بالترتيب والنظام شديد الوطأة على أهل الكسل مبغضاً للبهتان والكذب . فلما عين كاهنا أعظم لهيكل حاتاسو ورأى فى رجاله نقيض هذه الصفات الفاضلة على خط مستقيم انتوى اصلاح حالهم وتقويم المعوج من أمورهم وايقاظهم من غفلتهم واستفزازهم الى احراز قصب السبق فى ميدان الكد والعمل ، لعلمه أنه لو نفض أولئك الكهنة غبار الدعة والسكون وقاموا بواجباتهم وأدوا أعمالهم الموكولة اليهم لنفعوا العامة وأصابوا الغرض الذى لاجله انتظموا فى سلك الكهنوت وهو تخفيف ويلات المنكوبين وايتاء الصدقة للفقراء والمساكين .

وما مر عليه اليوم الأول فى رياسة كهنة ذلك الهيكل حتى تبين طباعهم واستبطن أخلاقهم وعاداتهم بما تبجحوا أمامه به من الغطرسة

والزهو والتيه وتعمدوه من الاغضاء والاهمال فى حق امرأة ذليلة جاءت تشكو بثها من زوج عاملها بالحرمان والهجر وأخرى فى عنفوان الشباب غرر بها مغرر حتى أخرجها من عصمة ربها وثالثة تندب سوء حظها لما أصابها من العقم ورابعة انزعج خاطرها على ولدها وفلذة كبدها فجاءت تلتمس طمأنينة النفس وخامسة من الأيامى طلبت ان تطفئ لوعتها بالعزاء الجميل والسلوان . فقد رأى ان أولئك الكهان بدلا من أدائهم مفروض الواجب يبالغون فى احتقار تلك النسوة أو يهتمون بابتزاز المال منهن أو يعهدون اليهن بيع الهدايا والتحف النفيسة المقدمة للالهة هاتور ويختصون أنفسهم بأثمانها .

وكان بنطاؤر قد دنا من الهيكل ، وملء رأسه الافكار والهواجس، فحانت منه اليه التفاتة صورت له هذا المعبد فى شكل أنيق ومنظر بهيج ، اذ كان عبارة عن أربع بنايات تبدو لعين الناظر متصلة بمنحدر الصخور التى تناطح قممها السحاب ارتفاعا وعلى حافات سطوحها تماثيل كبيرة من النسورة تمثل الاله هوروس وتشير الى الاعتقاد فى الاله الحق الذى يحيي العظام وهى رميم ويبث فى الاغصان الجافة ماء النضرة والحياة .

وكانت كل بناية من البنايات الاربع عبارة عن بهو فسيح الجوانب تستوى سقوفه على اثنين وعشرين عموداً (١) وتتغطي جدرانه بنقوش

---

(١) هذه الاعمدة مضلعة وقد صنعت في الاصل لتزيين قبور العائلة الثانية عشرة ثم استعملها ملوك العائلتين السابعة عشرة والثامنة عشرة فى مبانيهم الدينية والمدنية

تخلد ذكرى عهد الملكة حاتاسو وما امتاز به من رغد العيش واستقرار الامن وعزة الجانب وامتداد السلطان ، ومن انفاذ الدونتمة المصرية الى بلاد العرب لفتحها (١) وبيان ما قامت به من جليل الاعمال كجلبها من عجائب الشرق وتحفه كل نادر ومستغرب وأنواع سكانه وحيوانه ومساكنه وصنوف أسماك البحر الاحمر (٢). أما البنايتان الثالثة والرابعة فمؤلفتان من غرف أبوابها من الحجر الاعبل . وقد تم بناؤهما فى أيام حاتاسو وأخويها تحوتمس الثانى وتحوتمس الثالث . وهما قريبتان من البنايتين الاولى والثانية وكانتا خاصتين بالتطهير وعبادة التماثيل الممثلة للالهة هاتور وبتقديم القرابين لروح الملكة حاتاسو ، وباحداهما مكان الكاهن المنوط به تلقى الاعتراف ممن يحرزون فضل الدخول لاداء فروض العبادة فيهما . أما البقرة المقدسة فكان لها مكان خاص الى يمين الداخل فى المعبد .

فلما وصل بنطاؤر الى المدخل الاكبر للبناية الأولى من هيكل حاتاسو شهد منظراً أزعجه وأثار غضبه . ذلك أن امرأة كانت تستأذن فى الدخول الى مكان الصلاة لاستنزال الرحمات بصالح الدعوات على زوجها المريض ، فانفتل اليها البواب وكان رجلا بادن الجثة قبيح السحنة فدعها عن الباب بعنف ونهرها وقال لها مستهزئا ومشيراً بأصبعه الى

---

(١) نقل ماريت باشا من نقوش أعمدة هيكل الكرنك اسماء الشعوب الذين قهرهم الملك تحوتمس الثالث ولا سيما فى الحملة البحرية التى وصل المصريون فيها الى شواطىء افريقية الشرقية اى الى أراضى بلاد الصومال

(٢) وصفها الدكتور دونتز وصفا دقيقا فى كتابه وأورد رسمها بدقة كذلك

الكتابة المنقوشة عليه : انظرى هذه الكتابة فقد جاء فيها أنه لا يتجاوز عتبة هذا الهيكل الا من كان طاهراً من الدنس . والتطهير لا يكون إلا بالبخور . قالت المرأة المسكينة ملحفة فى الطلب : حرك مبخرتك وخذ هذه الحلقة الفضية فى مقابل صنيعتك واعلم أننى لا أملك سواها . صاح الكاهن مغضباً : هذه الحلقة الفضة . . أتريدين بها أن تهبط الآلهة من علوة مجدها وسامى مكانتها لتقضى حاجة بنفسك ؟ أما علمت أن حبوب (ألاتا) الصالحة للتطهير تساوى من الثمن عشرة أمثال ما تعطيننى من المال ؟ . . قالت المرأة . قلت لك أننى لا أملك غير هذه الحلقة لأن زوجى الذى جئت لاستنزال الرحمات عليه مريض ولا يستطيع العمل لأحقق بسد مطالبك الأمل ، دع أن أولادى . . . فقاطعها بقوله : أتريدين أن تسمنى أولادك على حساب الآلهة ؟ . . اعطنى ثلاث حلقات والا أقفلت دونك هذا الباب . قالت المرأة باكية : كن رحيما بى . . لا أدرى ما أصنع إذا لم ترض هاتور عن زوجى العليل وتمنحه رعايتها . قال الكاهن : أو تظنين أن الهتنا سترسل اليه الاطباء لمعالجته ؟ أو ما علمت أن لديها من الاعمال ما يصرفها عن العناية بالمرضى الذين يموتون جوعاً ؟ . . اعلمى ان ليس من مناقبها شفاء المرضى ، فيحسن بك إذن أن تقابلى (أمهوتب) و (خون) صاحب المشروعات أو (تيشوتى) المنوط بها مساعدة المرضى[1] والا فلسنا ممن يبيعون الأدوية والعقاقير . قالت وقد أخذتها

---

(١) امهوتب بن فتاح وكان قدماء اليونان يسمونه اسكليبوس وكانت مدينة منفيس مقر

العبرة : إن أقصى مرادى التعزى على مصابى وتخفيف آلامى وأوصابى . فتبسم البواب وأطال النظر فى المرأة . وكانت على جملة من الحسن وريعان الشباب ، فقال : أتريدين التعزى على مصابك وتخفيف آلامك وأوصابك ؟ ان التعزية التى تريدين بضاعة لا تكلفك شيئاً من المال .

فما استأذنت هذه الكلمات على سمع المرأة حتى اصفر وجهها ودفعت البواب بعنف عنها . وكان قد أخذ بتلابيبها وشهد بنطاؤر فعله الذميم فثار فيه الغضب ولم تكن إلا طرفة العين حتى توسطهما ، فاندهشا لظهوره على حين غرة ورفع هو يده ليبارك فى الزوجة الحزينة التى جثت أمامه على ركبتيها وقال : إن الالهة هاتور تأذن لمن يستغيث بها ويتهل اليها أن يدنو منها ، واعلمى أيتها المرأة أنك طاهرة ولك أن تدخلى معبدها . فنهضت المرأة وافقة ثم انطلقت مهرولة الى ناحية الباب بينما كان بنطاؤر يلتفت الى البواب ويوبخه على فعله بقوله : أبمثل هذا تخدمون الالهة هاتور . . أبمثل هذا تخففون ويلات المنكوبين وتتصدقون على بنى الانسان بالبر والاحسان . . أنت معزول عن عملك فاعطنى مفاتيح الباب وبكر من غدك الى المرعى لحراسة أوز الالهة هاتور .

فترامى البواب على قدمى بنطاؤر باكيا منتحباً ، فلم ينثن عن عزمه

عبادته وكان يمثل جالسا وبيده كتاب وعليه ما يغطى رأسه وتوجد جملة من تماثيله فى برلين ومتحف اللوفر ومتحف الجيزه ويملك القس هاهرون الروسى تمثالا جميلا له

أما خون فأحد معبودات طيبه الثلاثة وقد ارسل تمثاله الى آسيا فى عهد العائلة العشرين لينقذ من الشيطان ابنة أحد ملوكها وجاء فى كتاب الاثر الجليل لقدماء وادى النيل بيان هذه الحادثة بالتفصيل (صفحات ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥)

ولم يرث لحاله بل ولى عنه بكتفيه وصعد ببطء الى المكان المعد لاقامته ، بأعلى البناية الرابعة . وكان كلما التقى بطائفة من الكهان أعرضوا عنه إما بغض الطرف أو الالتفات الى ناحية أخرى ، ذلك لأنهم تألبوا عليه وتحزبوا ضده لاعتبارهم إياه دخيلا فيهم . فلما وصل الى حجرته المفروشة بأحسن الاثاث وأفخر الرياش ، خلع ملابسه ولبس الحلة الكهنوتية . ثم أخذ يفكر فى مركزه الشاذ إزاء أولئك الكهان ويقيس حاضره بغابره ويبين مقدار الفرق بينهما ، فاستنتج من المقارنة أن حكم أمينى عليه بالنقلة الى هذا المكان كان حكما صارماً ، لأنه كان فى بيت سيتى مرموق المنزلة ومحترماً من الاساتذة والطلاب . أما فى هذا الهيكل فقد أصبح بين نارين : الضجر والضغينة ، لأنه كان إذا سار فى فناء هيكل سيتى هرعت اليه الطلاب من كل فج ومكان وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر وأخذ يطارحهم الحديث فى العلوم والمعارف فيزداد بهذه المطارحة رسوخاً فى العلم وسعة فى الاطلاع والفهم .

وكان يناجى نفسه بقوله « ان الانسان ميال بطبعه الى كل جديد طلىّ إلا أنه يتعذر عليه التنحى عن العادات التى شب عليها » . ثم سرح الطرف فى حوادث اليومين الماضيين فمثلت له بنت أنات بشكل أخذت حقائقه تبدو بما استهوى فؤاده وملك قياده . وكان قلبه فى هذه الاثناء مترادف الخفقان شديد التأثر والانفعال ، كما كان عقله محلقاً فى سماء التأملات الخيالية ، فتذكر ما قالته الاميرة من اعتزامها سلوك منهجه واقتفاء أثره وتساءل عمّ إذا كان أهلا لأن يكون لها مرشداً ودليلا .

ثم انتقل من هذه الذكرى الى ما كان من إفشائه الاسرار الدينية وانكاره الطقوس والعادات الكهنوتية ، ولكنه راجع نفسه بالتساؤل عن الذنب الذى جناه إذا كان الغرض الذى رمى اليه بأذاعة الاسرار جلاء المبهم من الحقائق وسطوع الانوار ؟ وأية أساءة تعاب على الانسان اذا اعتقد بحقيقة يراها فى كفة الرجحان ؟ ثم استرسل فى هذه التصورات استرسالا حمله على اعتزام الثبات فى عقيدته ومداومة السير فى طريقته ، فلما هدأ باله وسكن روعه خرج الى سطح الهيكل مرتاح الضمير مصراً على دعوة الكهان الى تأييد الحق وازهاق الباطل ، وأخذ يتناجى بقوله . . «ما هو الجنس البشري ان أمهاتنا تلدننا فنقبل على هذا العالم ورائدنا الآلام والاسقام ، وندبر عنه تاركين خلفنا الاحزان والاكدار . . أفلا يكون من الواجب المحتوم علينا ، ونحن بين المهد واللحد ، أن نقوم بتسكين الآلام ومعالجة الاسقام وازاحة الاتراح ؟ وإذا رأينا دموعا تنهمل فلم لا نبادر بتسلية الباكين وإيداع الفرح والرجاء فى قلوب العانين حتى يكفكفوا الدموع المنحدرة على خدودهم ؟ إن هذا هو الواجب وآداؤه علينا ضربة لازب » .

لم يلتق بنطاؤر بأحد فى طريقه لأن الكهان كانوا قد احتفوا بالبواب ليسمعوا منه ما اتفق له مع رئيسهم على الباب وليتدبروا الوسائل لنكايته ، فلما شهدهم ملتئمين تقدم نحوهم بقدم ثابتة وقال : لقد عزلت هذا الرجل عن خدمة الهيكل إذ فى بقائه بيننا العار الفاضح والوصمة التى لا تمحى أبد الدهر . قال البواب بصوت المتبجح بعد أن

تصفح وجوه الكهان بما يدل على ما بينهم من الاتفاق والتآمر : سأبرح على الفور هذا المقام قاصداً الكاهن الاعظم أمينى لأسأله أيجوز للمدنسين الدخول فى الهيكل الطاهر المقدس . ثم دنا من الباب فاعترضه بنطاؤر قائلا : ستبقي هنا اليوم والغد وبعد الغد والمدة التى أريدها ، فاذا لم تسنح فرصة للعفو عنك فلا بد من صرفك لحراسة الأوز . فأرسل البواب الى الكهان نظرة المستفهم الحائر فبهتوا جميعاً ولم تبد من أحدهم حركة كأنهم الخشب المسندة أو التماثيل الجامدة . وإذ رأى بنطاؤر ذلك منهم قال للبواب : عد الى مكانك . فلم يسعه إلا إطاعة الأمر فأغلق بنطاؤر باب الهيكل وسلم مفتاحه الى بعض الخدم قائلا له : لقد جعلتك فى حراسة الباب بدلا من هذا الرجل ، وكن عيناً عليه حتى لا يفر من هذا المكان وإلا قضيت عليك مثله بحراسة الأوز .

ثم التفت الى الكهنة وقال : أنتم ترون أيها الأصدقاء أن الهيكل قد غص بالعابدين وأنهم متجهون الى الأله بقلوبهم ، يستدرون بركاته بصلواتهم ، فاهرعوا الى أداء واجباتكم الدينية . أما أنا فسأذهب الى غرفة الاعتراف لسماع بث الشاكين وتفريج هموم المنكوبين .

فتفرق الكهان شتوتاً فى كل مكان ، وصعد بنطاؤر فى الدرج قاصداً الى محل الاعتراف الذى كانت صورة حاتاسو مرسومة على جداره تستدر لبن الحياة الابدية من ضرع بقرة هاتور . وما كاد يصل اليه ويسدل على بابه الستار حتى جاءه النيكور أى فريق من الكهان

فأخبره بوصول سيدة تبدو عليها أمارات الحسب والجاه ، وأنها تلتمس الدخول الى محل الاعتراف وأنها وأتباعها متنكرون بحيث لا يستطيع التعرف عليهم أحد ثم قدم اليه العلامة الرمزية التى أطلع الكاهن الاعظم هذه السيدة عليها لتستطيع بواسطتها الدخول فى الهيا كل المقدسة . فوقف بنطاؤر خلف الستار ولبث ينتظر الزائرة وهو فى قلق عظيم مع أن أمينى كثيراً ما كان يعهد اليه وهو فى بيت سيتى استقبال الأميرات والأمراء العظام لتفسير ما يرونه من الأحلام .

ولم تكن إلا جولة الخاطر حتى أقبلت سيدة رشيقة القوام سارت متدفعة نحو غرفة الاعتراف ولزمت الصمت، ثم جثت على ركبتيها أمام المعبودة هاتور فى وضع يدل على الطاعة والخشوع . أما بنطاؤر الذى كان وقتئذ خلف الستار، فقد بسط يديه بالدعاء الى فاطر السماء أن يؤيده بروح منه ويثبته على الطهر والنزاهة . وما أتم دعاءه حتى رفعت السيدة رأسها فخيل للناظر أنهما سواء فى التجرد عن المحسوسات الكونية والتوجه بقلبيهما الى المقاصد العلوية ، ووقفت السيدة بعد ذلك حاسرة النقاب عن وجهها فاذا هي بنت أنات جاء بها الى هيكل المعبودة هاتور قلق تسلط على الفؤاد فسلبها لذة الرقاد ، وقد خاطبت المعبودة بقولها : يا ملكة السموات يا زاهية الطلعة يا صاحبة الاسماء العديدة المعبودة هاتور .. أنت المطلعة على أسرار السعادة والشقاء والافراح والاتراح، أنت التى يحيط علمك بحوادث الحال والاستقبال اقتربى من ابنتك واهدى عقلها الحائر الى قصد السبيل والمثل الأعلى

للحق والصواب . إنى أكرم ابنة لأكرم أب فى هذه الديار بل أقرب الناس عند المقارنة الى مكانة الربوبية . دعانى هذا الوالد الكريم الى الاقتران برجل لا يهواه فؤادى ولا تحن اليه جوارحى ، ولم يكن طلبه هذا لزاماً إذ خولنى حق الرفض والقبول وكانت محاسن الاتفاق قد ساقت الى طريقي رجلا آخر ، إن يكن وضيع الاصل خامل الذكر فهو رفيع الهمة رحيم القلب متوقد القريحة . . .

وكان بنطاؤر منصرفاً عنها بتلاوة الدعاء ، فلما بلغت من المناجاة الى هذا الحد وأدرك أنه هو المقصود بها ، أخذ يفكر أيجوز له البقاء فى مخبأه لاستقصاء ما يكنه صدرها من الاسرار أو البروز من خلف الستار حتى لا تفوه بعد الذى أبدته بما لا تود اطلاع الغير عليه ، فاثر البقاء قليلا حتى تنطق باسمه أجمل أميرة وأشرف امرأة فى الأمة المصرية ، غير أنه هتف به هاتف يقول له «خذ حذرك يا هذا ولا تدع تلك التى أوليتها خالص حبك تفوه بكلمة تفضى بها الى الاستحياء منك ان فهمت أنك كنت آذنا لمناجاتها من وراء ستار» . فاتبع نصيحة الهاتف إذ بادر فى الحال بفتح الستار والتقدم نحو بنت أنات بقدم الحزم والثبات .

ما وقف نظر الأميرة عليه حتى عراها وله فتراجعت الى الخلف قائلة : يا لله . . من أنت ؟ ومن أين أنصببت علىّ ؟ أنت بنطاؤر أم إله من آلهة هذا الهيكل ؟ أجاب : كلا بل أنا بنطاؤر . . أنا المحب لخير الناس وبرهم على ما بى من ضعف وعجز . . أنا الراجى منك البقاء فى

هذا المكان حيث لا أثر للمخاوف والاحزان . . افتحى قلبك للالهة هاتور وثقى أننى سأقضى حياتى كلها فى الدعاء لك واستمطار غيوث الرعاية الربانية عليك . وكان بنطاؤر يتناولها بنظره وينصرف اليها بلبه وفؤاده ، وانه لكذلك إذ حانت منه التفاتة الى باب السر لمكان الاعتراف فذهب مهرولا نحوه كما لو توقع خطراً على نفسه ، فصوتت به بنت أنات فأقبل عليها متباطئا فقالت : لا أريد وأنا ابنة رعمسيس الجهر بحقيقة ذاتى ولا المطالبة بالمفروض من احترامي ، وانما باعتبار كونى الفتاة بنت أنات أخبرك بأننى لم أتوقع رؤيتك فى هذا المكان بدلا من الشيخ رونى الذى جئت اسارّه فى أمرى وأفضى اليه بما فى صدرى . وحيث أنه من هنا قد مضى فدعنى أتم صلواتى وأوجه الى الالهة دعواتى .

ثم جثت على ركبتيها وخرج بنطاؤر ، فلما أتمت الصلاة برحت المعبد . وكان قد طرق أذنيها دويّ شديد وجلبة عظيمة من ناحية الجنوب فأطلت من الشرفة لاستطلاع السبب ، فسمعت أفواج الشبان ينادون : ليحي بنطاؤر ! ليحي بنطاؤر ! ولم يكن إلا مرّ الطيف حتى أقبل الشاعر مسرعا ووقف الى جنب بنت أنات ، فما بصرت به جموع المتظاهرين حتى ضاعفوا الهتاف قائلين : بورك فى بنطاؤر ! يقوى بنطاؤر ! هو مولانا وسيدنا ! عدالى بيت سيتى ! ليسقط الظالمون ! ليهلك المعتدون !

وكان راميرى شقيق بنت أنات فى طليعة الطلبة المتظاهرين الذين

لم يكن احتشادهم نتيجة اتفاق سابق بل جاء من طريق المصادفة ، لأنهم ما كادوا يقفون على خبر نفي أستاذهم من لسان الأمير حتى تسللوا من الهيكل بعضهم فى أثر بعض وتركوا الدرس بتحريضه واغرائه ثم تدفقوا بقضهم وقضيضهم الى فناء الهيكل للقيام بتلك المظاهرة الولائية الدالة على مكانة بنطاؤر من نفوسهم . ولما وصلوا قبال الشرفة أشار راميرى الى أخته إشارة الفرح بالانتصار والفوز ، ووقف الشاب أنانا أمام زملائه الطلاب فألقى خطبة فصيحة العبارة بليغة المعانى أبان فيها أنه ورفاقه قد عقدوا النية على مغادرة بيت سيتى إذا لم يلغ أمينى أمره الأول القاضي بإبعاد أستاذهم وحرمانهم الاستفادة بثمار معارفه اليانعة . قال هذا بذلاقة لسان لم تتمالك معها بنت أنات من أن تصفق بيدها على اليد الاخرى إعجابا واستحساناً . أما بنطاؤر فقد كان وجهه يتربد ويكفهر حينما أوشك أنانا أن يتم خطبته ، فلما أتمها نشب يعنفه على مروقه عن الطاعة الواجبة للكاهن الأعظم ، وذمم اليه والى زملائه عدم الأخذ بالتؤدة والحيطة فى الأمر وقال : انه لجدير بى أن أحزن إذا كان ما لقنتكم إياه من الدروس لم يثمر إلا تشجيعكم على مخالفة النظام واحتقار القوانين . . ان القصور الشاهقة والدور الرفيعة الذرى كانت مساقط رؤوسكم ، فأن أنتم لم تشبوا على الطاعة فبم تسودون غيركم وتحكمون ؟ عجلوا الأوبة الى مدرستكم فأن ترددتم فأنى مرغمكم على ذلك بقوة الاحراس ، ولا يذهبن عليكم أن مظاهرتكم إياى بالميل لى على هذا الوجه لن تتفق مع سموّ مكانتكم ، كلا بل ولا تطابق

الأصول التى نقشتها فى صفحات صدوركم .

لم يجرأ المتظاهرون أن يردوا بكلمة على هذا الاعتراض، ولكنهم تداولوا ملياً فانحط رأيهم على العودة الى المدرسة ، وقد وخز الندم ضمائرهم . أما بنت أنات فقد مدت نظرها الى راميرى وهو يهز كتفيه ضجراً وتبرماً فاغضت عنه الطرف ثم التفتت الى بنطاؤر وقد تنازعها عاملان ، الخجل والاحترام . وفيما هي ترشقه بنظراتها إذا بالوادى وقد امتلأ ضجيجاً وعجيجاً ، ولاح من بعيد غبار كثيف وطرق الآذان صهيل الخيل ووقع حوافرها وقرقعة المركبات التى تجرها ، وانجلت الجلبة عن قوم وقفوا أمام الهيكل فاذا بهم سبتاح رئيس المنجمين ونفر من الاحراس يحفون به .

نزل سبتاح عن مركبته وعلامات الغضب بادية على وجهه وأخذ يعنف الطلبة الهاربين من المدرسة بأشد الألفاظ وقعاً فى النفس . وبعد أن أمر أعوانه بسوقهم الى هيكل سيتى ، دخل المعبد فاستقبله الكهان بمظاهر الاحترام والاجلال وأنشأوا يعرضون عليه شكاياتهم فأصغى اليهم وتلطف بهم . وبالرغم مما ناله من الاعياء والتعب صعد مسرعاً فى درج الهيكل فالتقى فى طريقه بنت أنات ، وما كاد يقع نظرها عليه حتى أسدلت النقاب ومرت بجواره . وكانت موقنة أن بقاءها فى الهيكل قد يفضى الى تأويل أسبابه على غير ما تحب ، إلا أنها لم تعبأ فى بادىء الأمر بسبتاح بل صعدت فيه النظر ، والغيظ محتدم فى صدره . فلما وقف على خبرها أحنى رأسه أمامها إجلالا دون أن

يبارك فيها . ثم استأنف الصعود فالتقي ببنطاؤر فأمره بأخراج المصلين على الفور من المعبد ، فنفذ أمره فانتشر السكون بأرجائه ، وإنما اتفق أن وقع حادث جلل لم يقع مثله بساحة المعبد منذ أنشيء وأقيمت فيه صلاة للمعبودة هاتور .

ذلك أن سبتاح كان خصما لدوداً لبنطاؤر ، وكان كثيراً ما ينتقد الكاهن الأعظم لأبقائه إياه فى سلك الكهنة ناعياً عليه أنه زلزل أركان الدين وضعضع جدران التقاليد القديمة التى كان فى مبدأ أمره من أول المتمسكين بها والمتعلقين بأهدابها . ونسب اضطراب الطلاب فى هذا اليوم الى ما يكون قد بثه من الدسائس ، فما كاد يقع نظره على بنطاؤر حتى انحى عليه باللائمة ولم يراع له كرامة إذ قال : لقد ألقيت بابنائنا في مهاوى الوبال وأغريت بنت أنات بالتمادى فى الضلال ولا أدرى كيف أجزت لنفسك الاتفاق معها على التلاقى بهذا المكان الاقدس مع تلوثها بالدنس ، وكيف زدت الطين بلة بأن جعلت موعدك بلقائها فى معبد الالهة هاتور البريئة من العيوب والنقائص .

إذا كان الثناء يبدل من ضعف القلوب قوة بما يبثه فيها من الثقة ويحييه من ميت الأمل فأن اللوم الجائر يكون فى طريق القوي الثبت الجنان كالحجر الذى تزل فيه أقدام الشجعان . فأنه ما كادت ترن فى أذن بنطاؤر عبارات التأنيب التى وجهها سبتاح اليه حتى هاج غضبه وقال : ان ما رشقه به من سهام التنديد والتبكيت لم يكن على شيء من الحق والعدل بل هو مما لا يليق بمثله منزلة وسنا وشهرة أن يلفظه . وقد

اقتصر على هذه الملاحظة دفعاً لسوء العاقبة إذا هو مضى مسترسلا فى أدحاض التهم التى وجهها اليه ، ثم ولى بجانبه عن سبتاح فجأة فتعلق هذا الشيخ بأذياله وأمسك بتلابيبه وصاح بكهان الهيكل جميعاً فهرعوا اليه وسألهم عن سيرة بنطاؤر فتطابقت شهاداتهم على ما يؤيد إدانته قائلين إنه لم يكتف بفتح باب الهيكل على مصراعيه لبنت أنات بل أدخل فيه امرأة أخرى ملوثة بالدنس مثلها ، وزج بالبواب فى السجن لأنه أقام الحجة عليه إزاء هذا الخروج على الانظمة الكهنوتية .

أمر رئيس المنجمين بأطلاق سراح هذا السجين فاهتاج بنطاؤر لذلك واحتج ، لا لأنه استطاع أن يدحض التهم المسندة اليه ، بل لأنه المسؤول وحده عن إدارة شؤون الهيكل ، ثم طلب الى رئيس المنجمين وقد تهدج صوته ، الخروج من المعبد ، فأبرز له سبتاح خاتم أمينى الذى يثبت نيابته عنه فى إدارة الاعمال الكهنوتيه أثناء غيابه وقال إنه بمقتضى السلطة المخولة له قد قرر عزله من منصبه الكهنوتى وأمره فى الآن نفسه ألا يبرح الهيكل إلا بأذن ، وقصد بعدئذ هيكل سيتى ليرفع الى الكاهن الأعظم نتيجة المهمة التى عهدها اليه . أما بنطاؤر فمذ وقع بصره على الخاتم أحنى رأسه احتراماً وطاعة وانقلب من فوره الى الغرفة التى اجتمع فيها ببنت أنات . وكان يحس اضطراباً فى ضميره وخفقاناً بقلبه وأنه فى متنازع العواطف المتناقضة والافكار المتباينة ، واختلط عليه حتى صور له أنه يرى الكهان وهم يسخرون منه ويحقرونه والبواب وقد تجاوز فى مخاطبته حدود الأدب ، إذ أخذ يرشقه باللفظ

البذىء ويعيب عليه صرامته فى معاملته ويذكره بما تم لأهل الهيكل من الغلبة عليه فى كيدهم له . وقد كان فى سماعه لهذه الاقوال يرعد وينتفض كما لو أتى ذنباً يسجل عليه العار ويقبحه فى الانظار .

ولكنه ما لبث أن هدأ روعه شيئاً فشيئاً بعد ما برح الغرفة وقصد الى أحد مستشرفات الهيكل . فأن شعاعاً من الأمل انبعث الى فؤاده فصبره على تجرع الغصة وقوّاه على كظم الغيظ . ولقد حانت منه ، وهو واقف ، التفاتة الى ما يلى نهر النيل من ناحية الشرق فأبصر بقصر الملك رعمسيس مسقط رأس بنت أنات ومعهد أنسها فدبّ فيه روح الهمة وتضاءل أمامه بأس أعدائه حتى تلاشى ، وتضخمت فى نظره خساستهم وضعة قدرهم فازدرى بهم وترفع عن مناوأتهم ، ولكنه لم يذهب عليه أنه أصبح محفوفاً بخصوم ألداء وأن قد حانت الساعة للنضال والمقارعة فى ميدان النزال .

الفصل الخامس عشر

ربما أرشد الكبيرَ صغير وقاد ذا العينين ضرير

كانت الشمس مؤذنة بالمغيب حينما وقفت الانظار على مركبة يجرها اثنان من الجياد الصافنات، تجرى فى النهج المؤدى الى هيكل حاتاسوا يتبعها كلب كبير الجثة يلهث بلسانه. وكان يقود بعاكر هذه المركبة ويتبعها العبد الحبشى الذي سبقت الاشارة اليه فى بعض الفصول المتقدمة، فما دنت من جدران الهيكل حتى طرق الآذان صوت يصيح صاحبه مناديا « يا بعاكر! ». فاتأد بعاكر فى سيره لاستجلاء الخبر، وبيناهو يتلفت يمنة ويسرة كالمرتاب فى أمره إذا برجل قصير القامة يهرول نحوه مقبلا من مخبأ اختبأ فيه كما لو كان يتوقع مروره واللقاء به. فما وقف نظر بعاكر عليه حتى عرف أنه القزم نيمو، فقال له: أمثلك من يعترضنى فى طريقى.. ما تريد إذن منى؟.. فأطرق نيمو رأسه إعظاماً وإجلالا وقال: إنى أبتهل اليك بما عز عندك أن تأخذنى الى طيبة متى عدت من قضاء ما لأجله قد جئت. قال بعاكر: ألم تكن قزم مينا؟ أجاب: كلا إنما أنا خادم نيفرت قرينته المهجورة المنسية.. وإذا رفعت اليك هذا الملتمس فما هو إلا لأن قدميّ الصغيرتين لا تستطيعان أن تقطعا هذا الطريق الطويل الكثير الرمل والعثير، بخلاف جيادك الصافنات فأن أقدامها تنهبه نهباً. قال بعاكر:

دونك والركوب معى ! ولمَ جئت ماشياً الى هذا المكان ؟ أجاب : ما جئت ماشياً بل راكباً حماراً فأصابه مس من الشيطان فهوى الى الارض بلا حراك . والراجح أن بنات آوى ستجعل اليوم منه غذاءها فتكون أوفر منا حظا . قال بعاكر : المتبادر من كلامك أن الخير عند سيدتك غير موفور . قال نيمو . أما الخير فلا يزال عندنا منه بعض الرغفان وأما الماء فالنيل طافح به وأما اللحم فمن عادة النساء والاقزام الا يميلوا اليه . ولقد تشكات آخر بقرة بقيت فى حوزتنا بشكل جديد اذ صار لحمها جامداً وكان طريئا ، فلم يفهم بعاكر معنى هذه النكتة ، فالتفت الى نيمو بعين المستفهم فقال هذا له ، وقد تبين سبب حيرته : نعم أنها بيعت فاكتسبت شكل النقود ، والنقود جامدة . على أن النقود أوشكت أن تنفد من عندنا فنضطر الى التغذى بالطين والماء وأوراق النخل . أما أنا فلا يهمنى أحضر الطعام أم غاب لأن معدة القزم صغيرة يملأها الشيء اليسير ، بخلاف مولاتى المسكينة الرقيقة الحواشي . . . عندئذ أهوى بعاكر بسوطه على غاربي جواديه حتى آلمهما فأخذا يثبان ويجمحان ، وعجز عن اذلالهما وكبح جماحهما إلا بما بذل من الحيلة والسياسة وما اليهما من مختلف الوسائل . واطلع على حقيقة الأمر العبد الحبشي فقال لمولاه . ربما اودى بحياتهما ضربك بهذه القسوة ، ومن الخسار أن نفقد هذين الجوادين الكريمين . فتبرم بعاكر بهذا الكلام وقال : وهل سألك أحد ثمنهما إذا ماتا ؟ ثم التفت الى نيمو وقال متأثراً : وكيف يهمل مينا شؤون بيته فيتركه بلا مؤونته من

الطعام اجاب نيمو : لأنه يكره نيفرت قرينته وقد طلب اليه الملك بعد الفوز الاخير أن يختار ما تصبو اليه نفسه من الغنائم فانتخب من بين السبايا من راقه جمالهن وسار بهن الى صيوانه . ولا اعلم كيف أقدم على هذا الفعل وليس فى نساء مصر من يدانى نيفرت فى حسنها الفاتن . سأله : أتحبها يانيمو ؟ أجاب : كيف لا وهي أعز عندى من انسان عينى .

كانت المركبة فى اثناء الحديث قد بلغت الى باب المعبد فألقي بعاكر بأزمة الجياد الى العبد الحبشى ثم نزل عنها وأشار الى نيمو بالانتظار فيها حتى يعود . وسأل بعاكر البواب فى الدخول لمقابلة رئيس الكهان ثم وضع بضع حلقات من النقود فى يده فأخذ الرجل يطوف بالبخور حول بعاكر وفتح الباب قائلا : عسى أن تجده بالقسم الثالث من الهيكل ولكنه لم يكن الآن رئيسنا . سأل بعاكر : وكيف وهو المعروف فى هيكل سيتى بأنه الكاهن الاكبر لهذا المعبد ؟ فهز البواب كتفيه مبتسما وقال متهكما : قد يريد الانسان رأس النخلة فيجد فى البلوغ اليه بعض العناء ثم لا يلبث ، إن سقط ، أن يصل الى أسفلها بأسرع مما وصل الى أعلاها ، والحجر الثقيل رفعه عسير وحطه يسير . قال هذا وصحب بعاكر الى مكان بنطاؤر فما وقع عليه نظر الشاعر حتى عرفه وسأله عمّ جاء به اليه . فأجاب : انه جاء فى استفسار حلم رآه . . وقبل أن يقص رؤياه عليه قال إنه لا يسأله التفسير بالمجان بل أنه اعتزم أن يرسل فى مقابله هدية فاخرة الى الالهة هاتور ، إذا جاء التفسير مطابقا لمشتهاه . سأل بنطاؤر : وما كنت تفعل لو جاء على غير

مرادك ؟ أجاب : اكتفى منها برأس من الضأن . قال هذا دون أن يفهم المراد من سؤال بنطاؤر ، لأنه كان اعتاد فى تقديم القرابين والهدايا الى الآلهة أن يجعلها بحسب أهمية التفسير ومطابقته لمشتهاه ، وكان من جهة أخرى يجهل أن بنطاؤر لا يكترث لما يقدمه الزوار من الهدايا والقرابين . ولقد تذكر بنطاؤر ساعتئذ ما سمعه من الكاهن جاجابو وهو يزن الموهار ويبدى رأيه فيما اتصف به من الجهالة والضعف والاغترار ، فأحب أن يختبره ليقيس حكمه عليه بحكم ذلك الكاهن فسأله : واذا فسرت رؤياك بما لا يكون طيباً ولا خبيثاً فماذا أنت فاعل ؟ أجاب : أقدم غزالا وأربعاً من الأوز . سأل بصوت شديد : وماذا تفعل ان امتنعت عن قضاء حاجتك ورأيت أنه لا يليق بشرف الكاهن الاتجار بوظيفته وتعريضها للتحقير والامتهان ، وقلت لك أنه لا يجوز له قبول هدية فى مقابل ما هو مكلف به من قضاء مصالح الناس . . انى أعرفك مذ كنت معنا تلميذاً بالمدرسة وأريد تعريفك الآن بأن من الأشياء ما لا يصلح للشراء ولا للبيع ، مهما تكن ثروة المشترى من مال طائل تليد وطارف .

فتراجع الموهار الى الوراء مبهوتا ، إذ لم يسبق له أن رأى من كاهن مثل هذا الشمم وهذا الاباء ولم يحر جوابا على كلامه ، فاستأنف بنطاؤر حديثه قائلا : لم أكن هنا إلا عبداً خاضعا وخادما حقيراً للالهة هاتور وقد بدا لى من وجهك أن صدرك ممتلىء بالغضب والحقد علىّ وأنك على وشك المضي فيما جبلت عليه من الشدة والعنف ولكن

فلتعلم أن القدرة الرّبانية لم تبعث الينا بالاحلام فى المنام لتعليل النفس بفرح أو لصيانتها من همّ وترح وإنما هي وسيلة تمهد للنفس السكون والطمأنينة بالتوكل على الاله فى حالة الهم والترح وبالشكر له والثناء عليه فى حالة السرور والفرح . والذى أراه وأذهب اليه هو أن يكون بكاؤنا وضحكنا مرآة ما وصلت اليه نفوسنا من درجات الكمال ، ومن ثمّ أرفض رفضاً قاطعاً تفسير رؤياك ، على أن لك أن تعود الى هنا مرة أخرى صفر اليدين من الهدايا والهبات وممتلىء القلب بالصدق والخشوع ، فأسأل المولى عندئذ أن يفيض عليّ من نوره ما اهتدى به الى تأويل الرؤيا بما يدعو الى التفاؤل بالخير ولو كانت مما يدعو الى التفاؤل بالشر ، وأرجو منك بعد هذا أن تتركنى وشأنى وأن تبرح الهيكل . فحرّق بعاكر الأرم غيظا ولكنه غلب على نفسه فكظم غيظه وانصرف مدمدماً بقوله : لو لم تعد الى الصواب بنفسك لعاقبتك على تبجحك ووقاحتك ، ومع هذا فلسوف أريك كيف يكون تأثير الثروة ولو كانت آتية من طريق الميراث . أما بنطاؤر فقد قال فى نفسه : هذا عدو آخر ولكن من غير طراز أولئك الاعداء !

كان نيمو فى خلال محادثة بعاكر وبنطاؤر ، قد استدرج البواب الى الايغال معه فى مناجاة افضى هذا اليه اثناءها بكل ما وقع من الحوادث فى المعبد صبيحة اليوم ، فلما خرج بعاكر وركب العجلة كاد نيمو يتميز من الغيظ لانه لم يركب معه فجذبه العبد الحبشى من ناصيته ورفعه حتى ألقاه بالقرب من قدمي مولاه حينما كان يزمجر قائلا : هذا الحقير !

هذا الوغد الدنيء ! هذا الكلب لسوف يرى ! لقد علمت أن اسمه بنطاؤر ! فلما سمع نيمو اسم الشاعر قال لبعاكر : يظهر انهم عينوا الرياسة هذا المعبد لصاً يقال له بنطاؤر كان ببيت سيتى ثم نفي منه لقبح سيرته وسوء سمعته . ومن أفعاله الشائنة أنه حرض طلاب المدارس العليا على العصيان وادخل فى هذا المعبد نساء بالدنس ملوثات . وقد نقل لى البواب الآن أن رئيس المنجمين فجأه اليوم مع بنت أنات فعزله عن وظيفته الكهنوتية فبهت بعاكر وقال متعجبا : مع بنت أنات ! . . . وسكت هنيهة ثم قال : نعم مع بنت أنات وهو الذى لابد قد قضى معها في بيت المحنط تلك الساعات وقتما كنت أحادث نيفرت وأجلب الماء اليها من مغارة الساحرة . قال نيمو : انى لأتمنى أن اكون فى موقف بنطاؤر لانه اذا كان رعمسيس بعيداً عن هذا المكان فان آنى قريب منه . ولست بمنكر أن آنى بطىء الحركة فاتر الهمة ولكنى أعتقد انه لا يود أن تدرج تلك الحمامة من عشه او تفلت من يده . فرمق بعاكر القزم بعين الحيرة اذ لم يدرك المراد بهذا الكلام، فقال نيمو الماكر وقد تبين سبب حيرته : ان الوالى آنى التمس من رعمسيس أن يزوجه من ابنته فلم يجاوبه سلبا لأنه حفظه الله ممن يحبون البسط والانشراح باقامة الافراح . ولعلك تعلم ذلك أكثر مما يعلمه غيرك . سأل بعاكر: أنا . . . أجاب نيمو : ومن غيرك ؟ . . وهل ذهب عليك أن مليكنا هو الذي اكره راتونى على تزويج فتاتها من مينا . . لقد أفضت الىّ بهذه الحقيقة وهي على ما أعتقد لا تنكرها ان حادثتها فى موضوعها . فهز بعاكر

رأسه استنكاراً ، ولكن القزم استرسل فى الحديث بصوت المقتنع بصدق ما يقوله اذ قال : ومع هذا فقد كان من احب الاماني الى راتوتى أن تكون زوجا لابنتها ، وانما قضت الأرادة الفرعونية بتزويجها من غيرك . والسبب فى ذلك على ما أيقنته انك لم تكن محمود السيرة فى الباب العالى بدليل ما يعيبه رعمسيس عليك ويذكرك على الدوام به مما لا يرضيك سماعه ، ولا يدهشنك علمي بهذه الاسرار فأنما أنا أشبه الحيوانات بالفأر المختبىء وراء الستار يرى كل شيء ويسمعه دون ان يراه أو يسمعه أحد .

هنا أوقف بعاكر مركبته ونزل عنها وأشار الى نيمو بالنزول بعده فلما صدع بأمره دعاه الى مسايرته حتى يبلغا النهر ليستطيع أن يسمع منه كل ما يعلمه منذرا إياه بأنه ان تبين له كذبه تركه فريسة للكلاب تمزق جسده شر ممزق . قال نيمو : اعتقد أنك على فعل ما تقول أقدر منك على قول ما لا تفعل ، غير أنى أرجو منك أن تمشى الهوينا فقد ابتدأ التعب ينال من قدميّ . . وبعد ففى وسعك أن تستقصى من راتوتى نفسها كل ما وقع من الحوادث بينها وبين رعمسيس وأنا ضمين بأنها لن تتراجع عن الجهر لك بأن فرعون أكرهها على تزويج نيفرت من مينا . وما أشقى حظ سيدتى المسكينة التى آمنت بأكاذيب ذلك الأحمق وأباطيله فكان نصيبها أن تواصل الليل بالنهار في الاحزان والاكدار . ولطالما مررنا أنا وراتوتى أمام منزلك فكانت إذا رأته حددت اليه نظرها وتنفست الصعداء وأخذت نفسها بالتعزير والتعنيف

لسقوط عزها وامتهان كرامتها ولأنها أوشكت أن تضطر الى السكنى مع أمة الآمو(١) النازلة فى البلاد الواطيـة ، لأن الاشراف والعظما ، سيفرون منها ومن ابنتهـا فرار السليم من الاجرب . . ويحق لمثلك فى الواقع أن يهنىء نفسه لانك لم تخلط حظك بحظنا . . والا لمسك بعض ما مسنا . . هذا ولا مناص لى من ملازمة سيدتى الفاتنة للعقول بجمالها اذ ينبغى لى كما شاطرتها ايام الفرج والرخاء ان اشاطرها ايضا ايام الشدة والضيق فقاطعه بما كر : لمَ تكثر من الالغاز والاحاجى وما معنى هذا الهذر والهذيان اللذين لا أساس لهما ولا اركان .. أفتخشى أذًى ان أنت افصحت وللحقيقة أوضحت ؟ . .

أخذ نيمو عندئذ يقص عليه ما اتفق لأخى نيفرت من مقامرته على جثة ابيه وخسارته اياها وأنه أصبح مثقلا بالديون وان راتوتي ونيفرت اصبحتا من ذلك فى غم شديد لانثلام شرفهما وسقوط جاههما وتلوث صحف تاريخهما على مدى الايام . ثم سكت هنيهة واستأنف الحديث بصوت المتوجع : ولـكن لابد لهذا الداء من دواء إذ ما زال بالامكان انقاذهما من وهدة الذل والامتهان . . انى ارى زوج نيفرت يبعثر ماله التليد والطارف وما انضم اليه اخيرا من حصة وافية فى غنائم الحرب دون أن يفكر فى زوجته . وليس فى قدرة راتوتى أن ترتق

---

(١) الآمو قوم من ابناء سام كانوا فى عهد حوادث هذه الرواية يقطنون الجانب الشرقى من الوجه البحرى . راجع كتاب (المصريون وكتاب موسى) لجورج ايبرس مؤلف هذه الرواية والفصل الخاص بالساميين فى مصر من كتاب « تاريخ مصر » تاليف بروكش . وذكر مسبرو أن لفظة امو أو (بى — أمو) انقلبت فيما بعد بتواتر الاستعمال (بيامين)

هذه الفتوق لانها ان دعت الناس الى معاونتها انفضوا من حولها وتفرقوا بدداً كالدجاج الذى تهوله رؤية النسر منقضا عليه من السماء .

سأل بعاكر : وما مبلغ الدين ؟ أجاب : الدين فادح ولا أدرى فى هذه الايام التى عمّ العسر فيها وطمّ حتى اصاب الناس جميعا كيف تدفع عنها العار بتسديده للدائنين . ولقد أنست من نيفرت العزم البات على هجر زوجها والبعد عن مخالطته بعد اذ عهدت منه الكذب والتراخي فى أداء حقوقها المفروضة شرعاً عليه ولعلها الآن لهذا السبب تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه .

فتصفح بعاكر وجه نيمو تصفحاً ينمّ عن ارتيابه فى صدق أقواله وتنبه نيمو لذلك فابتدره بقوله : نعم تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه لأنها ما برحت ، منذ التقيت بها فى المقبرة ، تذكر اسمك وتحدث بأمرك . وكثيراً ما أفاضت فى مدحك وذكر مناقبك وإيثارك الجد على المطايبة والمهازلة . وهذه المزايا لم تتوافر قط فى زوجها الذى عهدت فيه الخفة والنزق . ولقد بدا لى منها ما أيد عندى الظن فى أنها وقعت فى شرك حبك . فأحس بعاكر حينما سمع هذه الكلمات قشعريرة اختلجت بشدة تأثيرها أعضاؤه فشى مغذّا فاضطر نيمو الى الرجاء منه ثانياً أن يتئد فى سيره ويتباطأ ، فأجابه بعاكر الى طلبه وظل الاثنان يسيران الهوينا حتى بلغا الى ضفة النيل دون أن يلتقيا بأحد إذ كان السكون سائداً على جميع الارجاء . وكان زورق بعاكر المزخرف بأبدع النقوش والرسوم راسياً عند الضفة ليستقله لدى عودته الى طيبه ،

فنزل اليه مع نيمو والحشم والمركبة وجواديها وجلس فى غرفة بمقدمه والى جانبه نيمو . فلما استقرا فى مكانيهما قال بعاكر لنيمو بصوت خافت : انا من قرابة راتوتى كنا فى خصام ثم تصالحنا أخيراً فلمَ لم تقصد اليّ فى قضاء حاجتها وتفريج كربتها ؟ . اجاب : لصلفها وعزة نفسها وتجافيها عن كل ما يحط من قدرها . . ولا عجب ما دام الدم الذى يجرى فى عروقها هو عين دمك . ولقد سمعتها ذات يوم تقول إنها تفضل الموت مع ابنائها على ان تبذل ماء وجهها فى التماس النجدة من رجل تعتقد أنها أساءت اليه وقد اتبعت فى ذلك المثل القائل « لا تطلب الاحسان ممن أسأته » . قال بعاكر : يؤخذ من قولك أنها فكرت فى الاستمداد بمعونتى ؟ أجاب : نعم فكرت فى ذلك من بادىء الأمر ، وان ترد أن أبوح لك بالاسرار كلها فأنى أؤكد لك أنها لم تشك لحظة فى كرمك وسعة جنابك وما رأيت منها إلا الاحترام لاسمك والتعظيم من شأنك ، فان ساعدتنا الاقدار واصيب مينا بسهم فى الحرب أو غيرها يصمي فؤاده فأنها ستعد نفسها ولا ريب سعيدة بان تضع ابنتها العزيزة بين يديك . واعتقد أن نيفرت لن تنسى ذكرى رفيق الطفولة والحبيب منذ نعومة الاظفار ، بدليل اننا حينما عدنا ذاك المساء من مدينة الاموات وقبل ان يفتح الخطاب الوارد من ميدان القتال كانت ملآنة منك (١) . ولقد اخبرتنى خادمها بانها سمعتها تهذى باسمك اثناء نومها . فاطرق بعاكر برأسه وقال : ان هذا لمن اعجب العجب ! . . فى الليلة التى

(١) كان قدماء المصريين يقولون فلانا ملآن منك أى ممتلىء بحبك وباللغة المصرية القديمة (به)

ذكرتها رأيت فيما يرى النائم ان نيفرت برزت من خدرها تتهادى فى أحسن مظهر وأجمل رواء ،وقد أبى كاهن الهيكل ذاك الجبان الوقح أن يفسره لى . قال نيمو : انه لرجل مجنون . . ومفسرو الاحلام هنا كثيرون وانى لمن اوسعهم خبرة بتفسيرها ، وقد ذهبت لى بذلك شهرة يعرفها الجمهور وفى مقدمتهم اتباعك ، فسلهم ان لم تكن من المصدقين . وكثيرا ماجاءت الوقائع مؤيدة لصدقى فى التأويل فقص اذن علىّ ما رأيته فى المنام . فانشأ بعاكر يرسم بمقبض سوطه على البسط خطوطا ملتوية متعرجة ثم قال : رأيت اننى كنت على مقربة من النيل وانى أرى الماء راكدا والسماء صافية الأديم فلمحت نيفرت بالضفة الاخرى تنادينى باسمي فاشرت اليها باصبعي فهرولت نحوى جرياً على وجه الماء ، كما لو كانت تجرى فى السهل . فلما تدانت حتى صارت منى على قيد شبرين مددت اليها يدى لتمسك بها ، فما هو الا مرّ الطيف حتى غاصت الى قرار الماء واختفت عن الانظار . عندئذ لم املك ان القيت بنفسى الى الماء ونزلت فيه هابطا فاذا بى قد ادركتها واخذتها في ذراعيّ ، غير انى لم ألبث ان شهدت صورتها الجميلة تتلاشى قليلا قليلا ، كما يتلاشى بَرَد جبال سوريا اذا جعل فى قبضة اليد وتأثر بحرارتها فاستحال الى ماء ، ورأيت شعرها الفاحم وقد انقلب لونه الى ابيض ناصع ناعم كزهر الزنبق وعينيها وقد انبعثت منهما سمكتان اختفتا فى عجاج الماء وشفتيها وقد أصبحتا فرعي مرجان هويا الى قاع النهر ، وجسمها وقد تشكل بشكل تمساح رأسه كرأس مينا ، وقد اخذ هذا التمساح يرشقنى

بنظرات الازدراء ويبتسم ابتسامة التهكم . ولذلك استولى الغضب عليّ فلم يسعنى الا ان جردت سيفى وانقضضت على ذلك الوحش الهائل الخلقة . ولقد احسست أسنانه الحادة تنفذ فى جسمى فمكنت السيف من حلقه فجرى دمى ودمه ممتزجين كالسيل فاصطبغ بهما ماء النيل . وكانت المناجزة بيننا شديدة مديدة قمت عقبها من النوم مرعوبا يتصبب جسمى بالعرق الغزير وترتعد فرائصى ويتركنى صوابى .

وما انتهى بعاكر من قص رؤياه حتى تنفس الصعداء وبدا لمن يراه ان هذا المنام الذى قلقل راحته واحرج صدره قد تجدد فى ذاكرته فاثر فى نفسه تأثيرا وحرك فى قلبه لواعج العشق والغرام . وكان نيمو يمعن فيه النظر فلزم الصمت دقائق معدودة خالها بعاكر بقدر عددها سنوات ، ولكنه قال متثاقلا فى الكلام : حقا انه لحلم من اغرب الاحلام ولكن ليس من العسير تفسيره على العارفين باسرار التأويل . . ان رؤياك تفيد مجاهدة نيفرت فى القرب منك ولكن يحسن ألا ترى الوصول اليها سهلا اذ لابد ان تحبط آمالك وتحلل كما تحلل دقائق البرد اذا تأثر بحرارة اليد إن لم تقض قضاءك الاخير على التمساح الحارس للامنية التى تريد الظفر بها . وما انتهى نيمو من تفسيره الى هذا الحد حتى وصل الزورق الى ضفة النهر ورسا الى جانبه ، فوقف بعاكر وقال : ها قد وصلنا . قال نيمو متفائلا خيرا : نعم وصلنا الى الغرض المطلوب ويا حبذا لو اجتزنا الآن القنطرة الضيقة التى بين هذا المرسي والساحل . فلما اجتازها كلاهما قال نيمو لبعاكر : انى أشكر

لك إكرامك إياي وحفاوتك بى . وإذا كنت ترى أنى كفؤ لقضاء حاجة لك فمرنى بما تشاء . قال بعاكر : تعال هنا . ثم جذبه اليه ووقف معه فى ظل شجرة ، وكانت الشمس على وشك الغروب فسأله : ما معنى قولك هذه القنطرة الضيقة واجتيازها . . أنت تستخدم المجاز كثيراً فى كلامك ولهذا يغيب عنى معناه . فأطرق نيمو مليا ثم صعد نظره فى بعاكر وقال : أتود أن أصارحك على شرط ألا يؤلمك كلامى ؟ قال بعاكر تكلم ولا تخف . أجاب : التمساح فى رؤياك هو مينا فابدأ بحذفه من الوجود لتجتاز القنطرة وتظفر بمرادك . . فأن تتبع نصيحتى تصبح نيفرت فى قبضة يدك . فأشار بعاكر إشارة أراد بها تفهيم نيمو أنه سمع قوله وعقد النيه على تنفيذه . ولكي يوقن حسن طالعه وصدق فأله ، خصوصاً وقد أفضى بعزمه الى غيره وقف بحيث يصير الهلال الى يمينه تيمناً واستبشاراً . أما نيمو فنظر اليه حين بدرت من بعاكر هذه الحركة وقال له : تحرز يا هذا من أن تتلاشى نيفرت قبل أن تقضى منها أربا كما تلاشت فى المنام واجهد نفسك بانتشالها هي ووالدتها من وهدة العار ، لأن في دخولها دارك وقد تلوثتا به سبة لك باقية فى الاعقاب . وكان بعاكر مطرقا رأسه يفكر ، فختم القزم حديثه بقوله : أتأذن لى فى أن أزف الى سيدتى بشرى ما انتويته من نجدتها وانتشالها من وهدتها . . أأفعل ذلك . . ان تأمر بذلك فقد جاءت العاقبة طبق مرامك لأن من ينفق المال عن سعة ليرى من يحبها يهن عليه بذله جميعاً لصيانة شرفها وصيتها .

الفصل السادس عشر

ما وقع من الحوادث والاحوال لأحد الابطال

آذنت الشمس بالمغيب فلبست مدينه الاموات جلباب النوم والتمست الراحة من عناء اليوم ، وطلع القمر من ثنيات وادى المقابر الملكية ساطعا باشعته اللجينية ، وارتسمت ظلال الصخور والجبال على صفحات الرمال ، ومد السكون على الآفاق اوسع الارواق ، وسبحت طيور الليل فى الاجواء فشاكلت فى طيرانها اسلاك حرير سوداء يلاعبها الهواء ، ونشر البوم اجنحته وتنقل من جدار الى جدار لينذر المتشائمين بالويل والدمار ، وراغت بنات آوى بين القبور بسكون وسكوت تحرى ماسيق لها من الرزق والقوت ، غير ان ذلك السكون لم يكن مستمر الاتصال بل كانت تتخلله ضجة مغالبة الضباع و الرئال.

على ان سكان ذلك الوادى لم يتمتعوا جميعا بلذة الرقاد اذ شوهدت أشعة ضوء منبعثة من مغارة نيخت الساحرة ووميض نار أمام بيت بينم كانت تذكيها جدة وردة ، من وقت الى آخر ، باقراص الروث المجففة. وكان يعشو الى هذه النار رجلان اخذا يتأملان أشعتها المدنسة الضوء ، وقد بهتتها أشعة القمر الزاهية الطاهرة الضياء. وكان والد وردة عاكفا على سلخ كبش ذبحه ، فقال له بينم : أسمع الآفاق تدوى بعواء بنات آوى . ثم افرغ على كتفيه رداء ممزقا من القطن ليقيهما رطوبة الجو ،

فقال نبسشت : متى انتهيت من السلخ فألق اليها الامعاء . أما الفخذان والظهر فاجعل منهاشواء لذيذاً وانتزع القلب بلطف أيها الجندى . . أي نعم هكذا . فاوقع نظر نبسشت على القلب حتى تناوله وعني بفحصه . وكان بينم يرقب حركاته مضطرب الخاطر منزعج الفؤاد فسارّه بقوله : وعدتك ان تعمل ما تشتهى ولكنك الآن تطلب مني محالا . فرد الطبيب عليه قائلا : المحال ! المحال ! ما سبب هذا المحال ؟ لقد قضيت عمرك تشق جثث الموتى بدار التحنيط التى أجزتك بالدخول فيها والخروج منها على هواك . ولا بد أثناء قيامك بعملك ان تكون الآنية [1] معك ، فعندئذ لا يبقى الا ان تضع هذا القلب فى إناء منها ثم تبدل منه بقلب انسان ولا خوف عليك ان يراك أحدأويشي بحقك. واعلم أنه سواء عندى أقمت بهذه المهمة غداً أم بعد غدا فان لك اختيار انسب الوقت لقضاء حاجتى . وما على ابنك الا أن يشترى كل يوم كبشا أدفع اليه ثمنه من مالى فتأخذ قلبه بعد ذبحه وتبدل منه بقلب انسان وهكذا حتى أوفق للنجاح فى عملى . . وهل تستريب بعد ذلك فى أن حفيدتك العزيزة ستحرز بفضل هذا الغذاء الصحة والشفاء . . هيا . . هيا . . لاتخف . قال الشيخ : لست اجزع من الخطر بل من سلب الموتى عضوا عليه قوام حياتهم فى الآخرة . انى قدعشت فى الدنس

---

(١) يريد بها آنية الاموات التى تتخذ من الطين أو الحجر لتحنيط احشاء الموتى فيها وكانوا يعتقدون ان هذه الآنية الاربعة مشمولة برعاية شياطين الموتى المسماة امست وتابى ويومنغرد وبيسنود وكان لكل واحد منها غطاء يمثل مقبضه شكل الشيطانة التى يعزى اليها أى رأس انسان ورأس قرد ورأس ابن آوى ورأس كلب اه

والفاقة سنوات طويلة ، فبم أجاوب يوم الحساب ان سئلت ، ولا يذهب عليك انى ما زلت طامحا الى المقام فى (عالو) وفي زورق الشمس دركا لما فاتنى من ملاذ الدنيا ولست ادرى كيف تريد ان يحرم مثلى سعادة الآخرة قضاء للبانتك وتحقيقا لامنيتك .

قال الطبيب : أنت عاجز ، ولك العذر ، عن فهم المراد من طلبي وإدراك ما أرمي اليه بالحصول على ذلك القلب ولكن ثق بأنك إذا جئتنى به ستشاركنى فى فضل عمل جليل جزيل النفع للناس . وما كان إلحافى عليك أن تنجز طلبي لغرض ذاتي أو شهوة ثار فى النفس ثائرها بل لمقصد خيرى سيعم نفعه الناس جميعاً ، ولست والحمد لله ممن تطيب نفوسهم الى الفراغ المفسد للطباع حتى أصبح تواقاً الى قضاء المنافع الذاتية والتماس الشهوات النفسية . . أما ما اعترضت به من خوفك على سلامة روحك فى الحياة الأخرى فكل ما أسألك أن توقنه أنه لا خوف عليها وأنه لا داعي لحزنك واسترابتك . . وحسبك أن تعلم انى من طائفة الكهان ، وبالتالى من أدري الناس بما إذا كان عليك فيما أدعوك الى فعله تبعة فأقيلك من العثار بها ، وإلا فأحضك كل الحض على على القيام به ، لاسيما اذا قصد به الى الخير والاحسان والنفع العام . على أنه إذا سألك قضاة الموت فى الآخرة عن أخذك قلب الموتى من الأوانى المعدة لتحنيطها وراموا محاسبتك على هذا الفعل فلك أن تجاوب بأنى أنا الذى أمرك به والذى أخذ تبعته على نفسه . فاطرق الشيخ رأسه مفكراً حائراً ، فلما شهد الطبيب ذلك منه قال : لك تلقاء

مبادرتك بقضاء حاجتى أن أضع الاحجبة على جثتك بعد وفاتك ، وسأكتب برسمك منذ اليوم كتاب الخروج[١] وأضعه تحت اللفائف والأكفان التى سيدرج فيها جسمك فتتساوى فى هذا الامتياز بالأمراء والعظماء ولا تكون لهم عليك ميزة ، وبذا يتوافر فيك من القوة ما تصد به الشياطين إذا حاولوا بك عن الصراط السوي ، دع أنك ستستطيع بفضل تأثيره الدخول فى معهد الاحكام الزوجى الذى توزع فيه المثوبة والعقوبة على فاعلى الخير والشر فتستمتع بالحياة الأبدية بين الاخيار والابرار فى عليين . قال الشيخ متنهداً : ولكن ربما خففت سرقتى لقلوب الموتى فى موازينى وضاعفت ذنوبى . فأطرق نبسشت هنيهة ثم قال : إذا أخذ الخوف منك والحذر هذا المأخذ فانى مزودك منذ الآن كتابة أعترف لك فيها بأننى أنا الذى أمرك بالسرقة ولك أن تجعل هذه الكتابة فى قطعة قماش وتضعها على صدرك لتدفن معك متى انقضي أجلك ، وإذا سألتك تيشوتى المنوط بها أمر الدفاع والمرافعة عن الروح أمام أوزريس وقضاة الموت[٢] فقدم اليها هذا الكتاب ومتى قرأته بصوتها الجهوري فأن القضاة سيحكمون ببراءة ساحتك .

---

(١) توجد الفصول المستخرجة من كتاب الموتى مع المومياات أو تحت اللفائف وفى طيات الاكفان

(٢) يحتوى الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من كتاب الموتى رسم مجلس العدل الذى يحاكم فيه الفارون من الحياة وقد مثل فيه اوزريس جالسا تحت ظلة مستديرة والى جانبيه اثنان وأربعون قاضيا وأمام أوزريس قرد برأس كلب وهو حيوان توت المقدس الذى يقيم الوزن ويضع على احدى كفتيه قلب الميت وعلى الأخرى صورة الهة الحقيقة التى ترشد الروح الى دار الاحكام ويحرر توت صورة الحكم فتقدم الروح الدليل على انها لم ترتكب ٤٢ جرما توجب حرمانها المغفرة فاذا سلم القضاة بزعمها سميت مباشروا (أى الحقيقة المتكلمة) وجعلت فى عداد السعداء والابرار ويرد اليها قلبها فتنعم فى حياة جديدة وتصير شبيه بالآلهة

قال الشيخ : من أين لى علم مضمون الكتاب اذا كنت أجهل القراءة والكتابة ؟ أجاب نبسشت : أقسم لك بالآلهة التسعة أننى لكاتب فى الورقة ما ذكرته لك وهو أننى أمرتك بنزع قلب أحد الموتى وأنه إن يستتبع هذا العمل تبعة فانما تقع علىّ لا عليك . قال الشيخ : لا بأس الآن . . هات الكتابة . فبدأ الطبيب أولا بمسح العرق الذى كان يتقطر من جبهته ثم مد يده الى بينم وقال له : غدا تكون الكتابة بين يديك واعلم أنى سأباشر علاج حفيدتك حتى يتم شفاؤها.

وكان والدوردة ما زال عاكفا على سلخ الكبش الذى ذبحه فلم يفهم ما دار من الحديث بين والده ونبسشت ، فلما تم هذا العمل انفذ قضيبا فى فخذ الكبش ووضعه فوق النار فامتلأ الجو برائحة الدهن المحترق ونفذت هذه الرائحة فى خياشيم بنات آوى ، فأخذت تتوارد تباعا من كل فج مهتدية بحاسة الشم الى مكان الشواء . ونسي الشيخ ثقل المسؤولية على عاتقه مذ رمق بعينه الشواء ، لانه لم يكن ذاق اللحم منذ عام . وكان نبسشت يرسل اليه والى ابنه وقرينته نظرات الحنان والعطف وهم يفترسون باللحم كالوحوش ويتعرقونه بشراهة ولا سيما والد وردة الذى كانت تبدو عليه علامات الغبطة لازدراده ذلك الطعام الشهي . وقد كان سريعا فى اللقم والقضم والمضغ والابتلاع والتمطق بشكل تربد له وجه الطبيب وتقززت منه نفسه فتحولت رأفته على القوم اشمئزازا منهم ، وحدث نفسه بانهم حيوانات مفترسة ولكنها ذات ضمائر وقلوب . وأنهم يقدرون على الخلاص من عالم المحسوسات الا انه

أنس منهم الطموح الى السعادة الابدية فى العالم الباقى . . ولا يبعد ان يتحقق متمناهم دون غيرهم من الناس . وقد رأى الجندي الطبيب تضطرب شفته اذ كان يناجي نفسه ، فصاح به قائلا : ألك فى قطعة لحم من هذا ؟ ثم انتزع باسنانه نسيرة مما بيده منه وقدمها اليه فتراجع نبسشت الى الخلف وقد غثت نفسه حينما شهد بعينى رأسه أسنان الرجل مصبوغة من الدم بلون أحمر داكن ، وقارن بين وجهه الدميم ووجه وردة الساجية الطرف الوضأة الجبين ، فلم يتمالك أن سأل العسكرى : أأنت صدقا والد وردة ؟ فضرب الرجل صدره بيديه وقال : لا ريب فى أنى والدها صدقا كما لا ريب فى ان سيتى والد رعمسيس . وما أتى الرجلان على الكبش قضما وازدراداً حتى هما بمسح ايديهما بخبز رقيق ابتلعاه بعد . وكان سؤال نبسشت لا يزال يدوى فى أذن الجندى فتنفس الصعداء وقال متمما إجابته : أم الفتاة اجنبية وليست بمصرية ، وقد ولدت هذه الايكة البيضاء فى عش الغراب الاسود . سأل الطبيب : وما هو وطن امرأتك ؟ أجاب : لا علم لى بوطنها . سأل : كيف . . أولم تسألها عن أصلها ووطنها لما تزوجت بها ؟ أجاب : سألتها ولكن من أين كان لها أن تجاوب ؟ ان شأنها غريب وتاريخها طويل . قال : أرجو منك أن تقص هذا التاريخ علىّ لاقطع بسماعه الوقت وأسلى الخاطر فالليل طويل والفؤاد جريح ، ولكن تريث قبل البدء بالكلام حتى أتعهد المريضة واتفقد أحوالها . ثم دخل وجار المحنط وأكب على فراش القش والقصل الذى كانت وردة مطروحة عليه . فلما تأكد نومها وانتظام حركة

أنفاسها عاد الى الجندي وجلس الى جانبه وأخذ ينم يرقب القمر فاغراً فاه فأنشأ ابنه يقص حديث امرأته حيث قال : « ما أقصه عليك من الوقائع يرجع الى عهد سيتى الاول وأوائل حكم رعمسيس . وكنت ببلاد الشمال مع الجيش الذى سير اليها لتحصين مدينة رعمسيس الشهيرة باسم (زوان) . وكان تحت إمرتى ستة من الآمو العبرانيين الذين اضطهدهم رعمسيس وكبلهم بقيود الاستعباد. وكان فى العمال جملة من ابناء العظماء والمثرين لم يسألهم أحد حينما سيقوا الى العمل عن أصلهم ولا عن ثروتهم . ولم تكن أعمال التحصين وحفر ترعة الاتصال بين النيل والبحر الاحمر قد تمت ، فسخر رعمسيس أولئك الناس الذين هم سلالة أعدائنا بشرق مصر فى إتمامها . وما ذكرت تلك الايام إلا وعرتنى هزة السرور وأخذتنى نشوة الفرح لما أمضيته من أوقات الهناء والصفاء فى أراضي (غوشن) المعروفة بخصبها وجودة تربتها وحسن مناخها ووفور خيراتها من حبوب وبقول واسماك وطيور .

«وكان بين الستة الرجال الذين تحت قيادتى رجلان كان اهلوهما يبالغون فى الرفق بهما والعناية بأمرهما اذ كان لا ينقضي يوم إلا ويتحفانى فيه بحلقات الفضة حتى لا أقسو فى معاملتهم . على أن محبة المرء ولده وذوى قرابته أمر طبيعي ولا يختلف اثنان فى أن العبرانيين فاقوا فيه على غيرهم من أمم الارض فوقا عظيما . وكان المقرر علينا أن نورد كل يوم عدداً معينا من الآجر ، فاذا احتدم حر الهاجرة ساعدتهم على العمل فكنت أصنع منه فى ساعة واحدة قدر ما يصنعونه جميعا فى ثلاث

ساعات ، ما ذلك الا لوثوق عضلي ومتانة قوتى ، ولا سيما فى ذلك الوقت الذى كنت فيه أقرب عهداً بعنفوان الشباب وقوة الساعدين منى الآن .

وفيما كنت قائما بالعمل على ما يرام اذ صدرت الأوامر باستدعائى الى طيبة لأكون من مراقبي أسرى الحرب الذين تقرر تسخيرهم فى تشييد هيكل (آمون) . وكان لديّ من المال الشيء الوفير ففكرت في الزواج . وكنت قد أقصيت النساء المصريات عن نظرى ومحوتهن من صحيفة صدرى ، إذ لم يكن لى بد من التزوج من احدى بنات المحنطين . وكثيراً ما كنت أتمنى على الله المنى أن ينقذنى من هذه الطائفة اللعينة ، فاتجه خاطرى نحو بنات البلاد الواطية من أقوام (الآمو) و (الشازو) الشهيرات بالجمال الفاتن . وكانت السبايا اللائى أتى بهن الجيش معروضات للبيع ، فلم يرق أكثرهن لعينى ، وأما الباقيات فكانت أثمانهن غالية بالقياس الى جمالهن الباهر . وكانت نقودى تنطلق من كيسى انطلاق الماء من الابريق لكثرة ما كنت أنفقه فى الملاهي والملاذ ، ومشاهدة الراقصات فى حي الاجنبيات .

واتفق لى عندئذ حادث اتجهت بسببه معيشتى على نظامها المألوف عندى الى غاية غير التى كانت منصرفة اليها . ذلك ان جماً غفيراً من أسرى الحرب جيء بهم الى طيبة والحفلات فيها قائمة بعيد (آمون شم) فأقيمت سوق كبرى بالقرب من الأسكلة كان ضمن ما يباع فيها عدد عظيم من السبايا . وكانت البارعات منهن فى الجمال يبعن بثمن فاحش ،

فلم آنس من نفسي القدرة على اشتراء احداهن . وفى ذات يوم جىء بامرأة عمياء وأخرى خرساء رشيقة القوام ، وكانت العمياء بدينة الجسم ملساء البشرة فاشتراها صاحب حانة وهي لا تزال عنده حتى اليوم تطحن الحبوب على الرحى . أما الخرساء فكانت تحمل طفلا على ذراعيها ، وكان من يحاول استطلاع الخفي من أمرها يتعذر عليه تقدير عمرها أو تعيين منزلتها جمالا أو قبحاً ، إذ كان يبدو للناظر أن سحابة تحول بين عينيه وحقيقة وجهها . وكل ما كان يستطيع أن يبديه من الرأي فيها أنه لم يكن بينها والموت إلا ساعات معدودة ، وكذا ابنها فقد اعتراه من النحول ما كان يخيل للرائى معه أنه صار عداد الموتى . وكان شعرها يشبه الجمر لونا كما كان وجهها يشبه الثلج بياضاً ، إلا أنه كان خلواً من كل أثر للجمال وان تكن القلوب تحن اليه والانظار تحوم عليه . وكانت شرايينها الزرقاء فى ذراعيها المكشوفتين ترى من خلال بشرتها الشفافة وأديمها الصافى ، ولولا اضطرارها الى حمل طفلها لاساقطت يداها الى الجنبين كما لو سلبتا نعمة الحياة . وكان يخيل لى أن النسيم إذا هبّ لا بد أن يكتسح المرأة والطفل ويسفيهما كما تسفى الرياح الرمل . ولقد طالما صاح المنادى بملء فيه لترغيب الناس فى شرائها فلم يقدم أحد على اقتناء هذا الشبح الخامد الجامد الذى هو أقرب الى خيال الموتى منه إلى أشباح الاحياء . وما كان أثقل عبئها لو ماتت ، إذن لكلفت صاحبها ما لا قبل له عليه لكى يوارى جثتها .

« ثم مرت بالدلال فترة من الزمن لم يكفّ فيها عن الصياح

دون أن يلقي لندائه آذانا واعية ، وعيل صبره واشتمله اليأس فتناول سوطا وأهوى به على جسم المرأة المسكينة لتتحرك فتوقظ فى الحاضرين الرغبات النائمة وتنبه الميول الساكنة ، فتلوّت أعضاؤها لشدة ألم الضربة وضمت طفلها الى صدرها وسرحت النظر حواليها دون أن تنبس شفتاها بكلمة ، كأنها كانت تلتمس لنفسها ناصراً ومغيثاً من هذا البلاء . وقد وقع نظرها آنئذ عليّ فاضطرب ضميرى وحدث بقلبي ما لم أعهده فيه قبلا من التأثير الشديد ورأيت عينيها تلمعان على صورة استهوت فؤادى اليها وألقتنى فى حبائل حبها ، فقلت للدلال انى راغب فى اشتراء هذه الخرساء بكل ما معى من مال . وكان فى وسعى اشتراؤها بثمن بخس دراهم معدودة ، لولا أننى كنت أجهل الحساب . فلما سمع زملائى هذا الكلام سخروا بى وتهكموا عليّ وأكثروا من لومى وتعنيفى ، فلم أأبه بل دفعت النقود التى استولى عليها بائع السبايا بلهف بعد أن هز كتفيه ، وأخذت أنا المرأة والطفل وقصدت بهما الى شاطىء النيل حيث استأجرت زورقا أوصلنا الى الضفة الاخرى . وهناك اكتريت مركبة وضعت المرأة والطفل عليها كما أضع الحجر الصلد لاحراك به وذهبت بهما الى أهلى .

« وما وقع نظر والدتى عليها حتى هزت رأسها ، أما والدى فالتفت اليّ ممعناً النظر ليعلم إن كان بى مرض أو مس من الجنون ، لانى اخترت امرأة لاتصلح لشىء ، غير أنهما لم يسخرا بى ولم يوجها لوما إلىّ كما فعل أصحابى ، بل أخذا بتحضير فراش لها . أما أنا فقد اجتهدت الليالى

التالية فى بناء هذا المكان الذى تراه الآن أنقاضا مكدسة بعد ان كان عامراً بالسعادة والهناء . على أن والدتى لم تلبث ان شغفت بالطفل حبا، لما رأته عليه من ملامح الجمال والحسن . أما أنا فعدلت عن التردد على حي الاجانب حيث تقام الملاهي وتنفق الاموال ضياعاً فى سبيلها فاقتصدت مالا اشتريت به رأساً من المعز وقضيت به حاجات البيت . وكانت المرأة مع بكمها تسمع الكلام ولكنها لم تكن تفهم بلغتنا . وأرى أن اكثر الكهان رسوخا فى العلم كان يعجز عن تفسير ما ترسمه حركاتها من آيات شكر صنيعتى معها، وما كانت ترغب فى شيء أو تعرب عن أمر إلا وكنت أعرفه بمجرد التحديق فى عينيها، فهما كانا جنانها ولسانها . وفى أول ما عشنا معاً كانت تنفد منى جملة الصبر وتضيق الدنيا فى وجهى اذا رأيتها مستندة الى حائط ، وقد أضناها التعب وأنهكها الضعف ، أو قمت منزعجا من نومى على بكاء الطفل فكانت تكفى النظرة الواحدة منها لاراحة خاطرى ومحو آثار الكراهية من قلبى وايداع الرحمة والحنان فى فؤادي ، بحيث كان يخيل لى أن ذلك البكاء غناء يلذ للأذن وعي نغماته المطربة . وكان (بينو) وهو هذا الطفل يبكى اكثر مما اعتاد الاطفال امثاله فى العمر ، ومع هذا فكنت أراه جميلا وأرى غيره من الاطفال قبيحا رذيلا . وكانت أصابعه صغيرة ناصعة البياض ، فحدث يوما أن أكثر من الصياح فانكببت عليه لأرفعه عن الأرض فقبض على لحيتى ، فسرنى فعله سروراً يفوق الوصف . ومنذ هذا العهد كان سلوانه الوحيد

القبض على لحيتى والعبث بها ، وأدركت والدته بسكوتى عنه أننى مغتبط بفعله ومحظوظ بمزاحه . وكنت إذا اشتريت شيئاً من الحلوى أو أية حاجة يتفكه بها كبيضة أو زهرة أو فطيرة كانت تأخذ الولد بين ذراعيها وترفعه حتى تلمس يده لحيتى . وكنا قضينا فى هذه الحال أشهراً متتابعة كسبت المرأة فى خلالها من القوة والصحة ما استطاعت به بذل هذا المجهود . وكان عمرها وقتما اشتريتها لا يتجاوز العشرين عاماً ، ولم أكن عرفت اسمها فكنا نطلق عليها اسم « المرأة » . وبعد ثمانية أشهر هلالية من مخالطتى إياها توفي الطفل بينو فبكيته مع أمه بكاء مرّا وطرحت نفسى على جثته وأخذت أصيح : لقد قضى الأمر وحم القدر وصارت هذه الأصابع الرقيقة اللطيفه لا ترتفع الى لحيتى ولا تلامس خدى وجبهتى . وبعد انتهاء دفنه وقعت المرأة فى حبائل المرض فعنيت بأمرها والدتى حتى استقامت صحتها وتحسنت أحوالها . وكنت أعاملها معاملة الوالد الرؤوف ابنته البارة ، وكان شأنها يعظم كل يوم فى نظرى بتوافر أسباب الرقة والدلال فى ذاتها ، حتى أنها كثيراً ما هممت باظهار عطفها علىّ وميلها الىّ ولكنها كانت تجد من شيطان عينيها ما يقعدها عن بلوغ القصد ونيل الوطر . ولما وقع جمالها من قلبي هذا الموقع ازداد شغفى بها وحرصي عليها ، فحجبتها عن الانظار رجاء التزوج بها . وكانت يداها من الرقة واللين بحيث لا تمكنانها من مباشرة الاعمال المنزلية حتى حلب الماعز وغيره مما كانت تقوم به والدتى خير قيام ، إلا أنها لم تضيع وقتها عبثاً بل كانت كثيرة

الاهتمام بالتطريز وتشبيك أسلاك الخيط على شكل يحكي فى رقته نسيج العنكبوت . وكانت والدتى تشترى لها بأثمان ما تنسجه على هذا المثال كل ما تحتاج اليه أو تحب اقتناءه من عطر أو أزهار . وكانت إذا جنّ الظلام وغادر الزوار مدينة الموتى ترتاض فى الوادى وتمعن النظر فى بدر السماء . ففي ليلة من ليالى الشتاء كنت عائداً الى المنزل بعد هدأة من الليل فسمعت الآفاق تردد عواء بنات آوى على مقربة من مغارة الساحرة نيخت ، ففهمت على الفور من تواصل عواء هذه الحيوانات أنها قد دهمت إنسانا وافترست به . وكنت ساعة وصولى الى المنزل لم أجد المرأة ببابه كما عودتنى الانتظار عنده ، فانقبض قلبى وضاق صدرى إذ وهمت أن تلك الضوارى افترستها وأنها لخرسها لم تستطع التماس النجدة بالاستغاثة . وقد شعرت كأنما قد خولط فى عقلى فأخذت الوتد المربوطة به المعزة وجذوة نار وسارعت الى منبعث الصوت حيث وجدت بنات آوى متكالبة على المرأة فأجليتها عنها ، ثم عدت بها بين ذراعيّ مغشيا عليها . وقد ساعدتنى والدتى على إفاقتها ثم انصرفت فلما انفردنا بالغت فى ملاطفتها ومواساتها ومزجت دمعى بدمعها وحسبت نفسى سعيداً باستخلاصها من مخالب تلك الحيوانات الضارية . وتزوجت منها عقب الحادثة ففي ختام العام الثالث من تاريخ اشترائى إياها وضعت لى أنثى سميتها (وردة) وهى التى طلبت تسميتها بهذا الاسم بأشارتها الى زهر الورد فأدركنا مرادها .

« وقد توفيت المرأة عقب الوضع بيسير ، ولا ريب فى أنه اذا

دعانى داعى المنون ومثلت بين يدى أوزريس فجعلنى فى عداد السعداء والابرار فلا بد لى من السؤال عنها ، فان أجابنى حارس الابواب بأنه لا وجود لها فقد هانت علىّ مغادرة هذه الدنيا للحظوة بها واستجلاء محياها الزاهر النضير ، ولوكان مقامها فى السعير » . فسأله الطبيب نبسشت ألم يطلعك أحد على اسمها ؟ فوارى العسكرى وجهه بكفيه وأكثر من الانتحاب والعويل حتى صار لا يعى شيئاً مما يسمع . فقال الشيخ بينم : لا بد أن تلك المرأة كانت ابنة أحد من الاعيان أو ملك من ملوك هذا الزمان فقد وجدنا فى ثيابها مصوغا من ذهب مرصعاً بالاحجار الكريمة ومنقوشا بحروف عجيبة تدل على أنه من أندر التحف وأغلاها قيمة ، ولهذا حرصت عليه زوجتى حرصها على إنسان عينها لتسلمه الى ورده فى السن التى يبلغ المرء فيها رشده .

الفصل السابع عشر

انقلاب المناقشة الفلسفية الدينية الى مناجاة غرامية

فى فجر اليوم التالى برح نبسشت بيت المحنط بعد إذ أيقن أن المريضة تماثلت للشفاء وأن لا خطر عليها من جراحها ، ومضى فى طريقه الى هيكل حاتاسو تعصف به الهواجس . وكان يرجو أن يلتقى بصديقه بنطاؤر ليستمد من معلوماته الدينية مايستطيع أن يلفق به التعهد الذى وعد بينم أن يجريه له مقابلة ما سيتحفه به ، كلما لاحت له الفرصة ، من قلوب الموتى . وكانت الشمس فى ساعة وصوله الى ذلك المعبد المقدس قد سطع نورها بتمزق حجاب السحاب دونها فعلل نفسه بأمنية تشنيف الآذان بسماع ترنيم الكهان نشيد الصباح تكريماً لاله الشمس فتاح . ثم تدفع نحو الباب فألفى البواب قد أخذته سنة من النوم ، فأيقظه وسأله عن رئيس الهيكل . فأجاب متثائباً : توفي الليلة . فهلع قلب الطبيب لسماع هذا النعي وسأل غير مصدق : ماتقول ! . من ذا الذى مات ؟ . أجاب : رئيسنا الشيخ رونى ، ذلك الرجل الشهم . فاطمأنت نفس نبسشت وأنبهه الى أنه إنما يسأل عن بنطاؤر . سأل : كيف . . أتكون من بيت سيتى ولا تعلم أنه عزل عن وظيفته . . أما علمت أن الآباء المحترمين كهان هذا المعبد أبوا مشاركته فى أحياء مولد (رع) بنشيده المعلوم ؟ . . لعله يترنم الآن وحده بهذا النشيد فى أعلا المنار

فاهرع اليه أو عليك بالانتظار .

صعد الطبيب فى السلم مسرعا ، فلما شهده بعض الكهنة أخذوا يترنمون بالاناشيد الدينية فلم يلو لهم عنقه ، بل أمعن صاعدا حتى التقى بصديقه على سطح الهيكل متفرغا للتحرير والتحبير ووقف منه على ما اتفق له من الحوادث فصاح قائلا : إنك باستسلامك الى كهان هيكل سيتى قد وضعت الثقة فى غير موضعها وعرضت كرامتك للامتهان وشرف نفسك وعلو همتك للتهمة والتظنى بين رجال معبد حاتاسو الذين عجنت ضمائرهم بماء الخسة والدناءة . وقد كنت أتوقع هذه الحوادث ويحدثنى بها وسواسى حينما أطلعوك على الاسرار الدينية . ومن كان فى مثل عقليتنا وثقافتنا لا مخرج له من المأزق الا بأحد أمرين إما الكذب وإما السكوت . قال بنطاؤر : لم توفق للحق فى قولك فأنا نعلم أن الالوهية واحدة لاتتعدد سواء أسميناها بالكل [١] أم بغلاف الكون [٢] أم ، بـ (رع) . إلا أننا معشر الكهان نعرف أن مدلول الرمز رع غير مايعتقده العامة ، إذ نقول ان الكون هو مظهر الالوهية

---

(١) تطلق الكتب المصرية المقدسة على الالوهية اسم الواحد أو الاحد . وقد ورد تفسير مذهب مقارنة الالوهية بالكون فى النقوش المنهودة على جدران مداخل قبور الملوك بطيبة وهو يحتوى مدح (رع) والاستعانة بمظاهره الاصلية البالغ عددها ٧٥ مظهرا . وقد شرح ذلك المذهب والتعاليم الدينية السرية المتعلقة به عند قدماء المصريين العلامة (ارنست لافيل) فى كتابه (الاغانى والدعوات الشمسية) وتضمن نصوص كتاب الموتى فى الفصل المعنون نشيد الشمس المحفوظ بمتحف الجيزة وترجمه غريبو واسترن ونقوش توابيت وجدران هيكل بطليموس وكتاب ابزيس وأوزريس لباوتارك وكتاب اسرار المصريين باليف جامبليك وخطبة هرمس تريماجست فى الروح البشرية التفاصيل الاساسية التى غذى بها موضوع الفصل السابع عشر من هذه الرواية

(٢) غلاف الكون معناه باللسان المصرى القديم (تب تم) وهذه التسمية هى منشأ الاعتقاد بان شكل العالم كدائرة فى وسطها نقطة

الصحيحة وأن الوف الالوف من الحادثات التى وقعت وتقع فى كل زمان ومكان ليست الا مظهرا محسوسا وحجة بالغة على أن مقدوراتها لا تحصى وعظمتها ومعلوماتها لا تتناهى ، وانه لا أول لوجودها ولا اخر لأبديتها ، وأنها منزهة عن أن يحدها زمان ومقدسة عن أن يحيط بها مكان . . فقاطعه نبسشت : أرغب اليك الاسترسال في موضوع الكلية ولا عليك منى . قال بنطاؤر : لست أخشى أحداً حتى أكتم الاسرار فى أعمق قرار ، وما أنا بضانّ بها إلا على من أعتقد فيهم العجز عن درك الحقائق واستقراء كنهها ، وهل أكذب إن قلت إنى اتكلم بدلا من قولى إن لسانى يتكلم أو إن قررت أن بصرك يرى فى حين ان بصيرتك هي التى ترى بوسيلة هي أداة العين ؟ إنا إذا تلألأت على صفحات الوجود أشعة الأنوار الالهية فبهرت الابصار وحيرت فى كبرياء ذاتها العقول والافكار لاتلبث ألسنتنا أن تلهج بالثناء عليها لما أولتنا من النعم وأفاضته علينا من غيوث الكرم . . انرع أسطع مظهر من مظاهرها المحسوسة ، فأذا راق لى الاعتبار بمشهد المزروعات النضيرة والثمار اليانعة والازهار الدانية القطوف فانى لا ألبث أن أدعو من حولى من المؤمنين الى القيام بمفروض الحمد لرينوث الهة المحصولات أعنى الصفة الالهية الموكول اليها إنماء النبات وتكوين سنابله وابلاغه الى النضج الذى يجعله صالحا لغذاء الانسان ، دام حمدها وجل ثناؤها وتعالى ذكرها ، وإذا تأملت فى القوة المخصبة فى هذا النهر الذى عز على الباحثين الاهتداء الى ينبوعه علت همتى الى أداء واجب الشكر

لمن أمطر علينا سحائب فضله ألا وهو الاله الواحد الذى غرس الاشجار وشق الانهار وجنى الثمار ، هـو الاله (هابى الخفى) كثرت الاؤه وجلت نعماؤه . . ولتطمح أحداقنا الى اللامع العلوي بل الى ما يسبح فيه من كرة الزمهرير ولننعم النظر فى هذه النباتات ، وقد زهت فى ثوبها السندسي ولنبعث الطرف كرة الى النيل المفخم فانا لانشب أن ترى فى كل ما أبدع وصنع وفطر وقدر ، وفى كل ثنية من ثنيات هذه الموجودات وطية من طيات هذه الكائنات دليلا على أنه الاله الظاهر بآياته الباطن بذاته . . هو الذى أنشأنا من العدم إبداعا وجعل كل مافى العالم تحت قدرته وتسخيره واستخلفنا على الارض دون مخلوقاته واثرنا بالهامه لندرك حقيقته ونعلم السر وماخفي من كنه نفوسنا . قال نبسشت : انا معشر الكهان غير مباح لنا أن نكاشف الشعب من أسرار معلوماتنا القدسية بأكثر مما يعطى الطبيب مريضه من كسر الخبز المرطبة بحساء اللحم ، لكي إذا أكلها لاتعوق هضمه . قال بنطاؤر : إنما الواجب علينا أن نخفف الاشربة القوية بشيء من الماء إذ لا يجوز مثلا أن تعطى الطفل مالا تقوى عليه سوى معدة الجندي . وبعد فقوة الادراك فى الشعب لاتتجاوزها فى الطفل الرضيع . ولقد كان الحكماء والفلاسفة فيما انقرض من الدهر يكسون الحقائق الجليلة بثوب الرموز والكنايات ثم يصنفون من أوضاعهم قصصاً وأساطير تدنيها من أذهان العامة دون أن تنال من كرامتها ، ولكن مهما يسترها من ذلك الكساء ويخفيها من هذه الاساطير لا بد لشعاعها الباهر من السطوع ولسرها الخفى من

الشيوع . سأل نبسشت . . السطوع . . الشيوع . . وماذا كان إذن الغرض من الكساء ؟ أجاب بنطاؤر : أظننت أن أفناء الناس يستطيعون النظر الى الحقيقة مجردة من لباسها[١] دون أن يردوا موارد اليأس ويلم بهم البأس . سأل : وهل لمثلى أن يراها ، بل هل منا من هو متصف بالصدق المحض ليعترف بأن الحقيقة لم تتحدر قط به الى غيابة الهموم والاحزان ؟ ألسنا نعلم أيها الصديق أن أحوال البشر لا تراها العين فى صورتها الصحيحة وقالبها الحقيقى ، بل يرى هذه الصورة منعكسة فى مرآة الاهواء النفسية .. انى مثلا أرى أسود ما أظنه أسود وأبيض ما إخاله ابيض ولكنى أسمو دائما الى استقصاء الحقيقة الكفيلة بادراك الاشياء على وجهها الصحيح وفى قالبها الذى صبت فيه وأروض نفسى على اعتياد الا يكون لآرائى الشخصية دخل فى تحديد أشكال القوالب ولا فى تقرير الحقائق . و أنت مثلى تجرى وراء تمحيص حقائق الاشياء بالنشاط وصدق العزيمة ، غير أن الافكار سرعان ما تتحول حقائقها فى نفسك . ذلك لأن فى قلبك عمالا لا تدركهم الابصار همتهم منصرفة الى تقويم المعوج وإصلاح الفاسد وتحسين القبيح والتبديل من كل شيء يضده . وما هو إلا لأنك شاعر يمضى به الخيال فى تيار الوهم ، وما هو إلا لأننى ممن يجدون فى البحث عن الحقيقة يلتقطونها حيث يجدونها ، تدركها أبصارهم وتلمسها أصابعهم . قال بنطاؤر : طموحك

---

(١) يوجد على تمثال نيث ببلدة (صا) نقوش هذه ترجمتها «أنا القديم فى الازل والموجود فى الحال الى ابد الاباد لا يستطيع احد من المخلوقات ان يدرك كنه حقيقتى أو يرفع جانبا من ستارها » وقد ورد ذلك ايضا فى كتاب ابريس وأوزوريس لبلوتاوك

الى الحقيقة لما يضاعف لك احترامي ويرفعك الى أسنى المراتب وأشرفها ؛ غير أنك عليم بانني ما طاردت فى حياتى ولن أطارد الا الحقيقة الشاردة ، فهى مطمحى وضالتى فى كل زمان ومكان . قال نبسشت : أجل إنى لذلك موقن ولكن ما أشبهنا الآن ونحن نجرى في طريقين متوازيين بفرسي الرهان فى الميدان ، نبقى مادام الجري متوازيين لا نتلاقى أبداً وجها لوجه مع وحدة الغاية التى نسعى لدركها ، وهى حل مختلف الاحاجي والمعميات العلمية والادبية . ولقد يجول بخاطرك أنك تستطيع التمييز بين صحيح الاشكال وفاسدها مع مافى قدرتنا من تعرف الصحيح منها . قال بنطاؤر : خليق بنا الاقتصار على الشكل الاجمل الذى يوافق مشتهانا . صاح نبسشت : الاجمل .. اذا كان السر العجيب الذى تسميه الالوهية جميلا وينبغى أن تكون القوة المتولدة من تواتر تلاشيها وزوالها جميلة أيضاً فعلى الدنيا العفاء . . تقول إن الربوبية هي الكون وأن الكون مظهر الربوبية وأنها دائمة أبداً لا تعطى ذرة من الرمل ولا شعاعا من الضوء ولا نسيما من الهواء إلا وتسترده وتؤلف منه وجودها وتقول إنها خفية عن الابصار وبينها وبين المدارك العامة ستار وأنها تعلم كنه ذاتها علمها بجميع المعلومات لا يعزب عنها مقدار ذرة فى الارض والسموات . . اذا سلمت لك بهذا القول جدلا فلا إخالك تقصد بكلامك سوى القوة القاهرة التى لا مصدر لها الا العماية والجزاف . قال نبسشت : انما تقوله لمن شر الكفر والالحاد اللذين تقشعر منهما الابدان . . أوما دريت اننا بالعقل بلغنا الى تعليل

الكلية وعرفنا أنها فاعلة الارواح والاشباح ومحركة الافلاك المدبرات ومقررة الارض وممهدتها للحيوان والمعدن والنبات ؟ سأل نبسشت : لكن ما قولك فى تطور الاشياء والكائنات وما يعتريها من السقوط والنهوض والخفاء والظهور . أفى هذه التقلبات ذرة من الحكمة والعقل وهل ترمى الى غرض كائن وغاية معينة ؟ انك باسناد العقل الى الكلية العظمى تخدع نفسك بالاباطيل التى أخشى أن تذهب بك الى ادعاء المشابهة بينك وبين الالوهية لمجرد توافر المشابهة بين هذه والآلهة الرحيمة التى تمثلونها فى الهيا كل تمثيلا . أجاب بنطاؤر : المشابهة التى تحدثنى بها خيالية لا حقيقية وظنية لا قطعية ، إذ لبيان الحقائق وتفهيم الاسرار يجب ابرازها فى مظاهرها المحسوسة ليسهل ادراكها والاقتناع بها . ونحن لا نسمى الالوهية بالكلمة إلا إذا تجلت لعقيدتنا فى مظهر العلة المبدعة للكون الواهبة للعقول وأنها كما ورد فى النصوص المقدسة القوة التى احكمت صنع كل شىء وسبكته فى شكله الذى عليه قوامه ولا يصلح إلا به ، فالجعل (١) الذى نذهب الى أنه ولدها يذكرنا بالقوة الفكرية للكلمة الموجدة من العدم كل شىء والمتجددة من ذاتها بذاتها على الدوام . ولقد جاء اختيار هذا الرمز حكيما لصلوحه من كل الوجوه فأنت أدرى بان ليس للجعران انثى وأنه يتولد من ذاته بذاته . قال نبسشت متبسما : إن تكن القواعد التى تقيمون عليها اسراركم الدينية من طراز اختيار الجعل ابنا للالوهية لأنه لا يتناسل من انثى فما

(١) الجعران

أوهاها من قواعد وما أقربها الى التداعي والانهيار . انقضت سنوات عديدة ولا رفيق لى فى ابحاثى ودراستى سوى الجعل الذى وقفت على أسرار حياته ونظامه العضوي . وأقل ما عرفته من هذا النظام أن منه الذكر والانثي كما هو من القرود والسنانير وبنى الانسان . ولو أنى أمعنت النظر في قواعدك الدينية لما وجدت بداً من التمييز بين أمرين العنصر الطيب والعنصر الخبيث . فأذا تقرر هذا عندك فقد وجب أن تجاوبنى على الأسئلة الآتية : هل الكلية هى الالوهيه ؟ هل الكلية طيبة وليست بخبيثة كما جاء فى تعاليم أجدادنا وتقريراتهم ؟ هل هناك فيما عدا الالوهية ما يمكن وصفه بالكلية ؟ وأين مكان الشر فى هذه الاحوال ؟

فتربد وجه بنطاؤر غضباً وتذمراً إذ ثقلت هذه الاسئلة على سمعه وقال :صاحِ ان كلامك ككلام صبية المكاتب ولكنى أرد عليه بأن كل موجود حسن ومعقول فى ذاته إلا أن الاله الواحد الاحد القادر القهار ملهم الشرائع ومناهج الحق وواضع آساسها على قرار مكين هو الذى يعطى الزائل صفة الدوام بما يسوقه اليه من أسباب التجدد المستمر ، فتراه يتشكل بمختلف الاشكال . فما نسميه الا ن الشر أو المصيبة يرجع الى سبب رباني حسن فى ذاته ومعقول فى وسعنا إدراك غايته الحقيقية إذا ألهمنا الرشد والصواب على غير انتظار ، إلا أننا تعودنا النظر الى الاشياء من وجهها القبيح ، لأنه لما كانت الروح الانسانية يعيبها النقص كان من ديدنها الانصراف الى الوسائل لا إلى الغايات

والنظر فى الجزئيات لا فى الكليات ، فأصبحت أشبه ما يكون بالجهلاء الذين ينتقدون الموسيقار لأنه لا يجيد أداء لحن من الألحان مع أنه لم فاجىء الاسماع بما يخالف القواعد الواجبة الاتباع إلا لتهيئة السامعين للتميز بين الغث والسمين . وانك لترى الطفل يسب الاشجار السامقة ويعيب أفنانها الباسقة لا لشيء إلا لعجزه عن اجتناء ثمارها اليانعة . وهو يجهل ما أودعته الطبيعة هذه الثمار من بذور لو غرست فى الارض لأتت بنبت نضير لا يلبث أن يصبح من أكبر الاشجار . على أن الشر الظاهرى ليس هو الذريعة الى السعادة الحقيقية كالموت ليس هو إلا عنوان حياة جديدة ورقدة يستريح المرء فيها بعد السهاد . وهذا ضياء الشمس فى آفاق الغرب ألا تلاحقه جنود الظلماء ليصبح فى الغد متألق السناء ؟

قال نبسشت ساخراً : أعتقد كل ما تقول لأن كلامك ، مع مافيه مما تعافه النفس وتحتج عليه العواطف ، لا يكتسب بمروره بين شفتيك الذهبيتين إلا رقة وانسجاما فيتلقفه السمع وتسيغه المدارك ، غير أن فى قدرتى إدحاضه بالأدلة القاطعة والبراهين المقنعة فأثبت مثلا أن الشر هو الحاكم المطلق على الكون والمتصرف فيه بأرادته الجائرة وشهواته المتحكمة . حقا قد تغفل عنا عينه أحيانا فيدعنا نستمتع بشيء من السعادة والهناء ، ولكن ما هذه السعادة إلا تعساً وشقاء بل صدقة كاذبة جرت على يد بخيل برحت به آلام الحياة . وما أراه الان صواباً هو أن الحياة ثمرة الشهوات النفسية ، وأنها ما زالت فى معترك

دائم يذهب المغلوب فيه فريسة الغالب .

قال بنطاؤر : أنت لا تحس، إذن جمال العوالم الخفية ، بل لا يتطرق الخشوع والاعجاب الى نفسك إذا تأملت فى النواميس المدبرة لحركة الكائنات لا يعتورها تغيير ولا تبديل ؟ قال الطبيب : الجمال الذى تشير اليه لم آنس من نفسى ارتياحاً لرؤيته ، ولعل سبب ذلك نقص فى بعض مشاعرى كان حقا عليها أن تلقى هذا الميل فى روعى . على أن هذا لم يحل قط دون تمتيعى الطرف بالنظر فى الجمال الخفي كلما جاذبتنى أطراف الحديث فيه لأن براعتك فى تصويره على ذلك الوجه الرائع يكفينى مؤونة التنقير عنه والجرى وراءه ، ومع هذا فانى ممن يقدرون نواميس الطبيعة وهي قوام الكون وروحه المتشععة فى أرجائه حق قدرها ، فأنت تطلق لفظة (تم) أي الاحدية على ما يفيد معنى المجموع أو الوحدة التى تتألف من تضام آلاف الآحاد بعضها الى بعض . وهو تخريج جميل يؤخذ منه أن ناموس الاعداد هو المهيمن على الكون إذ به يتيسر حساب المقاومات وتحديد مجموعة القوى المطردة والمنعكسة فى الطبيعة ، ولكن ليس فى هذا الحساب مايشير الى جمال أو يدل على رحمة . .

قاطعه بنطاؤر : هذا القياس إنما هو نتيجة ابحاثك الغريبة . فانك تواصل الليل بالنهار فى القتل والذبح لاستبطان أسرار الحياة وكان خليقاً بك أن ترمى الى غايتك من طريق البحث فى الكائنات الحية المنتشرة على وجه الارض . افتح عينيك وتحرّ بهما أسرار الحياة نفسها لا فى

الموت يكن لك عن مثلى غنى للشعور بجمال العالم . واعلم ان الالوهية التى اليها ترفع صلواتك وتوجه دعواتك لاحول لها ولا قوة . قال نبسشت : أنا لا أصلى ولا أدعو لأن النواميس المدبرة لهذا الكون والمسيطرة على حركته لا تشعر بصلواتى ودعواتى . ثم من ذا الذى أخبرك بأنى لست ببالغ مرادى من استكشاف أصول المخلوقات واستبطان أسرار الكائنات ؟ ألم أكن الآن أكثر وقوفاً منك على سر حياة الجعل ؟ لقد قضيت على حياة حيوانات لا حصر لعددها واستقصيت بالبحث حقائق أنظمتها العضوية وأطوار نموها منذ ساعة ميلادها الى حين موتها . . وجائز أن يكون هذا العمل قد طمس فى قلبى معالم التفكر فى الجمال ، ولكن ثق بأن البحث فى أسباب الولادة والوجود كالبحث فى أسباب الموت والعدم كثيراً ما يفضى الى حبوط الآمال وتثبيط الهمم .

حدق بنطاؤر فى الطبيب بعين المستفهم ، فاستأنف هذا حديثه قائلا : أرى من الافضل لتفهيمك مرادى الاستعانة بالامثال والتشابيه أنظر الى هذا النبيذ ألم يكن عطريّ الرائحة شفاف المادة ، ومع هذا فلم يستخرج إلا بعصره من قطوف العنب دهساً بالاقدام الملوثة بالتراب ؟ ثم انظر الى هذه السنابل التى تنوء بحمل ما تحتويه من الحبوب كيف تلمع كالعسجد مع أنها لو وضعت بين شقي الرحى لاستحالت الى دقيق أبيض كالثلج ذى رائحة زكية تحراها الخياشيم ، ومع هذا فقد أخرجته حبة وضعت فى الارض فتعفنت فيها بما سيق اليها من الماء ومواد النماء ،

ولطالما سمعتك تعجب بالردهة الكبرى فى هيكل آمون[1] الذى سيبقى مدى الدهر المثل الاعلى لمتانة التنجيد وحسن التنضيد ، هذه الردهة شهدت البنائين يرفعون منها القوائم ويلقون الآساس بعينى رأسى . وكانت الأحجار مبعثرة حولها شذر مذر ، يتطاير العثير بينها الى عنان السماء فيسد مسالك التنفس ويعمى الابصار ، وكان أغلب العمال يموتون بحر الشمس وتفتك بهم الحميات الحاصدة للأرواح ، فلو أنى كنت شاعراً مثلك لصورت هذه المناظر القبيحة فى صورة ينبو عنها النظر وتشمئز منها النفس ولما قلت عنها قط أنها جميلة دون أن أقف على أسباب حدوثها . ومع هذا فيكفينا البحث الآن فى الحياة والقوة الخفية المسببة للوجود أو العدم .

قال بنطاؤز : ما كنت حتى الآن أدرى أنك ترمى من ابحاثك الى غاية معينة . وليتك كنت تفرغت لدراسة علمي النجوم والمواقيت لأسألك إن كان لما يطرأ على الحيوان والنبات من التطورات ارتباط بقانون ثابت أو كمية معينة أو اتساع محدود لحركات الكواكب .

قال نبسشت : ما أبدع هذا السؤال وأجمله . . ألا تكون اليد القوية القديرة التى نثرت هذه الكواكب فى الفضاء وجعلتها تجرى فى أفلاكها قادرة أيضاً على تقدير طيران العصفور واحصاء خفقان قلب الانسان . . قال بنطاؤز متبسما : ها قد طرقنا باب المعضلة معضلة

---

(١) بدىء بناء هذا الهيكل فى عهد وعمسيس الاول وتم فى عهد سيتى الاول ورعمسيس الثانى ولا يوجد على سطح الارض بناء يضاهيه فى الفخامة والدقة والمتانة لا سيما القاعة الكبرى منه التى كانت محمولة على ١٣٤ عمودا ضخما منقوشة بابطع وادق نقش

القلب ، وهل بذلت من المساعى ما يبلغك الى الغاية المطلوبة ؟ قال نبسشت : من المرجوّ أن أحصل غداً على ما أطمح الى معرفته . وانى أرى فى دواتك مدادين أحمر وأسود ، أفتسمح لى بقرطاس لأدون فيه ما خطر بالبال من الخواطر والافكار ؟ أجاب بنطاؤر : خذ ولكن خبرنى قبل أن تكتب . قال نبسشت : لا تسألنى شيئاً ما دمت لا تستحسن مشروعى ، وربما جرّ الكلام الى الجدال والخصام . فأهوى بنطاؤر بيده على كتف صديقه وقال : انى موقن أن الخلاف بيننا لن يخشى منه على ما يربطنا من المودة الوثيقة العرى ؟ وهل لم يكن ماثار بيننا حتى الآن من ثائرات الخلاف والتعارض فى الآراء ممتناً لعقدة هذه المودة بيننا ؟ قال نبسشت : كان ومازال كذلك مادام أنه لم يتعدّ الآراء الى الافعال . قال بنطاؤر : وهل ما زلت باقياً على اصرارك من البحث فى قلب الانسان ؟ تفكر قليلا يا أخى وصديقى من الناس كلهم وتأمل فيما أنت عليه الآن مقبل . . ان القلب يحتوى مبدأ الحياة وعنصرها الأول وهو العضو الربانى الذى يزيح لنا الستار عن العوالم الخفية التى تسبح فى أجوائها الارواح . سأل نبسشت مغضباً : أو أنت واثق مما تقول ؟ ان تكن واثقا فهات برهانك إذ من من الاطباء اجترأ حتى اليوم على تشريح القلب ؟ أما دريت أن الكهان اخواننا يحسبون القلب من أقدس أعضاء الجسم وأحقها بالصيانة والاحترام ولو كان قلب أشقى الأنام . وإذا كنا بحضرة مريض وأخذنا الشك فى حقيقة دائه وتولتنا الحيرة فى تقرير دوائه ، ثم أسقيناه من بعض

المركبات الدوائية جرعة لم يحصل له بها المرجو من الفائدة والمنفعة ، أفلا يكون ضررها أكثر من نفعها وهلا يجب أن تقع مسؤولية هذا الخطأ وهـذا الاعتلال على من يسوقنا فى طريق الغواية والضلال ، ألم نكن الآن أشبه بعلماء النجوم الذين يطلب اليهم رصد الافلاك من نافذة مغلقة . لقد رجوت وأنا بمدرسة عين شمس من الكاهن الاعظم (اور مارع حوتب) وهو من أساطين العلم وجبابرة الفكر وأركان المبـادىء القويمة أن يأذن لى بتشريح قلب أحد الآمو فرفض طلبى بعلة أن الالهة (سخت) تقود الى دار السعادة الأبدية والرضوان كل من اشتهر فى حياته من الساميين[1] بالفضائل ومكارم الاخلاق . ولقد أقمت على مضض الرفض طويلا حتى عيل صبرى وعلمت أن وساوس القوم تحول بينى وتحقيق أمنيتى ، وذلك لاعتقادهم أن استئصال قلب الحيوان يزج بالعابث به فى مهواة الخطيئة . وهم يذهبون فى ذلك الى احتمال أن يكون هذا القلب سكناً لروح بشرية لاذت به لا يبعد أن تكون روح شخص من المحكوم عليهم فألزمت قبل التمتع باستجلاء وجه الاحدية أن تقضى العقوبة المفروضة عليها وتطهر نفسها من أدناس الخطايا وأرجاسها بالعيش زمنا فى جسم حيوان دنىء ، غير أن هذا الاعتقاد لم يقع عندى موقع القبول فقلت للكاهن الاعظم انه لا بد أن يكون جدى الطبيب نبسشت قد فحص هذا العضو قبل

---

(١) تؤيد ذلك الكتابات التى نقشت فى عهد سيتى الاول والرسوم التى تمثل الشعوب الاربعة وهى شعوب المصريين والساميين والليبيين والاوتبوبيين

تأليفه رسالته المشهورة فى القلب[١] فأجاب بأن ما دوّنه جدى فيها لم يكن ثمرة فحصه وبحثه بل نتيجة الوحي والالهام، ولهذا أصبح كتابه ضمن كتب توت المقدسة[٢]. ثم أخذ الكاهن الاعظم يلطف بى ويكسر من حميتى ويلوينى عن متابعة البحث والتقصى قائلا إن الاخلق بى مزاولة مالا يجلب من الاعمال قلق الخاطر وتعب الضمير، وأن أنتظر ريثما تتجلى لى الحقائق من طريق الالهام الربانيّ.. وكنت آنئذ فى عنفوان الشباب ولى شغف بالبحث فى العقائد الدينية وميل الى أداء الصلوات فى أوقاتها فلم أشأ مخالفته، الا أنى كنت من جهة أخرى أحس نار الميل الى البحث والتحقيق تتوقد فى قلبي فاجتهدت فى إخمادها وانقضى بعد ذلك أمد لاحظت بعقبه أن سحابة مظلمة قد غشيت عقلى فحالت بيني والحقيقة الساطعة، فعقدت النية عندئذ على البحث فى قلوب الحيوانات بأنواعها فبدأت بالطيور ثم ثنيت بالجراذين والارانب فكنت بعد ذبحها أشق قلوبها وأمعن النظر فى قنوات الدم المتصلة به فلم يزدنى هذا علما، لأنه كان يجب لتقرير الصواب وتحقيق الحق فحص قلب الانسان لا قلب الحيوان. قال بنطاؤر: عياذاً بالله.. ماذا تقول؟ أتريد مغالبة الالوهية باستطلاع الاسرار الخفية؟ سأل نبسشت: أقرأت رسالة جدى فى القلب؟ أجاب الشاعر: تصفحتها لأنى كنت كلما قلبت فيها النظر لا يقع على شيء سوى لفظة «القلب»، وأن

---

(١) هذه الرسالة هى أهم قراطيس ابيرس واعظمها فائدة. وقد نشرها المسيو انجلمن بمدينة لبسك

(٢) كان يسميها قدماء اليونان كتب هرمس

القنوات الدموية المتشعبة فى الرأس واليدين والمعدة متصلة بالقلب لانه المركز الذى يندفع الدم منه اليها . وقد فهمت منها أيضاً أن الحالات المختلفة التى تطرأ على النفس من غضب وألم واحتقار الخ، تؤيد آراءه في القلب . قال الطبيب . نعم هـذا هو موضوع الرسالة وقد دارت بيننا المحادثة فيه وأرى أن جدى أصاب فى كلامه على الدم وعلاقته بالمشاعر وما أخطأ . أما الأدراك فمركزه غـير مركز القلب . ثم رفع يده الى جبهته وقال : هنـا . . ولقد بحثت فى مئات الرؤوس ونزعت أغشية جماجم الحيوانات وهي حيّة [١] ولكن دعنى أكتب قبل أن يجيء أحد فيزعجنا . ثم تناول اليراع فغمسه في دواة المداد الأسود المتخذ من فحم البردى وكتب بالحروف الهيراطيقية الجميلة [٢] التذكرة التى وعد المحنـط أن يزوده إياها . وقد ضمنها أنه هو الذى كلف هـذا الشيخ أن يوافيه بقلب إنسان وأنه يتحمل عنه تبعة هذا الجرم ان ثبتت إدانته أمام أوزريس وقضاة الاموات .

وما أتم كلامه حتى مد بنطاؤر يده لتناول الكتاب ، فعجل نبسشت باخفائه فى مخلاة صغيرة كان يحفظ فيها الاحجبة التى علقتهـا

---

(١) جاء في قرطاس ايبرس الطبى ما يشير الى فائدة معالجة العيون بخداع الانسـان وكان نيروفلس احد كبار العلماء فى مدرسة الاسكندريه (رواق الحكمة) يستعمل فى تدريس فن التشريح اجسام المجرمين الذين صدر فيهم حكم الاعدام وهم على قيد الحياة وكان يذهب الى أن مركز الروح فى التجاويف الاربعة للرأس

(٢) كان للمصريين في عهد حوادث هذه الرواية كتابتان الهيروغليفية وكان غالب استعمالها فى النقوش المنقورة أو المرسومة على الآثار وكانت حروفها عبارة عن اشارات ورموز اتفاقية ثم الهيراطيقية وهى خاصة بالتسطير على الووق وفي القرن السابع بعد الميلاد كانت هـذه الكتابة شائعة الاستعمال فى التجاره وسميت بالديموطيقية . ولا تزال الكتابتان مبدأ للكتابات القديمة المقدسة او الرسمية «انظر فى هذا الموضوع مصنفات دوروجيه وبروكش وماسبرو اوايبرس»

والدته فى رقبته وهي تعالج سكرات الموت . وقال متنهداً هكذا أفعل معك يا بنطاؤر وإني لاستودعك الله . فاعترضه الشاعر ومنعه من مزايلة المكان ملحاً عليه فى العدول عن نيته ومبينا له سوء مغبتها ، فلم يعبأ الطبيب بقوله . وكان بنطاؤر ممسكا بيده يشدد عليها الضغط لئلا يتمكن من الأفلات ، فقال بصوت المستجير : ماذا . . لقد عصرت أصابعى عصراً آلمنى . قال بنطاؤر : عفواً يا صديقي فأنك تعلم قوة يدي وعذراً فأنما شدة ضغطها على أصابعك بقدر مخالفة مشروعك للصواب والعقل . قال الطبيب ضاحكا : نعم ان مشروعي مخالف للصواب والعقل ، ولكن ألا تعلم أن بنا معشر المصريين ميلا الى الجنون ومحبة للنزق والطيش فنبيع منازلنا وأراضينا ونضيع أموالنا فى الملاذ والترف ؟ قال الطبيب : إذا جازت اضاعة المنازل والاراضى وبعثرة الاموال فلا يجوز أن تعرض للهلاك حياة ربما كانت ينبوع سعادة وآمال كبار . قال نبسشت : أكرر لك يا صديقى انى لا أسلم بأن يكون القلب مركز الادراك . . ومع هذا فلا بد لى من متابعة البحث لتمحيص هذه الحقيقة . ولا يهمنى إذا مت أن أدفن بقلبي أو بقلب شاة . قال الشاعر : لا أقصد بكلامى الميت الذى تنزع قلبه من بين جنبيه ليبدل منه قلب حيوان ، بل أقصد الأحياء ، لأنه إذا فضح سر الشيخ ينيم وثبت أنه اعتاض عن القلوب بقلوب غيرها مرضاة لك فأنه يجر على نفسه عقوبة الاعدام ، وعندئذ لا تكون أنقذت وردة من غائلة المرض إلا لتلقيها فى هاوية الفاقة والاحزان .

فحملق نبسشت بعينيه إذ لم يخطر بباله قط أن يؤذى جد وردة فكان فى هذه الآونة كالنائم الذى يهب من نومه فيكون أول من يلتقى به مخبراً بشؤم أو نذيراً بسوء ثم قال : انى أقاسم وردة وجدها بينم كل ما أمتلك . سأل الشاعر . ومن يحميها ويدفع أذى الناس عنها . أجاب الطبيب : والدها الجندي . سأل الشاعر : وهل لرجل مثله غليظ الطبع ديدنه السكر ليلَ نهارَ أن يتعهد تلك الوردة النضيرة بما ينميها ويصون نضرتها ؟ وإذا سافر الى مكان سحيق للقيام بفروضه العسكرية فماذا يكون الحال والشأن ؟ أجاب الطبيب متلعثما : أما الرجل فشهم كريم وقد خبرته بنفسى ، ولكن من ذا الذى يجرأ على الاساءة اليها وجمالها رائع وحسنها كضوء القمر ساطع ؟

فاه بهذه الكلمات واحمر وجهه حياء كما يحمر وجه الاوانس الخرد ثم استأنف الحديث فقال : لقد وافقتنى على أنها جميلة ولئن أكن عاجزاً عن الافصاح عما يجول بضميرى ووصف ما استحسنه من الصور والمرائي ، فقد شعرت بأن ما قصر عنه لسانى قد تملك جنانى وأثار فى نفسى من العواصف وحرك من السواكن ما أسكرنى بخمرة الحب والهيام . وهذه أول مرة عطفت فيها على مريضة ، ولكم قضيت من الوقت الى جانبها ولا همّ لى غير التأمل فى شعرها وتعداد أنفاسها بينما يقصد الناس الى الهيكل فى طلبي لأعالج مرضاهم ، وأخشى أن يدفعهم حب الاطلاع الى الدخول فى غرفتى واستكشاف اسرار ابحاثى التشريحية ، فقد نسيت هذه القاعة وما فيها منذ جئت الى هنا لان وردة

الفاتنة بحسنها الغض قد جذبتنى اليها وكبلتنى بقيود حبها . ولو كنت كالعامة فى أوهامهم لقلت أن بى مساً من الشيطان أو عقلة من السحر ، ولكن الحقيقة غير ذلك لان الميول البهيمية قد اضطرمت فى قلبي منذ رأيتها طريحة الفراش فتغلبت على عاطفة الطهر والعفاف التى مقرها الدماغ . ومنذ هذا الوقت الذى تجددت فيه الرغبة عندى فى استطلاع الاسرار الالهية أيقنت أن تلك الميول غالبة فى نفسى على هذه العاطفه التى تقول أنت ان مصدرها الالوهية .

وكان قد بلغ التأثر من نبسشت أثناء حديثه ما لفت نظر بنطاؤر الذى حدق فيه بعين تخامرها الحيرة والرفق ولبث الاثنان ساكتين فترة من الزمن تناول بنطاؤر بعقبها يد صديقه وقال له : اننى أحس فى نفسى انفعالا كالذى تشعر به ويجب عليك ألا تجزع فما الانفعال الذى يحس به كلانا إلا أثر من آثار الرفق الذى يعلو فوق الشعور العادي ، وإن يكن من نوعه . واعلم أن الذى حرك فيك الساكن ليس هو ما تسميه الميول البهيمية وإنما هو سر رباني كنار يذكيها دوام تفكرك فيما يتأثر به قلبك من العواطف الكريمة كالحب والأمل وغيرهما . ولقد ذكرت لك أن الخير من أجل ما يتحلى به سكان السماء من الصفات . فاذا كنت لا تزال على ما عهدته فيك من الميل الى الخير بفطرتك ومحض إرادتك فلا ريب فى أنك تتمنى أن لو تحولت البحار الى سعادة وهناء لتهديها من تحب . . أفلا تشعر فى نفسك الآن بنزعة الى تضحية كل نفيس عندك لأرضاء وردة ودفع

الاذى عنها ؟

لم يستطع نبسشت الاجابة على هذا السؤال لما عراه من الدهش والذهول فأومأ بالايجاب . أما بنطاؤر فقد استأنف حديثه قائلا : إذا كان الأمر كما ذكرت فلم لا تخضع للتأثير الربانى الذى ألبسك الآن ثوب الذهول والحيرة ولم لا ترأف بوردة وتحب الخير لها وتضحى فى سبيل هذا الحب الأمنية المستحيلة التى أزعجت خاطرك وأقلقت بالك . . وكيف تبحث عن أسرار الحياة والروح دون أن ترى دلائلها ومظاهرها العديدة فيما برأ الله من الكائنات التى جعلها لك كتاباً تقرأ فيه ما شئت بدون تكلف عناء ولا شقاء ؟ . أما فكرت فيما يصيب وردة لو حرمت جدها حارس خدرها وحامي ذمارها ، وهي كما تقول أحب الناس اليك وأسماهم مكانة فى نفسك ؟ ألا ترى أن هذه الفتاة التى تفتن النساك بجمالها الساحر وحسنها الزاهر تصبح عرضة للسقوط فيما ينصبه لها من شباك المكايد مئات الذين استعبدت نفوسهم النزعات الشهوانية فعكفوا على الملاذ والملاهي ؟ وهل ترضى بما تزل فيه قدمك من الهفوات أن تكون سبب انضمامها الى الراقصات فى حي الاجانب فتخلع ثوب العفاف والصون لتلقى به فى مهواة العار ، بل أتود أن تقذف بتلك الوردة النضيرة من حالق لتعبث بها أقدام المارين ، وهل يستوى عندك قلب الميت وروح وردة ؟ أما لهذه الروح فى نظرك رجحان وفضل على هذا القلب ؟ اتق الله وانصرف الى بيتك ثم عد فى الغد الي أنا صديقك الذى كان من أجل

نعم الالوهية عليه علمه بجميع مامر وما يمر بخاطرك ويخفق به قلبك ومشاطرته إياك ما ينتابك من الآلام . واعلم أن مكاشفتك إياي بسرك قد زاد عقدة المودة بيننا وثوقاً ، فثق بأخلاصي واعتمد على محبتي في كل حين .

ثم مد بنطاؤر يده الى نبسشت فتلقاها هـذا بين يديه ثم زايل المكان بدون أن تنبس شفتاه بكلمة واحدة وأخذ يسير رويداً رويداً غير متأثر بحرارة الشمس التي كانت ترسل أشعتها الحادة كالسهام النافذة الى طريق مهجور يفضي بسالكه الى الجبل ووادى المقابر الملكية ومنها الى دار المحنط بينم حيث رأى والد وردة جالساً الى جانبها فدنا منه وسأله عن والده الشيخ فأجابه : انطلق الى بيت التحنيط بعد أن كلفني بتذكيرك بالعهد الذى عاهدته عليه إذا وقع له ما لا يود من الحوادث . وكان مكفهرّ الوجه منزعج الضمير حينما انصرف عنا لانه كان قد وضع قلب الشاة في مخلاة يحملها وأسرع الى ذلك البيت دون أن يخبرنا عن سبب أخذه إياه . وها هي ابنتي وردة تريد منك الجلوس الى جانبها حتى يعود أبي أو تتم والدتي عملها . أما أنا فسأذهب الى هرمونتيس [1] التي يعاني بها أسرى القتال ضروب الاهانة والاذلال .

---

(١) هى ارمنت الآن وكانت واقعة جنوبي طيبة على مسيرة يوم منها

الفصل الثامن عشر

هبات وعطايا سنية لأغراض ذاتية

بينما كان نبسشت يتحدث الى بنطاؤر ووالد وردة وقع من الحوادث فى حديقة دار مينا ما يستحق أن يؤثر . فقد كانت راتوتى تروح وتغدو فى ظل أشجارها وعلى وجهها من علامات الانزعاج والقلق ما يسهل على المتصفح أن يتبينه . وكانت كلما طفرت فى سيرها بخطوة وثب خلفها هرٌ أبيض ظريف الشكل وثبة عنيفة وتعلق بذيل مطرفها الخز الذى كانت تميس فيه دلالا وزهواً ، ثم التفت وراءه حيث كان القزم نيمو جالساً على عمود صغير كان يحمل تمثالا من الفضه اضطرت راتوتى منذ أيام الى بيعه لتسد عوزها بثمنه . وكان نيمو يحب الجلوس على ذلك العمود ليتمكن من مواجهة محدثه ، لأنه كان إذا وقف على الارض اضطر الى جعل رأسه فى الوضع الذى يجعل رأسه فيه من يتصفح السماء ليدعو الله أن يغفر عما تقدم من ذنبه .

تحولت راتوتى بغتة نحو نيمو وبعد أن هرولت اليه قالت له : إن تبين لى أن ما نقلته الىّ من الكلام غير صحيح وأنك خدعتنى فالويل ثم الويل لك ! قال : إن ثبت عندك أنى خدعتك فلك أن تلقينى الى النهر لتلتهمنى التماسيح . وعلى أي حال فسأحاول الوقوف على الطريق الذى سيتبعه بعاكر فى تقديم النقود اليك . . . سألته : أو تقسم لى مرة

أخرى أنك لم تذكر اسمي حينما طلبت الى بعاكر ان يهم بأسعافنا واخراجنا من مأزقنا ؟ أجاب : أقسم لك بأيمان الارض جميعاً انني لم أذكر اسمك ، أما الرجل فقد أنست منه ميلا صادقاً الى مساعدتك خيل لى معه أنه ربما استصغر ما سيعرضه عليك من أمواله الكثيرة فجعل تحت تصرفك مزارعه الواسعة وقصره الباذخ الشامخ فى مقابل نظرة يستجلى بها طلعة نيفرت . فتنفست الصعداء وقالت : ليت مينا كان يحبها كابن خالتها . قالت هذا واستأنفت السير رواحا وغدوًا . وكان نيمو لا يكف عن الشخوص فى باب الحديقة ، فوقفت راتوتى بغتة وقالت له بصوت مزعج : انى أفضل بقاءها عزبة . فهبط نيمو من علوة مكانه قائلا : لقد وقفت بالباب مركبة لعلها مركبة المنوهار ، وما هذا الذى أسمعه إلا نباح كلبه الكبير . أفتأذنين لى باستدعاء سيدتى نيفرت ؟ قالت بصوت خافت : كلا . . ثم سقطت فى كرسي قريب منها واستلقت على ظهرها كمن تخور قوته وتتفكك مفاصله ، فاختفى نيمو فى الاشجار وأوغل بعاكر فى الحديقة وقصد الى مكان راتوتى بعد إذ وقع عليها بصره فاستقبلته بجنان ثبت وجأش رابط وحيته بما لا يخرج عن المعتاد من مظاهر الحفاوة ، وقالت له : تفضل اجلس فقد كنت على يقين من حضورك ، وانى لأرجو أن تزول آثار البغضاء لتحل بيننا محلها المودة القديمة الوثيقة العرى .

وكان حضور بعاكر بنفسه ليعرض على خالته كل ما هي فى حاجة اليه من الاموال لاستخلاص تابوت زوجها . وكان قبل أن يهم

بالحضور مترددا بين أن يكلف والدته بهذه المهمة أو أن يؤديها بذاته فجنح بعد طول الموازنة بين الأمرين الى ثانيهما ليظهر أمام خالته بمظهر الرفعه والثروة والاقتدار ، وليجعلها تشعر بأنها خسرت فيه زوجا لابنتها متدلها فى حبها مسرعا الى قضاء أوطارها واضعا تحت إشارتها كل ما يملك من مال كثير وخير وفير . ثم خطر له بعد ذلك أن يبعث اليها بحاجتها من المال عن يد بعض الأرقاء كما يفعل الامراء المغلوبون على أمرهم اذا أدوا الجزية صاغرين الى الملوك القاهرين ، فلم تقع هذه الفكرة عنده فى موقع الصواب بل رأى أن أبلغ ما يقيمه من الحجج على نزوته وقدرته ان يتختم بالخاتم المرصع بالماس الذى أهداه الملك سيتى الاول الى والده وأن يزين جيده ومعصميه بقلادة ودمالج من الذهب الابريز المرصع بالاحجار الكريمة .

تحلى بعاكر بهذه المصوغات والجواهر فارتاح قلبه وانشرح صدره ثم نظر فى مرآة من الصلب الثقيل فحدث نفسه بأن هذه المصوغات وحدها تفوق قيمتها ما ورثه مينا عن والده من مال ونوال. وكانت الامانى تخامر قلبه وتداعب فؤاده منذ أن التقى فى اليوم الماضى بنيمو الذى رسم له خطة الاستحواذ على نيفرت بانيا إياها على إنقاذ والدتها من العار أولا ثم الفتك بمينا ، فأخذ وسواسه يحدثه بأن أكبر عون له على بلوغ غايته ثلاثة أمور قوته الوحشية التى يسميها الهمة والنشاط ودهاء القزم نيمو والماء السحري الذى جهزته العجوز نيخت . فلما دخل فى بيت راتونى ودنا منها فى زي العظماء المتجبرين وهيئة من

يود شراء شيء نفيس يأنس فى نفسه القدرة على دفع قيمته أضعافاً مضاعفة تلقته بمظاهر العلوّ والكبرياء . وكان فى بادىء الامر يعتقد أنها بمجرد وقوع نظرها عليه ستلقى بنفسها على قدميه مستميحة العفو عنها وملتمسة المعونة لها . ولقد سأل عن نيفرت مراراً ورطب لسانه بذكرها فلم تدعها والدتها الى الحضور ليطفىء نار هيامه بتسريح النظر فى محاسنها الفتانة .

وكان بعاكر يمنى نفسه بأن خالته ستطارحه الحديث فيما يطابق هواجسه ، ولكن الزمن الطويل انقضى بينهما فى أحاديث تافهة ضاق منها صدره وعيل صبره فبغتها بقوله انه وقف على ما وقع فيه ابنها من التفريط فى حقوق والده فجاء لانقاذها من العار وإعلائها الى قمة المجد والفخار . فشكرت له راتوتى هذا العطف وقالت له إنه بهذا العمل المبرور والسعي المشكور إنما يصون كرامة ابناء خالته وهم جميعاً لا يزالون فى عنفوان الشباب وغضارة العمر . أما هي فلا تبغي شيئاً ما لنفسها بعد إذ قارب نجم عمرها الأفول ولم يعد لها من مطمع فى الحياة . قال بعاكر : لست يا خالتى بالطاعنة فى السن كما تذكرين فأنت من رونق الشباب وطراءة الحسن على قسط واف وطلعتك لا تمل أبداً . قالت : الحمد لله إذ أمتعنى بهذا الشباب النضير الذى لولاه لأصبحت الحياة عبئاً لا يطاق حمله . قال : لعل إدارة هذه الاملاك المثقلة بالديون هي التى جلبت عليك الهموم ، فأومأت راتوتى بأيماءة الموافقة ثم قالت بصوت الحزن : لقد كنت أستطيع التغلب على هذه المصاعب لو لم

أكن مضطرة الى مواساة نيفرت التى أضناها الحزن وأصبحت بلا نصير ولا مجير . ولطالما تمنيت أن تكون لها بعلا، فأنت أليق الرجال بها وهي اليق النساء بك . . نعم وانى لموقنة أنك لم ترى مدينة طيبة على سعتها وكثرة الفتيات فيها من يدانيها جمالا ورقة ودلالا . . وهي بلا شك جديرة بأن يتهالك على عشقها الشبان . . وبعد أرأيت أنها تستحق من زوجها هذا الهجران المتلف والصد المؤلم . . بل أرأيت أنه كان لا يجوز له أن يفضل عليها تلك الجارية التى أخذها الى سرادقه ليحتظي بها حتى ذهب الناس الى التظنى بأنه طلق زوجته ؟ آه ! انى استشف من عينيك الآن ما يجول بخاطرك من الرغبة فى معاتبتى وتحميلى تبعة هذه الحالة الذميمة التى أثرت فى نفسى بقدر ما أثر فيها البرهان الذى أقمته على حبك وصدق ولائك لنا وحسن استعدادك لتضحية ما تملك فى سبيل اسعافنا وتفريج ضائقتنا . . لو أن نيفرت اقترنت بك لكان حظها اليوم موفوراً وحياتها هنيئة وعيشها رغداً ومكانتها فى أوج العزة والشرف والصون .

ثم تناولت يد بعاكر ولزمت الصمت زمناً كان فى خلاله يحدق فيها النظر فقالت : لقد برزت اليوم لى فى مظهر المحسن العلي الهمة السريع النجدة وقابلت اساءتى لك بأحسان لا متجاوز بعده لذى مطمع . ولا عجب ، فقد كان والدك شديد العطف علينا أنا وابنائى . ولكثرة ما أغدق علىّ من نعمه ووافر كرمه كنت أطوع له من بنانه وأسرع مبادرة الى تنفيذ أمره . أما والدتك ، شقيقتى ، فكنت أتحرى ما

يرضيها ويسرها وأتجنب مايسوءها . وهى لم تدخر جهداً ولم تضنّ بمال في تثقيف ذهن نيفرت وتربيتها على أقوم المبادىء لتكون فى يوم ما قرينة الشاب البطل الذى أقام الدليل على بسالته وإقدامه فى الحروب الاسيوية، وهو أنت يا بعاكر لا سواك . . ولكن جاء القدر هادماً لصروح الأمانى إذ توفي والدك ففقدت فيه أقوى عضد ونصير و . . . قاطعها بعاكر : انى ملمّ بتفاصيل هذه المسئلة . قالت : لم أغلقت والدتك باب دارها فى وجهى وقطعت علاقتها بى قبل أن تطالعنى ببيان أسباب تلك الحوادث ، بل لماذا كتمت عليّ اسماء من سعوا عندها فى حقى وبذروا بذور الضغينة فى صدرها ضدى حتى أثمرت ما نحن فيه من التقاطع والتنافر ، ولمَ لم تفرض أنهم لم يفضوا عمداً اليها بحقيقة عذرى وبأن الملك هو الذى حتم علينا تزويج نيفرت من مينا ، إذ قال إنه أعز عليه من ولده وأنى لما ذكرته بخطبتك إياها وبعدم قدرتى على فصم عروة هذه الخطبة لما يجمعنا من أواصر القرابة ولحمة النسب ، قال مستبداً : إن تلك إرادتى التى لا مفر من تنفيذها . فهل كان فى وسعى والحالة هذه مخالفة أمر ملك الخافقين وابن الشمس ؟ . . ولقد قلت بمناسبة هذا الحادث ان الملوك يجحدون الجميل وينسون الفضل ، إذ كم من الوقائع تعرض فيها والدك للموت الاحمر باقتحامه صفوف الاعداء فى مواطن القتال ، وكم أصيب بالجراح البالغة ذوداً عن حمى الوطن والملك فنسي رعمسيس هذه الفعال كلها وجعل نصيبك الحرمان من التمتع بريحانة فؤادك وقرة عينك وأوقعنى أنا فى هاوية لا قرار لها من الهموم

والاكدار .

وكان الدم قد صعد فى رأس بعاكر فاكتست وجنتاه بلونه تأثراً وانفعالا فاندفع يقول : وأنا .. وأنا أما خدمت الملك أيضاً كما خدمه والدى ؟ أجابت : نعم خدمته ولكنه لم يكن يعرفك وقتذاك معرفة تامة ولست أدرى لم يكرهك وينفر منك . فأرعد بعاكر لسماع هذه الكلمات من شدة الغضب وقال : ما تقولين؟ أجابت : لندع الكلام فى هذا الموضوع فأن رضاء الملوك وسخطهم كرضاء الالهة وسخطهم أمر ليس منه مفرّ ، والعاقل من ينتفع بالأول ويحتمل الثانى بالأناءة والصبر . قال : وكيف يجهر الملك بعدم ارتياحه منى ويتظاهر بالاعراض عنى ؟ قالت : إنه بذلك يجحد فضلك لكي يستميل مينا اليه ويحمل نيفرت على الرغبة فيه دونك . وكان جبين بعاكر فى خلال هذا الحديث يتصبب عرقاً بارداً ، وكانت عيناه شاخصتين وفمه فاغراً . فلما طرقت سمعه الكلمات الأخيرة صاح : ثم ماذا قال فى حقى ؟ فارتاعت راتوتى وتراجعت الى الوراء ، فأمسك بذراعيها وكرر قائلا وقد بحّ صوته : خبرينى ماذا قال فى حقى؟ فعاتبته على قسوته فى معاملتها وقالت : اليك عنى يا بعاكر .. اننى إن أمسك عن الافضاء اليك بسرّ ما قاله فرعون فيك ليحمل نيفرت على كراهيتك فما هو إلا رفقاً بحالك وعطفا عليك . فخل إذن عن ذراعى واعلم أن التى المتها بقوة يدك إنما هي خالتك . فلم يصغ بعاكر لقولها بل زاد ذراعها ضغطاً بأصابعه وكرر قوله : ماذا قال فرعون فى حقى ؟ فصاحت راتوتى بملء

فيها : حذار لنفسك يا بعاكر ! ان من أفضح العار وأقبح الشنار عليك أن تعاملنى بالشدة ، وإذا كنت لا تزال راغباً فى معرفة ما الذى قال فرعون فيك فهاكه « لولا ما أعهده فى والدته من العفاف والصون لقطعت بأنه لا يمتّ الى والده بحسب ولم يلبس له جلدة ، كما هو ظاهر من الفرق بين سحنتيهما . فأنه لا يشبهه الا بقدر ما يشبه البوم النسر » فما استقرت هذه الكلمات فى إذن بعاكر حتى اصفرت شفتاه غيظاً ودمدم بعبارات الاستياء ، ثم أطلق يد خالته وأخذ يمعن النظر فيها فاستأنفت حديثها قائله : عندئذ حاولت أنا ونيفرت الدفاع عن كرامتك لأزالة ما علق بذهن فرعون من الأوهام فذهب عبثاً ما بذلناه من الجهود فى هذا السبيل . على أنه لا محل لاغتمامك بافتراء فرعون الكذب فى حقك فكفاك فخراً أن والدك كان من صفوة الأمة وعظمائها . والراجح عندى أن فرعون لم يجهر بما جهر به إلا لحقد فى نفسه ، فأنه لم يذهب عليه بعد أننا من الاسرة الملكية القديمة وأن هذا الانتساب يمضه أشد المض ويقلق باله . وكان خليقا به أن يأخذ حذره ويعمي علينا أمره ، فليس هو ووالده سيتى إلا دخيلين فى الملك لا يسقط الى الملوك المتقدمين بحسب ولا يلتحم معهم بنسب ، وكان أجدر منه بالحكم فينا رجل نسبه صريح محفوظ وحقه فى الاستواء على عرش الملك واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار .

سأل بعاكر : أتريدين بهذا الغمز الوالى آنى ؟ قالت : بلى . ثم دنت منه وسارّته بقولها : لست أكاتمك بنات صدرى ولا أوارى

عنك مضمون سرى ، ولست بخائفة ولا وجلة إذا فعلت ، لأنك كما تعلم ابن اختى وصهرى . . وأود أن تفهم أن ما أسيت له كل الأسى حتى طار الرقاد عن عينيك استفزنى الى ممالأة الوالى انى والعمل معه على تحقيق أمنيته فى الملك . ولم يكن لى من هذه المناصرة بد إذ من واجب المرء إذا كرم أصله وزكا فرعه المسارعة الى تلبية نداء الضمير ازاء ما يلقاه من ظلم ذلك الجائر رعمسيس وتجبره وتغشمره ، وسلبه إياك خطيبتك على الوجه الذى أوغر صدرك وأنزل بقلبى الألم والحسرة على السعادة المفقودة . . ولا يغيب عنك أن دم حاتاسو ما زال يجرى فى عروقى وأرانى قادرة مثلها على الأخذ بيد الرجال فى طريق الصواب . ولقد هبت فى فؤاد الوالى عواصف الامانى والمطامع بعد أن كانت ساكنة فطوحت به فى تيار الطموح الى الاريكة المصونة المكلوءة بعيون الآلهة . . وهناك أمر ذو بال وهو أن الكهان الموكلين بخدمة القدرة الربانية قد أعوزتهم تلك الحال الى الانحياز الينا فوافقوا على مشروعنا واستعدوا لتلبية ندائنا فى أوفق الاوقات وأنسب الفرص .

وهنا طرقت الآذان جلبة نفر مقبلين فأمسكت راتوتى عن الكلام وما هي إلا صرة الحالب حتى أقبل عليها أحد العبيد مهرولا ليخبرها بوصول الوالى آني وأنه بالباب . وكان لا يزال بعاكر واجما كاسف البال مقلقل الضمير ، فهم بالانصراف ، ولكن راتوتى قالت له : قف مكانك فأنى غادية الى استقبال الوالى الذى ستسره ولا شك رؤيتك لما أعلمه من حبه واحترامه لك ، كما كان يحب أباك من قبلك

ويحترمه . وما زايلت راتوتى بعد ذلك مكانها ومضت قدماً فى طريقها حتى برز نيمو من مخبأه ووقف أمام بعاكر سائلا : أما رأيت أن الصواب فيما قلته لك ؟ فلم يلتفت بعاكر اليه بل أقصاه عنه بقدمه ، ثم أخذ يجوب أقطار الغرفة تتقاذفه الخواطر والهواجس . وقابلت راتوتى الوالى وسط الحديقة وكان يحمل قرطاساً من البردي ، فحياها من بعيد تحية المبتهج ، فنظرت اليه باهتة متحيرة ثم سلمت عليه باسطة يديها اليه كما يحيي من يجلس على عرش مصر ويوضع التاج الثنائى على مفرقه(١) ثم قالت : السلام عليك هل قابلت الآلهة التسعة (٢) وهل شهدت الالهة هاتور فيم يرى النائم فقبلتها ؟ . إن هذا اليوم ليوم نور وسعادة ، من يتوسم فيه وجهك الزاهر النضير يفز بالخير والهناءة والنعيم .

قال آنى : قلت حقاً واليك هذا الكتاب فاقرئيه . فتناولت راتوتى قرطاس البردى وقرأته ثم ردته الى آنى قائلة : انه لخبر خطير إذ يؤخذ منه ان الجيش الذى حشدته قهر الحبشان وأسر عشرة آلاف من رجالهم سيصلون قريبا الى طيبة مع أميرهم والغنائم والاسلاب فحمداً للآلهة وشكراً على ما أظلنا من فضلهم وأغنانا من رفدهم . قال انى : حمداً لهم أيضاً إذ حفظوا حياة القائد (ششنك) أخى فى الرضاعة وصديقى الحميم وردّه الي سالما غانما . ويلوح لى من بوادر هذا النجاح يا راتوتى أن آمالنا ستقرن بالفلاح . قالت : هذا ما لا ريب فيه أيها

---

(١) التاج الثنائى هو تاج الوجهين البحرى والقبلى

(٢) كان المصريون يمثلون الهتهم ثلاثا ثلاثا وفى رواياتهم القديمة ان الآلهة التسعة العظمى كانت ذات يوم تسير مجتمعة فوجدت « بتال » وحيداً فريداً فخلقت له المراة ليأنس بها

الامير . : اما شعرت بالعناية الالهيـة وقد نفحتك بأنعمها وكلأتك بعينها التى لاتأخذها سنة ولا نوم ؟ اما علمت أنك كلما سرت الى جانبي خلت أنك ابن رع وأن بوارق الشجاعة تنبعث من عيني (منث) كما أن ثغرك يفتر عن الابتسام كما تفتر عن الزهر الاكمام ، أو أنك (هوروث) وقد سر بالانتصار وكلل بتاج الفخار ؟ قال : كلامك أيتها الصديقة كالشهد بل اعذب منه مذاقا ، ولكننى ما زلت مصراً على رأيي ، من أنه ينبغى للمرء أن يحسب حساب عدوه ، ولا عليه إذا بالغ فى تعظيم شأنه وتحقير شأن نفسه ليكون له من هذا الوهم منبهـاً لوجوب التحرز والحذر واتخاذ ما يتقى به الخطر ، وكثيراً ما اتفق لى أن نجوت من الاخطار والمصاعب التى كنت أخشى منها سوء العواقب لحـذرى وتيقظى . قالت : لست بمعارضة فيما عنّ لك من الرأي ، ولـكن أبقي فى ذهنك أثر من الريب فى أن السعادة مقرونة بالشقاء وأنها لا تأتى المرء الا وهو لها تبع ؟ قال : انى مشايع لرأيك فيما قلت ، لأن حادثات الحياة تسير مثنى مثنى ، فلكل سعادة مماثل ولـكل شقاء مشاكل . وهل أتاك حديث آخر من حوادث الفوز تخبرينى به ؟ أجابت باسمة : لا لأن النسوة لا شأن لهن فى الحروب ، وإنما عرفن بالحذق واللباقة ولطف الحيلة فى حشد الجنود واستمالة القلوب الى مشايعة الاحزاب ، يشهد بذلك الحليف الذى ساقته لك المصادفة والذى لا يختلف اثنان فى بسالته وعلو همته . سألها : ومن هو . . أإله أم جيش ؟ أجابت : لا هذا ولا ذاك وإنما بين بين . . هو بماكر الذى حالفنى على التفانى فى نيـل

المرام وتحقيق الامانى .

ثم أنشأت راتوتى تشرح ماجرى لها مع بعاكر وأنه ما برح متدلها فى حب نيفرت فاستمع لحديثها ووعته منه أذن واعية . قال لها : لكنى عهدت هذا الشاب مخلصا لرعمسيس وسيعود قريباً الى معسكره وإنى لأخشى أن تأخذ الناس ريبة فى حقيقة الاغراض التى نرمى اليها فيسعى الخونة منهم بالوشاية فى حقنا فلا يكون إلا ما نكره . والذى أراه انك تستعجلين الحوادث وتستدنين المستقبل لتجنى ثمار المشروع الذى وضعنا لانجازه الخطط ، ولهذا أرى أن اوصيك بالتؤدة والاتئاد فعندى أن الف عدو يجاهروننى بعداوتهم خير من حليف واحد يعمل ضدى فى الظلام . قالت : طب نفساً فبعاكر شاب أمين ، وأنا واثقة من أمانته وإخلاصه . قال : ومن أين لك هذه الثقة دون أن يكون هناك ما يضمن لنا بقاءه على ولائنا واستحسانه لمشروعنا ؟ أجابت : انه سيمكننا من يده ويعطينا قياد نفسه ، ذلك لان القزم نيمو قد وقف على أسرار له إذا انزاح عنها الستار فسيكون جزاؤه عليها الاعدام . قال : ان كان الامر كما تذكرين فلا بأس .. وهل قتل نفساً ليستحق هذا الجزاء ؟ أجابت : لا . . وبما أن القزم نيمو قد أقسم ألا يفضى بجملة سره الى غيرك فلك أن تثق به وتركن فى مهام الامور عليه . قال : قد يكون الصواب فيما رأيت إلا أن نيمو طائش العقل خفيف الحلم لا يصح الركون اليه فى معضلات المسائل ، ونحن الآن معه كفارس الرهان يدفع بفرسه الى الميدان غير مكترث بما إذا كان

يجرى على بسيط من الارض منجاب أو على أسنة الرماح فاذا كبا الجواد ونفق اضطر أن يقطع بقية الشوط سيراً على الاقدام . قالت : لقد تلطفت فى العبارة إذ كان ينبغى القول بأن تلك الاسنة تنفذ فى جسم الفارس كما نفذت فى جسم الجواد ويصرع الاثنان ، ولكن هل ذهب عليك أنك الى الربح والفوز أحوج منك الى التعرض للخسارة والفشل وأن أحقر الناس تدفعه الغريزة الى الحرص على ذاته والضن بحياته . ولا يغب عنك أننى بمعاونتى إياك على إصابة غرضك لا أجرى وراء غاية ، وإنما أنا امرأة أحبك كما تحب الاخت أخاها ، دع أنك الا ن تمثل من حقوق الاجداد ما انتهكته الاسرة القابضة على صولجان الحكم فى هذه الايام .

فمد آنى يده اليها وقال : أرجو أن تكون انتهت المفاوضة بينك وبنت أنات فى موضوع الزواج . وهل لى يا ترى أن استبشر بسكوتك فأعده فالا حسناً على قضاء الوطر ؟ لم تجاوبه راتوتي على هـذا السؤال بل هزت الرأس ثم أطرقته . أما انى فقال : لقد مر ببالى أمس أن أعدل عنها للتزوج من غيرها إلا أننى آنس من نفسى ما يشجعنى على متابعة هذا الرأى ، ولو أسعفتنى الالهة هاتور بمددها وشملتنى برعايتها لفزت بما يتجاوز المأمول . قال هذا وتقدم نحو الغرفة التى كان فيها بعاكر مروّع القلب منزعج الضمير ، فلما توسطتها نهض بعاكر واقفاً وأحنى رأسه إجلالا واحتراماً فحياه انى مصافحة وعلى وجه تستشعر منه دلائل الغطرسة والصلف والتجبر ملطفة بشيء من تعمل المودة ورفع

الكلفة . ولما جلس بعاكر جاذبه الوالى الحديث فى شؤون جعل وكده فيها إظهار الميل اليه والعطف عليه والتذكير بما كان بينه ووالده من الود القديم ولحمة القرابة ، ومما قاله فى مدحه : « لقد خصك الاله بالشجاعة التى تزول بها العقبات وتذلل الصعوبات وأرى أنه يندر من يضارعك فى الفضائل والسجايا من شبان هذا العصر ، وقل من اعتمد عليه منهم تحت إدارتى فليس عجيباً أن يكون من أعز أماني مشاركتك إياى فى أعمالى ، ولكن ما العمل وأنت لا غنى لرعمسيس عنك بحكم منصبك عنده فأنه بحاجة الى من يثق به من ذوى الالمام الواسع بمختلف العلوم والفنون بل الى رجل يجمع بين فضيلة الجندى الباسل والكاتب البارع والعالم النابغ . أما البسالة فأنت بلا خلاف القابض على زمامها وأما التحرير فلئن لم تكن فيه ممن يشار اليهم بالبنان لرداءة خطك وقصورك عن ابتكار المعانى فكثيراً ما عجزت يدعن تحريك اليراع وبرعت فى الخطران بالسيف على مثال يبهر الابصار ويأخذ بالالباب . وحركة القلم على القرطاس تستدعى لين الانامل ومرونة الاصابع بخلاف خطران السيف يتطلب من اليد الصلابة والقوة . وإذا انتقد الملك رعمسيس تقاريرك وعابها وضرب بها عرض الحائط فلا لوم عليه ولا تثريب .

قال بعاكر : ان أخي (هوروس) احذق منى فى فنون التحرير والتحبير وهو الذى يرافقنى فى رحلاتى وجولاتي . قال الوالى : لو أني رئيسك لجعلت معك خمسة كتاب أو ستة لا كاتباً واحداً وعهدت

اليك من جلائل الأعمال ما يستغرق كل أوقاتهم فى تحبير تقاريرك عنها وأنت فى منصبك بحاجة الى الرصانة والشجاعة وهما صفتان قلما اجتمعتا فى شخص واحد . أما الذين يدعون العلم بالكتابة والتحرير فكثيرون امتلأت بهم الهيا كل . قال بعاكر : حق ما تقول . ثم سكت انى برهة واستأنف الحديث : لا أدرى لأي سبب لا يفتأ رعمسيس يقارن بينك ووالدك فيقول فى كل حين ان والدك الذى صار فى صفوف الابرار والقضاة العادلين كان فيما عدا ما تحلى به من الفضائل النادرة شجاعاً مقداماً وكاتباً أريبا ، وقال غير هذا مما خيل لى معه أنه يريد تسوئة سمعتك بالحط من قدرك ، وهو ما يستدعى الأسف والحزن لأنك أحد أعضاء أسرتنا الشهيرة التى ذهب الحكم من يدها وبودى لو أتاحت لى الفرصة إيثارك بمنصب سام جدير بفضلك وكفاءتك ، وبعد فهلا ترى أن الملك قد غض من جنابك وقصد إرهاقك وإحراجك إذ ما كدت تقيم بطيبة زمنا قصيراً هو بعض ما ينبغى لالتماس الراحة من عناء الحروب التى أبديت فيها من ضروب البسالة والاقدام ما هو جدير بالثناء حتى بعث فى تعجيل رحيلك الى الشام . أما كان خليقا به ، وقد قمت بما لا يعد من جلائل الاعمال ، أن يدعك تتقلب زمنا فى بحبوحة نعمتك وتتمتع بلذة الانس بزوجتك . فبهت بعاكر دهشا وقال : لست بمتزوج على ما تعلم بل أعيش وحدى . قال آنى : وحدك ! ولم لا تطلب من راتوتى أن تخطب لك أجمل بنات مصر ؟ حقا ان التى لا تفتأ تتراءى لنفسها فى المرآة أعرف الناس بمحاسن النساء .

قال هذا ثم حيا بعاكر بمثل ما تصنعه قبلا من العطف والمحبة ثم قال لراتوتى وهو يصافحها مودعا : ارسلى المنديل الىّ اليوم . . مع نيمو . ثم خرج الى البستان وأومأ الى بعاكر من بعيد قائلا : سيتناول طعام العشاء عندى هذا المساء لفيف من الاصدقاء فهل لك فى تلبية دعوتى إياك الى مائدتى ؟ فأحنى بعاكر رأسه شاكراً له هذا الالتفات ولما غاب الوالى عن نظره وخلا الى نفسه تأمل مليا فى موضوع المحادثة وأخذ يضرب أخماسا لأسداس وشعر كأنه وقع فى أحبولة لا يدركها البصر، وعرض على رويته ما نقله الوالى اليه من ازدراء الملك به وتهكمه عليه وتنقيصه من قدره بالقول المقذع وقوله أنه لم يبقه فى منصبه المحفوف بالمكارة إلا لاكرام سيرة والده واعترافا بما له من سالف الفضل فى خدمته وكثر عليه أن تكون هذه منزلته من أمير البلاد مع أنه ضحى فى سبيل الاخلاص له كل مرافقه الخاصة إذ أهمل العناية بفلاحة أراضيه الواسعة وانصرف عن العيش فى بحبوحة الهناءة والنعيم مؤثراً احتمال المشاق فى سبيل مرضاته . ومما فتّ فى عضده أن يفهم أنه سخر بخطه وإنشائه مع أنه البطل المقدام الذى طالما أرهب العدو ببطولته وبسالته وأورده بطعنات سيفه موارد الحتف ، وزاد على هذه الصفات الشريفة ان كتم اسرار منصبه فلم يرض بما عرضه الوالى عليه من تعيين طائفة من الكتبة لتدوين التقارير ضنا بأسرار الحكومة من الافتضاح وأن تلوكها ألسنتهم واستغنى باتخاذه أخاه عونا له على تحرير تقاريره والزامه اياه ملازمته تحرزاً من شيوع الاسرار . وبالغ فى

الحذر الى حد أنه بعد زواج هذا الاخ فرض عليه ملازمته ملازمة الظل للشبح وناط بوالدته القيام على شؤون زوجته وابنائه. ولقد أقامه مقامه فى الشام ريثما يقضى بطيبة ردحا من الزمن ثم يعود فيسترد منه زمام أعماله.

قضى بعاكر فترة من الزمن تقاذفه الهواجس والوساوس حتى نسي المكان الذى هو به ولم يشعر براتوتى إذ دخلت عليه وجلست الى جانبه وأخذت تحدق نظرها فيه. وكانت عيناه أثناء ذلك شاخصتين فى غير ماتدركه المشاعر ودون أن تستقر على شيء، لكثرة ماغلبت الهواجس نفسه حتى ملكتها. ولعله كان يتخيل الملك رعمسيس يسومه سوء العذاب ويمعن فى التنكيل به وينكر عليه حقه وفضله، وينتقل بعد ذلك من هذا الخيال الى وجوب الانتقام من خصومه حرصاً على شرفه ومؤاساة لفؤاده المكلوم. وكان يخيل له أن الظلام قد غشي نظره فلم يعد يرى شيئاً ثم فكر فى نيفرت وحاجته الى الظفر بها وراجع بالفكر ماقدمه بسببها من القرابين الى الآلهة فيضيق رحب الفضاء فى نظره ويخفق قلبه بعاملي الحب والضغينة ويعتقد أن الآلهة عمدوا الى أذاه وخيبوا مسعاه وقابلوا بالتغاضى عنه مظاهر عبادته وتقواه.

لم يبق له، وقد أساء الظن بالآلهة، الا اعتماده على نفسه وركونه الى سداد رأيه وحسن تدبيره، ولكن كيف كان يستطيع تصريف أموره بمقتضى هذه القواعد الحكيمة إذا كانت الغيرة قد أنشبت فى

قلبه أظفارها وإذا كانت قد عبثت بآماله يد الخيبة فسلبته نعمة الطمأنينة وصار من نفسه فى حرب عوان ؟ ولم يسعه وهو من هذه الحالة فى أشد الضيق والحرج إلا أن يعتمد رأسه كمن يهب فزعا من نومه على أثر حلم مزعج رآه . ثم أجال النظر فيما حواليه فرأى أنه لم يكن وحده بالغرفة بل أن الى جانبه بها خالته راتوتى فعاد اليه صوابه وتذكر ما أسره اليه نيمو وما دار بينه وخالته والوالى من المحادثات وما ذكرته هذه من قدرتها على حشد الرجال والتحكم فى مشيئتهم بما تشتهى ثم قال : لعلها تعطف علىّ وترأف بى فانى لم أعد أجد نفسى قادراً على الادراك والتصور، بل ولا على العمل بما يوحى الىّ ويلقى فى روعى ، واتجه بعدئذ نحوها قائلا : قد اتفقنا على التحالف والتناصر . أجابته : أى نعم ضد رعمسيس ومع آنى . قال : سأسافر الى الشام بعد أيام فعليك بالتفكير قبل سفرى فيما تودين أن أحضره لك منها . أما المال المطلوب لتسديد ديون ابنك فسيصلك مع تطفيل شمس اليوم . ثم أتسمحين لى بالسلام على نيفرت ؟ أجابت : نيفرت بالهيكل تؤدى فروض الصلاة . قال : إذن أحييها غداً . أجابت : بلا ريب وأنها لتحسب نفسها سعيدة إذا قابلتك وشكرت لك معى صنيعتك . قال : استودعك الله ياراتوتى . قالت : لاتدعنى باسمى ، وقل ياوالدتى . فلما ابتعد عنها أومأت برداتها إيماءة الوداع مغتبطة بما يبشر به الحال من حسن المآل .

الفصل التاسع عشر

حيث يدور الكلام على زوج محظوظ لا من ذوى الافهام

ما كاد يتوارى بعاكر خلف الاشجار المثقلة الافنان بألوف الازهار وصنوف الثمار حتى دقت راتوتى إطاراً معدنيا لم يلبث أن ملأ بدوي رنينه أركان الدار ، فلم تكن إلا غمضة الطرف حتى برزت احدى الجوارى وتقدمت اليها لتتلقى أوامرها ، فسألتها راتوتى : هل عادت نيفرت من الهيكل ؟ أجابت : عادت منه الى الباب الصغير فى محفتها . قالت راتوتي : انى بانتظارها فى هذا المكان . فانصرفت الجارية وما هي إلا لحظة حتى دخلت نيفرت وخاطبت أمها : أتسألين عنى ياوالدتى ؟ وبعد أن قبلتها طرحت نفسها على فراش وثير ثم التفتت الى نيمو فأمرته بتحريك المذبة ليطرد عنها الذباب فدنا القزم منها وأخذ يحرك تجاه وجهها مذبة كبيرة من ريش النعام ، فالتفتت اليه راتوتى وقالت له زاجرة : دعك من الترويح وانصرف على الفور فان بيننا حديثاً لا ينبغي لمثلك أن يسمعه .

فهز نيمو كتفيه وهمّ بالانصراف . أما نيفرت فتأملت والدتها بعين الذهول وقالت : دعيه يا والدتى فقد عال صبرى ازدحام الذباب حولى ، وأما الحديث الذى أشرت اليه فنيمو مستودع أسرارنا وسيكون أحرص عليها منا . ثم مرت بيدها على رأس القزم كما تفعل عند ملاطفة

الكلب الصغير والتفتت الى الهر الابيض فدعته بالنداء المألوف فأقبل نحوها مسرعاً . عندئذ قالت راتوتى : يا نيفرت إن ما أردت الافضاء اليك به سر خطير أخشى إن تجاوزنا شاع وملأ الاسماع . قالت نيفرت : ما زلت متمسكة برأيي فأن كنت تريدين . . . فأنشأت راتوتى تدللها وتواسيها كالطبيب إذا لاطف عليله بمظاهر الرفق والعطف ، وقالت : فليبق نيمو هنا . فتهللت نيفرت فرحا وقبلت رأس الهر ووضعت المذبة فى يد نيمو ثم شكرت لوالدتها مسارعتها الى إجابة طلبها . وكانت راتوتى ترسل الى نيفرت من حين الى آخر نظرات الرفق والعطف ، ثم دنت منها وأخذت تطيل التأمل فيها كما لو كانت تعجب بجمالها وقالت متنفسة الصعداء : كنت أريد أن اكتم عليك ما أردت إيراده من الاخبار المحزنة ولكن لم أجد مفراً من ابلاغها اليك ، فدعى اللهو واللعب جانباً وأنصتى لقولى . قالت نيفرت : تكلمى يا أمى فأنى متجهة اليك بكل جوارحى ولا تخافى أمراً فلن تنال من نفسى الاخبار مهما احتوته من بواعث الاكدار . وعندى أنه ما دام طالع مينا فى برج السعادة فقد كفانى هذا الفوز وزيادة . أقول هذا لأن الهواتف جاءتنى بأنباء تفيد وفور الخيرات عنده فدعوت وصليت ابتهاجا بما نبأتنى به . وقد علمت فوق هذا أن الكتاب الذى أرسله أخي اليك لا يتضمن من الانباء ما يشرح الصدر بدليل أننى شهدتك بعد تلاوته تهطل الدموع من عينيك ورأيت على وجهك علامات الغم والاكتئاب نهار أمس كله . قالت راتوتى : حقا فأن أخاك قد جر الينا من الهموم

ما لا قبل لأحد بحمله وأتى من قبيح الفعال ما لطخ شرفنا بالعار . قالت نيفرت : وما الذى ارتكبه من الآثام ؟ أجابت : خسر فى المقامرة مبلغاً طائلا كان يرجو ربحه فقامر على جثة أبيه رجاء الربح فكان نصيبه الخسران أيضاً . قالت نيفرت : ما أشنعه خبراً سيلصق بنا العار إذا لم نلتجىء الى الملك ونستنجد بكرمه ، ولقد عقدت النية على مكاتبته فى أمرنا وهو بلا شك لا يتوانى فى نجدتنا وإنقاذنا من ورطتنا ، اكراما لمينا . ورعمسيس من علو الهمة بحيث يأبى تعريض شرف أسرتنا للامتهان بسبب سقطة سقطها شاب طائش الفكر خفيف الحلم كأخى . نعم لا مفر لى من الكتابة اليه فى هذا الموضوع . قالت ذلك بعبارة تنم على وثوقها التام بنجاح سعيها . فلما سمعت راتوتى هذا البيان ساءها أن ابنتها لم تحفل بالكارثة كما كانت تنتظر وظهر عليها الامتعاض إلا أنها لم تلبث أن ذهب ما فى نفسها من الغيظ وقالت فى سكون وتؤدة : إذن ما رأيك فى نجدة ساقتها الينا الاقدار على غير انتظار ؟ قد وجدت الرحمة الى قلب بعاكر سبيلا فأقبل على انتشالنا من وهدة العار مدفوعاً الى ذلك بصلة الرحم وعاطفة الرفق التى ما زجت دقائق قلبه . قالت نيفرت : بعاكر رجل كريم بلا ريب . . ألا تذكرين افتتانه بى منذ صباه ؟ لا يختلجنى شك فى أنه لم يعرض علينا معونته إلا حبا فىّ إذ ما زال هذا الحب متأججا فى فؤاده . قالت هذا وأغربت فى الضحك وجعلت رأس الهر بين يديها وأخذت تشخص فيه بعينيها ثم أدنته من

رأسها وقالت بصوت الطفلة الصغيرة : أترى يا ماؤ[١] كيف يخلص أصدقاء صاحبتك الولاء لها ويقيمون حتى النهاية على حبها ؟

كادت راتوتى حينما رأت من ابنتها هذه الخفة تتمزق غيظا فقالت : عجبا كيف تكبين على اللعب واللهو بينا يجب عليك الاخذ بناصرى للخلاص من هذا المأزق ومحو ما لصق بنا من العار ؟ انه ليسوءنى أن أراك قليلة الاكتراث بما يرفع من قدرنا بين الناس ، ومع هذا فلست أدرى على من تعتمدين وبمن تلوذين إذا كان زوجك . . فما طرقت الكلمة الاخيرة أذن نيفرت حتى وثبت من مكانها وثبة الهر إذ تلوح له الفريسة وأخذتها العبرة وكادت تقف ضربات قلبها من اليأس ، فأسفت راتوتى لمفاجأتها اياها بقول كان يجب عليها فيه التنقل من العتب اللطيف الى اللوم فالتعنيف ، فخفضت من حدة لهجتها إذ قالت لها بصوت يخالطه الحنان : كنت منذ برهة تفتخرين بأصدقائك لافتتانهم بك والتماسهم رضاءك ، وهو ما لم يكن بمستنكر عليك ، فكفى أن ترشقي قلوب الشبان بسهم من كنانة لحظك لتأتي اليك صاغرة منقادة . ولست أجهل حب مينا لك وتدلهه فى عشقك ، ولكن أما سمعت فى الامثال قولهم « الفراق عدو الحب » «البعيد عن العين بعيد عن القلب » وأن زوجك . . . فقاطعتها نيفرت للمرة الثانية وكان مارن أنفها يرتجف لما عراها من الغضب والاستنكار وقالت : ما فعل مينا من المنكرات ؟ قالت راتوتى بصوت تمازجه الشدة : لم

(١) اسم الهر باللغة المصرية القديمة

يقم لك بواجب الامانة والوفاء بل هتك . . . فلمعت عينا نيفرت غيظا فالقت الهرّ من يديها ووثبت من مكانها وقاطعت والدتها للمرة الثالثة قائلة : مينا . . أمثله من يخون العهد . قالت راتوتى بصوت التأكيد : نعم ! فقد شرح أخوك فى كتابه ما أتاه من قبيح الفعل وشائن التصرف ، وذكر أنه لم يأخذ حصته من الغنيمة مالا أو متاعاً بل امرأة جميلة من السبايا يقال إنها ابنة ملك الدنائم ، وهي الآن فى سرادقه ، فياله من دنىء خائن ! قالت نيفرت وقد روعها هذا البلاغ وجالت فى عينيها الدموع : يا له من دنىء خائن ! ثم كررت هذا القدح مرتين ضاع من بعدهما وعيها وذهب رشدها .

ولقد تمكن الغضب من نفس نيفرت فغير من سحنتها وبدل من حسنها الفاتن بما يصورها للناظر كأنها تمثال يمثل شيطان الانتقام إذ كانت عيناها تلمعان كالبرق حتى كادتا تخرجان من الحجاجين وأنفاسها تترادف فى حلقها زفيراً وشهيقا بسرعة مضطربة وجسمها يرتجف ارتجافا . وقد أمسكت بيد نيمو وزجت به فى غرفة فتحت بابها بعنف ثم أغلقته عليه وعادت الى والدتها فى حالة كانت فيها أشبه بالأسدة اضطرابا وضراوة منها بغادة هيفاء ، وقالت بصوت مبحوح : تقولين عن زوجى إنه دنىء خائن ! فهل هو دنىء خائن حقا ؟ اسحبي كلامك يا أمي اسحبيه وإلا . . فاصفر وجه راتوتى ولكنها عالجت التغلب على عواطفها والتروى فى كلامها فقالت : يبدو لك من قولى ما يقرب من الشدة ولو أمعنت فى الامر نظرك لأيقنت أن زوجك خان عهدك

وترك ودك وفضحك بقبيح فعله وسوء تصرفه : قالت نيفرت هازئة : هذا كذب لا أسمعه ولا سيما إذا كان مفتريه ذلك الشاب المتشرد الذى قامر على جثة أبيه وشرف أسرته . أما زوجى مينا فاشارة منه تكفى لايراد مثله موارد العدم ، وما ذلك إلا لحسن سريرته ولاستقامة أحواله .. انى إذا فرضت يا والدتى أن هذا العمود الذى ترينه أمامى عمود سرادق مينا وأنك هو وأننى رأيتك تجذبين نحو هذا السرادق امرأة فى نهاية الحسن ، فلا يسعنى إلا تكذيب ما رأيته رأي العين أو تأويله بأن بينك وتلك الغادة مناجاة فى أمر خطير . إذ لا أسلم بأن يدخل مينا فى سرادقه ابنة ملك الدنائم لسبب يصدف به عن محبتى وينسيه واجب الولاء لى .. كلا .. وما أخي إلا خائن مائن أراد بافترائه بذر الشقاق بينى وزوجي لغاية فى نفسه . ولو قيل لى أن اوزريس يخون عهد ايزيس وتأكد لى هذا القول فلن اعتقد ان مينا يقتفى أثره ويسير على سنته ، ولو حفت به مائة من الحسان تستميله كل منهن الى نفسها بسحرها الفاتن ولطفها الجاذب ، بل أثق الوثوق كله أنه لن يفضلهن علىّ ولن يتخذ إحداهن بديلة منى .

قالت راتوتي : أسلم جدلا بأن الحق فيما تقولين إلى جانبك ، ولكن لم أراك تسفهين رأيى مع أن لى من صدقه آيات دالات وشواهد قائمات؟ قالت نيفرت وقد بدت عليها علامات الغضب : لست أعارض فكرك ولا أقبح رأيك وكل ما أريده منك الكف عن اغتياب رجل أبيّ النفس زكيّ الخلق ، أخذ على نفسه تسديد الديون الفادحة التى

اقترضتها أنت وولدك وأنفقتها وإياه فيما ضر ولم يفد . وما خطر لى ببال قط أننا سنصير الى حالة من الضيق والفقر يرثى لهما الشامت . ولطالما فكرت فى هذه الحالة وسألت نفسى أين ذهبت خيراتنا الوفيرة من زرع وضرع فلم أقف على سبب زوالها بعد أن نشأنا بها فى عيش ناعم رقيق الحواشى إلا حين علمت أن أخى السفيه الذى بددها فى الميسر . . ولن استحق أن أكون زوجة مينا الشريف النفس إذا سمعت النمائم والوشايات فى حقه وأنا تظلنى سقوف داره . . إن مس السماء لأهون علىّ من النزول الى هذا الدرك . . أما إذا أقمت على رأيك فيه فليس هنا من يستنزلك عنه ، ولكن فلتعلمى مذ الا ن أنه لا مفر لأحدانا نحن الاثنتين من مزايلة هذه الدار على ألا تعود ثانيا اليها .

ما انتهت نيفرت الى هذا الحد من كلامها حتى أخذتها العبرة وانحدرت الدموع على خديها النضيرين وجثت على ركبتيها أمام فراشها وأكبت بوجهها على الوسادة واسترسلت فى البكاء والنحيب ، بينما كان قوامها اللدن يتلوى ويضطرب لشدة ما غشى نفسها من التأثر . فلما رأت راتوتى هذه الحال جزعت فلم تستطع التفوه بكلمة أو القيام بعمل لانها لم تعهد من ابنتها مثل هذه الجرأة وأخذت تسائل نفسها هل أخطأت أم أصابت فيما أفضى الى هذا الحادث . ومع هذا فقد دنت من نيفرت وضمتها الى صدرها وقالت بصوت المشفق : أيتها الفتاة القاسية القلب اصفحى عن والدة أجدر بحنانك وبرك من سواها ، ولا تضاعفى أحزانها . فوقفت نيفرت وبعد أن لثمت يد والدتها انصرفت

الى حجرة أخرى تاركة إياها فى خلوة شعرت معها كأن يداً باردة انحطت على قلبها . وتذكرت فى الوقت قول الوالى إن الانسان لا يصيبه الخير إلا من حيث يخشى الشر فرفعت يدها الى جبهتها شبه المتفكر وظلت هكذا هنيهة عرضت فيها على ذاكرتها ما اشتهر عنها من التؤدة والاقدام والثبات فطرحت جانباً عواطف الرفق والحنان التى كانت تحبب اليها التساهل مع ابنتها وتضخمت في نظرها عبارات اللوم التى وجهتها هذه اليها واشتد وقعها فى نفسها وتوسعت فى تأويل معانيها توسعاً تحول معه لطفها الوالدي الى شدة ورفقها الى عنف ، ثم أنشأت تحدث نفسها : ما العمل وقد ظهر لى أنها ما برحت مقيمة على وده بالرغم عن بعده وتحقق عندى الآن أنها لا تضحي والدتها لحسب بل الكون كله فى سبيل الوفاء له ؟ ان رعمسيس يحب مينا ويعضده ويتفقده برعايته العالية ، فاذا اطلعت نيفرت على مادبرته من الوسائل وأحكمت عقدته من الدسائس مع بعاكر فليس بعزيز عليها أن تمهد لهما سبيل الانتقام منا . . كنت حتى اليوم أكاشفها بأسرارى فتضرب بها عرض الحائط وأنسج شباك الحيل على مرأى منها فلا تبالى بها . أما الآن فأنها لا بد واعية لاقوالنا ومتعقبة لحركاتنا وسكناتنا وسيكون شأنها معنا شأن الابكم الاصم الذى يزول عنه البكم والصمم فجأة بقوة فوق طاقة البشر فيسمع كل شىء ويتكلم بكل شيء . فلأكن منذ الآن على حذر ! لم تبق نيفرت ابنتى المحبوبة بل خصمى الممقوت ورقيبى العنيد ! ما لفظت راتوتى بهذه الكلمات وإنما كانت تناجى نفسها بها ،

وكانت إذ تناجت بهـا تشعر بخوف امتلأ به فؤادها ففتحت الغرفة التى كان بهـا نيمو وأمرته بتحضير المحفة لأنهـا اعتزمت التوجه الى الهيكل وزيارة الجنود المصريين الاسرى الذين فك أسرهم وحضروا أخيراً من الشام ، فقال نيمو : أنسيت يا مولاتى المنديل الذى طلب الوالى أن أحمله اليه ؟ قالت : لم يرد آنى بالمنديل إلا انتحال سبب يحملني على انفاذك اليه . والحقيقة أنه لا يرغب فى غير الاطلاع على أخبار بعاكر والوقوف منك على أسراره وهو أمر عليك هين . قال نيمو : أود ألا يسألنى عن بعاكر لأننى لا أجرأ على إفشاء سره ، والاحسن عندى نسيها أو تناسيها . قالت : حقيقة ان ما وافيتنى به من الاخبار كاف بحاجة اليوم ، فانصرف من فورك الى آنى وابذل معه قصارى الجهد كيلا يفلت بعاكر من يده ، واعتقد أننى لن أجحد معروفك الذى سأكافئك عليه بتحرير رقبتك من ربقة الرق واغداق الخير الكثير عليك ، ولا سيما إذا تحققت الأمانى والآمال . فلثم نيمو طرف ثوبها وسأل : وما موضوع هذه المنى والآمال ؟ أجابت : علمت ما يطمح آنى اليه ويتمنى الحصول عليه ، أما ما أتمناه أنا فشىء واحد ليس غير . سأل : وما هو ؟ أجابت : أن يحل بعاكر من الملك محل مينا . قال : إذن فأمانينا كلنا واحدة . ثم همّ بالخروج فقالت راتوتى : نعم لا مناص من ذلك ، وإلا فأن دامت الحال على هذا المثال وعاد مينا من ميدان القتال وألزمنا بعمل الحساب . . آه . . لا أود أن تفضي الحال بنا الى هذا الامر وإلا فقد لعقنا ما هو أمرّ من الصبر .

الفصل المتمم للعشرين

مناجاة بالاسرار عند الراقصات بالاطار

برح نيمو دار الوالى وفيما هو فى طريقه الى دار راتوتى إذا بطفل قد أقبل عليه وطلب اليه أن يصاحبه الى حي الاجانب قائلا ان امرأة تنتظره فيه ، فتردد فى اجابته الى طلبه . فلما بدا للطفل منه هذا التردد أبرز خاتما علم نيمو بمجرد الاطلاع عليه أنه خاتم الساحرة نيخت ، وكانت قد جاءت الى المدينة لقضاء حاجة لها فرغبت فى مشاهدته لمحادثته فى بعض الشؤون .

كان نيمو قد احتواه التعب وأعياه النصب لضيق خطواته ولأنه لم يكن اعتاد السير طويلا على القدمين ولا استعاض من حماره الذى نفق فى الطريق بحمار غيره يخفف عليه متاعب النقلة ، ولا وجد باسطبلات مينا دابة يركبها بعد أن باعت راتوتى كل ما كانت تحتويه من الدواب إلا ما رأته ضروريا لها ولابنتها . نعم أن فى الاسواق وعلى قوارع الطرقات أولاداً يؤجرون حميرهم المسرجة[1] بأثمان هينة لمسافات معلومة أو لسحابة النهار كله ، ولكنه لم يكن يحمل فلساً واحداً ، وقد انفق كل نقوده فى اقتناء ثياب جديدة يليق أن يمثل بها بين يدى

(١) جاء فى الآثار القديمة ما يدل على ان أهياء قدماء المصريين كانوا يحصون ضمن ما يمتلكونه من المواشى عدد ما عندهم من الحمير وأورد لبسيوس فى كتابه (الجزء الثانى صحيفة ١٢٦) صورة رجل جالس على كرسى معلق بين حمارين

الوالى . وكان جيبه لا يخلو عادة من المال إذ كان مينا يلقى اليه كلما وقع نظره عليه حلقة فضة كما يلقى المرء بعض الحبوب الى الطير . ومع أنه لم يأسف على انقضاء ذلك العهد، عهد الرخاء والرفه والنعيم بل فضل عليه ما يكابده من الفقر والشقاء إذا اقترنا باحتياج الغير اليه واعتمادهم فى المشورة عليه، خصوصاً وقد أصبح من المطلعين على أسرار الحكومة والمتفوقين على كثير من العظماء والمثرين الذين لا يمتازون على عامة الناس وأفنائهم إلا بالتجبر والزهو . دع أنه فوق هذا وذاك كان حظياً برعاية الوالى يجلس اليه ليحدثه بأحوال بعاكر وقائع عشقه لنيفرت ويصب حديثه فى قالب يستفز السامع الى الضحك . ولقد أفضى اليه بأحاديث أخر كان إذا همّ بألقائها يشبه صغار البط تندفع الى الماء بحكم الفطرة أو العصفور إذا انطلق فى الفضاء بعد أن عاش محبوساً فى القفص منذ نقفت عنه البيضة .

ولقد أخذ يزن بميزان الفكر مشروعاته الخطيرة ويدبر لنجاحها التدابير ويحسب لحوادث المستقبل ألف حساب فعدل عن بعضها الى البعض الآخر وبدل من تدبيرات بغيرها لترجيحه نجاح هذه وفشل تلك . وأمعن فى التفكير وأطال فى الأخذ والرد حتى بلغ الى المدينة وسمع ضوضاء المارة فأحس بجلالة قدره وأنه من ذوى الشأن الذين يفحصون أعمال الحكومة ويتدخلون فى شؤونها . وكان فى أثناء مسيره قد مر بهيكل استارته[1] التى كان يعبدها أفراد الجالية الفينيقية

(١) كانت الالهة استارته التى عبدها الفينيقيون تمثل على الاثار بشكل يشبه شكل الالهة سخت

فى طيبة وبمعبد ست[١] ملتقى المؤمنين بديانة (بعل) دون أن يلتفت الى ما كان ينبعث منه من صياح الصائحين ووقع أقدام الراقصين ورنين الصنوج . وعبر بعد ذلك الميدان الفسيح الذى تحيط به مساكن الراقصات الاجنبيات المزينات الصدور بالحلى الاجنبية ، وقد أقبل على مشاهدتهن أهل البطالة والكسل الذين كانوا ينثرون أموالهم فى هذه البؤرة ذات اليسار وذات اليمين وكانت تلك الراقصات تغلق أبواب منازلهن الخشبية فى النهار التماساً للراحة من عناء الليل . وكانت بيوت المقامرة تبيت مفتحة الابواب فيسمع منها قهقهة الضاحكين ومجون المازحين وتشاتم المتنابذين ، وكان همّ رجال الشرطة طول النهار الفصل بين المتخاصمين من المقامرين ، وكانت الحانات غاصة بالسكارى يحسون الكؤوس تلو الكؤوس من غير حساب ولم يكن ليرى بينهم أحد من جماعات المحترفين بالحرف الدنيئة كالموسيقيين المتنقلين والمشعوذين وآكلى النيران والمجان المطايبين والمقلدين وحواة الثعابين والسحرة والنخاسين وغيرهم من المحترفين على اختلاف مللهم ونحلهم .

واعتاد نيمو رؤية هذه المناظر فلم يعبأ بها لا سيما وأنه كان ينفر من الملاهي الخشنة والمناظر المبتذلة ويعاف شرب النبيذ ويميل عن كل

وهي فى آثار ادفو ممثلة برأس أسدة تسوق عربة تجرها الخيول وقد ورد اسمها فى أوراق البردى التى كتبت فى عهد حوادث هذه الرواية مع اسم رعمسيس وجواده وكلبه المحبوبين عنده

(١) اتخذ أحد ملوك الرعاة المسمى أبابى أو أبا توبس ست الها له وتظاهر بانه لا يعبد غيره فى مصر وسمى المصريون بعد ذلك بعلا اله الساميين باسم ست كما يظهر من نص المعاهدة المبرمة بين رعمسيس الثانى وقبائل الحيتاس فقد احتوت هذه المعاهدة التى وجدت فى الكرنك صحيفة منها فيها دعوات للاهين ست واستارته وصحيفة ثانية لالهة مصر وتوجد التفاصيل المتعلقة بالديانة الفينيقية فى مؤلفات بليت وشاباس وبروكش وميير وجورج ايبرس

ما يجنح اليه الهمل والمتشردون بطباعهم الخسيسة من العشق الوقتي الذى لا يكلفهم جهداً فى استمالة المعشوق وغيره مما يكون عليهم فيه الغرم ولغيرهم الغنم . ولم يعبأ فى مروره أمام تلك البيئات المدنسة بما كانت الراقصات يرشقنه به من عبارات التهكم والتحقير كما لم يصغ أيضاً الى ما كان المتفرجون المعجبون بخلاعتهن يصوبونه نحوه من سهام التبكيت ازدراء بهم وحطاً من أقدارهم ، لأنه كان يعلم منهم العجز عن مجاراته فيها . ولقد كان معروفا فى طيبة كلها بالبراعة فيهما حتى أن قيم بيت بعاكر قال ذات يوم لبعض صحبه « إذا كانت ألسنتنا عصياً فان لسان القزم نيمو سيف عضب ماضي الحد »

قصد نيمو الى خباء كبير مخروطي الشكل فرفع ستره البالى وانساب فيه ، وكان هذا الخباء مفروشا ببسط عتيقة جلست عليها غادات فاتنات أسبغن على قدودهن حللا مبرقشة بالألوان . وكانت الى جانبهن عجوز شمطاء تلطخ أظافر أيديهن وأرجلهن بمعجون الحناء وتكحل عيونهن بالمستسم وتدمم[1] خدودهن وتدهن شعورهن بالزيت المعطر . وكان الهواء فى الخباء ثقيلا يكاد لثقله يحبس الانفاس ، وكانت البنات صامتات ساكنات لا يتحركن أحيانا إلا لتناول آنية من الصلصال فيها الماء الزلال ، أو ذرّ الكحل بين شفاههن المدممة . وكانت الدفوف وآلات العزف والطرب على مقربة من اركان الخباء ، ومنها إطار ثبتت فيه صنوج فضة صغيرة ، كانت هرة صاحبة الخباء

---

(١) اى تطلى خدودهن بالاحمر والابيض

وجراؤها تداعبها بأطراف مخالبها فتسمع لها وسوسة خفيفة تغرى تلك الحيوانات الأليفة بتحريكها . وكان تجاه باب الخباء شق تدخل منه وتخرج جارية حالكة السواد ، تحيط برأسها كلما دخلت أو خرجت أسراب الذباب ، فترفع ما فوق البسط البالية من الصحاف المكسورة الحافات ممتلئة بفتات الخبز وقشور الرمان والثوم وغيره مما تركته الراقصات من المأكولات بعد أن اكتفين شبعا وريا .

أما العجوز نيخت التى كانت جالسة على صندوق مبرقش بالالوان الزاهية بجوار تلك الراقصات فقد أخرجت من طيات ثوبها صرة صغيرة ثم صاحت بالجارية وكانت تحرك يديها حولها لتذب الذباب عنها قائلة : خذى هذه الحبوب العطرية واحرقى منها ثلاثاً فيخرج الذباب حالا ، ولى معرفة واسعة بطرد الجراذين من المنازل واستخراج الافاعى والصلال من أوكارها ترفعنى درجات فوق الكهنة والاطباء . قالت احدى الفتيات : دعينا من هذه الأرجاس فأنك منذ نطقت بالرقى على جسمى وأعطيتنى الشراب الذى يجعل المرأة رشيقة القوام لدنة العود أصابنى سعال شديد يكاد يمزق صدرى وينهك قواي انها كا يمنعنى عن الرقص . قالت العجوز : ولكن لا خلاف فى أن جسمك الآن ضامر وقوامك رشيق بعد إذ كنت بدينة الجسم لا تستطيعين لسمنك وترهلك حركة . أما نازل السعال الذى نزل بك فلسوف ينصرف عنك . قالت الجارية : نعم يزول بموتها كما مات غيرها من قبل .

فهزت الساحرة كتفيها مستنكفة ثم وقفت ، فرأت نيمو مقبلا عليها وكانت الراقصات تعرفنه فالتفتت اليه احداهن وقالت : به ! به! يانيمو لقد نما جسمك فصار أضخم منه يوم زيارتك الاخيرة فلفت قولها أنظار صويحباتها اليه وأخذت كل منهن تبث صيحة الذهول : هو ! هو! فلما دنا نيمو من تلك الراقصه قال : وأنت أيضاً لقد كبرت وطال لسانك . فقالت له : ما أعظم خبثك وأقصر جسمك ! قال : كيف يتفق عظم الخبث مع صغر الجسم ؟ السلام عليكن يا ربات الجمال . . لتساعدكن الالهة (بيزا) على اتمام زينتكن . . وأنت يا والدتى مبارك يومك وسعيد نهارك هاءنذا جئت بناء على طلبك . أشارت العجوز إشارة الموافقة على أنها دعته الى الحضور ثم جذبته الى صندوق كانت تجلس عليه وأفضت اليه بسر ثم قالت . يظهر أن التعب قد أضناك فهل جئت ماشياً وحر الشمس محتدم ؟ أجاب : نعم لأن حمارى نفق وما كان معى من المال لا يكفى لشراء غيره أو تأجيره . قالت مازحة : هذا بشير بسعادة جدك وحسن مستقبلك وماذا ربحت بعد ؟ أجاب : لقد انتشل بعاكر مولاتى من وهدة الافلاس ، وكنت منذ ساعة أفاوض الوالى آنى فى موضوع طويل عريض . سألت : ما قال لك وما قلت له ؟ أجاب : قال إنه سيعفيك من الرسوم على أن تهدى لتحقيق أمنيته وبلوغ مراده من بعاكر . قالت : أحب أن يأتى عندى ولو متنكراً . قال : لا أكون داهية فى السياسة ان طلبت اليه ذلك ، وهو رجل خؤوف شديد الحذر . قالت : أصبت لأن المرء إذا تشعبت

مطالبه فلما يستطيع تحقيقها ، بل كثيراً ما يحول أحدها دون انصراف أريحية المحسن الى قبولها جميعاً . . ثم ماذا بعد هذا ؟ . . أجاب : لقد قهر الوالى بجيشه الاحباش الاتيوبين ، وها هو عائد الى طيبة تتبعه الغنائم من أموال واعلاق . قالت العجوز : هذه بشرى ما أحسنها ثم ماذا ؟ قال نيمو : لقد شحذ بعاكر غرار سيفه وأرهف حده . . أما مولاي مينا فلست أوافيك من أخباره إلا بقدر ما معى من النقود . وأنت تعلمين أنى جئت اليك ماشيا . . قاطعته العجوز . ليسكن روعك وليهدأ بالك فلسوف تعود الى مكانك ممتطيا حماراً . ثم انحفته بحلقة فضة وسألته : أعاد بعاكر فالتقى بنيفرت ؟ أجاب : اتفقت لهما جوادث عجيبة . ثم أنشأ يقص على أمه ما وقع بين نيفرت وراتوتى من الجفاء على أثر ما بدا لهذه من وفاء ابنتها لمينا مع بعده عنها . فأصغت العجوز اليه ثم أخذت تقول فى نجواها : آه . . ان هذه الوقائع غريبة تدل على اشتراك طبقات الناس فى الشعور بحيث أن ما يقع فى ظلال الاكواخ والاخبية يحدث مثله فى سامخة القصور ، وكل ما هنا لك من الفرق أن الام تشبه القردة التى يعذبها صغارها فتستعلى هذا العذاب وأن الزوجات يصغين الى ما ينقل اليهن فى حق أزواجهن من الوشايات ويقبلنه قضية مسلمة ، ولكن الحال غير ذلك بالنسبة لسيدتيك ، لقد فنيت راتوتى فى محبة ذاتها وآثرت نفسها على ابنتها بدليل ما خبرتنى به من مبالغتها فى التجمل ، حتى أنها لتنضد الازهار فى شعرها كلما برزت لحضور الاعياد العامة وتراعى التناسب والتجانس

بين ألوانها وألوان ثيابها ولا يهولها أن تضحي كل غال ومرتخص فى سبيل الغاية التى تجدّ لتحصيلها . ألم تحرض بعاكر على قتل مينا وهو زوج ابنتها نيفرت ؟

قال نيمو : ليتك رأيت نيفرت وقد هاج هائجها على أمها ، إذن تعتقدين أنها ليست تلك الايكة التى ألفنا منها السكون والرفق بل أسدة لا تدركها الآساد فى ضراوتها وفروسيتها . قالت العجوز : لا غرابة ما دامت هذه الفادة الفاتنة الحسن تحب زوجها مينا بقدر ما تحب أمها نفسها . ألم يقل الشعراء فيما نظموه من الشعر في مدحها « انها ملآنة بزوجها » و « انها لا تروم سواه » ؟ قال نيمو : لقد شهدت نساء بلغ منهن التدله فى العشق ما يتجاوز حدود العقل ، لكن . . فقهقهت العجوز ضحكا حتى استرعت اسماع الراقصات حولها ثم قالت : إلا أن من تحدثنى عنهن من النساء لم يسلكن مسلك نيفرت وقل أن توجد فى الالف واحدة تضاهيها اخلاصاً لزوجها وهياما به .. ان العشق داء عضال ليس فى قدرة طبيب ان يستأصله من فؤاد كما لا قدرة له على استئصال جرثومة الكسل من نفس الفتاة التى تفغر فاها هناك للتثاؤب . ويا ليت شيطان الداء يذهب بحياة المعشوق فيصبح العاشق إما تعساً ومغضوباً عليه وإما سعيد الجد . ولقد كنت فى شبيبتى ممن سطا عليهم سلطان العشق وما برحت حتى اليوم . . . قاطعها نيمو : ما برحت كيف ؟ قالت وقد تمددت في وضع من يلتمس تبديد الكسل عقب النهوض من النوم : لقد كان ذلك من ضروب

الجنون والجنون فنون . . إن المعشوق الذى ألمع اليه مات من عهد بعيد . وعلى فرض أنه ما زال حياً فقد كان واجبا ان ابقى بحالتى الحاضرة لأن الرجال أشباه ونظائر وليس مينا بمستثنى منهم . سأل : لكن ألم يكن لشيطان الداء الذى ذكرته الآن نفوذ على بعاكر وسلطان ؟ أجابت : ولم لا ولكن بعاكر اعتاد الاستمساك برأيه ولو أدت هذه الخصلة به الى الجنون . . ألم يقتحم الاخطار ويستسهل الصعب ليدرك المنى والاوطار ؟ وعسى اذا استحوذ على نيفرت أن يكسر من حدته ويطفىء من نار غيرته . لقد جريت فى محادثتك شوطاً بعيداً فدعنى أذهب الى السرادق الذى امتلأت بالذهب أكياس المتفرجين فيه على الراقصات ، فلي كلام مع صاحبته . سأل : وأي شأن لك بها ؟ اجابت : تعلم أن وردة ذات جمال يفتن النساك فأنا أريد مفاوضة تلك المرأة فى مكافأتى إذا جئتها بالفتاة لتعلمها الرقص وتنظمها فى سلك الراقصات .

فامتقع وجه نيمو جزعا وقال للعجوز : لا بد لك يا والدتى من العدول عن هذه النية . سألت : ولمَ وتيار النقود يسيل من أيدى القادرين على شرائها . أجاب متلجلجاً : لا أجيزك شراءها . فضحكت العجوز بطنا لظهر وقالت : ما معنى هذا النهي . أتريد التشبه بنيفرت فى دلالها على أمها فتقفى تجاهك موقفها تجاهها . . أم تطمح الى الاقتران بوردة ؟ أجاب : نعم فتلك غاية شريفة أرنو اليها ولقد وعدتنى سيدتى راتوتى بفك رقبتى واغداق الخيرات علىّ إذا نجح مشروعنا وتحقق مأمولنا . وعندئذ لا أتردد فى شراء وردة من جدها فأتخذها

قرينة لى أعيش معها فى هناء ورغد . ومتى تم القران أشيد داراً بجوار دار العدل للمرافعة عن المتقاضين فيها . ألا تذكرين الاقتب (سوك) الذى أقدم على هذا الفعل فأصبح من المثرين والاعيان ، لا يتنقل من مكان الى مكان إلا فى مركبة خاصة ؟ قالت العجوز : حبذا الرأي ، ولكن أما سمعت وردة حينما اعترتها الحمى لا يلهج لسانها بغير اسم الشاب الذى حضر من بيت سيتى لزيارتها ؟ والمفهوم بصرف النظر عن ورود اسمه على لسانها أنها ترضى به بعلا وتؤثره على سواه لسمو مركزه ورفعة قدره ، وليس ذاك الشاب إلا الشاعر بنطاؤر . صاح نيمو : بنطاؤر ذاك الذى يمشى الخيلاء ويلبس جلدة الموهار السابق لشدة شبهه به ؟ حقا لمثله أن ينشد المعالى ويطمح الى غايات المجد ، ولكن فى الامكان مع ذلك كسر شوكته والحط من كبريائه وشموخه . قالت العجوز : نجح الله مسعاك فأنه أحب الىّ أن تصبح وردة قرينة لك لما اتصفت به من الجمال البارع . . ومن يا ترى يعلم أصل . . فقاطعها نيمو : عم تسألين ؟ أجابت : أسأل عمن يعلم أصل والدتها فانه لا خلاف عندى فى أنها أجنبية بدليل الخاتم النفيس الذى وجد معها منقوشاً بحروف لم يستطع أحد حل رموزها . ورجائى أن نبذل عقب قرانك بوردة الجهد فى ترجمة هذه النقوش بمعرفة أحد أسرى الحرب ، والراجح عندى أنها من اسرة طاهرة المنبت كريمة المحتد لما يبدو على وجه ابنتها من أمارات الشرف والمجد . . لم أراك تضحك يا نيمو ألا تدرى أيها الغرّ أن ألوفا من الاطفال عرضوا علىّ

فكنت أعرف بالتأمل فى أقدامهم وبصرف النظر عن ملابسهم إن كانوا من أسر رفيعة أو وضيعة . فان شكل القدم يا بنيّ يدل على الاصل ، وهناك سمات أخرى توصلنى الى معرفته . فاعلم ذلك ولا تهزأ ، وكل ما أتمناه أن تبقى وردة حيث هي الآن دون أن يعرفها أحد لأساعدك على الاقتران بها . وعليك أن تتصرف الآن وأن توافيني بما يجدّ من الحوادث الخطيرة جهد الامكان .

الفصل الحادي والعشرون

— فيما دار من المحادثات باحدى الشرفات —

عاد نيمو الى منزل مينا ممتطياً حماراً اكتراه ببعض ما أتحفته به العجوز من النقود، فلم يجد به ديارا ولا نافخ نار، لان راتوتى كانت فى أثناء غيابه قصدت الى الهيكل ثم الى المدينة . أما نيفرت فكانت خرجت لزيارة صديقتها بنت أنات .

وكان قصر فرعون أشبه بمدينة صغيرة منه بقصر عالى الذرى وثيق البناء منيع الاركان . وكان الجناح الخاص منه بالوالى آنى يشرف على الحلوات والمزارع ، أما الجناح الخاص بسكنى فرعون وأسرته فكان يمتد على ضفة النيل ويبدو للنوتية والمسافرين بحراً فى أحسن رونق (١) ولم يكن البناء فى ذاته متناسق الاوضاع ولا متجانس الاجزاء ، إذ كان عبارة عن بنايات متفرقة فى ثلاثة صفوف تفصل بعضها عن بعض أنهار تتدفق المياه فيها دواماً فيسمع لها خرير لطيف ، وتتدفع فى مجار أعدت لهـا تعلوها قناطر وطيدة البناء تيسيراً للمواصلات من ضفة الى أخرى . وكان يحيط بتلك المبانى الجليلة أشجار باسقة ناضرة الازهار يانعة الثمار تنحط على أغصانها الطيور فتجلو صدأ الهم بتغريدها

(١) يرى بعض المؤرخين ان الفراعنة كانوا يسكنون الهياكل وهو رأى تأكد بطلانه اذ تبين بالبحث فى الهياكل التى ما زالت باقية على حالتها الاولى كهيكلى دندره وادفو أنها كانت خاصة باقامة شعائر الدين ليس الا . اما الفراعنة فكانوا يسكنون بيوتا واسعة مشيدة بمواد البناء الخفيفة في وسط حدائق كانوا يعنون عناية تامة بغرسها

عن الصدور .

وكان يتخلل أسوار الحديقة على مسافات متفاوتة أبواب عالية يقف دونها الاحراس من الجند مدججين بالاسلحة ، ويلزمون مواقفهم فيها ليلَ نهارَ . وكان تجاه كل باب منها ادقال ساريات فى الجو الى علو سامق ، فاذا كان فرعون فى قصره رفعت عليها أعلام حمراء وزرقاء وإلا ثبتت بأطرافها العليا نصال حديد لجذب الصواعق اليها أو صرفها الى ناحية أخرى(١)

وكانت مقاصير الاميرات من هذا القصر الفسيح الى يمين القسم المتوسط منه تظللها اشجار باسقة الافنان وارفة الظلال فيها من كل فاكهة زوجان ، وينطبع مرآها البديع فى صفحات الماء المنساب تحت جدرانها انسياب الافعوان . وكان يليها من الجهة الاخرى مخازن القصر ومستودعاته متراصة متراكنة ، بعضها الى جانب بعض . وتلى القسم المتوسط الخاص بالملك أبنية عديدة وثكنات واسعة للجند والضباط المنوط بهم حفظ القصر وصيانة ساكنيه من الأئمة المعتدين والى يسار الثكنات منازل الحشم والخدم والعبيد وسائر الاتباع ، على اختلاف وظائفهم وتباين أعمالهم .

وكان هذا القصر ، بالرغم من غياب رعمسيس فى حرب الخيتاس ، مظهر حركة دائمة توقع فى يقين الناظرين أن الملك ما برح مقيما به وموجوداً فيه ، فقد كان مئات العمال فى الحديقة دائبين على تعهد

---

(١) يشهد بذلك النقش الذى عثر عليه العالم دوميشن فى هيكل دندره

الاشجار بالتقليم والريّ وغيرهما من وجوه العناية بها، فأذا أتموا هذا العمل انكبوا على غرس أشجار جديدة أو حفر مسارب وقنوات عديدة لجر المياه الى المواضع التى لم تكن وصلت اليها . وكان الجند فى إحدى الساحات يتمرنون ؛ بقيادة قوادهم، على أداء الحركات العسكرية فيبهرون الابصار بلوامع أسلحتهم ويسحرون الالباب برشاقة حركاتهم، وكان الخدم فى ساحة غيرها يدربون الخيول ويكبحون من جماحها . أما الاميرات فكانت حجراتهن أشبه بخلايا النحل، دوامَ حركة وطنين أصوات إذ كان الواقفون بأبوابها من ضباط وعبيد وموسيقيين وتجار وزوار لا يحصى عديدهم .

وصلت نيفرت الى باب القصر المفضى الى حجرة بنت أنات فلم يتعرض لها أحد المتولين للحراسة بتفتيش محفتها ، كما يجرى مع غيرها من الزوار، اذ اشتهر أمرها بينهم بأنها رفيقة الاميرة وصديقتها الحميمة . بل كانوا يسارعون الى التنحي عن طريقها وإفساح المجال لها . وكانوا يطرقون رؤوسهم احتراماً لها ولِكبارها . وقد أقبل عليها أحد الحجاب مهرولا بداخل الحديقة لاستقبالها وصحبها الى ديوان كبير الامناء الذى أحسن لقاءها وصحبها الى مقصورة بنت أنات .

وكانت بنت أنات آنئذ بحجرة والدتها ، وهي عبارة عن بناية جميلة مؤلفة من طبقة واحدة جامعة اسباب النظام . وكانت مقصورة بنت أنات تشرف على النيل وبها نافذات تفضي الى شرفة يحيط بها حاجز نحاس دقيق الصنع تلتف بأجزائه فروع النباتات المتسلقة . فلما دخلت

نيفرت على بنت أنات أمرت هـذه بعض جواريهـا بأزاحة الستار المسدول على تلك النافذة . وكانت الشمس آخذة بالأفول والنسيم يحمل شذا أعطار الازهار والوقت من أوفق الاوقات لما اعتادته بنت فرعون من التأمل فى (رع) الذى أمسى باختفائه وراء سـتار المغرب ، فيما يلى القبور المنطبعة مواقعها على الأفق الغربيّ بحيّ الاموات متسربلا بسربال (طوم) ، تاركا مصر من خلفه الى الاصقاع الخفيـة من العالم السفلى ، حيث مقام الابرار والاخيار ، ينيرهم بشعاعه الساطع اللامع فيبهر منهم الابصار .

ولم يكن بمقصورة بنت أنات من وسائل الزينـة والزخرف ما توافر منها فى حجرة نيفرت التى صرفت راتوتي وميناعنايتهما فى فرشها بالبسط المطرزة الحواشى بالحرير اللازوردي تتخلله أسلاك الفضة ، والكراسى المكسوة بالنسيج الدقيق الموشى بأنامل الحبشيات توشية ترى الناظر فيه صور الطيور ناشرة اجنحتها فتخيلها له مخترقة طبقات الجو صعداً ، وزينتها بدميات الالهة هاتور المرصـعة بأحجار الزمرد ترصيعاً تحار فيه الالباب وبالموائد الحاملة مختلف التحف والطرف ، فمن صناديق صغيرة صنعت من العاج أو حجر اليشب الى أكواب نحتت فى المرمر الناصع البياض الى غير هـذا وذاك من الاعلاق والنفائس التى زادت بهجة المكان فاصبح خليقـا بصاحبته ذات الحسن الفتان .

أما مقصورة بنت أنات فلم تكن بهـذا التأنق البالغ بل كانت ببساطة مفروشاتها وسذاجة أثاثهـا تنم على طباع صاحبتها وعاداتها

وميولها . فقد كان البهو الكبير مرتفع الأزج تخفق فيه الرياح ولم يكن فيه من آثار الزينة والتنميق إلا ما كسيت الجدران به من مربعات الخزف المتعاقبة الاوضاع بحسب لونها ، الابيض فالبنفسجي فالأبيض وهكذا ، وبوسط كل مربع منها شبه النجمة من لون المربع الآخر . وفيما يلى صفوف هذه المربعات بسط قماش أخضر من نسيج مدينة (صا) يتدلى من أطرافه ما يستر الكراسى والأثاث المحيطة بالغرفة التى كان تتوسطها منضدة كبيرة صفت كراسى الخشب من حواليها بشكل الدائرة .

وكانت مفروشات الغرف الاخرى المجاورة لهذا البهو كمفروشاته جامعة بين البساطة والحشمة ، إذ لم يكن بأركانها سوى أصات غرست فيها النباتات النادرة وقوائم من خشب الساسم تحمل مباخر يتصاعد منها الدخان العطري ، الى غير ذلك مما يشير الى شغف الاميرة بالمناظر الطبيعية والتحف النادرة أكثر منها بما يغلب فيه حب الترف على الذوق السليم .

وكانت حجرة نوم الاميرة تليق باقامة أمير من المغرمين بمشاهد الطبيعة ومناظرها البديعة ، أو أميرة جمعت الى الكمال ضروب الحسن والجمال . وما كان ميلها الى البساطة عن عجز فى الانفاق فهي أميرة ابنة أمير يقبض على زمام أمة كبيرة بل عن إيثار للهواء والنور يتخللان حجرتها دون أن يعوقهما عائق من الزخرف الباطل . وكانت الستر مضروبة على نافذات غرفتها ، وهي لم تعتد اسدالها إلا فى حمارة القيظ

فتكون خالفت بذلك نيفرت التى اعتادت أن تحكم غلق نافذتها . .

تحفزت الاميرة للقاء صديقتها وكانت بباب المقصورة فى موقف الخضوع والاحترام ، فوقفت ولمست ذقنها بأطراف أناملها اشعاراً بعطفها عليها ورعايتها إياها كما كان يفعل قدماء المصريين . ثم قبلتها بين عينيها وقالت وهي باسمة الثغر : لقد أتيت اليوم لزيارتى وتفقد حالتى بلا دعوة منى ، وهو ما تستحقين من أجله الشكر ، لا سيما وأنت مذ سافر الجيش الى ميدان القتال ، لم تتخطى لى عتبة . وفى هذا الدليل الناهض على هجرك واطراحك إياي فى زوايا النسيان . فرفعت نيفرت اليها الطرف وأجالت النظر بعينين مغرورقتين بالدموع ، فكانت نظراتها أبلغ فى التعبير عن المراد من البيان باللسان وأدل على ما يخالط القلب من الهموم والاحزان . وقد اضطرت بنت أنات الى قطع كلامها وبعد هنيهة أمسكت بيديها وقالت : أتعلمين يا صديقتي أن لا مثيل لعينيك المتلوزتين وطرفك الساجى سوى عيون الآلهة التى ان رشقت الأرض بسهامها نبتت فى مراميها الازهار الجميلة ؟ فاحمرّ وجه نيفرت خجلا وقالت بصوت متهدج : أود أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانهما حتى الأبد فارتاح من شقائى وأخلص من ذلى وعنائى . ثم تساقطت الدموع على نهديها كلآلىء العقد إذا انفرطت ، فجذبتها بنت أنات اليها جذبة عطف وحنان كما يرفق بالطفل الصغير وقالت : ماذا وقع ؟ فالتفتت نيفرت بعين يخامرها القلق الى السيدات اللائى لزمنها حتى باب المقصورة ، فأشارت اليهن بنت أنات بالانصراف كما

أشارت به الى ضابط التشريفات . ولما استوثقت من انفرادها بصاحبتها وانه لا ثالث لهما أقبلت عليها قائلة : خبريني . . ما دهاك من الاحزان التى غيرت معالم جمالك الفتان ، خبريني كيلا أدخر وسعاً لتخفيف هذه الآلام . أجابت : من لمثلى بلذة السرور والظفر بالمآرب إذا كنت أصبحت ألعوبة بأيدى الاجانب والاقارب . . قالت : لقد أنكرت هيئتك وغابت عنى معرفتك بما نالته الآلام منك . . فأي مصاب دهاك وبغدره رماك ؟ خبريني ! فمن ذا الذى رآك قبل اليوم ولم يخيل له أنك فى منام تتمتعين بلذيذ الاحلام ! أجابت : صدقت فقد كنت حقاً غارقة فى بحار الاحلام حتى أيقظنى مينا ، فلما تركنى عدت الى النوم وها قد مضى عليّ عامان وأنا فى سبات عميق ولكن القوم أطاروا اليوم النعاس من عينى فأصبحت ولا سبيل الى الراحة والسكون .

وكانت بنت أنات فى اصغائها لهذه الكلمات ترى قطرات الدمع منحدرة على خدي نيفرت فأشفقت عليها كما لو كانت من أفلاذ كبدها إذ أجلستها على الأريكة القريبة منها وقعدت هي أمامها تربتها بيديها وتلاطفها ، ثم سألتها عن سبب ما دهاها وكدر صفاءها .

وكانت نيفرت ، لما وقع لها من تلك الحوادث المزعجة ، تغيرت معالمها فاكفهر وجهها وكمد لونها حتى لم يعد أحد ممن عاشوا فى أفقها وخالطوها مخالطة قرابة أو مودة يتعرف عليها . ذلك لأنها وقد فوجئت بتلك الحادثات كانت تشبه من يخلق كفيفاً ثم تنفتح عيناه للضوء على غير انتظار منه فتؤثر أشعته فى عينيه تأثيراً يؤلمهما ، ثم لا يلبث أن يتبين

له أن الاشياء التى وقع عليها نظره تختلف شكلا وحجما ولونا وكيانا عما كان يخمنه لها من الصور فى عمايته وتبدو له حقائق الاشياء فى أقبح المظاهر وأبعدها عما كان يخيله لها من الحسن والاكتساء بغير الثوب الذى برزت له فيه وساء بصره ، فلا ينشب أن يلتمس بعينيه منظراً عليه مسحة من البهاء والحسن . وما أصدق انطباق هذا المثل على نيفرت فانها لم تجل النظر فيما يحيط بها من الكائنات إلا بعد إذ وقعت تلك الحادثات . وقد فكرت آنئذ فيما يمكن أن يفضى اليه الطريق الذى تسير فيه وجددت فى نفسها ذكرى ما وقع لها مع والدتها ، ثم راجعت نفسها متسائلة : لم لا أستلم بيدى زمام بيت أنا صاحبته وسيدة من يأويه من الخدم والحشم ، إذ أنه بيت زوجي ؟ ثم سكتت هنيهة خيل لها فيها أن هاتفاً يناجيها جواباً على هذا السؤال : السبب أن هذا الزوج لم يرَ فيك الكفاءة للتبصر والعمل . وكان مينا يقتصر فى ندائها بقوله « يا وردتي الجميلة » . وما كانت نيفرت فى الحقيقة إلا وردة زاهية يحسن بالمرء أن يطيل النظر فيها اعجابا وسروراً ، أو يستروح رائحتها الزكية . ولكن أيكفى المرء أن يقضى حياته تأملا فى الورود واستنشاق أريجها المعهود ؟ ثم التفتت الى بنت أنات وقالت : لا ريب عندى أن والدتى تحبنى حباً جماً ولكن لا تمر بى خلجة شك فى أنها أساءت التصرف بأموال زوجى . ولقد كنت وهي تنفقها من غير حساب لاهية عنها لا يسأمنى إسرافها ، بل لا أكاد أشعر به وهاءنذه أراها الان تخاف مغبة عودة زوجى وتحسب لها ألف حساب . ومخافة

امرىء تحمل الخائف عادة على كراهيته والنفور منه ثم على تقبيح فعله وتسوئة سيرته ولو لم يكن عليهما غبار . وعلى هذه القاعدة حقدت والدتى على مينا لأنها كانت تخشى عاقبة اطلاعه على تصرفها الضار ، فسلمت بكل ما نقل اليها من الوشايات فى حقه . وليس فيما يسنح للواشي من الفرص ما هو أوفق للسعاية والدس كغياب المقصود بالوشاية . اعتقدت والدتى بمفترياتهم التى رموا زوجي فيها بأنه خان أمانة الزواج إذ جعل فى سرادقه سبية من سبايا الحرب ذات جمال رائق وحسن فائق ... فهلا ترين أن هذه الزعوم تلفيق فى تلفيق ؟ انى لا أريد مخاطبة والدتى بعد الآن لما سببته لى من الاحزان وعملت عليه من سلب راحتى وسعادتى . . ألا ترين أنها بأثارة الشكوك فى نفسى نحو مينا أرادت أن تسلبنى كل شيء حتى الهواء الذى أستنشقه والدم الذى يجرى فى عروقى وعليه مدار حياتى ؟ أما علمت تلك الام الخشنة الفؤاد الغليظة الكبد أن هيامي بزوجى هو سبب وجودى وعلة كيانى فى هذه الدنيا ؟

كانت بنت أنات تنصت الى هذا الحديث فلم تقاطعها مرة حتى إذا أمسكت عنه قالت : تعالى بنا الى الشرفة لأفضى اليك بما عنّ لى من الافكار ومرّ بخاطرى من الهواجس . وأرجو أن يلهمنى نوت الحقيقة ويهدينى الى الصواب ، فأن نصيحتى لك وأنا التى خبرت أحوالك وسبرت طباعك بما يجمعنا من روابط المودة أقل ما أفرضه لك على نفسي فى هذه الآونة . . يسندون اليّ النزق والنهور وعدم التروى ،

ولكن لى أحيانا نظراً صائباً وحكما جازماً فثقى بى أيتها الخليلة الوفية وهيا بنا نسير الهوينا وانى لخير معوان لك على المسير .

وكانت خطرات النسيم تمر مراً خفيفاً على سطح الماء فتبعث فيه تشعريرة تستحيل الى موجات صغيرة تتعاقب فى توازن وانتظام على القرطاس كأسطر الكتابة فى استوائها . وكانت المبانى الكبرى ومنازل الاخصاء تنطبع صورها على وجه الماء والزوارق الكثيرة تعود من مدينة الموتى مقلة المثات من الزوار ، والنيل تتدفق مياهه نحو الشمال كالحسناء تسير فى جلال واختيال ، والشرفة تطل على أبهج المناظر من نهر يتيه عجباً وحديقة أشجارها نواضر ، وكان النظام مستكملا لا يستريب العاقل فى أن المهندس المتقن الذى وضع رسم هذه الحديقة فى عهد الملكة حاتاسو قد أودعه من المبتكرات البديعة ما تعجز عن تنسيقه يد الطبيعة ، فان هذه الحديقة التى تسحر اللب بجمال وضعها وحسن تنسيقها كانت إذا رؤيت من قمة لاحت له كالسجادة الفارسية فى تشعب فروعها واشتباكها وانفصالها واتصالها . وكان من بين أشجارها ما جلب فى السفن الكبيرة من بلاد اليونان وسواحل بلاد العرب وأنفقت فى سبيله الاموال الباهظة . وهي لغرابة أشكالها وأنواعها تلفت النظر وتحير الفكر .

وكانت بالقرب من هذا المكان جزيرة آمون ذات الغابات المقدسة وفيما يليها على الضفة اليسرى من النيل مدينة الاموات بما احتوته من التماثيل المتراصة على صفين متوازيين بين النيل وتمثالي

امينوفيس الثالث الكبيرين ومداخل بيت سيتى وسطوح هيكل حاتاسو وأماكن تحنيط جثث الموتى، الى غير ذلك من المبانى الخاصة التى ترى مبعثرة من بعيد على ثرى الناحية الغربية، وينطبع على الآفاق فيما يلى تلك المدينة خيال جبال (لوبيا) وقد شقت الاخاديد فيها لتغييب جثث الموتى فازدادت تلك الجهة بسكونهم سكونا.

كانت بنت أنات ونيفرت تمعنان النظر فى هذا المشهد العجيب المؤثر مع تطفيل الشمس بعد أن تذبذب قرصها المسجدى فوق الأفق فترة من الزمن. وكانت السحب الخفيفة تجرى فى بحبوحة الاثير غير بادية للانظار، فلما ألحّ غابت الشمس وانعكست الاشعة عليها برزت من خدرها مكتسية بألوان زاهية يخيل معها للرائى أن يد القدرة الربانية نثرت على بساط السماء حفنة من النيلم والعقيق والياقوت فجاءت فى وضعها على تمام التناسب والنظام. ولما شهدت نيفرت وابنة فرعون كوكب الشمس وقد آذن بالأفول بادرتا بالجثوّ على ركبتيهما بحيث يحجب نظرهما عن رؤيته تلك النباتات المتسلقة الملتوية الفروع على حاجز الشرفة، وتفرغتا للصلاة والعبادة. وكان النسيم يحمل اليهما صدى الاناشيد الدينية التى يرتلها الكهان فى هذه الساعة على سطوح الهياكل، فتؤثر فى السامعين تأثيراً يحرك فيهم عواطف التقى والورع. وما أتمتا الصلاة حتى كان الليل أرخى سدوله وخيم على الآفاق، لسرعة زوال الشفق فى جهات مصر العليا بالنسبة للبلاد التى تليها شمالا. وكان كل ما التقى ببصرهما من المرائى سحباً يشبه لونها الورد أخذت تختفى بعضها

تلو بعض كلما ازداد كوكب المساء علوًا فى الفضاء .

قالت بنت أنات : انى أشعر بطمأنينة وطيب نفس عقب ما ادیناه معاً من فروض الصلاة وأقناه من شعائر العبادة فعسى أن تشعرى بما شعرت به . فهزت نيفرت رأسها فدنت بنت أنات منها . وبعد أن أجلستها مالت اليها لتكاشفها بما فى صدرها وتمحضها النصح إذ قالت : أرى يا نيفرت أن قلبك أصيب بجرح أرجو له سرعة الالتئام . . لقد صوروا لك الماضى فى أشنع الصور وأوقعوا فى فؤادك الرهبة من الحال والاستقبال ، فدعينى أخلص لك القول وان يكن فيه ما يؤلمك .. وان كنت مريضة وأنا الطبيب الذى يتوقف على علمه شفاؤك فهل تعي أذنك نصيحتى وهل تأتمرين بأمرى ؟ أجابت نيفرت : كيف لا أصغى ولا أطيع وأنا رهن إشارتك وما مقادتى إلا بيدك ؟ قالت : تعلمين شغفى بممارسة الاعمال واعتقادى أنها أيسر عندى من الاقوال ، ومع هذا يخيل لى انى وقفت على حقيقة حالك وما يجول من الافكار ببالك . أنت تحبين زوجك الذى أقصته عنك الحاجة اليه فى قهر الاعداء ، فلما غاب محياه عن نظرك أحسست بآلام الوحدة تنتاب فؤادك .. وهذا أمر طبعي لا شك فيه ولا مراء . ولكن ألا تدرين أن لى مثلك والداً واخوة فى ميدان القتال يحاربون الاعداء الى جانب زوجك وأن والدتى قبضها الله اليه منذ زمن بعيد وان السيدة النبيلة التى وكل الملك اليها ملازمتى وتسليتى فى وحدتى قد لحقت بها فى السماء فأصبحت مثلك ملقاة فى زوايا النسيان والهجر ؟ . . سرحى الطرف فى أرجاء هـذا

القصر أفتجدين به أحداً غيرى . . ألم أك مثلك وحيدة وأن الوحدة أثقل وطأة على نفسى منها على نفسك ؟

قالت نيفرت : المرأة المهجورة هي التى تنتظر عبثاً عودة محبها الذى أطال أمد حرمانها استجلاء طلعته . سألتها الاميرة : أو تعتقدين بحب مينا وصدق ولائه ؟ فلم تحر نيفرت جواباً لما أخذها من الذهول والحيرة فرفعت يمناها الى قلبها وأشارت بأشارة الايجاب . قالت بنت أنات : ثقي أيتها الصديقة بأنك لسوف ترينه هنا فيسعدك القرب منه . قالت نيفرت بصوت منخفض : أود لو تتحقق هذه الامنية . قالت الاميرة : ما دام الرجاء ملء فؤاد المرء أفلا يسوغ القول بأنه ملك زمام السعادة المستقبلة وجذبها من ناصيتها . . أثق بأنه لو خيرت بين الدخول عداد الآلهة والتحلى بالمزايا العديدة التى اختصوا بها وبين البقاء مع مينا لفضلت ثانى الامرين ، ولكن ألا تملكين الآن مع بعده عنك كنزاً ثمينا هو تذكار السعادة الماضية والهناء السابق معه . . أناشدك المودة الا أنبأتنى ما هي السعادة التى أشعر بها لو تذكرت حوادثى الماضية وما هو الهناء الصحيح الذى أزعم انى عشت فى بحبوحته . . قالت نيفرت : إذا كنت لا تشعرين بالسعادة الآن ولا بذكراها فى الماضى فما هو إلا لأنك سلمت من الحب وتأثيره الشديد فى القلب . . أنت تشبهين البدر مجداً فى السير غير حافل بما حوله من ساطع الكواكب ولا تعلمين ما هية السعادة فى الحياة ولا سر ما يعتورها من الشقاء . سألت بنت أنات : وأي شقاء تقصدين ؟ أجابت نيفرت : أقصد به

آلام الانتظار فى قلب تذكي (سخت) فيه ضرام النار .

هنا أمسكت بنت أنات عن الكلام واسلمت نفسها للخواطر والهواجس ثم رفعت رأسها فجأة وبعد أن أجالت النظر فى صديقتها قالت : لا صواب فيما تقولين يا نيفرت فأنى أعرف الحب كما تعرفينه ، وكل ما هنالك من الفرق بيننا أنك تنتظرين يوماً تتحلين فيه بحلية هي فى قبضة يدك ، وليس بيدى شيء من الحلية التى يطمح فؤادى الى التحلى بها . وما هذه الحلية الثمينة بالنسبة لى إلا كلؤلؤة فى قاع البحر لا أراها ولا أستطيع اقتناءها . قالت نيفرت : اذن أنت تحبين ! الحمد لهاتور ان أودعت قلبك الحنان والشفقة . . ولكن لم لا تأمر ابنة فرعون غواصاً خبيراً بالغوص على اللؤلؤة التى حازت اعجابها والمجيء بها اليها ، بل لم لا تشيرين بطرف بنانك الى تلك اللؤلؤة النفيسة فلا تلبث أن تطفو من قاع البحر على سطحه ثم تدفعها الامواج فتلقيها عند قدميك ؟

تبسمت بنت أنات سروراً بهذه الاستعارات فعمدت الى نيفرت وقبلتها بين عينيها وقالت : لقد ترامى بنا الحديث الى موضوع أنبه خاطرك وأيقظك من سباتك . ولله در أستاذى فى الموسيقى إذ كثيراً ما قال « إذا اتفق وتران وجس أحدهما انسان اهتز له الثانى » . والذى أراه أنه إذا داومت على الكلام فى هذا الموضوع حتى الصباح فستصغين اليه حتى يتم ، ولكنى أود ألا يذهب الوهم بك الى اعتقاد ان هذا هو ما حبب الي ترك الشرفة . وعليه فلتع قولى منك أذن واعية . . انى الآن أعيش فى الوحدة والعزلة مثلك وأحب كما تحبين

ولكنى لست بواثقة ان كان من احبه يقابل حبى بمثله ، ومع هـذا فما يزال السرور أليفى والرجاء فى المستقبل حليفى ، فبم تعللين ذلك ؟ قالت نيفرت : ما أبعد مسافة الخلف بيننا ! قالت الأميرة : نعم نحن الاثنتين على طرفي نقيض ميولا ونزعات ، ولـكن أغاب عنك أننا ما زلنا فى نضرة الشباب ومقتبل العمر وأننا نميل الى الخير . لقد توفيت والدتى وأنا طفلة جاهلة فلم أجد من اعتمد عليه فى تقويم طبعى وتثقيف عقلى ، فشببت بين أناس لا همّ لهم إلا الخضوع لأمرى والمبادرة الى تلبية طلبى ، فى حين أننى كنت الى ارشادهم أحوج منى الى امتثالهم . أما أنت فقد قامت والدتك على تربيتك وعنيت بتهـذيبك ووجهت خطواتك فى سبيل الحياة الكثير المعاثر ، ولا عجب فليس فى الفتيات أحق منك بهـذه الحياة الهنية والسعادة الرضية ، حياة الشمس المنيرة التى تملأ الكون بأشعتها المحيية . إلا أنها مع هذه العناية البالغة لم تفكر قط فى أن تصد ميولك بعزيمة التحرز والاحتياط للمستقبل . فقد جنح فؤادك الخليَ الى مينا فانفتحت لحبه أبوابه فاستقر فيه واستمكن منه بحيث لا تزحزحه عنه قوة بالغة ما بلغت . ولقد انقضت أربعة أعوام لم تظفرى فيها من قربه والتمتع بمخالطته الا بأشهر معدودة . . لزمتك والدتك فى هـذه المدة ولم تفارقك فكنت تتخيلين أنهـا أخذت على عهدتهـا ادارة شؤون منزلك وأنهـا كفتك بذلك مؤونة التعب وأفسحت لك المجال للانكباب على أمر واحد وهو التفكر فى حبيبك الذى طال غيابه عنك . . أعرف هذا يا نيفرت وإذا لم يتصل بعلمى من

قبل فقد اتصل به من عهد قريب . . والذى فهمته ان كل ما وقع تحت مشاعرك فى العشرين الشهر الماضية لا يرجع إلا اليه ولا ينحصر إلا فيه ، ولا عليك من ذلك . إلا أنه خليق بك امعان النظر واطالة التأمل للاعتبار والاستبصار . . تأملى فى شجرة الورد تلك التى تسر الناظر وتشرح الخاطر ، فهي لولا ما يتعهدها البستاني به دواماً من الرجب والتقليم والري والتقويم لما نمت هذا النمو الذى اضطرنا الى اغلاق النافذة وحجب الضوء عن النفوذ فى هذا المكان . . اليك يا عزيزتى هذا الرداء استرى به كتفيك فقد نزل الندى ولم أتم حديثى معك بعد . . إن الهيام بينا قد ملأ قلبك وخطف لبك ، وهو ما استعيذ بالآلهة منه ، فان العشق يشبه على ما أظن شجرة طيبة المغرس ممتدة الافنان وارفة الظلال لا شجرة تنبت من أى بذر أودع أرضاً ما . . ولست بمنحية عليك بلوم ولا محيلة بتعزير ، لأن من تعرض لتهذيب خلقك وتثقيف طبعك فاته الالتفات الى ما فطرت عليه من شدة المراس وسرعة الجماح . . ولقد كنت مثلك أيام كان شعرى مرسلا الى جبينى إذ لم أطع لأحد أمراً ولم أفعل الا ما رسمته لى الاهواء الصبيانية بيد الطيش والنزق . وانما يميزنى عنك أننى لم انخدع بما كانت الاحلام تزينه لى من الاوهام ، بل كنت أميل الى الحقائق المحسوسة فشاركت إخوتى فى ألعابهم التى كانوا يمرحون فيها ويهوشون ، وعنيت بتربية الكلاب والخيل والطيور الجارحة حتى كان أهلى وذوو قرابتى وخلطائى ينعون علىّ هذه الميول التى اختص بها الذكور دون الاناث . وكانوا

كلما غالوا فى نعيهم وتعييرهم ضاعفوا فى نفسي الميل الى التشبه بالرجال والاقتداء بهم فى جميع الاعمال .

ما استقرت هذه الاقوال فى أذن نيفرت حتى هبت قائلة بصوت الاستنكار : أما أنا فلن أروم لنفسي ما رمت أنت لنفسك . قالت الأميرة : ان تنكرى على هـذا الميل فما هو إلا لأنك زهرة جميلة ووردة نضيرة ، أما أنا فما ناهزت الخامسة عشرة من العمر حتى شعرت بالسأم من الحرية التى كان مجالها منفسحاً أمامى بحكم مركزى وزادنى ضجراً أن أكون على الدوام مظهراً لأداء الفروض الواجبة لى من مسارعة الى قضاء مطالبي وتنفيذ لكل رغائبي، وماسبب تحولى فجأة عن هذه الاحوال إلا أن والدى دعانى منذ أربعة أعوام أي قبل زواجك بقليل الى ملاعبته بالضامة[1] وكان من أمهر الناس فى هذه اللعبة وأكثرهم تفوقاً فيها ، فاتفق يوماً أن غلبته دفعتين ، وبدا لى أنه كان يفكر فى أمر ذى بال ففرحت لفوزى عليه وقلت له بعد أن قبلت رأسه ويديه : عجباً أن تقهر فتاة صغيرة الاله العظيم الجبار الذى صرع الاجانب وطرحهم عند قدميه[2] . فابتسم ثغره وقال : تغلب الالهات الآلهة أحياناً . . أو لم تكن الهة النصر عندنا امرأة وهي نيخت[3] . ثم انتقل من الهزل الى الجد فقال : يقولون عنى اننى أحد

---

(١) يرى فى مدينة أبو رسم غريب يمثل رعمسيس الثالث لارعمسيس الثانى يلعب هذه اللعبة مع ابنه

(٢) تكرر هذه الجمل عادة فى رواية حوادث الانتصار

(٣) كان اليونان يسمونها (ايلثيا) وتسمى ايضا الهة الجنوب المضادة لالهة الشمال (بوتو) وكان قدماء المصريين يعتقدون أنهـا تطير فى دورة نسر كاسر امام الجنود المصرية التى يقودها فرعون

الالهة وهو وصف أراه غير مطابق للواقع ، فأنى لم أشعر قط بزناد الربوبية يقدح فى قلبى إلا إذا قمت بعمل كبير ثوابا كان أم عقابا (١) فقيم أشبه الآلهة إذن إلا فى القدرة والمثابرة على العمل .. وقعت هذه الكلمة من فؤادى وقوع البذور السليمة من المغرس الطيب إذ تنبهت لما ينقصنى من صفات الكمال ، فلما سافر والدى وزوجك الى حومة الوغى يتبعهما مائة الف مقاتل عقدت النية على الاقتداء بهذا الوالد الرحيم فى القيام بجلائل الاعمال لاستحق نعمة الانتساب اليه فاسكنت تلك المنازل التى ترينها وراء الاشجار هناك ثلاثمائة فتاة وأمرتهن بغزل الكتان ونسج اللفائف اللازمة لتضميد الجرحى . وهن يعملن بادارتى وتحت رقابتى ، وعهدت الى طائفة من الغلمان وفريق من الشيوخ انتقاء الحشائش والنباتات الطبية من الجبال واصطناع العقاقير والمراهم منها ، بناء على أوامر الاطباء وارشاداتهم . وقد كف الطهاة فى مطابخ القصر عن تجهيز الاطعمة اللذيذة والمآكل الشهية للمآدب الرسمية ، إذ أمرتهم بتجفيف اللحوم للعساكر كى يتمكنوا من اجتياز الفلوات بلا كبير عناء كما أمرت المتولى حفظ الانبذة بنقلها من دنان الفخار الى القرب الجلدية ثم يفرغها فى قناتى تسد فوهاتها بفدامات مدهونة بالقطران أو القار ، صونا لها من تطرق الفساد اليها أثناء نقلها وتوزيعها على الجند لتوري زناد الحمية والغيرة فى قلوبهم . كنت أتولى هذه الاعمال فوق اشتغالى

---

(١) ان الرموز التى ترى بايدى الفراعنة وبعض الالهة فى النقوش والتماثيل هى المجن والكرباج وهما اشارتان رمزيتان معناهما ان واجبات الملوك تنحصر فى المثوبة والعقوبة وفى العفو والقصاص

بمراقبة البنائين فيما أمرت بتشييده من الابنية أو ترميمه أو توسيعه وبهذه المثابة تنقضى الايام فى صالح الاعمال فحجبت الآلهة عنى الاحلام المرعبة ومنعتها من التحويم حولى بينا أذوق لذة المنام ، بل كنت كلما طرحت نفسى على الفراش فجأنى النعاس وأظلنى بجناحيه الهادئين فلا أنتبه إلا فى الصباح . ما ذلك إلا لأنى رضت نفسى على أداء ما فرضته عليها من الفرائض ومارست الاقتداء بوالدى الذى كان كلما خيلت لذهنه وتمثلت لخاطره سرته رؤيتى وافتخر ببنوتى . . فهل لك يانيفرت أن تشاركينى فى العمل النافع ليذكرك مينا فيفتخر بك ويعظم قدرك !

لزمت نيفرت الصمت وأطرقت رأسها رويداً رويداً حتى لمس نهدي بنت أنات ثم عانقتها وأخذت تذرف من عينيها دموعاً غزيرة كالطفلة الصغيرة ، وعالجت بعد ذلك الجلوس فى مكانها الأول قائلة بصوت شبه المبتهل : نعم خذى بيدي الى المدرسة .. الى دار الصناعة ، ارشدينى الى العمل النافع لأقوم بالفرض الواجب . قالت الأميرة وقد ابتسم ثغرها : لقد كنت من قبل عالمة بأنه لا ينقصك إلا الاعتماد على يد صادقة أمينة تأخذ بك الى الغايات الشريفة والمقاصد العالية ، ولا تنحرف عن جادة الصدق . أما الآن وقد وفقت لهذه اليد وأرادت بك الآلهة خيراً ، فلسوف تعالجين آلام الانتظار بمرهم الصبر وتعلة النفس . وعليك الآن أن ترجعى الى والدتك ، فقد أزف الليل وكاد يبدد بظلمائه جيش النهار ، وأن تعامليها بما فرضته الالهة عليك من

الاحترام . وسأحضر فى الغد لأرجو منها أن تفوض أمرك اليّ ، فهل رضيت يا حبيبتى أن تقومى فى هذا القصر مقام صديقتى التى اختطفتها المنية من بين يديّ ؟ . . لا يمضى يومان حتى اكون أعددت لك هذا المكان لتشاطرينى فيه من الأعمال ما سوف تشعرين بلذة إنجازه . وانى لألتمس من الآلهة أن يباركوا فى هذه المشاركة وأن يغدقوا عليها الخير والبركة .

الفصل الثاني والعشرون

زيارة للاموات وتعظيم للرفات

كان نبسشت فى أثناء المحادثة بين نيفرت وبنت أنات جالساً تجاه بيت المحنط ينتظر عودته بذاهب الصبر ، وقد تنازعته الهواجس لقلقه عليه وشوقه الى تعرّف نتيجة المهمة التى عهدها اليه ، ولكن هذا القلق لم يلبث أن زال تجاه ما كان يعتقده من فائدة تلك المهمة للمجموع، لما ينبنى على تشريح القلب من بيان حقيقة وظيفته العضوية . وقد ظل هادىء الروع مطمئن الفؤاد فترة من الزمن عاوده من بعدها القلق بما ضاعف هواجسه وروّع نفسه وقلقل شخصه .

وكانت وردة طريحة الارض على مرأى منه ، فمرت به فى ذلك الانتظار ساعات طويلة كان يجيل خلالها النظر فى محاسنها الشائقة ويمتع النفس بآيات جمالها النادر ويفكر تارة فى والدها الجندى الذى ذهب الى بلدة هرمونتيس وطوراً فى جدتها التى لم تستطع التخلى بعد عن حرفة الندب والعويل على الموتى . فقد كانت ، وهو غارق فى تيار هذه الهواجس ، ترسل شعرها الشعث حول جسمها وتلطخ صدرها وجبهتها بالطين وتبعث فى الفضاء صيحات الشجو والحزن فى انسجام وترادف ، مع نحو المائة من العجائز يستثرن بذلك كوامن الاشجان فى النفوس حزناً على الموتى الذين كانت تأتى بهم الزوارق الى وادى المقابر ليغيبوا

فى بطونها أبد الآبدين .

وكانت وردة ، والشمس آفلة ، لا تزال ملقاة على ظهرها تحت الظلة التى أقيمت لتقيها حرارة الشمس. وكانت تبدو على وجهها الزاهر علائم السأم والضجر وانفكت غدائرها التى تخللتها قطع القش . فلما دنا منها الطبيب ليجس نبضها ألوت عنه وجهها فانصرف عنها ، ولكنه عندما غابت الشمس خلف الجبل اقترب منها وقال : لقد بدأنا نحس البرد أفتريدين أن أحملك الى داخل الكوخ ؟ أجابته بصوت الحانق : دعني وشأنى وابتعد عنى ، فلا زلت أشعر بالحر وقد زال الألم المبرح وصرت أقدر على القيام والدخول وحدى . على أن جدى وجدتى لا يلبثان أن يصلا الآن الى هذا المكان .

ما كاد يرن صدى هذه الكلمات فى أذن نبسشت حتى تراجع الى الخلف وجلس على قفص الدجاج ، وقال متلعثما كعادته ، إذا أخذته سورة الغضب : أتحبين أن ابتعد عنك أكثر من هذا ؟ أجابت : ابتعد أو لا تبتعد فالشأن شأنك . قال : لا أرى فى لهجتك شيئاً من الرقة واللطف . أجابت : لست أطيق شخوصك فيّ ودوام اتجاهك الي مع شدة قلقي على جدى الذى رأيته صبيحة اليوم على غير عادته ، إذ كان يناجى نفسه بكلمات فهمت منها أنه يشكو مر الشكوى من فداحة الثمن الذى تريد أن تتقاضاه لمعالجتى . وقد ردّد لسانه أنه سيموت ، وسألنى الا أنساه أبداً والا أمحو صورته من صحيفة قلبي . . فأين هو الآن يا ترى وماذا هو صانع . . لقد مضى ميعاد حضوره وأنا تائقة الى رؤيته .

قالت وردة ذلك وأجهشت بالبكاء فانقبض صدر نبسشت ووخره ضميره حينما فكر فيما طلبه من الشيخ تلقاء معالجته حفيدته . . وقد كان واقفاً على نصوص القانون وموقناً أنه إذا فوجىء بينم وهو يسرق قلب إنسان أو يستبدله بقلب حيوان فلا مفر له من العقوبة اعداماً بالسم .

وكان الليل قد أرخي سدوله ، فكفت وردة عن البكاء وقالت للطبيب : أظن أن جدى قصد الى طيبة فى اقتراض المبلغ الجسيم الذى طلبته أجرة علاجك إياى . ولكن لم يحمل نفسه هذا العناء وهذا الشقاء ولدينا الخاتم الذهبي الذى تفضلت علينا به الاميرة بنت أنات ونصف الغنيمة التى جاء والدى بها من الشام وما ربحته جدتى من المال فى مزاولة الندب والاعوال فى العامين الماضيين . ألا يكفى كل هذا لدفع أجرة الطبيب ؟ . .

فاهت وردة بهذه الكلمات بصوت المعنف الاسف الحزين ، فلم يحر نبسشت جوابا بل لزم الصمت . ومن أين كان له أن يجاوب ، وهو لو قال (نعم) لخالف الحقيقة التى يحترمها ويصون كرامتها وتعدى حدود واجباته التى تحرم عليه التماس مال فى مقابل عمله . ومع هذا فقد اقتضى ما هو أغلى منه وأعلى . عندئذ تجاوب فى أذنيه صدى نصيحة الشاعر بنطاؤر ، محذراً إياه من الاجتراء على سلب قلب الانسان لتشريحه ، فتضاعفت أشجانه وتراكمت أحزانه واشتد الحرج على صدره وضاقت الدنيا بما وسعت فى وجهه .

وقد سمع وهو فى هذه الحالة عواء بنات آوى ، تردد صداه الافاق فعمد الى قضيب النار[١] فاشعل به قطعة من القار ، ثم لم تلبث الهواجس ان انتابته فأخذ يسائل نفسه عن وردة ومصيرها لو مات جدها وجدتها ولم يبق من يعنى بأمرها . ولزم الصمت برهة ثم قال مناجياً نفسه بأنه إذا لم يعد الشيخ بينم فسيطلب من المحنطين[٢] قبوله فى طائفتهم . فان أجابوه الى طلبه ، وهو ما لا يرتاب فيه بسبب ما اشتهر عنه من المهارة والحذق فى علم الطب ، اقترن بوردة وكفاها مؤونة الحاجة . وظل هذا الخاطر يساوره حتى استمكن من نفسه وعقد النية عليه ، وقال إنه بهذا القران يعيش فى عزلة عن الناس لا يهمه من شؤون الحياة الا أن يتحرى رضاءها ويتفرغ للبحث فى تركيب القلب ، بتشريحه قلوب من يكلف بتحنيط جسومهم من الموتى . ولم يكن نبسشت طموحاً الى المعالى ولا منصرفاً الى التماس الرتب ولا طامعاً فى احتياز الثروة ، ولهذا كان يعتقد أن ما سيعترضه من الشدائد والمحن فى طريق الحياة سيمهد له نيل بغيته من ابحاثه الطبية التشريحية التى مافتىء يشتغل بها ويفكر فيها ليل نهار .

وعدا هذا فانه لم يكن ميالا الى الوعظ الدينى ولا الى العمل لاعادة المنشقين والخارجين الى حظيرة الدين . دع أنه لم يكن من

---

(١) تتضمن الاشارة الهيروغليفية (سام) صورة قضيب خشب جاف اذا حك حكا شديداً يحدث آخر تطاير منه الشرر واشتعل

(٢) كانت هذه الطائفة باقية فى عهد الامبراطرة الرومانيين وتحتوى اوراق البردى المكتوبة باليونانية بيانات مفيده عن أنظمتها

أصحاب الكبرياء الذين لا يتطلبون من وراء أعمالهم الا الظهور بالباطل على أهل أفقهم . ولهذا كان يرى أن ابتهاج المرء بالحياة ينبغى أن يقوم على أمرين مزاولته أعماله الشخصية وقيامه على شؤون أسرته . ولقد قضى ثلاثة أيام فى جوار وردة نسي فيها فروض الدين وواجبات الكهان، فلم يغير ثيابه ولم يسوّ شعر رأسه ولحيته ، ولم يتوضأ بالماء . وكثيراً ما أحس كأنه أصبح من شذاذ الآفاق والمتوحشين أو من المحنطين الذين يضع الجمهور من أقدارهم ويرون أنهم من أفناء الناس وأحطهم دركا فى الاجتماع الانسانى ، فكانت ترتاح نفسه لهذا الانحطاط وهذه الضعة مادام أنهما هما الوسيلة الى وردة ، تلك الحسناء التى ظلت طريحة الارض أياماً شعثاء الشعر تبث الشكوى من الألم الذى نابها . ولقد سألته هذه الفتاة فجأة : ألا تسمع صوتاً يا طبيب ؟ فأعار نبسشت بأذنه الى مصدر الصوت فاذا به هرير كلاب ووقع أقدام على الصخر الصلد . وما كاد الظن فى نفسه يتحول الى يقين حتى ظهر له الشيخ بينم وامرأته وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التى كانت التقت بهما فى طيبة فرافقتهما فى العودة منها . فتنفس الطبيب تنفس من زالت عن صدره العلة وصاحت وردة : لقد غبتما زمنا طويلا حتى أزعجنى الخوف . قالت العجوز : كيف ولست وحدك ؟ ثم دخلت الوجار لتهيئة الطعام بينا بينم يجثو على ركبتيه بالقرب من وردة لملاطفتها ومداعبتها . ولما نهض واقفاً سلم نبسشت كيساً من القماش الخشن كان يحمله على كتفه وقال : القلب الذى طلبته ستجده فى هذا الكيس فخذه ثم رد الكيس

الي" لأنه يحتوى جميع أدوات الجراحة وآلاتها مما أستعين به على صناعتى وأقضى بها حاجتي .

فدس نبسشت يده فى الكيس وأخرج منه القلب فوضعه فى علبة العقاقير الطبية . وقد كاد يطير فرحا بفوزه فدنا من الشيخ وقال : خذ هذه الورقة المكتوبة وعلقها في عنقك ، فاذا فجأتك المنون آجلا أو عاجلا فسأضع كتاب « خروج الايام » فى لفافات الكفن الذى سيدرج فيه جسمك فتغدو ولا فرق بينك وبين الأمراء والملوك . وقد لا أقتصر على هذا الاحتياط للآجل فأرسل اليك عاجلا كل ما ورثته عن والدى من المال الذى ما برح أخي الخبير بالمعاملات الدنيوية يدفع لى أرباحه منذ عشر سنوات .

فتسلم بينم منه الورقة فلما أتم الطبيب كلامه ، وكان يسمعه فى روية وسكون ، قال له : أما أموالك فخلها لنفسك ، ومتى شفيت وردة لا يدين أحدنا الآخر بشيء . قال الطبيب : هي الآن على وشك الشفاء ، ولكن لمَ ترفض هديتي ؟ أجاب : انى الى هذا اليوم من حياتى الطويلة لم أبذل ماء وجهى فى اقتراض مال أو التماس صدقة ، أفتريدنى الآن ، وقد قوس ظهري الهرم ، على فعل ما لم أفعل فى الشباب . حياة بحياة . ذاك كان شرطنا الذى عليه اشترطنا . واعلم أن خزائن رعمسيس لن تعدل جزءاً مما وافيتك به اليوم .

فأطرق نبسشت رأسه عجزاً عن الاجابة على هذا القول ، وبرزت العجوز من الوجار فوضعت على الارض صحفة من العدس وشيئاً

من الفجل والبصل (١) ثم دخلت بوردة فيه ، وقد أبت هذه أن يحملها أحد فسارت على قدميهـا . وعادت العجوز بعدئذ فرجت من الطبيب أن يتناول ذلك الطعام . فأجابها الى رجائها لأنه لم يكن ذاق منذ أمس الدابر ما يحفظ به الرمق ويمسك النفس . أما العجوز فدخلت عنـدئذ الوجار فقال نبسشت لبينم : وقلب من هـذا الذى جئتنى به ثم كيف انتزعته من بين جنبى صاحبه ؟ أجاب بينم : خبرنى قبـل كل شيء ، لم أكرهتنى على ارتكاب هذه الجناية ؟ قال نبسشت : سببه انى أحب البحث فى قلب الانسان للوقوف على سر تركيبه لأننى متى وقفت على هـذا السر استطعت معالجة القلوب العليـلة . فوجم بينم لما انتابه من الهواجس ثم سأل : أوما تقول صحيح ؟ أجاب الطبيب : نعم انه لـكذلك . قال بينم : لقد ارتاح الآن ضميرى واطمأن قلبى ، ومما يزيدنى اطمئناناً انى أراك تعالج الفقراء . قال نبسشت : ابذل فى علاجهم نفس العناية التى أعالج بهـا العظماء والاغنياء . . وهل لك أن تخبرنى الآن أين وجدت هذا القلب ؟

التقط بينم قطعة من الحجر الصلد وأخذ ينحتها بحذق ليتخذ منها مدية ماضية الحد ، ثم شرع يحدث الطبيب بمـا يأتى : وجدت فى بيت المحنطين ثلاث جثث نيط بى عمل القطوع الثمانية المقررة فيهـا بالمدى

---

(١) هكذا كانت اطعمة المصريين فى الغالب ، يثبت ذلك النقوش التى تمثل الفجل والبصـل والثوم على الآثار القديمة . وقد اكد هيرودتس (فى الجزء الثانى من كتابه) ان ثمن ما استنفده العمال الذين بنوا اهرام كيوبس فى الجيزة من هذه النباتات يبلغ بنقود عصرنا ٣٦٠ الف جنيه مصرى

الحجرية . ومفهوم أن الموتى اذا جردوا من ملابسهم وطرحوا أمامى على المائدة الخشبية ولم يبق بهم حراك ولا أثر للحرارة يدل على كمون الحياة فيهم فقد تعذر علىّ التفريق بين الأمير منهم والحقير ، ذلك لان جثة الشحاذ كجثة الكاهن الاعظم يعتريها الهمود والخمود فلا تبدو منها حركة . ولكنى كنت مع هذا عارفا بحقيقة الاجسام الثلاثة المطروحة أمامى ، فالجسم الضخم الاوسط كان لـ (رونى) نبي هيكل حاتاسو لانى قبل مماته شهدته أكثر من مائة مرة وهو فى محفته المدجلة بالذهب . أما الجسمان اللذان الى جانبيه فكان أحدهما لرجل مسكين من ناحتى الاحجار فى المقالع ، والثانى لامرأة من حي الاجانب توفيت بالسل الرئوى .

فلما أتممت القطوع الثمانية فى الجثث الثلاث بدأ الناس كالعادة يرمونني بالاحجار . فلما انتهوا من فعلهم استأنفت العمل مع زملائى فى تحضير باطن الجثة فوضعنا أحشاء النبي رونى فى إناء مرمر ناصع البياض وألقينا أحشاء الرجل والمرأة فى بطنيهما . عندئذ أنشأت أسائل نفسى قلب من من الثلاثة أسرق وبأيهم ألحق هذه الخسارة الكبيره فاتجه خاطرى طبعاً فى بادىء الأمر الى الرجل والمرأة الفقيرين ، لأن الفقراء كبش الفداء فى كل زمان ومكان ، وسرعان ما دنوت من جثة المرأة التى قضت حياتها فى الموبقات . الا أننى سمعت هاتفا بل شيطانا يصوت بى « لقد كانت هذه المرأة منكوده فى حلها وترحالها على ظهر

سب[١] فلا تسلب قلبها فتسلبها معه نعمة السعادة والهناءة في العالم الباقي». وما استقر نداء هذا الهاتف في قرارة سمعي حتى تراجعت عن جثة المرأة وانصرفت الى جثة الحجار، فأول ما وقع بصري على يديه النحيفتين اللتين جعلهما ادمان العمل أقسى من يديّ. وما كدت أصل اليها حتى سمعت ذلك الشيطان يودع أذنيّ مثل ذلك الكلام، فتقهقرت الى الخلف فاذا أنا تجاه جثة النبي رونى، وكان قد مات بالفجأة لتدفق الدم في رئتيه. وخيل لي آنئذ أنني أراه ماراً أمامي في محفته الذهبية أو متفرغاً لاستقبال المدعوين الى مآدبه الشائقة، وتذكرت ما تمتع به من نعيم الحياة الدنيا. وحينما رأيتني وحيداً بعيداً عن أعين الرقباء فما أسرع ما أخذت قلب الخروف الذي في مخلاتي وجعلته في مكان قلبه.. وقد أكون بهذا العمل أثقلت كاهلي بالذنوب، ولكني موقن أن له فيما سيعلق بجسمه من ألوف الاحجبة والتمائم وما سيوضع في مكان القلب من الجعلان[٢] والكتابات المقدسة التي ترشده الى الجهات الخفية خير معاض له عن قلبه. وبعد فما نسيت قسمك الذي أقسمت فهل أنت له ذاكر؟

فمد نبسشت يده الى الشيخ قائلا: نعم خذ هذا الدواء واعطه وردة على أربع دفعات، فأنها تشفي سريعاً. ولسوف أعودها واتفقد

---

(١) سب اله الدهر والزمن وكان قدماء المصريين يعتقدون في دوام المادة وتجددها بدون انقطاع ولذلك كانوا يرمزون باله الدهر (سب) للدلالة على الارض ايضا

(٢) كان قدماء المصريين ينقشون على الجعلان الكبيرة المصنوعة من المرمر والبشب السادس والعشرين والثلاثين والرابع والستين من فصول الموتي التي موضوعها الكلام على القلب ووظيفته ومصيره.

حالتها . أما أنت فانصرف الآن لتلتمس الراحة بينما أقضى خارج الكوخ ردحاً من الزمن ثم أزايله قبل اختفاء كوكب ايزيس[١] لان القوم فى بيت سيتى ينتظرون عودتى .

لما خرج الشيخ فى اليوم التالى من كوخه لم يجد الطبيب بل رأى فى موضع النار خرقة ملوثة بالدم ، ففهم على الفور أن نبوشت لم يطق الصبر فانكب على تشريح قلب الكاهن رونى والبحث فيه ، فارتاع فؤاده وارتعدت فرائصه وبكته ضميره لانتزاعه هذا القلب من جوف صاحبه . ولبث تنتابه الهموم حتى أشرقت الشمس فى زورقها الذهبي فجثا على ركبتيه وأخذ يصلى ويبتهل اليها أن تقى وردة وإياه شرور العالم . ثم همّ واقفاً رابط الجأش بالايمان مطمئن القلب بما وعده إياه الطبيب . وبعد أن استأذن من زوجته ووردة بالانصراف تناول مديته الحجرية ومشبكه النحاسى[٢] وانصرف قاصداً الى دار التحنيط .

وكان هذا المكان سحيق البعد عن كوخ المحنط ، إذ كان بسفح الجبل على مقربة من الصحراء جنوبي بيت سيتى . وكان قائماً على منبسط فسيح من الارض تحيط به أسوار عالية بأحدها باب يواجه النيل ، وكان خاصاً بدخول الجثث . أما المنوط بهم التحنيط والتمليح ونسج اللفائف وتحضير الماء فكان لهم باب آخر يدخلون منه ويخرجون ،

---

(١) هو كوكب سوتيس او الشعرى اليمانية

(٢) أكد المؤرخ هيرودتس ان قدماء المصريين كان يستخرجون نخاع الموتى من أنوفهم بمشبك نحاس . ولاحظ العالم زرماك بالبحث فى المومياوات المحفوظة بمتحف براج أن غضروف الانف منتزع منها وهو ما يؤيد قول هيرودتس .

وبداخل الاسوار بيت خشبي أعد للكهان يقضون فيه النهار لتلقي طلبات أهل الموتى والطاعنين فى السن الذين يرغبون ، قبل أن يدركهم الموت ، فى اعداد التوابيت التى ستودع جسومهم .

وقلما وصل ينم الى هـذا المكان كان نحو خمسين رجلا وامرأة مزدحمين به ، يقدمون الى الكهنة تلك الطلبات أو يشترون مايختارونه فيه من المصنوعات، فقد كان به عدد كبير من التوابيت المختلفة الاشكال والالوان المتفاوتة الدرجات من الساذج الرخيص الثمن الخالى من كل أثر للنقش الى المنقوش بالالوان الزاهية البديعة ، وغير هذا وذاك الشيء الكثير من اللفائف الدقيقة الناعمة أو الغليظة الخشنة مصفوفة على الرفارف لتتبينها الانظار ويفرّها المشترون أدق فرار . وكانت اللفائف تنسج فى طيبة مبصومة بطوابع آلهات النساجين الثلاث وهن (نيث) و (ايزيس) و (نفتيس) .

وعدا هذا كله فقد كان معروضاً للبيع الشيء الكثير من التمائم والاحجبة وأدوات الزينة الموتى كالعقود والجعلان والمناطق والمساند والمثلثات والحلقات المكسورة والمدرجات الخشبية والمعدنية والصور الرمزية التى تناط بالموميات أو تدرج فى اللفائف المقدسة . وكان الناس يشترون غير ذلك قطعاً من الفخار مخروطية الشكل يصفونها حول الموتى لتكون حداً وأرفة بين كل مدفن أو قبر ومجاوره من المدافن والقبور الاخرى ، كيلا يقوم نزاع بين الاسرات فى ملكية الاراضى التى أقيمت عليها هذه المدافن والقبور . وكانوا يشترون منه التماثيل

الصغيرة الضرورية فى تطهير ثرى المقابر وإبعاد أرواح الشياطين عنها، وكانت هـذه التماثيل فى صور أناسي تحمل على اكتافها فؤوسا ومحاريث واكياساً للبذور رمزاً الى مساعدتها الموتى على القيام باعباء الاعمال فى الاخرى.

* * *

وكانت أرملة النبي رونى وقيم بيتها وأحد كبار الكهنة منصرفين الى اختيار أجود التوابيت وأفخمها لجثة فقيدهم، يساومون صاحبه على الثمن. وقد اشتروا مقداراً كبيراً من التمائم والاحجبة المصنوعة من الاحجار النادرة كاليشب واللازورد، ونقشوا اسم الفقيد على قطع من شمع العسل والى جانبه اسماء زوجته وأولاده وذوى قرابته، وذكروا رتبه والوظائف التى تولاها ونقشوا ما لم يكن بد من نقشه فى خشب التابوت وأوراق البردى.

أما النقوش التى كان يراد رسمها وحفرها فى جدران القبر وقاعدة التمثال فقد أجل النظر فيها الى يوم آخر لكثرتها وصعوبتها، ثم نيط بأحد كهنة بيت سيتى حصر ما تركه الفقيد من الثروة وفرز ما يخص الهيا كل منها قبل توزيعها على مستحقيها. وكانت العادة أن تبلغ هذه الحصة مع النفقات ما أنفق من المال على إنشاء القبر ونقشه الشطر الأوفى من التركة(١).

---

(١) ذكر المؤرخ ديودورس أن عملية التحنيط من الدرجة الاولى كانت تكلف ما يوازى حوالى عملة العصر الحاضر ٢١٣ جنيها ومن الدرجة الثانية ٦٠ جنيها

وكانت أرملة رونى بثياب الحداد معفرة الجبين بالتراب ، وكانت فى وجودها مع اتباعها بذاك المكان تماكس الكهان تارة على الاثمان وتقول لهم مستنكرة هازئة : انها أثمان غالية ، وتبكى تارة أخرى ثم تصرخ صرخة عالية تردد صداها الاودية . وكان الاهلون من الطبقة الوسطى لا يساومون فى الاثمان بل يدفعونها فى الحال كتقدير الكهان . وكانت نفقات دفن رب الاسرة منهم تستغرق إيرادها أحياناً فى مدة عام، أما الفقراء فكان لا يكلف تكفين موتاهم الا النزر اليسير من المال .

وكان العامة يرون فى المكفنين أنهم لم يكونوا أحط قدراً من المحنطين بل أعلا منهم درجات . ولهذا كانوا يسيرون مرحا فى الطرقات لا يخافون اضطهاد احد بعكس المحنطين فقد كانوا اذا اجترأوا على السير فيها جعلوا أنفسهم هدفا للأساءة غالباً وللهلاك أحيانا .

وكان المكان المعد لبينم وزملائه يؤدى الى الغرف الخاصة بتمليح الجثث وتحنيطها ومخازن الأدوية والعقاقير . وكان الى جانب هذه المخازن فناء فسيح تظله سقيفة من سعف النخل حجباً للأشعة الشمسية من النفوذ اليه، ويتوسطه حوض ممتلىء بمحلول النطرون فكانت توضع فيه الجثث زمناً ثم تستخرج منه لتجفيفها فى مكان تحت الأرض بتيار من الهواء الحار يسلط عليها بوسائل الصناعة .

وكان بجوار المكان الذى تباع به حاجات الموتى أسطر من بيوت خشبية صغيرة هي بيوت النساجين والنجارين والنقاشين . ويليها على مسافة منها بناء ضخم فسيح جيد التنجيد بحجر النحت ، يعلوه سقف محكم هو

المكان المعد لتزيين المومياات بالتمائم والاحجبة لمساعدة الموتى على النقلة الربانية فى العالم الثانى . وكان لا يجوز لأحد ان يستطلع ما يحدث به إذ لم يكن مأذونا لغير الكهان أن يدخله ، فاستقر فى أذهان العامة من جراء ذلك وشاع بينهم أن هذا المكان معبد للالهة يهبطونه كي يمهدوا للموتى طريق الوصول الى الآخرة ويرشدوهم الى أصول الحياة المستأنفة فيها . وكان الناس فى كل ساعة من الليل والنهار يسمعون من نافذاته وكواته المطلة على الطريق العام أصوات الكهان يترنمون بالأناشيد الدينية والصلوات الجنازية ، وقد تنكروا بما يسترون به وجوههم من وجوه صناعية تمثل آلهة السماء السفلى (١) ولا سيما أنوبيس ذى الرأس الشبيه برأس ابن آوى . وكان يعاونهم على أداء الصلوات وبث الدعوات غلمان تنكروا بوجه هوروس . وكان عند رأس كل مومياء نائحة تنكرت بصورة نفتيس وأخرى لدى قدميها بصورة ايزيس . وكانوا يقربون الى كل اله عضواً مبيناً من أعضاء الفقيد . وكان فى التمائم من الامثال والعظات ما يراد به الحض على التقوى والورع . وكان كل عضو فى كفن خاص به كما كان لكل عقدة عقدت لتثبيت اللفائف مزية لا بد من توافرها حرصاً على راحة الميت والتماساً لسلامته فى أخراه . وكان هذا المنظر العجيب ، بما ينضاف اليه من جلوس النائحات والنادبات فى الاوضاع السابق بيانها وتضوع الروائح العطرية واشتداد

---

(١) تدل على ذلك نقوش وكتابات عديدة ولا سيما ورقة البردى الثالثة المحفوظة بمتحف الجيزه وكان للمصريين حذق خاص فى صناعة الوجوه من الورق المطبوخ وترى هذه الوجوه على كثير من المومياات ممثلة وجه الميت كما كان فى حياته

الحرارة بالمكان، يؤثر فى النظارة تأثيراً يصرفهم عن الحياة الدنيا بزينتها الى الحياة الاخرى بمثوبتها وعقوبتها .

وكان هذا القسم من مدينة الاموات تسطع فيه دواما رائحة زيت الورد والمسك والنتر ، فاذا هبت ريح الجنوب الغربي حملتها الى مدينة طيبة على الضفة اليمنى من النيل ، فاذا شمها الناس تحرجت صدورهم وتشاءموا اعتقاداً منهم أن رياح الصحراء تجف على أثرها كل خضراء وغضراء ، وتضعضعت بسببها قوى الانسان فضلا عن أنها تدرج قوافل برمتها فيما تسفيه من الرمال .

* * *

وكان بعض أهالى طيبة ممن جاء الى سوق الاكفان والتوابيت يترقبون أهالى الموتى لتعزيتهم وتسرية الهموم عن افئدتهم . وانهم لكذلك إذا بمفتش قرابين هيكل آمون ، وقد احتواه الخوف واستمكن من قلبه الى حد لم يحفل معه بما كان يقوم له الناس به من مظاهر الاحترام ولم يسلم على أرملة النبي رونى التى كان يعرفها بالذات ، بل كان كل همه أن يتوسط جموع الناس لينبئهم بحادث خطير وقع فى طيبة بالمكان المقدس أي هيكل آمون ملك الآلهة . فما كاد يستقر هذا النبأ فى آذانهم وتعيه صدورهم حتى اشرأبت اليه أعناقهم وحوّمت عليه أنظارهم تطلعا لمعرفة الواقع بحذافيره ، فنبأهم أن جناب الوالى قد ابتهج بظفر الجنود المصرية فى بلاد الحبشة فوزع على حامية طيبة وحراس الهيكل مقداراً وافيا من الخمر فأدمن هؤلاء الشراب وأهملوا حراسة

الباب فانسابت منه الذئاب[١] الى حظيرة الاكباش المقدسة[٢] فافترست بعضها وتركت البعض الآخر. إلا أن الجند تنبهوا فى آخر الأمر للحادث، فلما ذهبوا بجملتهم لدفع السوء عنها رأوا أن الذئاب فتكت بالحمل الذى أهداه رعمسيس لآمون، قبل تحرك ركابه لقتال الاعداء. وكان أرسله الى بلدة منديس[٣] فوا أسفا على هذا الحيوان المبارك الشريف الذى اختص آمون نفسه به فاستودعه روحه فى الحياة الدنيا[٤] ولقد انتشر خبر الفاجعة بأرجاء طيبة بأسرع من البرق الخاطف ووقف عليه الخاص والعام. وبينا كان الناس طرًا فى الحيرة متخبطين إذا برسول من مدينة منفيس يوافينا بنبأ ضاعف الاحزان، الا وهو موت العجل أبيس.

ما كاد المفتش ينتهى من اعلان هذه الفواجع على ملأ السامعين حتى صاحوا صيحات الجزع واليأس واندفعوا ينعرون ويشهقون حتى التقت أضلاعهم فهرع الناس من كل فج وتواردوا من كل صوب الى مكان الزحام، إذ ترك المحنطون والنساجون والنجارون والنقاشون والسقاؤون أعمالهم لاستجلاء حقيقة الخبر وتبين أسباب الضير والضرر فما كادوا يقفون عليها حتى اندفعوا مع الاخرين فى العويل والأنين

---

(١) كانت الذئاب بمصر كثير عددها وقد أقام المصريون لها هيكلا فى ليكوبوليس « اسيوط الآن » . وكانوا يدفنونها بمظاهر الاحترام والتبجيل اذا ماتت. وفي هيرودتس حكايات غريبة فى ذلك

(٢) كان المصريون يقربون الاكباش والثيران للاله آمون

(٣) وجدت آثار هذه المدينة فى الدلتا بجوار بلدة المنصورة وفسر العالم الالمانى بروكش أغلب ما شهده فيها من النقوش وهى تتضمن معتقدات القوم وقتئذ فى الكبش

(٤) كان الكبش يسمى باللغة المصرية القديمة (با) وهو نفس الاسم الذي يطلق على الروح وكان المصريون يعتقدون ان با او الكبش هو الغلاف الحافظ لروح الاله رع في الارض

وأخذوا يخمشون الوجوه وينزعون الشعور ويحثون التراب على الرؤوس وظلوا كذلك مدة ساد بعقبها السكون فانصرف العمال لمزاولة الاعمال الا انهم ما عتموا ان سمعوا صدى أصوات بعيدة اتضح أنها منبعثة من طيبة فأيقنوا حلول المصائب ونزول الكوارث والنوائب .

وكان مفتش القرابين أشار فيما قال الى أنه ينتظر أخباراً غير سارّه عن الملك والجيش . ذلك لأنه لم يكن بد أن يشمل الحزن رعمسيس لموت الكبش الذى سمي باسمه وأن يشجيه هذا الحادث أكثر من نعي العجل أبيس ، وحسبه أن يكون موت الكبش دليلا على شؤم طالعه ونكد حظه . قالت أرملة رونى : ان زوجى المرحوم أوزريس رونى قد توقع هذه الحوادث من قبل . ولو أن فى وسعي الكلام لا نبأتكم بنبأ يهدّ أركانكم ويثير أحزانكم . فتبسم مفتش القرابين لعلمه بولاء نبي هيكل حاتاسو للاسرة الملكية السابقة وقال : لربما تغشى سحب المحن والكوارث شمس الملك رعمسيس فتحجب ضياءها الساطع ، ولكن أحداً من أعدائه لن يكون على قيد الحياة عند أفول هذه الشمس المتألقة الضياء . .

ثم ودع الأرملة بفتور وذهب قاصداً الى بيت الحائك لقضاء حاجته ، واستوت هي فى محفتها التى كان يحملها الخدم بالباب ومضت لوجهها . وكان بينم فى هذه الاثناء يشاطر زملاءه الحزن والبكاء جزعاً على موت الحيوانين المقدسين وظل فى نحيب واعوال حتى أثرت الدموع فى خديه وبح صوته . وكان الوقت ظهراً فأحس الجوع يحفز أحشاءه

فجلس القرفصاء فى غرفة التشريح الحالكة الظلام ، لأن الشمس لا تنفذ أشعتها اللجينية اليها الا من ثقب ضيق بالسقف ، فتبدو للناظر كتيار ضوء تتلاطم فيه ربوات الجراثيم وذرات الهباء ، وترسم على البلاط الرطب دائرة متساوية الاقطار يخالها الرائى صحفة من اللجين . وكانت توابيت المومياء مرصوصة بعضها الى جانب بعض بطول الجدار ، وجثث الموتى مطروحة على موائد كبيرة مغطاة بقماش خشن . وكان الناظر يرى من آن الى آخر فأراً يخرج من ثقب بأسفل الجدار فيمر فى الغرفة مرور الطيف وعقارب تدب ببطء على مربعات البلاط لا تعلم أين وجهتها وفيمن تنفث سمها الزعاف .

لم يهلع قلب بينم لمنظر هذه الغرفة ولم يخف خوف الداخل فيها لأول مرة ، لأن اعتياده التردد عليها بضع سنوات قد محا من فؤاده سورة الخوف . ولهذا تأهب مطمئناً لتناول الطعام فغطى ركبتيه بخرقة بالية وضع عليها ما هيأته زوجته له من الغذاء ، وهو كسرة خبز وشىء من الملح ونبتة فجل . ثم أبرز من كيسه قطعة لحم ملفوفة بورقة كرنب وهي جزء من فخذ غزال جاءت به نيخت الساحرة من طيبة هدية لوردة ، فاحتفظ النساء للشيخ منها بتلك القطعة ووضعنها فى مخلاته على غير علم منه . فلما وجدها أبى أن يرفعها الى فمه اعتقاداً منه أنها من حق وردة حفيدته وأنه لا بد من حفظها لها . ولقد جعلها أمامه واقتصر على أكل الخبز والفجل غير أنه كان من حين الى آخر يرسل اليها نظرة إعجاب كما لو كانت من نفائس الاعلاق أو نوادر التحف التى تثير فى

الخاطر ذكرى أمر خطير . واتفق أن دنت منها ذبابة ففجأها بضربة أودت بحياتها وانتهى الامر به ، بعد تردد طويل ، الى تذوقها . وكانت عيناه تجودان بالدموع كلما تذكر صنيعة وردة اذا جلس الى الطعام من تنسيقها الازهار والرياحين ووضعها إياها أمامه لتشرح صدره بمرآها .

وإذ ذاك حانت منه التفاتة الى المائدة المعدة لجثث الموتى فارتعدت فرائصه وسقط فى يده إذ خيل له أنه يرى بدلا من جثة رونى الملقي عليها جسم وردة فناجى نفسه بقوله ان الطبيب الذى تولى علاجها وأنقذها من مخالب الموت لم يكلف نفسه هذا العناء طمعاً بالجزاء ، وأنه لو كان طلب منه قلبه لا قلب غيره تلقاء عنايته بها لما تردد هنيهة فى انتزاعه من بين جنبيه ليعطيه إياه . حدثه وسواسه بذلك ولزم السكون فترة من الزمن استخرج من طيات ثوبه بعدها تعهد الطبيب نبسشت وبسط به يده مستشهداً السماء على براءته وطهارة ذمته . ثم طفق يصلى ويبتهل الى الالهة أن يغفروا له ما فرط من الذنوب ويتقبلوا رونى أمام مجلس العدل الالهي فى الاخرة ، وإن يكن قلبه انتزع من بين جنبيه .

وهنا سمعت فجأه جلبة تصمّ الآذان وطرقت مسامع بينم أصوات تلهج باسمه . ففيما هو يتحفز لاستطلاع الخبر إذا بأحد الشرطة قد بدا له وأمره باقتفاء أثره . وكان بفناء غرفه المحنطين الممتلئة الجو بعبير الروائح الزكية ثلة رجال يتدافعون بالمناكب حول شيء وضع فى إناء من حجر النهاء ، فما وقع نظر بينم عليه حتى ارتعدت فرائصه

إذ أيقن أنه قلب الكبش الذى بدل منه بقلب الكاهن رونى . وقد سأله رئيس الشرطة أهو الذى شرح جثة هذا النبي واستخرج منها القلب ، فأجاب متلعثما بالايجاب . سأله : هل القلب الذى بالأناء قلبه فأجاب كالأول . وعلى أثر هذا الاستجواب القصير تفاوض رجال الشرطة مليا بينهم ، ثم خرج أحدهم لاستدعاء رئيس المشرحين ومفتش القرابين فى هيكل آمون . وما أقبل به حتى سأل : وأين هو القلب ؟ فلا بد لى من معرفته ولو فى حلك الظلام . . انى أفحص فى اليوم الواحد المئات من قلوب الحيوانات فائتونى به سريعاً ! . . أقسم بآلهة السماء أنه قلب حيوان لا قلب انسان ، فأومأ أحد الشرطة الحاضرين الى بينم وقال معترضاً : ان هذا الرجل شق الجثة أمامنا بالامس واستخرج القلب منها . قال كاهن آمون : ان هذا لعجب عجاب ! وهل فى الفرق بين قلبي الانسان والحيوان شبهة أو ارتياب ؟ أذبحتم هنا كبشاً ؟ . قال رئيس المشرحين : كلا فانا منذ عشرة أيام ممسكون عن أكل اللحوم احتفالا بأعياد الوادى فمن أين لنا أن ننحر بهذا المكان كبشاً أو أي حيوان . ثم إن مذابح الحيوانات بعيدة عن هنا لوقوعها بعد حي النساجين ، فلا سبيل قطعا لوصول قلب الحيوان الينا . قال الكاهن : فى الأمر ما يستوجب العجب . . ولكن لا بد من الاحتفاظ بالقلب حتى يعرض على الكاهن الاول بهيكل آمون ليحقق أمره فربما كان احدى المعجزات فى عصرنا هذا الذى امتاز بخوارق العادات . قال رئيس المشرحين : الأولى عندى عرض هذا القلب على الكاهن

الاكبر فى بيت سيتى . قال كاهن آمون : ها نحن أولاء طوع أمرك ورهن اشارتك فلنذهب ! . .

قصد مفتش القرابين ورئيس المشرحين الى الوادى محمولين على الاعناق ، كلاهما فى محفته الخاصة به ومن حوله اعوانه وغاشيته . وتلاهما على مقربة منهما أحد الشرطة فى هودج يحمله حماران ومعه صندوق عاج وضع فيه قلب الكبش المستخرج من جثة رونى . وكان بينهم يتبعهم بنظره وهم يتوارون عنه خلف أشجار الأثل ، ولا يصدق فى ذلك عينيه . وكان هذا الرجل من المطبوعين على التقوى والورع ، فلما أيقن ما فى فعله من الشناعة وبخه الضمير واظلمت الدنيا فى عينيه وأحاطت به الشكوك واحتوى فؤاده الهلع الشديد من سوء العاقبة ، إذ كان أقل ما فيها شيوع الاباطيل والبدع بين الناس . وقد انتابته الهواجس بما أدى به الى الاعتقاد بخطيئته وانه أهل للعقوبة عليها . وبرز له شبح الحقيقة التى كان من أحرص الناس على مبادئها السامية البريئة ، فى هيئة المعرضة عنه احتقارا الناحية عليه بأشد اللوم ، فلم يأخذه بعدئذ شك فى أن قاضى الموت سيحرمه الاندماج فى هيئة مجلس الحقيقة والصدق والانتظام فى سلك العدول والمنصفين وأنه أصبح على الجملة من المغضوب عليهم الضالين عن صراط الحق ومحجة السداد ، وان هذه العاقبة السوأى ستكون خاتمة حياة قضاها فى الطاعة للآلهة والتوكل عليهم فى أموره والمثابرة على اقامة الصلوات اعترافا بفضلهم . فظل يسكب العبرات حتى شعر بطنين فى أذنيه وسحابة تغشى عينيه وأحس الارض

تميد من تحته كما لو زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها أو نسفت حتى أخطأتها قدماه . ولما استأنف العمل كان لا يزال مضطرب الفؤاد لأنه عالج انتزاع مشط القدم فى احدى الجثث[١] فارتجفت يده وارتعدت فرائصه وكاد يقع منها مبضع التشريح .

(١) يحث العالم كزمرك في جثتين محنطتين من جثث قدماء المصريين ومحفوظتين بمدينة برلج فوجد مشط قدم احداهما موضوعا بتجويف الصدر . وجاء بالفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الاموات شرح معنى هذه المادة وهو أن الغرض من نزع مشطى القدمين أن لا يدنس الانسان بمافاعة الحاكمة اذا استقدم بعد الوفاة للمثول بين يدى الاله أوزريس

الفصل الثالث والعشرون

كيف استغلّ الكهان قلب الضأن

أصبحت مدينة طيبة وأهلها فى ذهاب وإياب وحركة واضطراب لما فجأهم من أخبار السوء . وسرت عدوى هـذا الانزعاج الى بيت سيتى الذى توالت عليه الحوادث وانتاشته الكوارث كما تنتاش الذئاب قطيع غنم لا رعاة له ولا أرباب . ذلك لأن أمينى ، رئيس كهنة هذا البيت ، كان منذ ثلاثة أيام فى طيبة ، وكان تلاميذه ومرؤوسوه ينتظرون أوبته بذاهب الصبر . وكان رئيس المنجمين توّاقا الى فضح ما وقع بين بنطاؤر وبنت أنات ومعاقبة المتمردين من الطلبة الذين نزعوا الى الفتنة فبادر بحبس هؤلاء فى صحن الهيكل لضيق مكان السجن عن احتوائهم جميعاً بعد إذ قضوا ليلتين بمستودع الغلال نائمين على حصر رقيقة . وقد هالهم وأقلق بالهم ما اتخذ قبلهم من التدابير الشديدة ووسائل القمع القاسية وحسبوا لمغبة عنادهم وتمردهم على أساتيذهم الف حساب . وظهرت على كل منهم علائم الأسى والأسف بما يتفق مع مزاجه ويلائم فطرته ، الا راميرى ، شقيق بنت أنات وزعيم تلك الاضطرابات ، فأنه مع مشاركته زملاءه فى ندمهم ومقاسمته إياهم العقوبة التى وقعت عليهم ظل ثبت الجنان رابط الجأش لم ترعه العقوبة على قسوتها كما راعتهم ، بل نشط لتحريضهم على العصيان والتمرد ،

بينا كان الطالب أنانا الفائز بحظوة الالتفات من بنطاؤر معتمداً رأسه فى احدى زوايا المكان ، مفكراً يشحذ رأيه بالتأمل فى المصائر وتقدير العواقب ويلتمس لنفسه مخرجاً من هذا المأزق . ولقد شهده راميرى وهو مختل بنفسه فقصد اليه فى خلوته وبغته بضربة خفيفة على الكتف وقال له : لقد ركبنا متن الشطط ووقعنا فى هوة الغلط ، وكان هذا أمراً مقدوراً ما هجس لنا فى ضمير ولا تحرك به خاطر ، وما كان مقدوراً فهو لا محالة واقع . فلمَ تجعل للخوف مسرباً الى فؤادك . . انى أراك وقد احترقت ما قيك من شدة البكاء فما داعية ذلك . . كن يا صاح ماضي العزيمة جلداً فى المحن ، واعلم أنك الآن قد ناهزت السابعة عشرة من حياتك النشيطة وانك بعد بضعة أشهر وأيام ستصبح من الكاتبين الكرام .

صعد أنانا بصره فى راميرى ؛ وبعد أن كفكف الدمع قال : ألم أكن أنا الذى دبر هذه المؤامرة والذى ستقع تبعتها على عاتقه فيبادر أمينى بطردى من الهيكل قبل أن أتم الدراسة وانقلب الى والدتى المسكينة الحزينة التى تبتغى أن أكون لها سنداً وعماداً فيما بقى من حياتها ، ضائع المستقبل مسربلا بسربال الذل والخجل ؟ قال راميرى مترفقاً ومواسيا : حقا أيها الرفيق الصديق لقد حبط تدبيرنا وساء مصيرنا وذهبت جهودنا هباء أو كطعنة فى ماء ، ومع هذا فلم تقد بنطاؤر وتلك عاقبة الغرور . قال أنانا : ليت الأمر وقف عند انعدام الفائدة بل أنه تعداه الى الضرر ومعظم النار من مستصغر الشرر ، وان من دقيق

الأمور ما يهيج به العظيم . فأمسك راميرى هنيهة ثم قال : ألا تدرى يا أنانا أنه لا ضلع لك فى المؤامرة وأن المدبر لها والمسؤول عنها هو أنا ؟ فليطمئن إذن خاطرك وليهدأ بالك ، فأنه لا ينبغى أن يؤخذ أمرؤ بجريرة غيره . . ولا مفر لى من مبادهة الكاهن الاعظم بهذه الحقيقة . وهو كما أعتقد سيجر ذيل الاغضاء على هفوات ابن رعمسيس أكثر منه عليها لو كان الذى سقط فيها من العامة أو افناء الناس . قال أنانا : ولكن أنسيت أنه سيحصرنا فى نطاق ضيق من تحقيقاته ويزج بنا فى مأزق لا نجد معه مندوحة من الاعتراف بالحق والجهر بالصدق ؟ فاحمر وجه راميرى وصاح بصوت جهير : أسمعت منى مذ عاشرتك وصرت من رفقتك سباً أو هجواً فى حق ابنة رع ذات الشعاع الساطع ؟ . . أناشدكم الحق أنتم معشر الرفقاء ، أنت يا (أتيف) وأنت يا (نابى) وأنت يا (سانت) وأنتم كافة أيها الزملاء والاصدقاء ، أناشدكم بل أضرع اليكم أن تقولوا ! من ذا الذى استفزكم للثورة والهياج ، أنا أم أحد سواي ؟ ومن ذا الذى نصح اليكم بالبحث عن بنطاؤر ؟ . . ألم يكن أنا الذى تهدد رئيس الكهان بالخروج من هيكل سيتى ! . ألم يكن أنا الذى حرضكم على رفع لواء العصيان وامتشاق حسام التمرد على الاسانيذ ؟ لست إخالكم تنكرون هذه الحقائق الساطعة اذا حانت ساعة الاعتراف بها . . لقد ثبت لك الآن يا أنانا أنى صاحب الشأن فى هذه المؤامرة ، فأذا استاقونا للحكم علينا فيما وقع منا فدعونى فى المقدمة ولا يأت اسم أنانا على السنتكم . فأن صدر الحكم علينا بالجزاء ضربا

بالمقارع أو إمساكا عن الطعام فلا يتوان أحدكم عن القاء التبعة كلها علي"

قال ابن النبي الاول لهيكل آمون وقد أخذ من راميري باحدى يديه وتناول أنانا اليد الاخرى شكراً وامتناناً : ما أشرف نفسك وأعلى همتك وأصدق ولاءك ! .. فاستخلص الأمير يديه منهما باسم الثغر وقال لأصحابه : الآن وقد اتفقنا على ما سيكون فعليكم بالاتحاد لباً وقالبا وحذار أن تحيدوا عن نصيحتي وأقسم لكم بأني ما دمت أدعى راميرى فلا مفر لى من مطالبة والدى بأخراجى من هذا الهيكل لا دخل هيكل (خينو) احتجاجاً على حرماننا التلمذة لبنطاؤر . قال أصغر التلاميذ المتمردين .. لكن أنسيتم ياصحبي الكرام ماعزرنا به من وصفه إيانا بالاطفال المتشردين وإلصاقه بنا تهمة الخفة والرعونة؟ .. أجاب راميرى : ما قال فى هذه الاوصاف الا حقا فأننا من نزق الشباب وغرة الحداثة لعلى شيء كثير ، وليس يسعنى إلا أن أجدده وأشيد بذكره لوصفه إيانا بتلك الاوصاف . ولعلك ترتاب فى أمرى أيها الصديق فتتهمنى بالتحيز له .. لهذا أود أن تقف على ماهية رأيي فى الموضوع . ثم التفت الى أحد أقرانه ، وهو يتكلم ، التفاتة توحى فيها تقليد الكاهن الاعظم أمينى حينما يهم بالكلام وقال : بم يمتاز صاحب الهمة العالية والنفس الأبية على السوقة والاخلاط ، ان لم يكن بالترفع عن الدنايا والسفاسف واجتناب المظاهر المبتذلة ؟ الرجل الذى تلك شنشنته هو الذى يمر مر الكرام بما لا يسمو به الى شرائف الرتب ومعاليها ، وينصرف عما يحيد به عن الصراط السوي .. ولقد

تلقيت عن والدى هذا المبدأ الذى أثبتت صحته التجربة . . فاذا استقر هذا فى اخلادكم ، فلننظر الآن فيما إذا كان يسع بنطاؤر المعروف بعزة النفس ورقة الشعور ان يعمل معنا أكثر مما عمله . قال أنانا : لا تعرب يا صديقي الأمير عما يشعر به وجدانى فلقد سلكنا ، والحق يقال ، مسلك الاطفال ولم نتبع خطة الرجال . . اردنا أن ننفع بنطاؤر فألحقنا به السوء والشرور . . وما أتم حديثه حتى سمعت قرقعة مركبة وقفت أمام الباب فصاح راميرى : ها قد قدم أمينى فتجلدوا واثبتوا ولا يذهب عنكم أنى المذنب وحدى . وانى لواثق أنه متى أيقن ذلك لا يجرأ على معاقبتى . وكل ما أتوقعه أنه سيعبس فى وجهى ويعرض عنى . ولكن غضبه علىّ سيكون سحابة صيف ثم تنقشع .

هبط أمينى من مركبته فقيل له فى الوقت ان رئيس المشرحين ومفتش القرابين يبغيان مفاوضته فى أمر خطير ، فأجاب : لينتظرا بالحديقة وأين هو زعيم المنجمين ؟ . . وما أتم سؤاله حتى أقبل هذا الاخير مهرولا ليطلعه على ما وقع فى أثناء غيابه . وكان أمينى قد أحيط علمه بذلك وهو فى طيبة لأنه قبل مزايلته للهيكل أمر بموافاته بتقرير شامل لأحوال بيت سيتى . ولهذا قاطع رئيس المنجمين بقوله : لقد ألممت بجميع هذه الحوادث التى لا يدعو وقوعها الى الدهشة ولا يعزب عن الخاطر مع ما شب تلاميذى عليه من الميل الى بنطاؤر والتعلق به الى حد استفزهم لركوب متن الشطط . واتصل بعلمى غير هذا أنه التقى بالأميرة فى هيكل حاتاسو حين همت بدخوله قضاء

لفروض الصلاة ، وساعدها على تنفيذ مرادها وهو عالم بأنها لم تتطهر من الدنس بعد . . نعم ان هذه الحوادث واشباهها تستوجب اللوم والتعنيف ولا بد أن يجزى مرتكبوها شر الجزاء . . ولكن فى غير هذه الاوان . . وثق بأن بنطاؤر لن يفلت من يدي قبل أن يذوق عذاب العقوبة ، إلا أنى أطلب حضوره هنا لحاجة ماسة بحفلة عيد الوادى ، وأود الآن ألا يكاشفه أحد بدخيلة قلبه ولا بما يبطنه من العداء والكراهية له ، فبلغ الى جميع الكهان إرادتى وليعملوا على طاعتى وامتثال كلمتى .

حاول رئيس المنجمين عبثاً أن يقنع أمينى بالعدول عن نيته مصوراً له دهشة الناس واستنكارهم اذا عامل الشاعر بالتسامح ، فلم يتمالك الكاهن الاعظم أن تناول خاتم المهمة من رئيس المنجمين وعهد به الى أحد صغار الكهان وأمره بالانصراف فوراً الى هيكل حاتاسو للعودة ببنطاؤر الى بيت سيتى . فلما رأى رئيس المنجمين ما حل به من الخزي استجمع قواه الواهنة وقال : وأولئك الخائنون الاشقياء أيبقون فى منجاة من العقوبة والتأديب ؟ أجاب أمينى : لسوف أعاملهم معاملة بنطاؤر . ومما لا ينفسح له مجال فهمى اعتبار ما ارتكبه أولئك الاطفال من مغادرتهم المكتب وهجرهم الدرس جريمة لا تغتفر . فخل عنك هذا العناء ودع أولئك الاطفال فيما هو طبيعة سنهم من نزق الشباب ، فأنه إذا لم يغض المربى الطرف عن زلات كثيرة من زلاتهم فقد أساء وما أصاب . والواجب عليه أن يحيط بالامور كلها كبائرها

وصغائرها ، ولكن لاحاجة بأحد الى العلم بأنه أحاط بها ووقف عليها . واحرى الامور بالتجاهل والتغاضي مايبديه الاطفال من نزق الشباب والانحراف عن جادة الصواب . أنسيت أن مايرتكبه الاطفال دليل على ما يجنحون اليه بطبيعتهم فى الاستقبال . . لقد عزمت على مؤاخذة طفل واحد بخطيئة زملائهم جميعاً . ولولا أن هناك من الاسباب الخاصة ما يضطرنى الى ابعاده من الهيكل فى غضون أعياد الوادى لأعفيته من العقوبة .

فسكت رئيس المنجمين مفحما ، لا سيما وقد رأى عينيه تقدحان بشرر الغضب وشفتيه مضطربتين بما ينم على ما انتاب نفسه من شديد التأثر . ولقد أدرك الكاهن الاعظم حقيقة ما خالج فؤاده فقال له : انك لا تستطيع فهم مقاصدى ولسوف أكاشفك بها مساء اليوم متى عقدت جمعية العارفين بالاسرار الدينية . إنا نتأهب الآن لتنفيذ جملة من المشاريع الخطيرة ، فأنه لم يذهب عليك ما أصبح زملاؤنا كهان هيكل آمون فيه من الضعف والخور ، وهذه فرصة متاحة لنا معشر الكهنة أصحاب الجلابيب البيضاء لنقدم الدليل دونهم الى الآلهة على اخلاصنا وصدق نياتنا . وستجمعنا الاعياد وايام وجها لوجه فلا محيد لنا عن الاتحاد والتعاضد .

وسيعتلى بنطاؤر فى الغد منبر الخطابة فيقرع الاسماع ببديع لفظه ويسحر الالباب ببلاغة وعظه . وأن من بين التلاميذ المتمردين من يمكن التعويل عليهم فى النشيد لرخامة أصواتهم ولا سيما التلميذ أنانا . فدع

عنك الاشتغال بأمر هؤلاء المغرورين . . ثم قل لى وهل كان راميرى بين الثائرين ؟ أجاب رئيس المنجمين : نعم وكان من أشد زعمائهم حماساً وتطرفا . فالتفت امينى الى الشيخ باسما وقال ساخراً : لقد تحلت الاسرة الملكية بجلباب الشرف والفخار . . بينا تنتهك كريمة الملك حرمة القوانين وتضع من قدرنا فى نظر العالمين . يثور أخوها راميرى علينا ويعصى ما ينبغى أن يطاع من أوامرنا . . والواجب فى هذه الحالة طرده من المدرسة وأقسامها ؟ لم أرَ يوجهك لوائح الخوف والوجل ؟ أترى أن ابناء الملوك والسلاطين لا تسرى عليهم القوانين ولو كانوا خاطئين ؟ . . كن رابط الجأش هادىء البال فقد حان أوان العمل وفات زمن التوانى والكسل . . ثم قل لى أوافاكم نبأ موت الحمل المقدس الذى كان رعمسيس أهداه الى الاله آمون بعد أن اسماه باسمه ؟ . . ليئس الفال النذير بخيبة الامال . . قال رئيس المنجمين وقد بسط يديه الى السماء قانطا : نعم جاءنى هذا الخبر الذى ملأ أفئدتنا بالحزن والكدر وقد نفق أيضاً العجل أبيس وفاضت منه النفس فهل انتهى اليك هذا هذا الخبر النحس ؟ قال الكاهن مكتئباً : نعم صعدت روحه الربانية الى السماء للاستمتاع بالسعادة والهناء . وقد أصبحنا بموته تلقاء واجبات لا مفرّ من أدائها ، وسيعترضنا فى ممارسة هذه الواجبات ما لا حصر له من الصعوبات . ولكن ما الحيلة ومثلنا من ينهض بالاعباء ويهون عليه العناء . . يجب علينا فى ذلك الاحتفال الوقوف عند حسن ظن الناس بنا فنعرض على أنظارهم مانخلب به عقولهم ولا ننس أن الوالى قد

أجرى علينا باهظ المرتبات ووافر الارزاق و .. فقاطعه رئيس المنجمين قائلا : يدرك القادرون من أصحابنا معنى الواجب عليهم ، لا كما يدركه كهنة هيكل آمون، لانهم بيننا يأدبون المآدب ويعاقرون بنت الدنان تقوم نحن بشعائر الاعياد فى هذا الهيكل للملك الديان . فقال أمينى باسما : لكن ألم تفد الامة مثل ما أفادوها وهل لم تكن الامة أشد احتياجاً منهم اليها ؟ وإذا كانوا هم مرشديها فى الحياة الدنيا أفلم نكن نحن المرشدين الى الطريق الاخرى ؟ والحياة نور والموت ظلام والحاجة الى الدليل فى الظلام أشد منها اليه فى النور ؟ أفلا نستطيع بعد ذلك مناهضتهم ومقاومتهم ؟ قال رئيس المنجمين : نستطيع مقاومتهم والغلبة عليهم ما دمت أنت رئيسنا ، وصاحب الكلمة النافذة فينا . التفت أمينى هنا الى الكاهن سيتاح والنى جاجابو وكان مقبلا عليه وقال بعد أن رشق ببصره رئيس المنجمين : وما دام أن بهذا البيت ضيوفا كراماً مثلكما . ثم قصد الثلاثة جهة الحديقة حيث كان ينتظر أمينى الكهنة ومعهم القلب العجيب الذى وجد بجثة رونى .

فلما دنا من مكانهم حيى مفتش قرابين هيكل آمون بأحسن تحية ورمق رئيس الشرطة بعين الرعاية والعطف . وبعد أن اطلع على ما أودعاه تقريرهما من نتيجة بحثهما فى الحادثة التى حضرا من أجلها أمر بفتح الصندوق الذى سطعت منه الروائح العطرية فتناول القلب منه بأنامله النحيلة وأمعن النظر فيه فترة من الزمن ثم قال فى تأن وسكون : إذا لم يكن هذا القلب قلب إنسان كما تقول أنت يا رئيس الشرطة لا

قلب كبش وجد فى حنايا ضلوع أوزريس رونى كما يقول به أخونا مفتش قرابين هيكل آمون ، فقد أصبحنا تجاه معميات لا يقدر على حلها غير الربوبية صاحبة المعجزات . فافتفوا إذن أثرى وطئوا مواقع قدمي حتى نصل الى الساحة الكبرى وعليكم بدق الطبل النحاسى أربع مرات ايذاناً باجتماع الاخوان للمداولة فى الامر فعسى أن نهتدى بمشكاة آرائهم الى الصواب .

فطفق الحاضرون يدقون الطبل تنفيذاً لاوامر الكاهن الاعظم فرددت أركان الهيكل صداه ، وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تدفع نحو مصدر الصوت مسرعين جميع من كانوا به من انبياء وآباء وغاشية وطلاب ، ذلك لأن الطبل لا يدق أربع مرات الا لأمر جلل وشأن خطير . وكان نبسشت الذى اعتاد العزلة فى أيام الحفلات والمظاهرات فى مقدمة المتقاطرين شتوتاً وزرافات ، واهماً أن النار قد شبت فى الهيكل واندلع لهيبها الى الاركان وتداعت له الجدران . فلما تكاملت جموعهم أوقفهم أمينى فى الأماكن المعينة لهم . ثم أنشأ يروى على مسامعهم الامر المريب والحادث الغريب ، وقال انه اعتزم ازاءها استيحاء الآلهة ليقف من وحيهم على جلية الأمر . وكان الصندوق الصغير بين يديه ، فوقف هنيهة فى مقدمة المجتمعين ثم سايرهم نحو صدر الهيكل ، فلما بلغ اليه توارى خلف الستار المقدس . وكانت جماهير الناس تزدحم أثناء ذلك فى ساحات الهيكل وحواليه لاستقصاء الخبر واستطلاع نتيجة التجليات الالهية والالهامات الربانية التى استنزلها

أمينى على نفسه . وقد انقضت ساعة ولا من يسمع صوتاً أو يدرك همساً ، وكل ما فى الأمر أن دخان البخور كان يتصاعد من المجامر فيتكاثف تحت الآزاج أو يتبدد فى أجواز الفضاء . ثم برز أمينى من وراء الستار مرتديا بامساحه الكهنوتية الثمينة التى كانت تزيده فخامة وجلالا وأبهة وكمالا ، يتقدمه كاهن يحمل بين يديه إناء من الذهب المرصع بالجوهر وقد رفعه الى ما فوق ليراه الحاضرون . وكان الكاهن الاعظم وهو يتهادى خلف هذا الكاهن متكئاً على المحجن لا ينفك عن النظر الى الأناء والجثو بركبتيه من آن الى آن . وكان الحاضرون ، من كهنة وطلاب وغاشية ، حينما برز من مخبأه ، يخرّون الى الأذقان سجداً . أما هو فقد واصل السير فى أثناء ذلك الى المذبح الذى كان الكاهن وضع عليه الأناء ثم وقف فوقه وقال بصوت جهير وعبارة تحرى فيها التفخم فى جلال وتؤدة ما يأتى :

« هلموا الى السجود أيا معشر الحاضرين ! وحيّ على الصلاه ! حيّ على عبادة الاله ! ما أخطأ مفتش قرابين هيكل آمون فى قوله وما غوى وما نطق قط عن الهوى . فقد ثبت بالدليل المقنع والبرهان وتأيد بمشاهدة العيان ، ان القلب الذى احتواه صدر نبينا المحترم رونى لمن قلوب الحملان . تجلت لى هذه الحقيقة بالالهامات الربانية وأيقنته أنا بما أطربنى من كلماتها اللدنية التى هى آية الآيات ومعجزة المعجزات . . خبرتنى هذه الالهامات بأن هناك على الضفة الاخرى من النيل ، وفى هيكل آمون مزقت الذئاب الخاطفة أحشاء الكبش المقدس وفتكت

به الفتك الوبيل ، فأنا لله وإنا اليه راجعون . لم تشأ الآلهة أن يلحق بهذا القلب شيء من الادناس ، فاودعته صدر أحد كبار الكهان ولا مساس . تلك هي المعجزة الكبرى وآية الالهة العظمى ! تبشر بوقوع حادث جلل مريب فى المستقبل القريب ، وان ذلك القلب الالهي لما ضاق به جسم الكبش التمس الرحب من أجساد الابرار ، فنزل في صدر رونى النبي المبارك المختار . وسيبقى عندنا فى هذا الاناء ليتبرك به المريض والمكروب ، فيذهب الامراض ويجلو صدأ القلوب . فهلموا جميعاً الى الصلاة والابتهال ، وحيّ على عبادة ذى الجلال وابصروا كرة ما تقذفه مجامر البخور من الدخان ، لترو فيه ماسطر بحروف النار مما هو ظاهر للعيان . ثم انهضوا وقوفا على الاقدام وضعوا بينكم القلب الرباني تحيط به الصور المقدسة وتقدموا الى الامام لنطوف به أرجاء هذا الهيكل مترنمين بأناشيد الحمد والثناء ، لباسط الارض ورافع السماء . أما أنتم أفواج الرسل والغاشية ، فاحملوا عصيكم وانتشروا بالانحاء الدانية والقاصية ، لتذيعوا فى الاهلين ، بشرى معجزة بيت ـ يتى القائم على أساس متين من عقائد الدين »

ما أتم الموكب طوافه بالهيكل وتفرق رجاله فوجا اثر فوج حتى استأذن كاهن هيكل آمون فى الانصراف بعد إذ قام بالتحية الكهنوتية وقال لأمينى فى فتور يشف عما ببطنه من الحقد : ولسوف يقابل كهنة هيكل آمون ما تزعم أنه وحي أوحي اليك بما هو أهل له من التقدير . ومن الممكنات وقوع ما أعلنته من المعجزات ولكن

سوف يقف جلالة الملك على سر وقوعها وطريقة ابلاغها للأهلين .
قال أمينى : انما تمت المعجزة بأرادة الملك الواحد القهار . ثم أحنى رأسه واندس فى اخلاط الناس الذين كانوا فى ساحة الهيكل يتحدثون بما وقع من خوارق العادات وأعد للاحتفال من المعدات . واستدعى اليه بعد هذا فى ساحة المدرسة التلاميذ المغضوب عليهم ، فكان أول القادمين منهم سبتاح ، فلما مثل بين يديه أخبره بوصول بنطاؤر ، ثم عاد الى أقرانه الذين كانت تصل من بعيد أصوات ضحكهم سروراً بهذا النبأ السعيد . وكان راميرى بن رعمسيس يحضهم النصح وقتئذ فيما لو عوقبوا عليه بالجثو على الركب فوق حبات الحمص الجاف لعنوا قبل ذلك بانضاجها حتى لا يشعروا بشدة ايلامها . قال تلميذ آخر كانت بيده هليونة يضرب بها كتفه وهو مولّ اليهم ظهره : الاحسن أن تستبدلوا من الحمص بالهليون . وهو مجون أراد به الاشارة الى الضرب بالسوط أو الدرّة . وبينما التلاميذ فى هذا الهرج إذ طرق أسماعهم وقع أقدام أمينى ، فثابوا جميعاً الى السكون والصمت . وليس هذا بغريب لأن أمينى كان منظره يشعر بالوقار والهيبة ، فكان مجرد وجوده بين الطلاب ، منصباً عليهم من حيث لا يعلمون داعياً الى وقوفهم عند حدود الأدب والنظر اليه بعين الاجلال والاحترام .

غير أنهم لم يلبثوا أن عرتهم الدهشة حينما شهدوا أمينى يتقدم اليهم باسم الثغر منشرح الصدر محبذاً عواطف ولائهم لبنطاؤر وتعلقهم به . الا أنه أخذ عليهم فى عطف ورفق التسرع فى الولاء

لهذا الرجل الفاضل الحكيم ووصف حركتهم هذه بأنها جاءت قبل أوانها ، ثم تحول نحو راميرى وقال : هب أيها الامير أن رعمسيس والدك الكريم أمر بنقل أحد قواد جيش الشام الى جيش (روش) فتمرد جنده تذمراً من مفارقته ، فماذا عسى أن يكون حكمك عليهم . . أيحق لك فى هذه الحالة تناول أمر الملك بالنقد والتجريح ؟ . . أظن لا . . ومع هذا فأنى أعفو عنكم وأغضى على سيئاتكم ، لأن جرأتكم كانت محمودة الاسباب شريفة المقاصد ، واكراما لمعجزة اليوم التى لم يسمع بمثلها فى سالف الحقب . . لكن لا يذهبن الغرور بكم الى توهم أنكم أصبحتم فى منجاة من العقاب فان تطبيق القانون على محرضى الطلاب وقائديهم الى التمرد والاضطراب ليس عنه منصرف . فمن أغرى منكم صحابه بانتهاك حرمة القوانين عليه أن يبرز من بينكم ويعترف بما قدمت يداه .

فبرز الأمير راميرى وأقبل نحوه خاضعاً خاشعا وقال : أيها الاب المحترم ! اعترف لك بأن ما أتيناه من الاعمال كان من غرور الاطفال ولم يك من خلائق الرجال . . لهذا نعرب لكم عن صادق الاسف والندم ونعطيكم موثقا علينا بسلوك سبيل الرشاد والاقلاع منذ الآن عن هذا العناد . ومما يضاعف فى نفسي الأسى والأسف أنى كنت الزعيم الذى أغرى رفاقه بالنزوع الى الفساد والعصيان ، وما حملنى على هذا الغرور إلا شدة تعلقى بالشاعر بنطاؤر الذى أحرز قصب السبق فى كل ميدان . فبدت على وجه أمينى علائم الغضب إذ تربد وجهه

واكفهر ونمّ على ما فى صدره من الحقد والشر . قال بصوت جهير : ليس لطالب أن يوازن بين الاساتذة ويفضل بعضهم على بعض ، ولو رمى بذلك الى اعلان فضله والاشادة بذكره . ولقد تصديت أنت ورفاقك الى ما لم يكن من شأنكم الاشتغال به ودخلتم فيما لا يعنيكم من الامور ، فقد صرتم ازاء المسئولية سواء . ثم سكت هنيهة وقال : لو لم تكن ابن ملك مصر الذى يحكمها كما يحكم (رع) لانزلت بك من العقاب على جرأتك ووقاحتك ما أنت له أهل ، ولكنى رغبة فى صون الطلاب من عدوى الاقتداء بك أرى من الصواب معاقبة المذنب منهم بما يردعه عن غيه . قال راميرى : انى مقر بذنبي وراض بالعقاب واحتمال شديد العذاب ما دام حكمك به مطابقا للعدل والنظام . فرمقه أمينى بعين الرفق ، وكانت نفسه تحدثه بأن يتناول يده ويصافحه إعجاباً بصراحته ومروءته ، غير أن العقاب الذى انتوى توقيعه عليه كان مما تفتق عنه احتياله لتحقيق أمانيه ونيل مطامه . وما كان أمينى بالرجل الذى يضحى بفائدة آجلة أو يضع العقبات لنفسه فى الطريق الذى آلى عليها اتباعه لاقتناص فرصة سانحة ، لمجرد إمتاع العين بشهود شىء جميل او الاعجاب به . لذلك عاد فقال لراميرى بصوت يشف عن صدق العزيمة : إذن سأنزل بك عقوبتى وهي الطرد منذ اليوم من بيت سيتى والحرمان من تلقى العلوم فيه . فامتقع لون الامير فزعاً واستنكاراً لصرامة العقاب ونسج الخوف على وجهه طبقة من الاكتئاب ولحظ أمينى ذلك منه فقال بصوت لطيف : لا يذهبن الفزع بك إلى اعتقاد أنى

طردتك من بيتنا . وكل ما فى الأمر هو أنى مع توديعي إياك ما زلت حريصاً على محبتك حرص المرء على حدقة عينه . والآن وقد أمرتك بمزايلة بيت سيتى والبعد عنه فلا مناص من مفارقتك ايانا بأمر الملك الذى نسأل له البقاء والصحة والقوة . ولست أقف منك ، ومكانتك معروفة للجميع ؛ موقف من يؤثر عقوبة على غيرها أو يتخير أسهلها احتمالا وأخفهما وقعاً ليطبقها عليك، فان الواجب يقضي بتنفيذ القانون على مخالفيه أيا كانوا . . والآن ناولنى يديك لاصافحك . . وانى لمبشرك بأنك ستكون فى يوم ما من الابطال والشجعان المشار اليهم بالبنان . لم يقدم راميرى يده ولم يصافح الكاهن الاعظم لما وقع فيه من الدهش والاختبال ، ولبث صامتاً واجماً حتى طلب آنى منه أن يصافحه بقوله : ما الذى أرى منك الآن مما يخالف قولك انك راض بعاقبة خطئك ؟ ألا تعلم أن من أقدس الواجبات على ابن فرعون البر بالوعد والاقامة على العهد ؟ . . هلم يا بني ! خذ عدتك لمزايلة هذا الهيكل المقدس قبل غروب الشمس . قال الكاهن الاعظم ذلك وولى عن الطلاب بظهره فبدت عليهم جميعاً علامات الجزع والحزن . وقد اجتاز صحن الهيكل فشيعه راميرى بنظره حتى غاب عنه ، وكان قد علا وجهه الاصفرار واضطربت شفتاه ، ورأى أقرانه هذا الجزع فتركوه وشأنه وأمسكوا عن حديثه مكتفين بالنظر اليه فى سكون وانكسار واستخذاء . ولحظ منهم ذلك فعمل على امتلاك مشاعره والاخذ بعنان عواطفه ، ثم بسط يده لأنانا فلبقية أقرانه مصافحاً بعضهم تلو بعض وقال :

هل أنا شقي عابث حتى يقضى علي بالطرد من الهيكل ؟ سيحنق والدى علي بلا ريب إذا بلغ اليه هذا الخبر وذاع سره بين الناس وانتشر . قال أنانا : لعلك لم تنتبه الى أنه بسط لك يده لمصافحتك فلويت عنه عنقك وهي بادرة غير حكيمة لا يصلحها ولا يردها الى مكانها من الصواب سوى المسارعة اليه لمصافحته والاعتذار له وطلب الصفح منه . قال راميرى وقد غلب عليه العناد : كلا ثم كلا ! . .

وقبيل غروب الشمس غادر راميرى بيت سيتى فبارك فيه أمينى وقال له معتذراً عن شدته فى معاملته : ستعلم حينما تأخذ بزمام الحكم ان معاملتى إياك بالشدة لم تكن مما ينافى العدل والحق فى شيء . . ثم أذن لزملائه بمرافقته حتى ضفة النيل ووداعه عندها . أما بنطاؤر فسايره حتى باب الهيكل وزوده النصائح الحكيمة وشيعه بألطف العبارات وأرقها . وما استوى راميرى فى زورقه الذهبي حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، فقال له مربيه وكان جالساً الى جانبه : لعل مولاي الامير يكف عن البكاء . سأل راميرى : وما تعنى بهذا الكلام ؟ أجاب : أظننى لمحت دموعا تتلألأ فى مآقيك . قال راميرى وقد حاول أن يكظم ما به : ان ما لاح لك من الدموع إنما هو دموع الفرح بترك هذا الهيكل الذى حل فيه الغضب مكان الحلم . وفى خلال الحديث بينهما كان الزورق قد بلغ الى الضفة الاخرى ، فهبط الأمير منه البر منشرح الصدر ، ولم ينقل على الضفة بضع خطوات حتى التقي بشقيقته بنت أنات .

الفصل الرابع والعشرون

خيالات زائلة وأوهام باطلة

لا عجب أن نزلت بطيبة الاحياء الكوارث بعد ما وقع بطيبة الاموات ما رويناه من الحوادث. فان راتوتى استيقظت من نومها بعد أن أمضت الشطر الاكبر من ليلها، لا يلتقى لعينيها جفن لما انتابها من القلق والحزن. ولقد دخلت نيفرت عليها بعد هدأة من الليل فاعتذرت عن تخلفها بما قطعته من الوقت الطويل فى مناجاة الاميرة بنت أنات. ثم وضعت جبهتها على ثغر والدتها لتقبلها قبلة المساء. وقصدت هذه بعد ذلك الى حجرتها حيث كان نيمو يشعل المصابيح لأضاءتها، فمر بخاطر راتوتى وقتئذ ما أفشاه هذا القزم من أسرار بعاكر وتسلط الوالى عليه واتخاذه إياه آلة يتصرف فيه على ما يهوى، فأمرته بأن يكشف لها الستار عما خفى من الاسرار فأبى، ولكنها ألحت كثيراً فقال لها إن بعاكر حفظ عنده ما بقي من الماء السحري الذى كانت شربت نصفه الآخر على اعتقاد منها انه ماء قراح. ولو أن نيمو كاشف راتوتى بهذا السر من قبل لطارت شظايا نفسها غضبا وسخطا، ولكنها استلت من قرارة نفسها ما كان كامنا فيها من الحقد، فلما وقفت على جلية الخبر قبحت فعل الموهار ثم سألت نيمو عن الشراب السحري وقوة تأثيره فى نفس شاربه فأجاب: أما

تأثيره يا سيدتى فهو أشد ما يكون فى الافئدة، ولنحمد الاله على أن نيفرت لم تفرغ فى جوفها سوى النصف منه.

اكتأبت راتوتى ولبثت الى ما بعد منتصف الليل لا تستقر على حال لما انتابها من الشجن، فكانت تغدو فى حجرتها وتروح مفكرة فى هيام بعاكر بابنتها وخيانة مينا موثق الوفاء لها، وفيما شهدته بعينيها من تغير أحوال نيفرت فى أقوالها وأفعالها. وما اكتحلت عيناها بالتهويم بعد هذا الأرق حتى فجأتها الاحلام المزعجة والخيالات المرعبة والمرائى المكدرة، وكان جزعها منها يشتد كلما توارد على خاطرها ما شهدته من جفاء نيفرت وقسوتها عليها ومعاملتها إياها بما يدل على تأصل جذور الحقد فى نفسها.

وما لاح الصبح حتى قصدت الى الهيكل ثم عادت فلم تجد ابنتها فى المكان الذى اعتادت تناول الطعام فيه معها. وكانت راتوتى شديدة الميل الى العزلة فى وقت الصبح، فلما رأت أن ابنتها لم تستيقظ بعد من النوم استحسنت ان لا تنبهها منه ثم جلست الى المائدة وحدها. ولكنها ما كادت تأخذ مجلسها حتى انتصبت واقفة وأخذت تستر خبز الحنطة وأكواب النبيذ الفضية بقطعة من نسيج الكتان، وانطلقت بعد ذلك نحو مخدع نيفرت فما كان أشد جزعها لما لم تجدها فى سريرها! ولقد ثابت الى السكينة وهدأ بالها بعد ذلك فقصدت الى الخدم تسألهم عن ساعة خروجها، فأجابوها بأنها ذهبت الى الهيكل قبل طلوع الفجر، فتنفست الصعداء ثم عادت وجلست تحت الظلة.

لم تمض ساعة بعد هذا الحادث حتى أقبل بعاكر يطأ مواقع قدميه اثنان من ارقائه يحملان باقتين مرصعتين بالازهار الزاهية الألوان ، وخلفهما كلب هائل الخلقة من كلاب والده . فتلقته راتوتى بمظاهر العطف والايناس ، اذ خرصت عليه أن الماء السحري الذى وافاها نيمو بخبره قد جاء بالأثر المرجوّ منه ، وهو حبه لنيفرت حباً يتجاوز الظن ويحقق ما فوق المأمول . حقاً انها تبينت أطواره ووقفت على ميوله منذ كان طفلا وعرفت عيوبه ونقائصه ، ولكن استعانته بذلك الماء على استمالة نيفرت مهدت عندها لحسن الظن فيه وأوقعت فى وهمها أن له مع رذائله الممقوتة ، ما يلطفها من المناقب الكثيرة . دع أنها رأت فيه ، بعدما تبين لها من هيامه الاكيد بابنتها صديقاً مخلصاً لها ينصرها على أعدائها ويبذل مهجته فى الذود عنها . وكانت راتوتى تنظر الى بعاكر محددة فيه البصر كما لو أرادت أن تقارن بفكرها بينه ووالده ، فرأت أنها قد وقعت مما أرادته فيما لم يكن فى حسابها ، ولم توفق لما كانت تحب استنتاجه من حسن الظن به وصدق الامل فيه . وثبت عندها ما حملها على تفضيل والده عليه لاستئثاره دونه بالكثير من المناقب العالية والصفات الفاضلة ، فقد كان جميل الطلعة معتدل القوام حسن الشارة بعكس ابنه ، فأنه مع قوة عضلاته ومتانة أساطينه كان قصير القامة يظنه الرائى إذا مشى كرة تتدحرج . ومما انبه راتوتى ولفت نظرها بصفة خاصة شكل يد بعاكر ، رأتها وهو يبحث فى نطاقه عن شيء يظهر أنه كان أخفاه فيه من قبل . وقارنت بينها وبين الموهار السابق

فرأت ان الفارق بينهما عظيم . لأن يد بعاكر كانت شثنة غليظة ينصرف النظر عنها لقبحها بخلاف يد والده فقد كانت تشبه يد المرأة فى حسنها وانفتال أصابعها ، مع قوتها وصلابتها اذا امتشق الحسام وخطف به رؤوس الاعداء وأوردهم موارد الحمام . ولقد خيل لها وهو يفتش فى نطاقه أنها رأت قنينة صغيرة ربما كانت تحتوى ما أعده لابنتها من الماء السحري ، فعلا الاحمرار وجهها وارتعدت فرائصها ولحظ بعاكر منها هذا الاضطراب الذى احتار فى تعليله ، فسألها فى رفق : أبك ألم ، وما ذا يزعجك ؟ هل ورد اليك من رئيس اسطبلات مينا فى هرمونتيس نبأ لا يسر ؟ أجابت : كلا لا هـذا ولا ذاك ، ثم أنه لم يحضر بعد ولم يعرفنى بخبره . قال : لقيت هذ الرجل أمس فالتمس منى أن أدرجه فى سلك جنودى المسافرة قريباً الى بلاد الشام . وقد استخلصت من الحديث معه أنه ناقم عليك لاكراهك إياه على بيع أفراس مينا ، وهي الافراس التى كنت حظياً باشترائها لانها من كرائم الخيل ، وعندى أنه يريد اللقاء بمولاه لتحذيره منك . . ما ذا عراك يا خالتى ولمَ امتقع لونك . . ماذا دهاك ؟

حاولت راتوتى أن تكظم ما كان مستكنا فى صدرها من الغيظ وتصنعت الابتسام ثم قالت مغضبة : أيظن ذلك الابله أن بيت مينا لا يستقر له ركن ولا تقوم له عماد إلا ببقاء الجياد ؟ . . ثم أترضى أن تجعله فى صحبتك وضمن غاشيتك ليحذر مينا منى ويحمسه ضـدى ؟ لم يكن مينا والحمد لله اعشى أو اعمى حتى يستعين بالناس على فتح عينيه .

نطقت راتوتى بهذه الجملة بصوت خافت، فلبث بعاكر فى دهشة هنيهة من الزمن ثم قال: إذا أبطأت نيفرت ولم تعد فليس لى من الانصراف بد. قالت راتوتى: لا لا.. أرجو منك انتظارها فأنها لا تلبث أن تعود، لا سيما وهي لم تتناول طعام الفطور الذى بقى كما ترى، على مقربة منك، مؤلفا من نبيذ وخبز سميذ. على أننى سأدعك وحدك هنا حتى استعلم أعادت أم لم تعد.

ما تحقق بعاكر من خلوته حتى اغتنم هذه الفرصة لقضاء وطره، فانه عمد الى المائدة التى عليها الخبز والنبيذ وأخرج من نطاقه القنينة التى تحتوى الماء السحري، ثم بسط يده بها نحو السماء مستشهداً أباه أوزريس على ما هو فاعل وأفرغ مشمولها فى الكوب حتى كادت تفيض حافاته بالشراب. وما كاد ينتهي من هذا العمل حتى دخلت نيفرت ووالدتها فطمح بصره الى الاولى وهي تتبختر فى تيه ودلّ لم يعهد لهما مثيلا من قبل. ولقد راعه حسنها فلم يتمالك أن تناول باقة الازهار وقدمها اليها وهو يتعثر فى أذياله خجلا وتأثراً بعوامل الهيام فى قلبه. ومما ضاعف الانفعال فى نفسه مشاهدته نيفرت الجميلة مادة يدها اليه لمصافحته. فلما صافحها أشادت بذكره وغالت فى مدحه وحمدت له تفانيه فى محبتها واخلاصه الميل اليها واعطائه المواثيق بالمحافظة على عهده معها، فخيل لصاحبنا وقتذاك ان هذا الانقلاب السريع هو نتيجة تأثير الماء السحري الذى يلين القلوب القاسية وينقش على صفحاتها آيات الحب والهيام.

وبعد المصافحة والسلام دنت نيفرت من المائدة لتتناول طعام الفطور

وأومأت الى بعاكر بالجلوس الى جانبها . وكان هو وراتوتى يرقبان حركاتها ويعيران السمع بتعجب واستغراب الى كلماتها ، وقد انتظرا أن تشرع فى عمل ما فأول ما أتته ان رفعت الكأس الى فمها ولكن لم يكد تلمس شفتيها حتى أعادتها الى مكانها لما عراها من الخجل ، حينما لاحظ بعاكر عليها أنها تفطر فى غير الموعد المألوف ، فقالت له : لقد كنت تعودت الكسل فأحببت أن أخلع عنى شعاره وأمحو عاره فقمت مبكرة من النوم لزيارة الهيكل صبيحة اليوم وأظنك لا تجهل المصاب الجلل الذى دهم الافئدة بموت الحمل ! فيا لعظم هذا المصاب الذى أقلق رجال الكنوت وسبحان الحي الذى لا يموت . على أنه بالرغم من هذه البلايا العظام قد استقبلنى المحترم (بك — ان — شونسو) وفسر لى ما قصصت عليه من الرؤيا فطابت نفسي لذلك وثلج به صدرى . قالت راتوتى عاتبة بلفظ تسبق الى مخارجه الرقة والعذوبة : وكيف أقبلت على زيارة الهيكل دونى ؟ أجابت : أنت عندى أعز علىّ من نفسى وأنت فرحى من الناس كلهم . وما تفردت بزيارة الهيكل إلا ضناً براحتك وحتى لا أزعجك من نومك . ثم قالت بعد ان أمسكت هنيهة : ومع هذا فانك لم تسمحى لى قط بمصاحبتك فى جولاتك الكثيرة بمدينة طيبة ولا فى زياراتك لهيا كلها الفخمة الضخمة .

قالت نيفرت ذلك ثم رفعت بأناملها كأس النبيذ وأخذت تجيل فيه النظر قائلة ؟ أتدرى يا بعاكر ما الرؤيا التى رأيتها فى نومى ؟ انها وحق ولائك لجديرة بالعجب والدهشة . فالحّ بعاكر أن تقصها عليه ،

فوضعت الكأس فى مكانها دون أن تمسها شفتاها وقالت : ان لهذه الرؤيا مساساً بالشجرة التى تراها مغروسة هناك فى الصندوق الكبير والتى أهدانيها من بلاد آسيا المرحوم والدك وأنا ما زلت طفلة . . أطل فيها التأمل ترها قد صارت ممتدة الافنان وارفة الظلال ، لأنى ما برحت أتعهدها بما يكفل نماءها وصونها من الآفات . وهي واقعة الآن من نفسى موقعا اعتبرها معه الشجرة المباركة التى استأثرت بحبي وجدد حسن منظرها فى نفسى ذكرى والدك ، زوج خالتى . فلقيت هذه الكلمات عنده استحساناً لم يعبر عنه بأكثر من إماءة الرضى والموافقة ، غير أنها لم تلبث أن أمسكت عن الحديث اذ رأت خديه قد خالطتهما حمرة الخجل وسمعته يقول : لقد احتدم الحر أفلا تطيب نفسك الى ارتشاف كأس نبيذ مشوب ببعض الماء ؟ فتقبلت منه الكأس التى قدمها وما أصابت منها جرعة حتى اقصتها عن فيها وتقلصت شفتاها تقلصاً دل على ما عراها من الاشمئزاز والنفور ، وان سطعت بهجتها وازداد حسنها بهذه الحركة الفجأية . وكانت راتوتى جالسة من ورائها فألوت نيفرت اليها عنقها وقدمت لها الكأس قائلة : ان لى فى النبيذ شرطا من طعمه ، ولقد أحسست الآن بمرارة فيه جفلت منها نفسى . . ولتوقنى ذلك فأليك الكأس تذوقي منها قطرة . فأخذت راتوتي الكأس من يد ابنتها ووضعت حافتها بين شفتيها متصنعة الشرب منها ، دون أن تذوق شيئاً . وبدا فى وجهها من الامارات ما نمّ على ميلها الى الضحك مما مرّ ببالها وهو أنه اذا شربت من هذا النبيذ الممزوج بالماء السحري فلا

يبعد أن تصبو الى بماكر وتهيم به، وهي تعلم أنه لا يريد من نيفرت بديلا. وكانت عادتها اذا غلبها الضحك عجزت عن مقاومته وصون النفس منه. غير أنها رأت لتعزيز مكانتها وحفظ كرامتها فى نظر ابن اختها أن تملك نفسها وأن تحول بقوة ارادتها دون انبعاث الضحك منها فاعادت الكأس على الفور الى ابنها قائلة: كان ينبغى أن يكون هذا النبيذ أحلى مذاقا وأجود نوعا، على أن حموضته ترطب الجسم فيما يعانيه من الحر الشديد. قالت نيفرت: صدقت. ثم استوعبت الكأس بجرعة واحدة وعادت الى قص رؤياها على بماكر اذ قالت: رأيت أمامي هذه الشجرة، فيما يرى النائم، كما أراها الآن وهاءنذه أستنشق رياها العطر، فدنوت منها. وفيما انا معجبة بمنظرها المونق، إذا بألف سكين تمسكها أيد خفية قد لاحت لى فى فضاء الجو وهي تهوى على أغصان الشجرة وافنانها فتفتتها؛ وما زالت بها حتى سقطت على الارض برمتها واجتثت من بعدها جذعها الضخم الذى كنت أحسب أن طعنات تلك السكاكين لن تعمل فيه. ولم يفزعنى هول هذا المنظر، كلا بل أنه أبهجنى بما كنت أشهده من لمعان الاسلحة وتطاير شظايا الاغصان، وهو ما خيل لى معه أنى أرى فوارة لا يكف الماء عن الانبثاق منها. وما تلاشت تلك الشجرة المباركة ولم يبق منها الا الجذور المتأصلة فى الارض حتى أخذنى العجب، إذ شهدتها تنمو من جديد نمواً يقع تحت الحس. وقد تواصل هذا النمو حتى بلغت الى حجمها الاصلى، فأخذت عندئذ جرة ملأتها بماء المستنقع ثم جئت فرويت به الجذور وقضيت

ساعة فى جلب الماء على هذا المثال حتى أجهدنى التعب . غير أنه مما أثلج صدرى وملأ بالغبطة والسرور قلبى ان رأيت الاغصان قد تكامل نموها واخضرت اعوادها وأن طلعا طلع انبثقت منه ورقة خضراء تلتها ساق لينة أخذت تنمو وتمتد وتتضخم حتى صارت جذعا كبيرا تفرعت منه أغصان صغيرة تحمل أوراقا ناضرة وأزهاراً زاهرة ، بين بيضاء وزرقاء وحمراء . ولما تفتحت أكمام هذه الازهار انحطت على أغصان الشجرة أطيار كثيرة أخذت تغرد تغريداً جميلا وتترنم بصوتها طويلا ، إلا أن ترجيع فؤادى لصدى هذا التغريد كان أجلى ووقعه فى السمع أعذب وأحلى ، ماهو إلا لأنى كنت سبب انقاذ تلك الشجرة من مخالب الفناء واستمتاعها بنعمة الحياة والنماء .

قالت راتوتى ما أحلى هذه الرؤيا ! .. انها تجدد فى نفسي ذكرى أيام طفولتك إذ كنت تقضين الليل فى ابتكار القصص اللطيفة والنوادر المستملحة ، ولكن خبرينى كيف عبر الكاهن لك هذه الرؤيا ؟ قالت نيفرت : قال بصوت شبه اليقين إننى بعد الذى لقيته وألقاه من المحن سيبتسم لى ثغر الزمن وأدخل دوراً جديداً من السعادة أحظى بالحسنى فيه وزيادة . فهمت راتوتى بالوقوف للانصراف وقالت فى تكلف وتعمل : لا تنسى يا ابنتى أن أبا بعاكر هو الذى اهداك الشجرة التى رأيتها فى رؤياك . وقد أمن بعاكر على ذلك بقوله : لقد جاء بها والدى المرحوم من أقاصي الشرق . قالت نيفرت . فى هذا ما يزيدنى غبطة وانشراحاً لانى كنت من والدك بالمكان الاثير وقد أولانى

من برّه وعطفه أكثر ما يولى الوالد ولده منهما . وبعد فهل ما زلت تذكر اليوم الذى انقلب الزورق بنا فيه ونحن نحاول عبور المستنقع فخلصتنى من الغرق وعدت بى الى الشاطىء مغشياً علي ؟ إن انس لا أنسى فى حياتى ذلك اليوم الذى وقع نظرى فيه عليك ، بعد أن افقت من غشيتى ، وأنت ترمقنى بنظرات الحنان والعطف . اه ! ما وجدت فى حياتى مثلك رجلا جمع الى سمو الادراك التحلى بمكارم الاخلاق .

أثار هـذا الكلام فى نفس بعاكر ذكرى تلك الساعة التى كان يحسب فيها أنه أحرز السعادة كلها بوجود نيفرت بين ذراعيه وتقبيله إياها قبلة الهيام الذى استمكن منذ الصغر من فؤاده وقال : صدقت فقد كان والدى يحبك كأحب الناس اليه . قالت : انه لمما يبهجنى ويسرى همى ان يتاح لى الكلام فيه بما يدعو الى تمجيد سيرته والتحدث بفضائله هذا ومما اكم قلبي وأمرّ عيشى أن أرى الروابط بين اسرتينا على غير ما ينبغي لنا الصديق من الوثوق والتوفيق . ولكن الآن وقد انقشعت الغيوم وانقطعت اسباب الهموم وعرفت فيك ما كنت أنكره عليك قبلا من أدب ولطف ورقة وظرف فأنى احمد الاله على هذه النعمة كلما خطرت ببالى أيام الطفولة وتمثلت لناظرى بمظهرها الحقيقى الذى ماعلمت منه الا الآن فقط انك سبب هنائى ، وهل أوثق دليلا على اتصال المودة بيننا من ان كابنك الاكبر (ديكر) لم ينسنى وأنه مابرح كعادته يحوم حولى ويداهننى ويتملق الىّ ؟ فنظر بعاكر اليها نظرة عطف وهيام وقال : نعم ! نعم ! قد كنت وما زلت فى شغاف قلبي .

قالت : ما أجمل حديقتك وأنضر أزهارها وأينع أشجارها . انني أعطيك عهد المحبة وميثاقها أن اتعهد باقتك النضيرة التي أهديتنيها اليوم بما يكفل بقاءها ناضرة مزدهرة أياما عدة . . ذلك لانها تذكرني مابقيت ، ذلك العهد السعيد وما كنا نعلل أنفسنا به فيه من تعلات المنى والاحلام بمستقبل زاهر لا انقضاء له ولا انصرام .

قالت هذا ورفعت الباقة الى شفتيها فلم يتمالك بعاكر وقد هزته عوامل الهيام أن القي بنفسه عليها وأخذ يلثم أناملها فرابتها منه هذه المفاجأة وعملت جهدها للخلاص من بين يديه ولكنه مد ذراعيه يبغي عناقها ، وكان عند ما لامس عودها اللدن قد ارتجفت يداه لشدة ما أحس به من السرور والغبطة . وأنه لكذلك اذا بجلبة بلغ صداها الى أذنه فتسمع لها الاثنان ، وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى أقبل نيمو مهرولا ليخبرها بوصول بنت أنات ، ولم تمض لحظة بعد ذلك حتى لاحت راتوتي تتلوها ابنة رعمسيس .

أما بعاكر فرأى أن يركن الى الفرار كيلا تجد نيفرت من الوقت مجالا للاستياء منه . وما اعتلى مركبته حتى سار بها متيامنا تارة ومتياسراً أخرى كأنه ثمل بنشوة الخمر . ولعله اعتقد أن نيفرت أصبحت بتأثير الماء السحري ، متدلهة في حبه فعقدت النية على موافاتها بالذهب الكثير والخير الوفير . وفي منتصف الطريق ألوى عنان جياده نحو دار الوالي ليتلقى الامر منه بالرحيل الى الشام ، ولسوف يعلم فيها أيهما سيحظى هو أم مينا بنعمة الرعاية من الآلهة العظام .

الفصل الخامس والعشرون

مذكرات الامراء ومحادثات العمال الاجراء

بينا كان قلب نيفرت يتحفز من هول ما شهدته ولسانها يعجز عن الترحيب ببنت أنات والاكرام، كانت هذه الأميرة تحدث راتوتى فيما اعتزمته من اتخاذ ابنتها وصيفة لها وأخذها إياها الى قصرها لتقيم فيه معها على الدوام. وقد وضح لراتوتى من اقوال الاميرة واشاراتها أنها لم تعد تميل اليها كما كانت قبل أن تبث لها نيفرت الشكوى منها. وخشيت أن يفضى هذا الجفاء الى حرمانها الرعاية الملكية وساورتها من أجل ذلك الهموم والاحزان، وزادها هماً على همّ افتكارها فى فراق ابنتها، فلم تتمالك من البكاء ثم جاوبت الاميرة: انك يامولاتى تريدينني على أن انزع قلبي من بين جنبيّ؛ ولكن لا حيلة ولا حول إذ علينا الطاعة ولك الامر والطول.

أومأت بنت أنات بأيماءة الموافقة على هذا القول، واتخذت فى اثنائها أوضاع الشمم والكبرياء، غير أن نيفرت ما كادت تقف على موضوع المحادثة حتى ألقت بنفسها فى أحضان والدتها واسترسلت فى البكاء على وجه هيجت به بكاء بنت أنات، خصوصاً عندما تقدمت راتوتى نحوها وسلمت اليها نيفرت بعد أن قبلتها على جبينها قبلة الوداع. عندئذ صافحتها الاميرة وحيتها بأجمل تحية وظلت معها حتى فرغت من

تسليم ما كان عندها لابنتها من الثياب وأدوات الزينة والتجمل الى اتباعها . ولقد قالت نيفرت لوالدتها فى أثناء ذلك : لا تنسى الصندوق الذى يحتوى الازهار المجففة والاحجبة ودمى الآلهة وسأحمل معى أيضاً الشجرة التى أهدانيها زوج خالتى . وكان الهر الابيض فى خلال هذه الحوادث واقفا عند قدميها يعبث بباقة الورد التى جاء بها كربها وكانت سقطت من مكانها . فلما أحست نيفرت به رفعته عن الارض بيديها فضمته الى صدرها وقبلته بين عينيه كما يقبل العاشق الولهان معشوقه . فلما رأت الاميرة منها ذلك قالت لم لا تأخذين هذا الهر معك ؟ قالت نيفرت وقد احمر وجهها خجلا : كلا لا أريد . فتناولت الاميرة يدها وضغطت عليها ، ثم سألت بعد أن أشارت الى نيمو : وهذا القزم أفلا يأتى معك ؟ قالت نيفرت : كلا لأننى تنزلت عنه لوالدتى . ثم تقدم نيمو فقبل قدميها وطرف ثوبها . وبعد أن عانقت والدتها عناقا طويلا ، خرجت مع الاميرة الى الحديقة ومنها الى قصر رعمسيس .

نظرت راتوتى من حولها فلما لم تجد أحداً قصدت الى المصلى الذى فى دارها وهو يحتوى تماثيل جدود مينا وجدودها فجثت أمام تمثال زوجها وأنشأت تبث له الشكوى لانها وان عز عليها الفراق وتحملت بسببه صنوف المشاق ولكنها أحست بالخلاص من القيود التى تقيدها بها ملازمة نيفرت إياها على الدوام ، وكانت منذ اليوم الماضي أشبه بمسافر أضل السبيل فأخذ يسير على غير هدى حتى بلغ الى هاوية وقف عندها وجلا

حائراً . وانه لكذلك اذا به يسمع همس أعدائه يقتفون أثره ويتآمرون للنكاية به . ولكن شعورها بلذة الخلاص مما انطبع في صدرها من الحزن لفراق بنتها فلم تلبث أن تراءى لها أن الهاوية التى وقفت على حافتها قد تحولت الى سهل منبسط وأن الطريق التى كانت تتلمس الاهتداء اليها قد انفتحت أمامها عريضة الاكناف واضحة المحجة يستبين السائر فيها الغاية التى يجدّ فى الوصول اليها .

وقد عرفت راتوتى بالجلد والصبر وضبط النفس ، ومع هذا فقد انطلقت فى الحديقة تروح وتغدو طافرة طفر الاطفال أو متوثبة توثب الغراب أو كما لو كانت فتاة فى مقتبل العمر تناظر بقوامها اللدن أشجار الاثل مترنحة بخطرات النسيم . وكانت فى بادىء الرأى تبدو الحقائق لها متضاربة يغشاها اللبس والاشتباه ، ثم وضحت لها محجة الطريق فسارت فيه بقدم ثابتة وجأش رابط الى الغاية التى ترمي اليها . ولذا ناجت نفسها بقولها : نعم لقد تحسنت الاحوال وابتسم لى ثغر الزمان وانقادت الآمال فلا بد لى من العمل بلا خوف ولا امهال .

ووصل فى هذه الاثناء ارقاء الملك فتولت راتوتى توزيع ما طلبته نيفرت برسمهم عليهم وأمرت نيمو أن يدعو الوالى الى مقابلتها فى أمر ذى بال . فما مضى القزم قدما فى سبيله حتى لاحت له طليعة ركاب آتى مقبلة على دار راتوتى ، ولم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى كان الاثنان يروحان ويغدوان فى الحديقة . وقد أخذت راتوتي تفضى اليه بما تم من «خطف» ابنتها نيفرت وما عقدت النية عليه من تنفيذ المشروعات

التى ابتكرتها بما دبرته من الوسائل الناجحة . قال آنى : لا عجب فقد عرفنا عنك من شهامة الرجال وثبات الابطال ما لم تتحل به امرأة سواك . وثقى بأن تحريضك اياى اليوم لن يذهب عبثاء فالكاهن الاعظم على أهبة العمل لأول إشارة منى وكذا بعاكر الذى بدأ منذ اليوم بحشد جنوده والتحرك بها بعد غد الى الشام عقب انقضاء الاعياد . سألت راتوتى : وهل حضر اليك بعاكر ؟ أجاب : نعم حضر عقب خروجه من عندك ، وكان خداه يتقدان ناراً ففهمت منه أنه لن يدع جهداً الا بذله لاصابة غرضه وتحقيق أمنيته .

وفى غضون الحديث بلغ الاثنان الى الظلة التى كان نيمو عاد اليها وتوارى خلف بعض الشجيرات ليرقب حركاتهما ويتسمع لحديثهما ، وجلسا على مقربة من منضدة ، وما استقر بهما المقام حتى سأل الوالى راتوتى ان كان نيمو كاشفها بأسرار الساحرة ، فتصنعت الجهل بهذا الامر وتمادت فى انكاره على وجه اضطره الى سرد مسئلة الماء السحرى فلم يرق لها هذا القول بل خرج بها الى ما لا يليق بمثلها فى حنانها ورفقها من الغيظ والغضب . فأخذ الوالى يهدىء روعها ويلطف بها ذاهبا الى أنه ربما كان الماء السحرى الذى ورد ذكره على لسانه عديم التأثير . قالت راتوتى : وقفت الآن على سر ما تناول ابنتى من التغير والانقلاب إذ لا بد أن يكون بعاكر صب الماء السحرى ، فى كأس نبيذها ، فلما جعلت تشرب منها تحولت كراهتها إياه الى محبة ونفورها منه الى ميل وأخذت تحدثه بما كان يحب سماعه من الفاظها العذبة وعباراتها الطلية ،

وكان لا بد لمن هذا شأنها أن تعتقد أن عاشقها الذى كان ممقوتا منها ومن ابغض الناس اليها أصبح محبوبا وأهلا للكرامة . وهو مايستفاد منه أن الماء السحرى كان له من صادق الفعل والاثر ما لم يخطر قط له ببال . سأل آنى : وهل لشراب أن يأتى بمثل هذا التأثير . . المرجح عندى أن تأثيره أشد ما يكون فى الشبان . فاذا أصاب حدسى شاكلة الصواب فلست افهم كيف تستفيد منه الساحرة تلك الارباح الوافرة . ان الشباب وحده كفيل ببث العشق فى القلوب اه . . اه . . ألا ليت الشباب يعود يوما لأكون كبما كر فى فتاء السن وميعة الشباب . . لا تسخرى منى لاسفى على ما فات ، فانى شيخ جعلت تعلتى الامانى المستحيلة وأرجو منك أيتها الصديقة أن تفسرى لى أمراً أشكل فهمه علىّ ، وهو أنى فى عهد الشباب كنت من جمال الصورة بحيث كان النسوة يكبرن من شأنى ويلهجن بذكرى ويتسابقن الى التماس رضائى . وقد اتخذتهن آلة لتنفيذ مشيئتى وقضاء حاجتى ولم استثن منهن واحدة حتى زوجتى التى لبت نداء ربها وهي فى مقتبل العمر . وهاءنذا اليوم أجاهد فى سبيل الاقتران بآنسة لطيفة وخريدة عفيفة تكون من السن بالنسبة الىّ كالابنة من والدها . ولقد اهتديت فى آخر الامر الى طلبتى وبلغت والحمد للآلهة الى غايتى إذ طلبت الاقتران بآنسة من نشاط الشباب وحدة الذكاء بما كنت ارجو معه الاعتماد عليها والركون اليها ، ولكنها واأسفاه لم تجبنى الى طلبي دون أن أقف على سبب . وأغرب ما فى الامر انى مابرحت ، منذ اتصل بى نبأ هذا الرفض ، أشعر

بقلق بالى واضطراب حالى ، الا أننى من الامر قد عقدت النية على أن لا أقتدى ببعاكر فى شراء المياه السحرية لاستميل بها من نأت بجانبها عنى وقاطعتنى وهجرتنى .

سألت راتوتى : لعلك فاوضت بنت أنات فى الزواج . أجاب : نعم فعلت وقد رفضت فى وجهى وأخيلك لاتجهلين استيائى وحزنى . سالت : ولأي سبب نبذتك . . ألست لها كفؤا ؟ أجاب : لأى سبب نبذتنى ؟ . . وهل بنت أنات بحاجة الى تعليل أوامرها وهى على ما تعرفين من كرم المحتد ورفعة القدر والعيش فى ظل (ما) الهة الصدق التى ترمقها على الدوام بعين رعايتها . . ما أسوأ حظى وأجل مصابى ! انى ما قارنت بينها وبيني حتى تضاءلت فى نظرى جلائل أعمالى وتصاغرت أمانيّ وآمالى . ان محن الحياة وتجاريبها قد علمتنى الخشوع والاستكانة بالرغم من سريان دم تحوتمس فى عروقي . الا أنى مازلت أرى الهوان والذلة عذابا . . لم أقض من حياتى يوما كنت فيه قانعاً بحظى ولا مغتبطا بعملى ، لان المناصب التى توليتها كانت دونها قدرتى على الاضطلاع بها . . ترين من هذا انى مقر بعجزى وتجردى من حلية الكفايات ، ولا يغرّنك ابتسام ثغرى فانى أتكلف السرور لا لقصد سوى اخفاء النار المستعرة فى فؤادى . وقد اصبحت اليوم لذلك غيرى بالامس ، اذ صار التصنع لى عادة مألوفة وطبيعة معروفة تغيرت بهما معالم وجهي . ألم أك مضطراً الى خدمة ذلك الذى مابلغ الى ذروة السيادة والعز إلا من طريق أصلى الملكى . . انني لأبغض

وأكمن له الحقد فى قرارة نفسي لا تستطيع أن تستلها منها قوة . . رعمسيس يدعونى يا أخى ولست أدرى أهو صادق فى زعمه أم كاذب . رعمسيس الذى أخلفنى على ملكه فعملت جهدى لهدمه ومحوه . . لقد أصبحت حياتى سلسلة صيغت حلقاتها من مادة الكذب والزور والبهتان . قالت راتوتى : سوف ينقلب هذا الكذب صدقا متى أراد الآلهة أن يراك الناس على ما ينبغى أن تكون اي سيد هذه البلاد ووليّ أمرها . فتبسم آنى وقال : من اتفاق الخواطر أن تمنى الكاهن الاعظم هذه الامنية بما عبرت به الآن عنها من اللفظ ، لكن لا عجب فالكهان والنساء فى اتفاق الخواطر سواء . وهل سلاح الفريقين الا واحد وهو سهام الكلام لاحد الحسام ؟ . . قالت راتوتى : لا أدرى أإذا كان ما تقول مدحاً أم ذما . على أن قوة النساء والكهان لا يجهلها إنسان وهما إذا تعاهدا على أمر وفيا بالعهد . قال آنى ضاحكا : أصبت ! فانه لم تنحدر دموع من عين لسرور أو حزن الا وكان المسبب لها كاهنا أو امرأة . ولست يا راتوتى بهذا الكلام أطلب المزاح ، فالمرأة هي السبب المحدث لتسعة أعشار ما ينزل بالناس من المصائب والمحن . اسوق على ذلك مثلا مسألتنا الحاضرة . . ألست أنت سبب ما يتهيأ لها الآن من المقدمات والمقومات ، ولولاك لعدلت عن مطمعى فى عرش الملك منذ ساعات ، بزواجى بتلك الفتاة المعجبة بنفسها . قالت راتوتى : تريد بكلامك هذا إقامة الدليل على أن المرأة أصلب عوداً وأشد مراساً وأمضى عزما من الرجال ؟ ان يكن هذا ما تبغيه فهو الصواب الذى

لا أعارضه ولا أنفيه ، لان المرأة ان زوجت من أحد سميت ربة البيت والرجل ان قوّس ظهره الهرم أو انقطع عن العمل لعاهة لزمته أو لمرض طال عهده لا يحل الفتية محله فى عمله ولا يدفعون النوائل عنه فى شيخوخته وعجزه، بل الفتيات يقمن بهذا الواجب المقدس . ونحن معشر النسوة ما زال يعيبنا الشيء الكثير من النقص كضعف الجانب والنزق والشغف باستبطان كوامن الاسرار واستقراء أسباب الحوادث . . لذا اسألك عن عذر بنت أنات فى الامتناع عن قبولك بعلا لها ؟ أجاب آنى : أنت من أحوالها على علم كفيل بكشف الغطاء عن الاسرار والوقوف على دفائن الحقائق . ومع هذا فلقد التفيت بها عقب عودتها من الهيكل الذى كان يطهرها فيه من الدنس نبيه الشيخ الخائر العزيمة ، فأنها فى ذلك اليوم أقبلت على تتهادى فى مظاهر جمالها وعزتها وشممها فكان لذلك منها روعة شديدة فى نفسى جعلتنى استشعر بما تلاقى فى ذاتها الشريفة السنية من مزايا الامارة وصفات الملكية وأحسست قلبي يخفق كما لو كنت فى العشرين من عمرى . ولقد أخذت يومئذ تعرض على نظرى أزهارها الزاهية فحدثنى وسواسى بأني ما طمحت الى الاقتران بها الا لنيل مطمع وتحقيق مأرب ، ولكنها إذا لبت ندائي وحققت رجائي فلا مناص لى من اخلاصى الولاء لرعمسيس والدها كصديق بل أخ وأن أكون عونا له فى السراء والضراء . وحسبي هذا باعثا على انحيازى الى جانبه وانضوائى تحت لوائه ، أما إذا لم تجبنى الى طلبي ولم تحقق أمنيتى برضائها عنى بعلا لها ، فلا مندوحة لى

من إثارة حرب استرد بها حقوقي المغصوبة وامتيازاتي المنهوبة . ولقد رأيت في يوم لقائي بها أن الفرصة مؤاتية فكاشفتها بدخيلة نفسي ، فما كان منهـا إلا أن قاطعتني بقولها : أنت في عشيرتك نجمهم الثاقب وبدرهم الطالع ، ومن الشرف وعظيم الخطر في أرفع منزلة وأنت أنت الكفء للاقتران بي ولكن . . فابتدرتها بالسؤال عن سر هـذا الاستدراك . فقالت : لا تسل . ورجت مني الاقتصار على العلم بأن طلبي منهـا مرفوض قطعاً . فاستعطفتها كثيراً وابتهلت اليهـا طويلا فقالت : لا تطل الحديث فيما لا يجدي فأنني أحب غيرك . سألتها عن اسم من تحب فأمسكت عن الجواب . وكنت آنئذ أحس بخفقان شديد في قلبي واضطراب في جسمي مصدرهما بلا شك الحب الذي استعبد نفسي واستأثر بلبي . قالت راتوتي : أراك غيوراً يا آني ولكن أتدري على من ؟ أجاب : كلا ولهذا أحب أن تطلعيني على الحقيقة ، وثقي بأني ان دخلت قصر بنت أنات حيران متردداً غير مستقر على أمر ، فقد خرجت منه والحزم رائدي والعزيمة فيما أنا ماض فيه قائدي ، ولا شك في أن الآلهة ستعاونني على بلوغ المراد . ولقد قابلت في عودتي الى بيتي الكاهن الاعظم أميني والموهار فتعهد أحدهما بتنفيذ تدابيرنا في مصر والثاني في ديار الشام . واذا كان الغد دخلت جيوشي العائدة من الحبشة مدينة طيبة بمظاهر الانتصار وأعـددت لاستقبالها من الحفلات وأقمت من الاعياد مالم يسبق له نظير في الابهة والجـلال . . وستشترك تلك الجنود غدا في الاحتفال بأعياد الوادي فترفع من شأنها

وتبدى من حسنها مايأخذ بالالباب ويقضى بالعجب العجاب . ومتى انتهت تلك الاعياد وانشرحت بها صدور العباد أنفذتها الى الشمال لاحتلال حصون مدائن (تانيس) و (دفنه) و (بيلوز) و (مجدول) . ولا يغيب عنك أن رعمسيس قد أثار فى صدور الكهان كوامن الاضغان ، اذ نظم فى سلك جيشه من اعتادوا من الاهلين موافاتهم بالنذور والقرابين . فاذا أرسلت اليه بنصف الجيش وحجزت هنا الآخر ألقيت بينه وبينهم بذور الاضغان والحزازات فجنيت من ذلك تحقيق الامانى . . وقد اعتزمت تسفير حامية منفيس ، وهى على ماتعلمين من المظاهرة بالعداء لى ، الى بلاد النوبة لأتقى شرها وآمن خطرها . ولما كان سكان طيبة راضخين لاوامر الكهان عاملين دائما بما يرسمونه لهم من الخطط فسيغتنم الكاهن الاعظم فرصة اجتماعهم فى الغد للمقارنة بين الاسرة الملكية التى انتزعت من يدها أزمة الاحكام وبين الاسرة المالكة الآن . ولا يبرح عن بالك أنه طرد من الهيكل الامير راميرى ابن رعمسيس . وهو لن يأذن لبنت أنات فى شهود ماسيقام فى الغد من الحفلات . وبهذه المعاملة التى تحط من مقام الاسرة المالكة تثور خواطر الاهلين وتنفض القلوب من حول هذه الاسرة . ولنا فى موت بعض الحيوانات المقدسة أخيراً خير معوان على قضاء مآربنا ، اذ ما برحت النفوس تحت تأثير الأسف والحزن لهذا الحادث المكدر ، ومعناه انها قابلة للانفعال بغيره من المؤثرات . ولا تنس أن رعمسيس لن يستطيع الاخفاء على أمة الريتاس لتذمر جيشه من استطالة الحرب ، وها قد كاد

التذمر يتحول الى تمرد ومروق عن الطاعة ، فان نجح فى سعيه تحققت الآمال بلا معاناة قتال . ولكن لا مندوحة لنا فى ذلك من الاسراع بالجزم والثبات على العزم . قالت : لم أعد أراك الآن على ما ألفيته فيك من البطء والتوان . قال : إنى إذا طلبت السرعة فما هو إلا لأنى لا أرى من الحكمة إعمال الروية فى مثل ما نحن فيه . قالت : وماذا تفعل لو درى الملك بما تدبره له من الدسائس ؟ قال : هذا ما لا أحب النظر والروية فيه خلافا لعادتى . قالت : لا يسعنى إلا موافقتك على المبادرة والعجلة ولكن لا مناص من اتخاذ الحيطة التى من أهم وسائلها الاستيثاق من وصول رسائلك الى معسكر الملك ، فى الاسابيع السابقة على اليوم المضروب لانفاذ مشروعنا . قال : هاقد وافق خاطرك لثانى مرة خاطر الكاهن ، وهو ما يدل على سداد رأيى وصواب حكمى ، فلقد أوصانى أمينى بما توصينى أنت به الآن ، لأنه ما من كتاب يرسل من خط الحصون الممتد بين (بيلوز) والبحر الاحمر الا ويصادر بأمر الملك رعمسيس . وحيث كان الأمر كذلك فانه لا يصل الى فرعون من رسائلى سوى التقارير التى تتضمن الشكوى من تعديات أهل الصحراء وسلبهم القوافل ومهاجمتهم حملة البريد والعساكر المنوطين بحراستهم . قالت : إذا كان الأمر كما تقول فماذا يمنعك من مراقبة موانى البحر الاحمر وملاحظة حركات الكتاب ومحررى الرسائل ، حتى إذا جلست على تخت الملك ميزت بين أوليائك وأعدائك . قال : ان الحيطة التى تحضيننى على اتخاذها تحرج موقفى ، ولذا كان الأولى ألا أكلف

نفسي استقراء أحوال من يخدمون أميرهم بالأمانة المطلوبة منهم . . ألا ترين أنه من المتعذر التماس المنفعة ممن لم يستحوذ على تمام الثقة أو استبعاد من على شاكلته . . لا تخجلك يا صديقتي هذه الملاحظة فأنا قد ربطتنا ببعضنا آصرة القرابة ورابطة المصلحة . وإذا كشفت لك عن ضميري فليس في ذلك ما يبعث على العجب . قالت : أصبت ولست أطلب من الجزاء لنفسي ما يعدو أن تسترد أسرتنا الكريمة حقوقها الشرعية الموروثة وأن تجلس على عرش الملك من جديد . قال آني : لعلنا نوفق للنجاح في مشروعنا ولكن نجاحنا تعوزه السرعة مقرونة بالثبات والا . . أعينيني ببصرك واسعفيني بتأييد نيفرت ابنتك على معرفة هوية عاشق بنت أنات . فارتعدت فرائص راتوتي لسماع هذا الكلام لأنها لم تأنس من آني مجاوزة الحد في الجرأة، ولكنها تعملت السكون وأخذت تسرد اسماء أشراف شبان طيبة . وقالت : أفلا يكون حبيبها أخاها (ساموس) ؟.. ولكنه بالمعسكر الآن . .

ما بلغت هذه الكلمات الى أذن نيمو وهو قابع في مخبأه حتى برز منه مقبلا على راتوتي، وأقبل يبدو عليه من السكينة والاطمئنان ما يوقع في وهم الناظر أنه آت من الخارج وأنه يجهل ما دار من الحديث بينهما . ثم قال بعد السلام : أتأذنين لي بالكلام ياسيدتي ؟ ان عندي من الاخبار ما يقضي بالعجب . قالت : هات ما عندك . قال نيمو : ذاع على ألسنة العامة أن الاميرة بنت أنات شغفت حباً بشاب من كهنة بيت سيتي . فما كاد نيمو يتم كلامه حتى تحركت في آني عوامل الغضب

وقال : انك لدنيء وقح ! .. وهل عندك من الدليل ما تعزز به دعواك ؟ ان يكن عندك فاذكره والا سللت لسانك من قفاك . قال نيمو : لسانى ملك يمينك فافعل به ما بدا لك ، بل قطعه اربا إذا لم يتأكد لك قولى . . بهذا تقضى القوانين والخضوع لها فرض واجب . . اتصل بك من غير شك ما قرره الكهان من تلوث بنت أنات بالدنس لدخولها بيت المحنط . . فى هذا البيت دارت المحادثة الاولى بينها وذلك الكاهن . أما الثانية فكانت فى هيكل حاتاسو حيث فجأهما سبتاح رئيس المنجمين . لزم آنى الصمت عامداً ثم سأل : ومن هو ذلك الكاهن ؟ أجاب نيمو : فقير لا حسب له ولا نسب ، وقد نظم فى سلك طلبة بيت سيتى رحمة به فحذق العلوم وشهر بالنبوغ والتفوق فيها ، ولا سيما فى تأويل الاحلام وقرض الشعر ، أما اسمه فبنطاؤر . وهو شاب جميل الطلعة تلوح عليه مخائل الشرف والرفعة . ويقول الكثيرون انه بوالد بعاكر أشبه من هذا به ، أفنظرته ؟ أجاب الوالى وقد احفظه هذا القول وغاظه : نعم . قالت راتوتى . ان ما رواه نيمو هو الصحيح ، فقد رأيت بنت أنات قد علا وجهها الاحمرار إذ حادثها شقيقها راميرى فى أمر احتوى ذكر الشاعر بنطاؤر ، فلا ريب أنها كانت تفكر فيه . قال انى : لسوف يبرح الخفاء وتحل المعضلات . ثم خرج مهرولا .

ما اختفي آنى عن الانظار حتى خاطبت راتوتى نفسها بصوت جهير : لقد نهض الدليل اليوم على مضاء عزيمته وشدة عارضته ولكن

صبراً ، فلن تمضي أيام معدودة حتى تدب عقارب الغيرة الى فؤاده فيضطرب باله ويلجأ اليّ ويعول فى أموره عليّ . أما نيمو فقد انطلق راكضاً فى أثر الوالى فادركه بالقرب من أشجار التين واطرق رأسه احتراما وبادر مسلما تكريما وإعظاماً ، ثم قال بصوت خافت : أيهذا الأمير الماجد . . ان لوالدتى دراية تامة بأسرار ذات بال ليس لهما بما كاشفتك به أي اتصال ، وإذا كان اللقلق (١) المقدس لا يعوقه مانع عن خوض المستنقعات الراكدة لالتماس الحشرات المائية يتغذى بها كما لا يعترض الرجل الشريف ما يحول دون التقاطه الذهب الملقى فى القمامة ، أفلا تود أن تتنزل لسؤال العجوز عن تلك الاسرار دون أن تراها ولا تراك ؟ قال آنى : قل ما فى نفسك وأوجز . قال نيمو : أدخل العجوز السجن ، فأن افادتك فائدة فيها خيرك ومصلحتك فأجزها بعض المال واطلق سراحها ، وان لم تفعل فأوجعها ضربا حتى تكاشفك به لأنه سر غريب في بابه . فاعتلى آنى مركبته وقال لنيمو بعد إذ القى عليه بضع حلقات من الذهب : لسوف أنظر فى هذا الأمر .

وكان الناس يتواردون زرافات ووشتى في الطرقات المؤدية الى قصر الوالى حتى غصت بجموعهم . فلما رأى آنى ما هم فيه من هرج ومرج واختلاط واختباط ظن أنهم هبوا للثورة فسار بالمركبة سيراً وئيدا وأنفذ بعض الاحراس ليوافوه بالخبر وينحوا الناس عن طريقه

---

(١) يسمى باللاتينية (ايبس ريليجيوزا) وقد اختفى هذا الطير من مصر وكان منه بها نوعان كانا يقدمان قربانا للاله توت . وقال بلوتارك انه بالنظر لفائدة هذا الطير فى ابادة الحشرات المضرة اقام المصريون الهيا كل لعبادته

فما هي الا فترة قصيره من الزمن حتى عادوا وأخبروه أن لا اضطراب ولا ثورة ولا أخبار تثير الحزن، وإنما هي مظاهر سرور أقامها الاهلون بمناسبة ما سارت به البشائر من ظهور معجزة بيت سيتى ، وهي انتقال قلب آمون الذى مزقه الذئب الخاطف الى صدر النبي رونبي الذى ختم أنفاسه فى اليوم السالف .

ما استقر هذا الكلام فى أذن آنى حتى هبط من المركبة وجثا على ركبتيه بينا كانت الجماهير يصفقون ببعض أيديهم على الأيدى الاخرى استحساناً لفعله ويقتدون به، وبسط نحو السماء يديه ليحمد الاله ويثنى عليه ، ثم وقف بعد ذلك وانصرف متجها صوب القصر الذى خرج منه فى هذه الآونة برهط من العبيد يحملون خبزاً على صحفات كبيرة وأخذوا يوزعونه على الاهلين الذين لهجت السنتهم بالثناء على الوالى وتحدثوا بكرمه وسخائه . فقال نجار من طيبة لواقف بجواره : حقاً ان والينا رجل كريم ، فقد أجزل لنا العطاء من الخبز الطرى ء والطعام الناعم. وكان طفل عاري الجسد من المتشردين قد سمع هذا الكلام فوثب على رغيف الخبز الذى كان صاحبنا يطيل فيه التأمل إعجاباً بطراءته وصفاء مادته ، فخطفه وراغ بين الناس روغان الثعلب ، ثم ظهر فقال : اعطنى منه كسرة صغيرة وأنا أرده اليك . أجاب النجار : آه يا ابن التمساح ويا سلاله البله والحمقى . . ان وقاحة الاطفال من امثالك قد أخذت بالزيادة في هذه الايام . قالت امرأة شهدت الحادث : دعه يا ولدى فالاطفال قد عضهم الجوع بنابه لبقاء آبائهم بميدان الحرب ،

ومن أين للامهات القدرة على إعالتهم وهم لا غذاء لهم ولا قوام لحياتهم غير نخاع شجر البردى وبذور النيلوفر الازرق ؟ قال النجار ضاحكا : ولم لا يداومون على التغذى بها . انظرى لترى الصحاف مملوءة بها . قال صانع أحذية : لا بد أنه قد بات قرير العين مبتهج الفؤاد سروراً بنبأ المعجزة ، لأنى رأيته يجود بالعطايا الكثيرة على وجه لم نألفه من قبل . والمحقق أن هـذا السخاء كلفه مالا طائلا . قال خباز ، لم نسمع بهذا ولم نره منذ زمان ، ولعل الباعث عليه الابتهاج بما كان من اختيار قلب آمون لجثة النبي رونى مستقراً له ، وكان رونى نبياً لهيكل حاتاسو وحاتاسو جدة الوالى آنى . قال النجار : نعم وقد فهمت الآن أن الكهان أنصار للأسرة الملكية القديمة . قال صانع الاحذية : هذا لا يحتاج الى دليـل . . واعتقادى أن الاحوال فى العهد السالف كانت خيراً منها الآن ، لان الحرب غيرت معالم كل شىء حتى أصبح أشراف الناس وأتقياؤهم يسيرون حفاة لأنهم لا يملكون ثمن حذاء . أما أسلاب الحرب وغنائمها فهل رأينا منها الشيء الكثير ؟ ان رعمسيس ابن رع من أبطال الحروب ، الا أنه لا يبرم أمراً ولا ينقضه الا إذا استشار الآلهة . وقد وضح لى الآن انهم يكرهون طيبة لأن قلب الحمل المقدس تخطى النيل وحل صدر كاهن من انصار الاسرة الملكية السابـ . . فقاطعه خوّاص كان حاضراً . حذاريك ! فقد حضر أحـد الاحراس . قال الخباز : استودعكم الله أيها الاخوان فانى عائد الى مخبزى لتهيئة الخبز ، وليس بعازب عليك ما سأعانيه من جراء الاحتفال منذ

الغد باعياد الوادي . فتنفس الحذّاء الصعداء وقال: انى راحل لممارسة حرفتى وأسأل هل منكم من يطيق السير بلا حذاء فى طرقات مدينة الموتى وكيف بغيره يقتفى أثر اله الآلهةورب الارباب؟ قال الخواص : يبدو لى انك كثير الربح . أجاب الحذّاء . هو كذلك كلما اتقن صناعنا عملهم وعجلوا به . . وانى لآسف لوجود المتقنين منهم بميدان القتال ولبقاء الأغبياء العاجزين عن أداء واجباتهم . أما النساء فقد طمحت زوجتى الى اقتناء ثوب جديد للعيد وعقود تحلى بهـا أعناق الاطفال وسيعوزنا الانفاق على القرابين تقدمها للموتى لنستحق عنايتهم الى غير ذلك مما يربو كثيراً على ما أربحه. قال الخباز : لمـا توفيت زوجتى أخذت على نفسى موثقاً بتقديم قربان صغير كلما طلع هلال وقربان كبير على رأس كل عام ، ولكنى لم أحسب حساباً للمستقبل ولم أنظر اذا كنت أستطيع الوفاء بهذا النذر ، فلما رأيتنى عاجزاً عن الوفاء به والتمست من الكهان اعفائى منه لم يحققوا رجائي فما برحت متقلبا فى عنائي . وزاد الطين بلة أن زوجتى الشقية ما زالت وهى فى عداد الموتى تجحد فضلى كما كانت تفعل وهى على قيد الحياة . فانى كلما رأيتهـا فيما يرى النائم ألفيتها عابسة الوجه تريد بي السوء وتحى عليّ باللاوم .

قالت امرأة الخواص : لعلها فى الآخرة أبعد نظراً فى العواقب منها فى الاولى ، أو لعلها عرفت من سابق معاملتك إياها أنك لم تكن لها وفياً صادقاً ، ولا عجب فأرواح السعداء والابرار تحيط بشؤون الحياة الدنيا . قال صانع الاحذية : أقسم بأنوبيس صاحب السماء السفلى

لئن خويرت لاطلبن الموت لنفسى قبل أن تموت زوجتى العجوز التى أوليها الحب والاحترام ، لأنها اذا انتقلت الى الآخرة قبلى وروت على مسامع أهلها كل ما أتيته فى الدنيا ثم تقمصت بشكل مما أميل اليه فستوافيننى كل ليلة لتذيقنى كأس العذاب وتلقى علىّ من الاثقال ما لا طاقة لى بحمله ، فلا يكون من الموت بدّ . قالت المرأة : وإذا قبضت روحك قبلها افتظن أنها تربأ بنفسها عن اقتفاء أثرك لتعلم ماينتهى اليه أمرك ؟ فتبسم الحذّاء وقال : ان يكن الامر كما ذكرت فلا بأس من النظر وقتئذ فى أحوالها الماضية . وانى على ثقة بأن فيها ما يذمها اليّ إلا أننى أخشى ، إذا أنا فاتحتها فى الأمر فخنقت ثم حملت علىّ بحذائها تريد أن تهوى به على رأسي ، أن أقابل هذا الاعتداء بمثله . فأخذت امرأة الخواص بيد قرينها وقالت : هلم بنا الى المنزل إذ لا شيء هنا يفيدك سماعه . فضحك الحاضرون جميعاً لكلامها . وقال الخباز : لقد حانت ساعة الارتحال فأنى أود الوصول الى المقابر قبل أن يولى النهار لأعد مكانا للبيع فى عيد الغد . وقد تركت بضاعتى فى مدخل الوادى ولا بد لى من نقلها . وأرجو منك أن تبعث لى بأولادك لأتحفهم بالحلويات والفطائر . فهل لك فى مرافقتى الى ذلك المكان ؟ قال الخواص : ان أصغر أخوتى هناك يحرس البضاعة . وأرى أن أبادر بالانصراف لأعد المعدات التى ألفت بها نظر المشترين والمشتريات . ولكن أفى النية أن يعرضوا فى الغد قلب الكبش الذى تواطأت به أحاديث الناس ؟ أجاب الخباز : لا خلاف فى ذلك ولا التباس .

فهرست

(الجزء الأول من رواية ورده)

صحيفة

٥ المقدمة والتمهيد

١١ الفصل الأول : وصف مدينة طيبة فى ليلة من صيف سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد

٣٢ الفصل الثانى : بنطاؤر الشاعر

٤٩ الفصل الثالث : ما كان منذ ٣٠٠٠ سنة في غرفة الطبيب وفى عقله

٦٠ الفصل الرابع : أين يتناجى الكهان فى أحوال بني الانسان

٨٠ الفصل الخامس: كيف أدرك بنطاؤر أن الاميرة رقيقة الاحساس والشعور

١٠٣ الفصل السادس: تنازع العشق والسحر

١٢٧ الفصل السابع : خيبة آمال

١٤٨ الفصل الثامن : عادات داخلية وأحوال منزلية

١٧٢ الفصل التاسع : أخبار شؤم من الشام ويوم بؤس من أنكد الايام

١٩٠ الفصل العاشر : قلة مال واضطراب حال

٢٠٥ الفصل الحادى عشر : يحتاج الانسان الى أصغر منه فى غالب الاحيان

٢١٦ الفصل الثانى عشر : استشارة الساحرة الغادرة الماكرة

٢٢٨ الفصل الثالث عشر : العواطف الكريمة فى القلوب الرحيمة

٢٣٨ الفصل الرابع عشر : لاتحرك الثعبان اذا نام ولا الكاهن اذا تناول الطعام

صحيفة

٢٥٥ الفصل الخامس عشر : ربما ارشد الكبير صغير وقاد ذا العينين ضرير

٢٦٨ الفصل السادس عشر : ماوقع من الحوادث والاحوال لأحد الابطال

٢٨٢ الفصل السابع عشر : انقلاب المناقشة الفلسفية الدينية الى مناجاة غرامية

٣٠٣ الفصل الثامن عشر : هبات وعطايا سنية لاغراض ذاتية

٣٢١ الفصل التاسع عشر : حيث يدور الكلام على زوج محظوظ لامن ذوى الافهام

٣٣٠ الفصل المتمم للعشرين : مناجاة بالاسرار عند الراقصات بالاطار

٣٤١ الفصل الحادى والعشرون : فيما دار من المحادثات باحدى الشرفات

٣٦١ الفصل الثانى والعشرون : زيارة للاموات وتعظيم للرفات

٣٨٣ الفصل الثالث والعشرون : كيف استغل الكهان قلب الضان

٤٠٠ الفصل الرابع والعشرون : خيالات زائلة وأوهام باطلة

٤١١ الفصل الخامس والعشرون : مذكرات الامراء ومحادثات العمال والاجراء

فهرست الخطا والصواب

خطأ	صواب	صحيفة	سطر
هجمة فا	هجمة الموت فا	٢٠	٦
اسباب	اسباب	٢٨	١٤
رجاه	رجاه	٣٢	١٨
بيعصهم	بيعضهم	٣٣	١١
ما يتنالونه	ما يتناولونه	٣٣	١٦
تومه	نومه	٣٩	١
تحفزة	تحفزه	٤٤	١٦
استعوزت	استحوذت	٤٥	١٦
تزغات	نزغات	٦٤	١٦
ساءت	ساه	٦٨	٩
زرفات	زرافات	٨٠	١٤
متها	منها	٨٧	١٧
الاونة	الآونة	٩٣	٩
تأثره	تأثرها	١٠٠	١٠
عنده	عندها	١٠٩	٨
فهانه	فانه	١١٢	١١
تفشت	نقشت	١١٩	١٢
غير	غبر	١٢٤	١٧
ماراه	ما رآه	١٣٥	١٣
رقدره	وقدره	١٣٨	٦
ووجهها	وجهها	١٦٣	١٦
جدرانها	جدرانه	١٦٦	١٢
باطفارهن	بأظفارهن	١٧٥	٥
تعيست	تعبست	١٨٧	٨
بنث	بنت	١٩١	١
والدته	والدتها	٢٢٤	٧
يقضى	يغض	٢٢٩	٩
الخلق	هذا الخلق	٢٣٦	٧
فاثر	فآثر	٢٤٨	١٠
صعف	ضعف	٢٥٢	١٥
ولم	ولم	٢٥٨	١٧
غدا	غد	٢٦٩	١١
ظويل	طويل	٢٧٣	١٧
أأبه	أأبه له	٢٧٧	١٢
عينيهما	عينيها	٢٧٨	١٠
والصحة	والصحة	٢٧٩	٥
الاؤه	آلاؤه	٢٨٥	٢
واثرنا	وآثرنا	٢٨٥	٩
متلى	مثلى	٢٩٢	١
بالردهة	بالمردهة	٢٩٣	١
المتها	آلمتها	٣٠٩	١٨
وتائع	وقائع	٣٣١	٨
فيخرج	يخرج	٣٣٤	١٠
ساخة	شاخة	٣٣٦	١٤
وفروسيتها	وافتراسها	٣٣٧	٦
لمثله	لمثله	٣٣٩	١٠
فوقه ق	فوق	٣٥١	٧
فلما الحاغابت	فلما غابت	٣٥١	٩
ووخره	ووخزه	٣٦٣	١
الاسف	الأسف	٣٦٣	١٣
الافاق	الآفاق	٣٦٤	٢
الاخرين	الآخرين	٣٧٦	١٦
الاخرة	الآخرة	٣٧٩	١٤
لبا	قلبا	٣٨٦	٦
هذه	هذا	٣٨٨	٤
الامال	الآمال	٣٩٠	١٢
ازاءها	ازاءهما	٣٩٢	١٥
اخر	آخر	٣٩٥	١٠
مطامه	مطامعه	٣٩٧	١٣
الكنوت	الكهنوت	٤٠٥	٩
تفرغت	تفرعت	٤٠٨	٤
لأبغض	لأبغضه	٤١٦	٢٠

هذا وقد سقطت المدة فى الفاظ (الآن) و (الآلهة) و (آتى) ببعض الصفحات فليتنبه القارىء لها

الاقتصاد السياسي

لجيفونس

أبرزه الى اللغة العربية المغفور لهما على باشا ابو الفتوح وكيل وزارة المعارف سابقا وصالح نور الدين افندى من موظفى المالية سابقا وحضرة صاحب العزة كامل ابراهيم بك المستشار بمحكمة الاستئناف العليا ومحمد مسعود . وهو خير مصنف فى هذا العلم بأجماع الآراء لأنه يزجى قواعده واصوله الى ذهن القارىء دون ان يلقى عناء مافى تفهمها وتبين أسبابها وهو ماحدا بوزارة المعارف الجليلة الى طلبه لبعض مدارسها .

ويقع هذا الكتاب فى ٢٥٦ صحيفة ويحتوى فيما عدا المقدمة وكلمة المعربين فى الاقتصاد ستة عشر بابا تبحث على التابع فى الاقتصاد ، المنفعة ، الانتاج ، توزيع العمل ، رأس المال ، توزيع الثروة ، الاجور ، شركات العمال ، التعاون ، الملكية ، المبادلة ، العملة ، السلفة والمصارف ، أدوار السلفة ، واجبات الحكومة ، الضرائب .

وتلى هذه الابواب نبذ قيمة اقتصادية بقلم المغفور له على باشا ابو الفتوح فى : قانون جريشام ، الاجنبي والعقارات المصرية والبنك الزراعى ، عملة الورق ، المصارف . ثم نبذة بقلم المغفور له الشيخ عبد الكريم سلمان محرر الوقائع المصرية بعنوان : الناس من خوف الفقر فى الفقر .

يطلب هذا الكتاب من محمد مسعود برياسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣ وبالمنزل تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكاتب الشهيرة بالقطر المصرى والثمن ١٠ قروش صحيحه